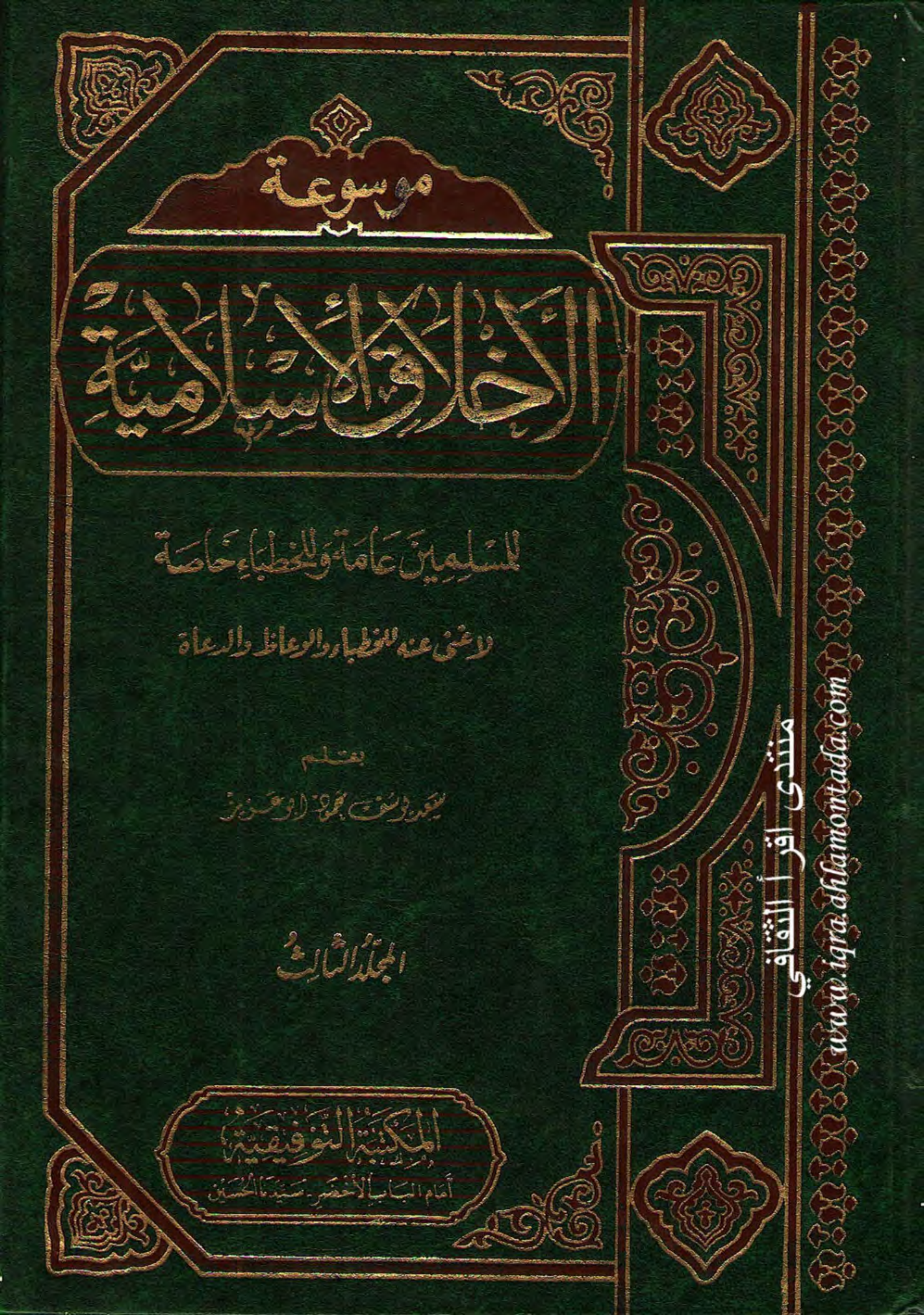

موسوعة
الأخلاق الإسلامية
للمسلمين عامة وللخطباء خاصة
لا غنى عنه للخطباء والوعاظ والدعاة
بقلم
سعيد يوسف محمود أبو عزيز
المجلد الثالث
المكتبة التوفيقية
أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

موسوعة

الأخلاق الإسلامية

للمسلمين عامة وللخطباء خاصة

لا غنى عنه للخطباء والوعاظ والدعاة

بقلم

سعد يوسف محمود أبو عزيز

الجزء الثالث



أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٠٤١٧٥ ٥٩٢٢٤١٠



المكتبة التوفيقية

القاهرة – مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر – سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ – ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt
Add.: In Fornt of the Green Door Of El Hussen
Tel : (٠٠٢٠٢) ٥٩٠٤١٧٥ _ ٥٩٢٢٤١٠
Fax : ٦٨٤٧٩٥٧

إشراف
توفيق شعلان


بسم الله الرحمن الرحيم

٧٣- الخَوْفُ مِنْ سُوءِ الخاتمة

قال الحافظ **ابْنُ رَجب** - رحمه الله تعالى - :

«كان يشتدّ خوف السّلف من سوء الخواتيم، ومنهم من كان يقلق من ذكر السوابق.

وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلّقة بالخواتيم يقولون: بماذا يُخْتَم لنا؟ وقلوب الْمُقَرّبين معلّقة بالسّوابق يقولون: ماذا سبق لنا.

وبكى بعضُ الصَّحَابة عند موته فَسُئِل عن ذلك فقال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«**إنّ الله تعالى قَبَض خَلْقه قَبْضَتين فقال: هؤلاء في الجنّة وهؤلاء في النار**»(١)، ولا أَدْري في أَيِّ القَبْضَتَيْن كنتُ؟.

وقال بعضُ السّلف: «ما أبكى العيون ما أبكاها الكتاب السّابق».

وكان سفيان الثوريّ - رحمه الله - يشتدّ قلقه من السّوابق والخواتيم فكان يبكي ويقول:

«أخاف أن أكون في أُمّ الكتاب شقيًّا»، ويبكي ويقول:

«أخاف أن أُسْلب الإيمان عند الموت».

وكان «مالك بن دينار» - رحمه الله - يقوم طوال ليله قابضًا على لحيته ويقول:

«يا ربّ قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أيّ الدّارين منزل مالك؟».

وقال **حاتمُ الأصَمّ** - رحمه الله - :

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/١٧٦).

« مَنْ خَلا قَلْبه من ذِكْر **أربعة أخطار** فهو مغترّ فلا يأمن الشّقاء:

الأوّل: خطر يوم الميثاق حين قال « الله » : هؤلاء في الجنة ولا أُبالي، وهؤلاء في النار ولا أُبالي، فلا يَعْلَم في أيّ الفريقين كان.

والثاني: حين خُلق في ظُلمات ثلاث، فنادى الْمَلَكُ بالشّقاوة والسّعادة، ولا يدري أَمِنَ الأشْقياء هو أم من السُّعَدَاء.

والثالث: ذِكْرُ هَوْل المطلع، فلا يَدْري أَيُبَشّر بِرَضا الله أَمْ بِسَخَطِه.

والرابع: يَوم يصدر النّاسُ أشتاتًا، فلا يدري أيُّ الطريقين يُسْلك به » .

وقال **سهل بن عبد الله** - رحمه الله - :

« المريد يخاف أن يُبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يُبْتَلى بالكُفْر! » .

ومن هنا كان الصّحابة ومَنْ بعدهم مِن السّلف الصّالح يخافون على أنفسهم النّفاق ويشتدّ قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النّفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرجه إلى النفاق الأكبر.

وقد كان النبي ﷺ كثيرًا ما يقول في دعائه:

« **يا مقلب القلوب ثبت قَلْبي على دينك** » .

فقيل له: يا نبي الله، آمنّا بك، وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟

فقال: « **نعم، إن القلوب بَيْن أُصْبُعَيْن من أصابِع الرّحمن ﷻ يُقَلِّبها كيف شاء** »[١].

وخرج مسلم من حديث عبد الله بن عمرو سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« **إن قلوبَ بني آدم كلَّها بَيْن أُصْبُعَيْن من أصابع الرّحمن ﷻ كَقَلْبٍ واحد يُصَرِّفه حيث يشاء** » ، ثم قال رسولُ الله ﷺ :

« **اللّهُمّ مُصَرّف القلوب صَرّف قلوبنا على طاعتك** » ا.هـ[٢].

---

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد (٣/١١٢)، والترمذي (٢١٤٠).

(٢) « جامع العلوم والحكم » (٦٦).

اسْمَعْ يا مَنْ أبعدته الخَطَايا عنهم، وأخرجته الذّنوبُ منهم، لابدّ والله من قَلَق وحرقة، إمّا في زاوية التّعبُّد، وإمّا في هاوية الطَّرْد.

أما آن لك أن تُحْرِق قلبك بِنَارِ النّدم على التقصير والخوف من سوء المصير، وإلاّ فَنَارُ جَهنّم أَشَدّ حَرًّا.

الْقَلَقَ الْقَلَقَ يا مَنْ سُلب قَلْبُه، البكاءَ البكاءَ يا مَنْ عَظُم ذَنْبُه.

كان **الشّبلي** - رحمه الله تعالى - يقول في مناجاته:

«ليتَ شِعري، ما اسْمي عِنْدك يا علاّم الغيوب، وما أنتَ صَانع في ذنوبي يا غَفّار الذنوب؟! وَبِمَ تَخْتِم لي عَمَلي يا مقلّبِ القلوب؟ ثم يصيح:

قُرَّة عيني، وسرور قلبي ما الذي أَسْقَطَني مِنْ عَيْنِك؟ أَقُلْتَ: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف: ٧٨]؟!»[١].

أخي الحبيب:

تكلمنا عن الخوف من الله تعالى - عمومًا - في غير هذا الموضع، وأشرنا هناك إلى الخوف من سوء الخاتمة إشارة خفيفة، قاصدين أن نفرد للحديث عنها موضوعًا مستقلاً.

هذا، ويمكننا حصر الحديث عن هذا الموضوع في **أربعة أمور**:

الأول: أسباب سوء الخاتمة.

والثاني: علاماتها.

والثالث: أسباب حسن الخاتمة.

والرابع: علاماتها.

والله أسأل أن يرزقنا حسن الخاتمة، وعلاماتها، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.

---

(١) «المواعظ والمجالس» (١٢٤).

أوَّلاً: أسباب سوء الخاتمة:

اعلم أن أسباب سوء الخاتمة لا يمكن إحصاؤها على التفصيل، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها:

أما الخَتْم على الشَّك والجحود - والعياذ بالله تعالى - : **فينحصر في سببين:**

أحدهما: فسادُ المعتقد والتعبّد بالْبِدع حتى الموت:

«فإن أهل البدع هم أكثر الناس شكًّا واضطرابًا عند الموت، وذلك لسوء معتقدهم وفساد قلوبهم، ومرضها بالشّبهات والشكوك، وقد يظهر لهم من معاينة أمور الآخرة عند الموت ما يظهر فساد معتقدهم، وسوء منقلبهم، فيدفعهم ذلك إلى اليأس والقنوط، فأهل السُّنّة هم أكثر الناس ثباتًا على أقوالهم ومعتقداتهم، فالثبات على الحق هو سيما أهل الحق، قال هرقل لأبي سفيان بن حرب، سائلاً عن أصحاب رسول الله ﷺ: هل يَرْتدّ أحدٌ منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطةً له؟

قال: لا. قال هرقل:

«كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب».

فأهل السُّنّة والجماعة هم أعظم الناس صبرًا وثباتًا على أقوالهم ومعتقداتهم وأهل البدع هم أكثر الناس شكًّا واضطرابًا في الحياة وعند الممات»(١).

وكم خُتم لكثير من البشر بالسّوء بسبب سوء معتقدهم، وفساد تعبّدهم.

«فهذا ابنُ الفارض عمر بن عليّ الحمويّ (المتوفَّى سنة ٦٣٢هـ) والذي كان ينعقُ بالاتحاد، ويقول بحلول الله - جلّ وعلا - في مخلوقاته، وأن العبد ربٌّ، والرّبَّ عبدٌ، وعندما احْتُضر كما قال الأئمة الثقّات الذين شاهدوه في حالة الاحتضار نَظَمَ بيتين من الشِّعر وهو في تلك الحالة يعبر فيها عن شقوته وعن هلاكه ويبكي ويقول:

---

(١) «تذكير النفس المؤمنة» للشيخ/ أحمد فريد (٢٧، ٢٨).

إنْ كـان منزلتي في الحبِّ عندكم ما قد رأيتُ ضَيَّعتُ أيّامي
أمنيةٌ ظَفرت نفسي بها زَمَنًا واليوم أحسبها أضْغَاث أحْلامِي

قال ذلك عندما عاين سخط الله - جلا وعلا - وكشف له عن حقيقة أمره، وقلَّ أن يختم لمبتدع في دين الله - تعالى - بالإيمان، ونسأل الله السّلامة والعافية[1].

وأما السبب الثاني: فهو ضعف الإيمان في الأصل، ثم استيلاء حُبّ الدّنيا على القلب:

ومهما ضعف الإيمان، ضعف حبّ الله تعالى وقوى حبّ الدنيا، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحبّ الله - تعالى - إلا من حديث النّفس، ولا يظهر له أثر في مخالفة النّفس والعدول عن طريق الشيطان، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلبُ، ويقسو، ويَسْوَدّ، وتتراكم ظُلْمَة النفوس على القلب، فلا يزال يطفئ ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طَبْعًا ورينًا، فإذا جاءت سكرةُ الموت ازداد ذلك الحب - أي: حبّ الله - ضعفًا لما يبدو من استشعار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدّر عليه من الموت وكراهة ذلك. من حيث إنه من الله، فيُخشى أن يثور في باطنه بُغْض الله تعالى بدل الحبّ، كما أن الذي يحبّ ولده حُبًّا ضعيفًا إذا أخذ ولَدُه أمواله التي هي أحبّ إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحبُّ الضعيف بغضًا، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكًا مؤبّدًا.

والسّبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حُبُّ الدّنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الْمُوجِب لضعف حُبّ الله تعالى ... وَحُبّ الدنيا رأس كل خطيئة، وهو الدّاء العضال. قال تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ

(١) «التحذير من سوء الخاتمة» لعبد الحميد السُّحَيْباني (١٨).

ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤][1].

قال **الحسن** : « بعقوبة آجلة أو عاجلة »ا.هـ[2].

قصّة:

قال الشيخ/ **محمد المحيسني** – حفظه الله – :

« حدّثني أحد الذين يُدَرِّسون في معهد من المعاهد العلمية في بلادنا « السعودية » يقول:

أقسم بالله – ثلاثًا – وليس لي حاجة أن أكذب إنني كُنت مريضًا في أحد المستشفيات، فأُتي بمريض بجانبي في الغرفة التي كنت مطروحًا فيها على السّرير.

يقول: وكان ذلك المريض أصفر اللّون، فإذا به في اليوم التالي ينقلب لونه إلى الحنطي، وفي اليوم الثالث يكون لونه كأمثالنا.

يقول: فقلتُ: لعله قد بدأ يتحسّن.

ولكن للأسف جاء اليوم الرابع فإذا بلونه ينقلب إلى الأسود. وفي اليوم الخامس يشتدّ سواده أكثر فأكثر!!

يقول: فارتعدنا وخفنا من هذا الرجل. وقد كنتُ أعرفه قبل ذلك، كان ممّن يتخلّف عن الصّلوات، وكان ممّن يسافر خارج البلاد، ويتعامل بالمخدّرات ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

اقتربتُ منه وبدأت أقرأ عليه القرآن، فإذا به تخرج منه روائح كريهة منتنة – عياذًا بالله – .

---

(١) انظر: « الإحياء » (٤/٢٥٥).

(٢) « تفسير القرطبي » (٨/٣٢).

يقول: ولَمّا بدأت أقرأ عليه القرآن شهق شهقة عظيمة، فخفتُ وابتعدتُ، فقال لي مريض آخر:

واصل القراءة، فقلتُ: والله لن أقرأ عليه.

قال: اذهب إلى فلان في الغرفة المجاورة، ونادِه ليقرأ عليه، فجاء هذا الشّاب الآخر وبدأ يقرأ عليه. يقول:

فشهق شهقة أخرى عظيمة، وما زال يواصل القراءة عليه حتى شهق للمرة الثالثة شهقة مخيفة، ثم طلبوا الطبيب، فجاء، ووضع السمّاعة على صدره، ثم قال:

لقد مات!!

نعم، لقد مات، وفارق الحياة، وكان له هذه الخاتمة السّيئة»[1].

وأمّا الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار: فلها - أيضًا - سببان:

أحدهما: كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان.

والآخر: ضعف الإيمان وإن قلّت المعاصي.

وذلك لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والعادة، وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذِكْرُه إلى قلبه عند موته، فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره ذكر طاعة الله، وإن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربّما تُقْبض روحُه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي، فَيَتَقَيَّد بها قلْبُه ويصير محجوبًا عن الله تعالى، فالذي لا يقارف الذّنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر، والذي لم يقارف ذنبًا أصلاً فهو بعيد جدًّا عن هذا الخطر، والذي غلبت عليه المعاصي، وكانت أكثر من طاعاته، وقلبه بها أفرح منه بالطاعات، فهذا الخطر عظيم في حَقّه جدًّا[2]. وهذه نماذج تدل على

---

(١) «التحذير من سوء الخاتمة» للسحيباني (٥٢، ٥٣).

(٢) «الإحياء» (٤/٢٥٦).

حال الفريقين عند الموت.

أولاً: من أحوال الصَّالحين عند الموت:

(١) قال أبو إسحاق السّبيعي- رحمه الله تعالى - :

قال أبو سفيان بن الحارث[١] - لمّا حضره الموتُ - لأهله:

« لا تَبكوا عَليَّ، فما تَنَطّفْتُ بِخَطِيئة مُنْذُ أَسْلَمْتُ! »[٢].

(٢) وقال سعيد بن عبد العزيز:

قال بلال رضي الله عنه حين حضرته الوفاة:

« غَدًا نَلْقَى الأَحِبّة، مُحَمّدًا وَحِزْبَه ».

قال: تقول امرأته: واويلاه!

قال: يقول: وَافَرَحَاه![٣].

(٣) وقال محمد بن ثابت البُناني:

« ذَهَبْتُ أُلَقِّنُ أبي[٤] عند الموت، فقال:

« يا بُنَي خَلِّ عَنّي؛ فإني في وِرْدِي السّابع » . كأنّه يقرأ وَنَفْسُه تَخْرج!![٥].

أخي:

أطـــاع الله قَـــوْمٌ فاســـتقاموا ... عـــلى طُـــرقِ الـــوداد فـــلم يـــناموا
ســـقاهم بالصّـــفاءِ كـــؤوسَ وُدٍّ ... فَـــتَاهوا مـــن مَحبَّـــته ونـــاموا

---

(١) أخو النبي ﷺ من الرّضاعة.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « كتاب المحتضرين » (١٣٤).

(٣) نفس المرجع (٢٩٤).

(٤) هو: ثابت البُناني، تابعي جليل، كان تلميذاً لأنس بن مالك، وكان أنس يقول: « ثابت دُوَيْبة أُحِبّها ».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في « كتاب المحتضرين » (١٥٦).

أَنَاخَتْ بهم مطايا الهمّ في رياض الحكم، فهم بأفياء أشجارها يستظلّون، وبنسيم أرواجها يتنعّمون، وفي فلوات الخَلَوات يَسبحون، وبمحبوبهم في وحْدَتِهم يَأْنَسُون.

ثانيًا: من أحوال العُصَاة والطّغاة والمجرمين عند الموت:

(١) عن مالك بن دينار، قال:

دخلتُ على جارٍ لي وهو مريض، فقلتُ:

يا فلان، عاهِد الله أن تتوب عَسَى أن يشفيك

قال: يا أبا يحيى هَيْهات! أنا ميت، ذهبتُ أعاهُد كما كنتُ أعاهدُ فسمعتُ قائلاً يقول من ناحية البيت:

«عاهدناك مِرَارًا فوجدناك كذوبًا!»[1].

يـــا غاديًـــا في غَفْلَـــة ورائحـــا — إلى مـــــتى تَسْتَحْسِـــــن القـــبائحا
وكـــم إلى كـــم لا تَخَـــاف مَوْقفـــا — يَسْـــتَنْطِق اللّـــهُ بـــه الجَوارِحـــا
واعَجَـــبًا مـــنك وأنـــت مُبْصِـــر — كـــيف تَجنَبْــت الطّــريق الواضــحا
كـــيف تكـــون حـــين تَلْقـــي في غـــد — صَــــحِيفة في حَـــوَتْ الفَضَـــائحا
وكـــيف تَرْضـــى أن تكـــون خاسِـــرًا — يـــوم يفـــوز مـــن يكـــون رَابحـــا

(٢) وقال الرّبيع بن برّة:

رأيتُ بالأهواز رجلاً يقال له وهو في الموت:

يا فلان، قل: لا إله إلاّ الله.

قال: ده دوازده، ده شازده، ده جهارده!

قال: ورأيتُ بالشام رجلاً يقال له وهو يموت:

قل: لا إله إلا الله.

---

(١) نفس المرجع السابق (٢٢١).

فقال: اشْرَبْ واسْقه!

وقد قيل لرجلٍ ها هنا بالمعرَّة:

قل: لا إله إلا الله.

فقال:

يــا رُبَّ قائلــةٍ يَوْمًــا وقــد لَغِبــتْ كــيف الطّــريق إلى حَمَّــام مِنْجابِ[1]

اسمع: يا مَنْ كلّما استقام تغيّر، يا مَنْ كلّما سار تعثّر، يا مَنْ كلَّما قام قَعد، يا من كُلَّما تقرّب أبعد، دُمْ على ملازمة الحُزْن، واسْتروح إلى دوام البكاء، وَصِحْ بِصَوتِ القَلَق على باب دَارِ الأَسف، لعلّك تنجو.

ثانيًا: علامات سوء الخاتمة:

لسوء الخاتمة - عياذًا بالله تعالى - علامات، منها:

(١) الأمن من مكر الله تعالى.

(٢) الغفلة عن ذكر الله تعالى.

(٣) النفاق والرّياء وحب السُّمْعة.

(٤) تخبط الشياطين للإنسان عند الموت.

(٥) التسخّط والاعتراض على قضاء الله.

(٦) التلّفظ عند الموت بكلام يدلّ على غضب الله - تعالى - .

(٧) ظهور أحوال عند الاحتضار تدل على عدم الاستقامة.

(٨) ظهور علامات سوء عند الغسل أو بعد الدّفن.

قال صاحب كتاب «**تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان**»:

---

(١) نفس المرجع السابق (٢٤٨).

« حدّثني بعضُ من يغسّل الموتى، فقال: غسلتُ رجلاً، وكان لونه مصفرًّا، وفي أثناء التغسيل أخذ لونه يتغيّر إلى السّواد من رأسه إلى وسطه، فلما انتهيت من التغسيل فإذا به قد أصبح كالفحمة السّوداء!!

وقال: وحدّثني أحد المغسّلين، فقال: غسّلت عددًا كبيرًا من الموتى لسنين طويلة، وأذكر أني وجّهت أكثر من مائة ميّت كلّهم صُرفت وجوهُهم عن القبلة!!»[1].

وقال الإمام **القرطبي** - رحمه الله تعالى - :

«أخبرني صاحبُنا الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد القصري - رحمه الله - أنه تُوفّي بعضُ الولاة بقسطنطينية، فحفر له، فلمّا فرغوا من الحفر وأرادوا أن يدخلوا الميت القبر إذا بحيّة سوداء داخل القبر، فهابوا أن يدخلوه فيه، فحفروا له قبرًا آخر، فإذا بتلك الحيّة، فلم يزالوا يحفرون له نحوًا من ثلاثين قبرًا، وإذا بتلك الحيّة تتعرّض لهم في القبر الذي يريدون أن يدفنوه فيه، فلمّا أعياهم ذلك سألوا ما يصنعون؟ فقيل لهم: ادفنوه معها نسأل الله السّلامة والسّتر في الدنيا والآخرة»ا.هـ[2].

ثالثًا: أسباب حُسْن الخاتمة:

اعلم - **أخي الكريم** - أن لحسن الخاتمة - رزقنا الله تعالى بها - أسباب، منها:

(١) الاستقامة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣].

---

(١) «تذكرة الإخوان بخاتمة الإنسان» لعادل السعيدان (٤٧، ٤٨).

(٢) «التذكرة» (١/١٧٠).

(٢) التقوى:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

قال الشيخ/ **أحمد فريد** - حفظه الله - :

« وعد الله ﷻ أهل التقوى بالمخرج من كل ضيق، فقال - تعالى -: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢].

ولا شكّ أن العبد في حال السّكرات في شدّة وَحَرَج، والمخرج والنّجاة: في الذّكر والطّاعة والنّطق بكلمة التوحيد » ا.هـ.

(٣) حسن الظن بالله تعالى:

فعن جابر ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ قبل موته بثلاث يقول:

« **لا يَمُوتنّ أَحَدُكم إلاّ وهو يُحْسِن الظّنَّ بالله** »[1].

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ دخل على شابّ وهو في الموت، فقال له:

« **كيف تَجِدك؟** ».

قال: أرجو الله، وأخاف ذنوبي.

فقال رسولُ الله ﷺ :

« **لا يَجتَمعان في قَلْب عَبْدٍ في مِثل هذا الموطن إلاّ أعطاه اللّهُ ما يَرْجُوه، وَأَمَّنه مِمَّا يَخافَ** »[2].

قلت: لهذا استحبّ السَّلف الصّالح الحديثَ بِسعة رَحْمَة الله - تعالى - عند الموت:

---

(١) رواه مسلم (١٧/٢٠٩)، وغيره.

(٢) **حسن**: رواه ابن ماجه (٤٢٦١)، وانظر: « الصحيحة » (١٠٥١).

عن المعتمر بن سليمان التيمي: قال أبي حين حضرته الوفاةُ:

« يا معتمر حدّثني بالرُّخَص لَعلّي أَلْقَى الله وأنا حَسَن الظّنِّ به ».

(٤) الصِّدق:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

فمن كان معه الصِّدْق أوصله إلى حضرة ذي الجلال، وكان سببًا في حُسْن خاتمته وطيب المآل، وليس بعد الاتصال انفصال.

حكاية:

رُئي « **النّصْرآباذي** » - رحمه الله - بعد وفاته ، فقيل له:

ما فَعل اللّهُ بك؟

قال: عوتبتُ عِتاب الأشراف، ثم نوديت:

يا أبا القاسم أَبَعد الاتّصَال انْفِصَال؟

فقلتُ: لا يا ذا الجلال.

(٥) التوبة:

قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

وقال رسولُ الله ﷺ:

« **إنّ الله ﷻ يَقْبل توبةَ الْعَبْد مَا لَمْ يُغَرْغِر** »(١).

إخواني:

قد دعاكم إلى النجاة مولاكم، وفتح باب الإجابة وناداكم، ودلّكم على منافعكم

(١) **صحيح** رواه الترمذي، وغيره، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

وهداكم، وَحَثّكم على البدار رفقًا بكم بقوله:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

للّه دَرُّ أقوام بادروا الأوقات، واستدركوا الهَفَوات، شغلوا العيون بالدّموع عن النّظر إلى المحرّمات، وَسَجَنُوا الألْسُنَ فِي سِجْن الصَّمت عن موارد الهَفَوات، وكفّوا الأكف عن تناول شهوات، وقيدوا الأقدام عن السعي إلا إلى الطاعات، إن غشيهم الليلُ ضجّوا بالأصوات في الخلوات، وإن أقبل النّهار قطعوه بمقاطعة اللّذات، أفيطمع في لحاقهم من عرى عن هذه الصّفات ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [الجاثية: ٢١].

(٦) الخوف من سوء الخاتمة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**قال الله تعالى: وعزّتِي وَجَلالي، لا أَجْمَعُ لعبدي أَمْنَيْن ولا خَوْفَيْن، إن هو أَمِنَني في الدُّنيا أَخَفتُه يَوْمَ أَجْمَعُ عِبادي، وإن هو خَافني في الدّنيا أَمَّنْتُه يَوْمَ أجمعُ عِبادي**»[١].

(٧) الصّدقة:

قال ﷺ: «**صنائِعُ الْمَعْرُوف تَقِي مَصَارِعَ السُّوء**»[٢].

قصّة:

عن مصعب بن عثمان، قال:

«كان عبد الرحمن بن أبان يشتري أهل البيت ثم يأمر بهم فيكسون ويذهبون، ثم يعرضون عليه فيقول:

أنتم أحرار لوجه الله، أستعين بكم في غمرات الموت. قال:

---

(١) حسن: رواه أبو نعيم في «الحلية»، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٤٣٣٢).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر: «صحيح الترغيب» (٨٨٠).

فمات وهو قائم في مسجده!»[١].

رابعًا: علامات حسن الخاتمة:

هناك علامات يُستَدلّ بها على حُسْن الخاتمة، فأيّما مسلم مات بإحداها كانت بشارة له، من هذه العلامات:

(١) النطق بكلمة التوحيد قبل خروج الرّوح:

قال ﷺ:

«مَنْ كَان آخر كَلاَمه «لا إله إلا الله» دَخَل الجنّة»[٢]

(٢) الموت برَشْح الْجَبين:

قال ﷺ:

«مَوْتُ الْمُؤمن بِعَرَق الْجَبين»[٣]

(٣) الموت ليلة الجمعة أو نهارها:

قال ﷺ:

«مَا مِنْ مُسْلِم يَمُوت يَوْمَ الْجُمُعة أو لَيْلَة الْجُمُعة إلاّ وَقَاه اللّهُ فتْنَة القبر»[٤].

(٤) الاسْتِشهاد في سَاحَة القتال:

قال ﷺ:

«للشّهيد عنْد الله ستّ خصَال: يُغْفَرُ له في أَوّلُ دُفْعة من دَمه، ويَرَى مَقْعَده من الجنّة، وَيُجَار من عذابِ القَبْر، ويأمن الفَزَع الأَكْبَر، وَيُحَلّى حلْيَة الإيمان، وَيُزَوَّج مِنَ الْحُور العين،

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (١٢٢/٧).

(٢) حسن: رواه أبو داود، وغيره، وانظر: «الإرواء» (٦٨٦).

(٣) صحيح: رواه أحمد (١٣٨٤)، وغيره، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٤) حسن: رواه أحمد (٦٥٨٢)، والترمذي (١٠٧٤).

وَيَشْفَعُ فِي سَبْعِين إنْسَانًا مِنْ أقاربه»[١].

(٥) الموت بالغرق.

(٦) الموت بالهدم.

(٧) الموت بالبطن.

(٨) الموت بالطاعون.

يدلّ على ما تقدّم: قوله ﷺ :

« الشّهُداء خَمْسة: الْمَطْعون، والْمَبْطُون، والغرق، وصاحب الهَدْم، والشهيد في سبيل الله »[٢].

(٩) الموت غازيًا في سبيل الله.

(١٠) الموت في سبيل الله.

(١١) الموت لَدْغًا.

يدلّ على ذلك: قوله ﷺ :

«مَنْ فَصَل – أي خرج – **في سبيل الله فمات أو قُتل فهو شهيد، أوْ وَقَصَته فَرَسُه، أو بَعيرُه، أو لدغته هَامةٌ[٣]، أو مات على فِراشه بأي حَتْفٍ شاء اللّهُ فإنه شهيد، وإن له الجنّة »[٤].**

(١٢) مَوت المرأة في نفاسها.

(١٣) الموتُ بِداء السُّلّ.

قال ﷺ :

« القتلُ في سبيل الله شهادة، والنُّفَساء شهادة، والحرق شهادة، والغرق شهادة، والسُّلّ

(١)**صحيح** : رواه الترمذي (١٦١/٧)، وغيره.

(٢) رواه البخاري (٥٠/٦)، ومسلم (١٩١٤).

(٣) الْحَشَرة.

(٤)**حسن** : رواه أبو داود، والحاكم، وحسّنه الألباني.

شهادة، والبطن شهادة»[١].

(١٤) الموت في سبيل الدفاع عن المال.

(١٥) الموت في سبيل الدفاع عن العرض.

(١٦) الموت في سبيل الدفاع عن النفس.

ويدلّ على ذلك: قوله ﷺ:

«مَنْ قُتِل دون مَاله فهو شهيد، ومن قُتِل دون أَهْله فهو شهيد، ومن قُتل دون دِينه فهو شهيد، ومن قُتِل دون دَمِه فهو شهيد»[٢].

(١٧) المائد في البحر:

والمائد في البحر: هو الذي يموت بسبب دوار البحر.

عن أم حرام - رضي الله عنها - قالت:

قال رسول الله ﷺ:

«المائِدُ في الْبَحْر الذي يصيبه القَيءُ له أجْرُ شهيد، والغريقُ له أَجْرُ شَهِيدَيْن»[٣].

(١٨) مَنْ قام إلى إمام جائر، فأَمَره بِمَعْروف فقتله:

قال ﷺ:

«سَيِّدُ الشَهداء: حَمْزَة بن عبد المطلب، ورجلٌ قام إلى إمام جائر، فأَمَره ونَهَاه، فَقَتله»[٤].

(١٩) من سأل الشهادة بصدق ومات على ذلك:

قال ﷺ:

«مَنْ سألَ الله الشّهادة بِصِدق، بَلَّغَة اللّهُ مَنَازِل الشهداء، وإن مات على فراشه»[٥].

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» وفيه «مندل بن عليّ» فيه كلام كثير، وقد وثّق، والحديث له شواهد.

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٧٤٦)، والترمذي (١٤٢١)، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٦٤٢).

(٤) **حسن**: رواه الحاكم، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٦٧٥).

(٥) رواه مسلم، وغيره.

(٢٠) الموت مُرابطًا في سبيل الله تعالى:

قال ﷺ :

« **كُلّ مَيّت يُخْتم على عَمَله إلاّ الذي مات مُرَابطًا في سبيل الله، فإنه يُنمّي له عملهُ إلى يوم القيامة، ويأمن فِتْنَة القبر** »[١].

(٢١) الدعوة إلى السُنّة وقت انصراف الناس عنها:

قال ﷺ :

« **إنّ مِنْ وَرَائكم زمانَ صَبْر، للمتمسّك فيه أَجْرُ خمسين شَهيدًا منكم!** »[٢].

(٢٢) الموت عقب عمل صالح:

عن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **إذا أراد اللّهُ بِعَبْدٍ خيرًا استعْمَله** ».

قيل: كيف يستعمله؟

قال: « **يُوَفِّقه لعملٍ صالح قَبْل الْمَوْت، ثم يَقْبضه عليه** »[٣].

(٢٣) الموت بالمدينة المنَوَرة:

قال ﷺ :

« **مَنِ اسْتَطاع أن يَموتَ بالمدينة فَلْيَمُتْ بها، فإني أشفع لمن يموتُ بها** »[٤].

هذه بعض العلامات الْمُبشِّرة برحمة الله تعالى، إذا أصابت عبدًا، أو أصابها عبدٌ فهنيئًا له.

---

(١) **صحيح** : رواه أبو داود، وغيره.

(٢) **صحيح** : رواه الطبراني في « الكبير »، وانظر: « الصحيحة » (٢/٣٦٨).

(٣) **صحيح** : رواه أحمد، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٣٠٥).

(٤) **صحيح** : رواه أحمد، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٥٨٥٤).

بُشْرى:

اعلم - **أخي المسلم** - أن البدايات تحكى النهايات، ومن أشرقت بداياتُه، أشرقت نهاياتُه:

والله - تعالى - يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

وسوء الخاتمة لا يكون - بحمد الله - إلا لصاحب خبيئة سوء، وعمل خبيث، أما من صلح باطنه، واستقام ظاهره فهو بعيد - إن شاء الله - عن هذا المصرع الوبيل.

وقد فُسّر حديث: «**إن أحَدكم لَيَعْمَل بعمل أَهْل الجنة حتى ما يكون بَيْنه وبينها إلاّ ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْه الكتابُ، فَيَعْمَلُ بعَمِل أَهْل النّار فَيَدْخُلُها، وإن أحَدكم ليعمل بعمل أهَلِ النّار حتى ما يكون بَيْنَه وَبَينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها**»[1]. بحديث آخر يوضّح معناه، ونصّه كما في «الصّحيحين»:

عن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ الْتقى هو والمشركون، وفي أصحابه رجل لا يدع شاذّة ولا فاذّة إلا اتبعها يضربها بسيفه فقالوا:

ما أجزأ منا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان، فقال رسولُ الله ﷺ :

«**هو من أهل النار!**».

فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحبه، فاتَّبعَته، فجرح الرّجلُ جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه على الأرض، وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجلُ إلى رسولُ الله ﷺ فقال:

«أشهد أنّك رسول الله»، وقصّ عليه القصّة، فقال رسول الله ﷺ:

«**إنّ الرّجُلَ ليعمل بعمل أَهْل الجنّة فيما يَبْدو للنَاس وهو مِنْ أهْل النار، وإن الرجل**

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (١/ ٢٦٤٣).

ليعمل بِعَمِلِ أهْلِ النّار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة » زاد البخاريُّ رواية:

« **إنّما الأعمال بالخَوَاتيم** »[1].

قال الحافظ **ابن رجب** – رحمه الله تعالى – :

« وقوله ﷺ: « **فيما يبدو للناس** » إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وإن خاتمة السّوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إمّا من جهة عمل سيّئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفيّة توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار، وفي باطنه خصلة خفيّة من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصْلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة » ا.هـ[2].

مِسكُ الختام:

إلهي فلا تَهْتِك ذُنوبًا سَتَرْتَها — فأنت رءوف بالعباد رحيم

إلهي ولا تَحْرق بنار جهنم — نُفوسًا رَجَتْ عَفْوًا وأنت كريم

إلهي وأدخلنا مع الزّمْرة التي — مَثُوبتها يَوْمَ الجزاء عظيم

يا رب.



(١) رواه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢/١٧٩).

(٢) « جامع العلوم والحكم » (٦٥).

٧٤- الرَّجَاء

الرَّجَاءُ: حَادٍ يَحْدُو القلوبَ إلى بِلَادِ المحبوب، وهو اللَّهُ والدَّارُ الآخِرَةَ، وَيُطَيِّبُ لها السَّيْرَ.

وَلَوْلا رُوح الرَّجاء لعطِّلت عُبودية القَلْب والجوارح، وَهُدِّمَتْ صَوامِع وَبِيَعٌ وصَلَواتٌ وَمَسَاجد يُذْكَر فيها اسْمِ الله كثيرًا، بل لَوْلا رُوح الرَّجَاء لما تَحرَّكتِ الجوارحُ بالطَّاعة.

▫ قال **سُفيانُ** - رحمه الله - :

« مَنْ أَذْنَب ذَنْبًا فَعَلِمَ أن الله - تعالى - قَدَّرَه عليه، وَرَجا غُفْرَانَهُ، غَفَرَ اللَّهُ له ذَنْبَهُ » .

▫ وكان **الرّافعيُّ** - رحمه الله - يقول:

إذا أَمْسَى فِراشي مِنْ تُراب … وَصِرْتُ مُجَاوِرَ الرَّبِّ الرّحيم
فَهَنُّوني أحْبابي وقولوا … لك الْبُشْرى قَدمْتَ على كَرِيمِ

▫ قال الإمام **الغَزالِيُّ** - رحمه الله - :

« إن الرّجاء والخوف جَنَاحان بهما يطير المقرّبون إلى كُلّ مقام محمود، وَمَطِيَّتَان بهما يُقْطَعُ من طُرُق الآخرة كُلُّ عَقَبةٍ كَئُود » ا.هـ[1].

لذلك، فحديثي إليك **أيها الأخ الكريم** على السطور التالية يدور حول هذا الخُلُق العظيم « **خُلُق الرّجاء** » ويرتكز الحديث على:

الأوّل: تعريف الرّجاء.

والثاني: الفرق بين الرجاء والتمني.

والثالث: فضل الرجاء والحث عليه.

والرابع: اشتراط العمل مع حسن الرجاء.

---

(١) « الإحياء » .

والخامس: من قصص أهل الرَّجاء.

والله أسأل أن يوفّقنا لما يُحبّ ويرضى.

أوّلاً، تعريفُ الرَّجاء :

الرجاء في « **اللّغة** »: الأمل: فهو ضد اليأس، يقال: رجوت الأمر، وأرجوه، وارتجيته، وأرتجيه، وترجّيته: إذا أملته[١].

وهو في « **الاصطلاح** »: تأمل الخير وقرب وقوعه، وفي « الرسالة القشيرية »:

الرّجاء: تعليق القلب بمحبوب في المستقبل.

وقال الإمام **ابن القيّم** - رحمه الله - :

الرّجاء: هو النّظر إلى سعة رحمة الله.

وقيل: هو الاسْتِبْشَار بجودِ وفَضْلِ الرَّبِّ - تبارك وتعالى - والارْتِياح لمطالعةِ كَرَمِهِ.

وقيل: هو الثّقة بجود الرّب تعالى.

وقال **الراغب**: الرّجاء: ظنٌّ يَقْتَضِي حُصولَ ما فيه مَسَرَّةٌ.

وقال **المناوي**: الرّجاء: تَرَقُّبُ الانْتفَاع بِمَا تَقَدّم له سَبَبٌ ما[٢].

ثانيًا، الفرقُ بَيْن الرَّجَاء والتَّمَنِّي:

والفرقُ بَيْنه وبين التّمنِّي: أن التّمني يُصَاحِبه الكَسَل. ولا يسلك صاحِبُهُ طريقَ الجدّ، والرَّجَاء على الضّد من ذلك. ومن الوجهة اللُّغَوية فإنَّ أَدَاةَ الرَّجَاء « **لَعَلَّ** » وأداة التَّمني « **لَيْتَ** ».

كما أن الرّجاء يفيد إمكان الوقوع بخلاف التّمني الذي يُفِيدُ تَعَذُّر الوقوع أو استحالته[٣].

---

(١) « المصباح المنير » للفيومي (١/٢٣٧).

(٢) « مدارج السالكين » (١/٣٧)، و« المفردات » للرّاغب (١٩).

(٣) « مدارج السالكين » (١/٣٧).

ثالثاً: فَضْلُ الرّجاء والحثّ على التخَلُّق به:

جاءت الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية تحثّ على التَّخَلُّق بِخُلُق «**الرّجاء**»، وتَحَضُّ عليه:

فمن آيات القرآن:

(١) قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الرعد: ٦].

فهذه الآية تدلّ على عظيم عفو الله، وسعة رحمته بعباده إن تابوا عن ظُلْمهم، ورَعَوا عن غيِّهم.

ولذلك قال **ابن عباس** – رضي الله عنهما –: «أنها أرْجَى آية في كتاب الله تعالى»[1].

(٢) وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

جاء عن عليّ ﷺ أنه سأل أصحابه عن أيّ آية في القرآن أوسع؟

فجعلوا يذكرون آياً من القرآن:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]. أو نحوها، فقال عليٌّ ﷺ

ما في القرآن آية أوسع من: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ »[2].

وجاء عن ابن مسعود ﷺ أنه قال:

«إن أكبر آية في القرآن فرحًا آية سورة الغرف – يعني الزّمر – : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ

---

(١) «تفسير القرطبي» (٩/٢٨٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «حسن الظن بالله» (٦٩).

﴿ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ »ا.هـ[١].

فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين.

وقد كان بعض السّلف يتأوّل هذه الآية، ويدعو:

« اللّهم أدْخِلْ عظيمَ جُرْمِنا في عَظيم عَفْوك ».

ومن الأحاديث:

(١) عن أنس بن مالك ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« **قال اللّهُ: يا ابْنَ آدم، إنّك ما دَعْوتَني وَرَجَوْتَني غفَرْتُ لَكَ على ما كان منك ولا أُبَالي، يا بْنَ آدم، لو بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنَانَ السَّمَاء ثُمَّ استغفرتَني غَفَرْتُ لَكَ ولا أُبالي، يا ابْنَ آدم، إنّك لو أَتَيْتَني بِقُراب الأرضِ خَطايا ثم لَقِيتَني لا تُشْرِكْ بي شَيْئًا لأَتَيْتُك بقُرَابِها مَغْفِرةً** »[٢].

(٢) وعنه ﷺ أن النبي ﷺ دخل على شابٍّ وهو في الموت، فقال:

« **كَيْفَ تَجِدُك؟** ».

قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخافُ ذنوبي.

فقال رسولُ الله ﷺ :

« **لا يَجْتَمعان في قَلْب عَبْدٍ في مِثل هذا الموطن إلاّ أعطاه اللّهُ ما يَرْجُو، وآمَنَهُ مِمَّا يَخَاف** »[٣].

(٣) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

(١) نفس المرجع (٧٠).

(٢) حسن: رواه الترمذي (٣٥٤٠)، وقال: حديث حسن، وهو كما قال.

(٣) جيد: رواه الترمذي (٩٨٣)، وقال: حديث حسن غريب، وقال النووي: إسناده جيد.

«لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْق كَتَب في كِتابه، فهو عنده فَوْق الْعَرْشِ: إن رَحْمَتي غَلَبْت غَضَبي»[١].

(٤) وعن أبي بُرْدة عن أبيه - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال:

«يَجيءُ يَوْمَ القِيامَة نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمين بذنوبٍ أَمْثالِ الجِبالِ فيغفرُها اللّهُ لهم وَيَضَعُها على اليهودِ والنَّصَارى»[٢].

(٥) وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«مَنْ لَقِي الله لا يُشْرِكُ به شَيئًا دَخَلَ الجَنَّة، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ»[٣].

والأحاديث في هذا المقام كثيرة، وقد ذكرنا كثيرًا منها في صفات: «التوبة» و «حسن الظن بالله» و «الحِلْم» و «العفو» فراجعها إن شئت.

رابعًا: اشتراطُ الْعَمَل مَعَ حُسْنِ الرَّجاء:

اعلم - **أخي المسلم** - أن التَّخَلّق بخُلُق «الرّجَاء» لا يعني الانسلاخ من أوامر الإسلام، والتفلّت من أحكامه كما يظنّ البعض، إنّما الرّجاء يأتي بعد حُسْن العمل:

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فتأمّل كيف جعل رجاءهم مع إتيانهم بهذه الطاعات؟ فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حِكْمةُ الله تعالى، ولو أن رجلاً له أرض يؤمل أن يعود عليه مِنْ مُغلها ما ينفعه، فأهملها، ولم يحرثها ولم يبذرها، ورجا أنه يأتي من مغلها مثل ما يأتي مَنْ حَرَثَ وَزَرَع وَتَعَاهَدَ الأرض، لَعَدَّهُ النّاسُ من أَسْفَه السُّفَهاء! وكذا لو رَجَا وَحَسُنَ ظَنّه

(١) رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٦٧).

(٣) رواه مسلم (٩٣).

أن يجيئه ولدٌ من غير جماع! أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام! وأمثال ذلك. فكذلك من حَسُنَ ظَنُّه، وَقَوي رجاؤه في الفوز بالدّرجات العُلى والنّعيم المقيم من غير طاعة، ولا تقرّبَ إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وَمِمّا يَنْبغي أن يُعْلَم أن مَنْ رَجَا شيئًا اسْتَلْزَم رَجَاؤه **أمورًا**:

أحدها: محبّة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأمّا رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأمانيّ، والرجاء شيءٌ، والأماني شيء آخر. فكلّ راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السّير، مخافة الفوات[1].

(٢) وفي «المسند» والترمذيّ عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

قالتُ: يا رسول الله، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، هو الذي يَزْني ويشرب الخَمْر وَيَسْرِق؟

قال: «**لا، يا ابنة الصِّدِّيق، ولكنّه الرّجل يصوم ويصَلّي ويتصدّق ويخاف أن لا يُقْبل منه**»[2].

قال **الحسن** – رحمه الله – :

«عَملوا – والله – بالطّاعات، واجْتهدوا فيها، وخافوا أن تُرَدّ عليهم، وإن المؤمن جمع إحْسَانًا وخشية، والمنافق جمع إسَاءة وأَمْنًا» ا.هـ.

(٣) قال **شَاهُ الكرماني** – رحمه الله – :

«عَلاَمة صِحّة الرّجاء: حُسْن الطّاعة».

---

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) **حديث حسن**: انظر: «الصحيحة» (١٦٢).

(٤) وقال الإمامُ **ابن القيم** - رحمه الله -:

«أجمع العارفون على أن الرّجاء لا يصحّ إلاّ مع العمل» ا.هـ[(١)].

(٥) وقال الإمام **ابن عطاء الله السكندري** - رحمه الله - :

«الرَّجَاء ما قَارنه عَمَلٌ وإلاّ فهو أُمْنِيَّةٌ» ا.هـ[(٢)].

(٦) وقال الإمام **الغزاليُّ** - رحمه الله - :

«الرّجاء بعد تأكّد الأسباب... فأمّا من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى، ولا يذمّ نفسه عليه، ولا يعزم على التوبة والرّجوع، فرجاؤه المغفرة حُمْق كرجاء مَنْ بَثَّ الْبِذْر في أرض سَبَخة وَعَزَم على أن لا يتعهّده بسقي ولا تنقية. قال **يحيى بن معاذ**: من أَعْظَم الاغترار عندي: التّمادِي في الذّنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقُّع القُرْب مِنَ الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زَرْع الجنّة بِبِذْر النّار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتَّمني على الله ﷻ مع الإفراط:

تَــرْجُو الــنّجَاة ولم تَسْــلُكْ مَسَالِكها ... إن السَّــفِينَة لا تَجْــرِي عــلى الْيَــبَسِ

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومظنّته فقد علمت أنها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب، وهذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقية الأسباب على حسب الإمكان، فإن من حسن بذره، وطابت أرضه، وغزر ماؤه، صدق رجاؤه، فلا يزال يحمله صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدها وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدها أصلاً إلى وقت الحصاد، وهذا لأن الرجاء يضاده اليأس، واليأس يمنع من التعهد، فمن عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء معوز، وأن البذر لا ينبت: فيترك لا محالة تفقد الأرض والتعب في تعهدها، والرجاء محمود لأنه باعث، واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل، والخوف ليس بضد للرّجاء، بل هو رفيق له، بل هو باعث آخر بطريق الرّهبة كما أن

---

(١) «مدارج السالكين» (٣٦/٢).

(٢) «الحكم العطائية» (١٩).

الرّجاء باعث بطريق الرغبة، فإذن: حال الرّجاء يورث المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات كيفما تقلّبت الأحوال، ومن آثاره: التلذذّ بدوام الإقبال على الله تعالى، والتنعّم بمناجاته، والتلطّف في التملّق له، فإن هذا الأحوال لابدّ وأن تظهر في كُلّ مَنْ يَرْجو مَلكًا من الملوك، أو شَخْصًا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟!»ا.هـ(١).

وبالجملة: «فلابدّ من الجمع بين الخوف والرجاء، وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت، أمّا عند الموت فالأصلح غلبةُ الرّجاء وَحُسْن الظّن، لأن الخوف جار مَجْرى السَّوْط الباعث على العمل وقد انقضى وقتُ العمل، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف، فإن ذلك يقطع نياط قلبه، ويعين على تعجيل موته.

وأمّا روح الرّجاء فإنه يقوّي قَلْبه، وَيُحبّب إليه رَبّه الذي هو رجاؤه، ولا ينبغي أن يفارق أحدٌ الدنيا إلاّ مُحبًّا للّه تعالى ليكون مُحبًّا للقاء الله تعالى، فإن من أحبّ لقاء الله تعالى أحبّ الله لقاءه»ا.هـ(٢).

وقد قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحِجْر: ٤٩، ٥٠].

قال الإمام **القرطبي** - رحمه الله تعالى - :

«هذه الآية وزانُ قوله ﷺ : «**لو يعلمُ المؤمنُ ما عِنْد الله من العقوبة ما طَمَع بِجَنَّته أَحَدٌ، ولو يعلمُ الكافِرُ ما عِنْد الله مِنَ الرّحْمَةِ ما قَنَط مِنْ رَحْمَته أحَدٌ**»(٣).

وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوّف ويرجّي، ويكون الخوف في الصّحة أغلب عليه منه في المرض»ا.هـ(٤).

---

(١) «الإحياء» (٤/٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) «الإحياء» (٤/٢٤٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧٥٥).

(٤) «تفسير القرطبي» (١٠/٣١).

خامسًا: مِنْ قَصَص أهل الرّجاء:

وقبل ذكر بعض قصص أهل الرجاء وأحوالهم، أُنَبِّه إلى أن دَوَاء الرَّجَاءِ يحتاج إليه **أَحَدُ رَجُلَيْن:**

- إمّا رجلٌ غلب عليه اليأس فترك العبادة.
- وإمّا رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أَضَرَّ بنفسه وأهله.

وهذان الرّجلان مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط، فيحتاجان إلى علاج يردهم إلى الاعتدال.

فأمّا العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سُمومًا مُهْلكة في حقّه... بل المغرور لا يستعمل في حقّه إلاّ أدوية الخوف والأسباب المهيّجة له.

فلهذا يجب أن يكون واعظ الْخَلْق متلطّفًا ناظرًا إلى مواقع العلل معالجًا لكلّ علّة بما يضادها لا بما يزيد فيها، فإن المطلوب هو العدل والقصد في الصّفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها.

وهذا الزّمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الْخَلْق أَسْبَابَ الرّجاء، بل المبالغة في التخويف – أيضًا – تكاد أن لا تردّهم إلى جادة الحقّ وسنن الصّواب.

قال **عليّ بن أبي طالب** رضي الله عنه:

«إنما العالم الذي لا يقنّط الناس من رحمه الله تعالى ولا يؤمّنهم من مكر الله».

ونحن – هنا – نذكر طرفًا من قصص أهل الرّجاء ليُسْتَعمل في حق الآيِس أو فيمن غلب عليه الخوفُ حتى أخرجه عن حدّ الاعتدال.

فمن ذلك:

- لما احْتُضِر أبو بكر العامريّ – المعروف بـ «ابن الجنازة» – قال له أصحابه: أَوْصِنا.

فقال: أُوصيكم بثلاث:

بتقوى الله.

ومراقبته في الخَلْوة.

واحذروا مَصْرَعي هذا، عِشْتُ إحْدَى وستين سنة وما كأنّي رأيتُ الدنيا.

ثم قال لبعض أصحابه:

انظر هل تَرى جبيني يَعْرق؟

قال: نعم.

فقال: الحمد لله هذه علامة المؤمن[1]، ثم بَسَط يَدَه عند الموت، وقال:

هَا قَدْ مَددتُ يَدى إليك فَرُدّها

بالفَضْل لا بِشَماتة الأعْداء

- وعن أحمد بن معذل، قال:

دخلتُ على أُختي وهي مَريضة، فقلتُ:

يا أُخيَّة، كيف تَجدينك؟

قالت: أَجِدُني ضعيفةً ومولاي قَويٌّ، وفي قوَّتهِ ما يَقْوى به ضَعْفي، وأجدني فقيرةً وَمَوْلاي غَنَيٌّ، وفي غَنَائه ما يَسُدُّ به فَقْري[2].

- وقال أبو مطيع:

أتيتُ بابَ «سوّار»[3]، فإذا هو قد حُجِبَ، وهم يقولون: «شاكي»، فدخلتُ عليه، فإذا هو عموم مُدَثَّر[4]، وهو يقول:

---

(١) يريد قوله ﷺ: «المؤمنُ يَمُوت بعَرَق الجبين» رواه النسائي، والترمذي، وقال: حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «المحتضرين» (٣٦٣).

(٣) هو: محمد بن سوّار، من العابدين.

(٤) مدثّر: مُغَطّى.

هو يعلم أني لا أرجو إلاّ إياه، لا إله إلا الله[(١)].

- وقال عبد الأعلى بن حمّاد: دخلنا على «بشر بن منصور» وهو في الموت، وإذا هو من السّرور في أمر عظيم، فقلنا له:

ما هذا السّرور؟

قال: «سُبحان الله، أَخْرج من بين الظّالمين والحاسدين والمغتابين والباغين، وَأُقْدِم على أَرْحَم الرّاحمين، ولا أُسَرّ!»[(٢)].

- ورُوى أن «يحيى بن أكثم» – القاضي – قد رؤى في المنام – بعد وفاته – فقيل له:

ما فعل الله بك؟

فقال: أوقفني بين يديه، وقال:

«يا شَيْخَ السّوء، فعلتَ كذا، وفعلتَ كذا!».

فقلتُ: يا ربِّ مَا بِهذا حُدِّثْتُ عَنْك.

فقال: فَبِما حُدِّثتَ عَني يا يحيى؟

فقلت: حدثني معمر عن الزّهري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ عن جبريل عنك سبحانك أنّك قُلتَ:

«إني لأَسْتَحي أن أُعَذِّب ذا شيبة شابت في الإسلام».

فقال: «يا يحيى صدقت، وصدق معمّر، وصدق الزّهري، وصدق عروة، وصدقت عائشة، وصدق محمّد، وصدق جبريل، وقد غفرتُ لك»[(٣)].

- ورأى «أيّوب السختياني»[(٤)] – رحمه الله تعالى – جنازة عاص، فدخل الدّهليز كي

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «كتاب المحتضرين» (٣٦٦).

(٢) «وسائل الرحمات فيما يُطلب لمن مات» للشيخ/ أحمد الحلواني (١٤٧).

(٣) نفس المرجع (٩٥).

(٤) من التابعين.

لا يُصَلِّي عليها، فرأى بعضُهم الميّتَ في النوم فقيل له:

ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي، وقال:

قل لأيّوب: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

- وكان «يحيى بن معاذ الرّازي» - رحمه الله تعالى - يقول في مناجاته:

«يكاد رجائي لك من الذّنوب يَغْلب رجائي إيّاك مع الأعمال؛ لأني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذّنوب أعتمد على عَفْوك، وكيف لا تغفرها وأنتَ بالجود مَوْصوف»(١).

- ودخل المزني على الشافعيّ - رحمة الله عليهما - في مرضه الذي تُوفّي فيه، فقال له:

كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟

فقال: أصبحتُ عن الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنيّة شاربًا، وعلى الله - تعالى - واردًا، ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزّيها؟ ثم أنشأ يقول:

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي، وضاقت مَذَاهِبِي ... جعلتُ الرَّجَا مِني لِعَفْوك سُلَّمَا
تَعاظَمَني ذَنْبي فَلمّا قَرْنتُه ... بِعَفْوِك رَبي كان عَفْوُك أَعْظَما
فمازلتَ ذا عَفْو عن الذّنب لَمْ تَزَلْ ... تجودُ وتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّما
فلولاك لم يَصْمُدْ لإبليس عابدٌ ... فكيف وقد أغوى صَفيّك آدَما
فلِلّه دَرُّ الْعَارِف الْنّدب إنّه ... تَفيض لِفُرْطِ الْوَجْد أجْفَانُهُ دَمَا
يُقيمُ إذا ما اللّيلُ مَدَّ ظَلاَمَهُ ... على نَفْسه من شدّةِ الْخَوْفِ مَأْتَما

(١) «الإحياء» (٤/٢٢٢).

فَصِــيحًا إذا مــا كــان في ذِكْــرِ رَبِّه وفي مــا ســواه في الْــوَرَى كان أَعْجَما
وَيَذْكُــر أَيَّامًــا مَضَــتْ مِــنْ شَــبَابه ومــا كــان فــيها بالجَهَالــةِ أَجْــرَمَا
فصــارَ قَــرِينَ الْهَــمِّ طُــولَ نَهَــارِه أَخَــا السُّهْدِ[1] والنَّجْوى إذا اللَّيل أَظْلَمَا
يقــول حبيــبي أنْــتَ سُــؤْلِي وَبُغْيَتِي كَفَــى بِــكَ للــرَّاجِين سُــؤْلاً وَمَغْنَمَا
أَلَسْــتَ الَّــذي غَذَّيْتَــني وَهَدَيْــتَني ولازِلْــتَ مَــنَّانًا عــليَّ وَمُــنْعِمَا
عســى مَــنْ لَــه الإحْسانُ يَغْفِرُ زَلَّتي وَيَسْــتُر أَوْزَارِي ومــا قــد تَقَدَّمــا

أخي المسلم:

هذه بعض أحوال وأقوال أهل الرّجاء، تَقْطُر خشيةً، ونَدمًا، وانكسارًا، وهي كما رأيتَ قد خَرَجَتْ من أفواهِ أقوامٍ أنهكوا أبدانهم في العلم والعمل، وجاهدوا أنفسهم في الصّيامِ والقيامِ والذّكر وتلاوة القرآن.

ولم يرجوا ثمارَ الجنّة ببِذْر النار - كما هو حال الكثير اليوم - ، بل فعلوا الطاعات، واجتنبوا المحرمات، وسارعوا في الخيرات، وتضرّعوا في الخلوات، وها هو أحدهم يقوم في جُنْح اللّيل يُصلّي، ثم يرفع كَفّي الضّراعة لمولاه، ويقول:

لَبِسْــتُ ثَــوْبَ الرَّجَا والنَّاسُ قد رَقَدوا وقمــتُ أَشْــكو إلى مَــوْلاى مَــا أَجِدُ
وقلــتُ يــا عــدّتِي في كُــلِّ نائــبةٍ ومَــنْ علــيه لِكَشْــفِ الضُّــرِّ أَعْــتَمِد
وقــد مــددتُ يــدي بــالذُّلِّ صاغِرةً إلــيك يــا خَــيْرَ مَــنْ مُــدَّت إليه يَدُ
فــلا تَــردَّنّها يـــا رَبِّ خَائِــبَةً فَــبَحْرِ جُــودِكَ يَــرْوِي كُــلَّ مَنْ يَرِدُ

مِسكُ الختام:

وقبل أن يستريح القلم - هنا - أتوجّه إلى ربي - تباركت أسماؤه - وأدعوه بدعاء عمر بن ذرّ - رحمه الله - فأقول:

---

(١) السُّهد: طول السهر.

«اللّهُمّ إنّا قد أطعناك في أَحَبِّ الأشياء إليك أن تُطاع فيه: الإيمانُ بك، والإقرارُ بك، ولم نَعْصِك في أَبغض الأشياء إليك أن تُعْصى فيه: الكفرُ والجَحْدُ بِكَ، اللّهمّ فاغْفِرْ لنا بينهما، وأنتَ قلتَ:

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ ﴾ [النمل: ٣٩]، ونحن نُقْسم بالله جَهْد أيمانِنا لَتَبْعَثَنّ مَنْ يَموت. أَفَتَراك تَجْمع بين أهل القَسَمَيْنِ في دارٍ واحدة؟»(١).



(١) «السِّير» (٦/٣٨٧).

٧٥- الخَشْيَة

الخشية من الله – تعالى – شيء عظيم، فهي عاطفة تَنْبع من حُسْن معرفة الله – تعالى – وكمال العلم به.

وهي ليست وَجَلاً مُبهمًا لا يُدْرى مَأْتَاه أو نتائجه؛ بل هي شعور واضح بجلال الخلاّق العليم. قال تعالى:

﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣].

ولأهمية هذا الخُلُق الكريم، فحديثي إليك – **أخي المسلم** – على السّطور التالية يدور حول:

الأول: تعريف الخشية.

والثاني: الفرق بين الخشية والخوف.

والثالث: فضل الخشية.

والرابع: علامات الخشية من الله تعالى.

والخامس: لقطات من حياة أهل الخشية.

أوّلاً: تعريفُ الْخَشْية:

الخشية «**لغة**»: مَصْدرُ خَشِي وهو مأخوذٌ من مادّة (خ ش ى) التي تدلّ على خَوْفٍ وَذُعرٍ، وقد تُسْتَعْمل مَجَازًا في مَعْنى الْعِلْم.

وقال **الرّاغب**:

الخشية: هي خوف يَشُوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يُخْشَى منه، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَـٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [ق: ٣٣]؛ أي: لمن خاف خوفًا اقتضاه معرفته بذلك من نفسه.

وقال **ابن منظور**: «الخشية: الخوف. يقال: خشي الرجل يخشى خشية أي: خاف»[١].

و «**اصطلاحًا**»: **الخشية**:

خوفٌ يشوبه تعظيم[٢]، وقيل: هي الخوف المقرون بإجلال. وقيل: هي تألّم القلب بسبب توقّع مكروه في المستقبل يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته[٣].

ثانيًا: الفرق بين الخشية والخوف:

قال **الفَيْرُوزآباديُّ**: «الخشية أخصّ من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله تعالى، فهي خوف مقرون بمعرفة. قال النبي ﷺ :

«**إني أتقاكم لِلّه، وأشدُّكم له خَشْية**»[٤].

فالخوف حَرَكة، والخشية انْجماع وانْقباضٌ وسكون، فالخوفُ لعامة المؤمنين، والخشية للعلماء العارفين، والهَيْبَة للمحبيّن، والْوَجَلُ للمقرّبين، وعلى قَدْر العلم والمعرفة تكون الخشية. قال رسولُ الله ﷺ :

«**لو تعلمون ما أعلمُ لَضَحكْتُم قليلاً وَلَبَكَيْتم كثيرًا، وَلَمَا تَلَذذتُم بالنِّساء علىالفُرُش، وَلَخَرَجْتم إلى الصُّعُدات تَجأرون إلى الله تعالى**»[٥].

فصاحب الخوف يلتجئُ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يَلْتَجئ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما كَمَثَل من لا علم له بالطّب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأوّل يلتجئ إلى

(١) «لسان العرب» (١٤/٢٢٨).
(٢) «المفردات» للرّاغب (١٤٩).
(٣) «التعريفات» للجرجاني (١٠٣).
(٤) رواه مسلم.
(٥)**حسن**: رواه الطبراني في «الكبير»، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٥٢٦٢).

الحمية والهرب، والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

وكل واحد إذا خفته هربت منه، إلا الله، فإنّك إذا خفتُه هَربتَ إليه، فالخائف هارب مِنَ رَبِّه إلى رَبِّه» ا.هـ[1].

وقال **الكَفَويُّ**: «الخشية أشدُّ من الخوف لأنها مأخوذة من قولهم شجرةٌ خاشيةٌ أي: يابسةٌ وهو مواتٌ بالكليّة، والخوف: النّقص مُطلقًا من قولهم: ناقةٌ خوفاء أي: بها داءٌ وليس بفواتٍ، ولذلك خُصَّت الخشية بالله في قوله:

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الرعد: ٢١].

والخشية تكون من عظم المخشي وإن كان الخاشي قويًا، والخوف يكون من ضعف خائف وإن كان المخوف أمرًا يسيرًا.

وأيضًا: فإن أصل الخشية: خوف مع تعظيم، ولذلك خُصّ بها العلماء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]. على قراءة نصب لفظ جلالة» ا.هـ[2].

ثالثاً: فضل الخشية من الله تعالى:

ورد في فضل الخشية من الله - تعالى - آيات، وأحاديث، وآثار كثيرة، تدلّ على مكانة هذا الخلق، وعلوّ مقامه:

فمن القرآن:

(١) قال تعالى - في وصف أولي الألباب - :

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٢/٥٤٤، ٥٤٦).

(٢) «الكليات» للكفويّ (٢/٣٠٢)، وانظر: «نضرة النعيم» (١٨٣٨، ١٨٣٩).

وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٤].

(٢) وقال تعالى - في وصف الملائكة الأبرار :

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٨].

(٣) وقال تعالى - في وصف المتقين - :

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٨، ٤٩].

(٤) وقال تعالى:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

(٥) وقال تعالى - في وصف عمّار المساجد - :

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

(٦) وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١].

(٧) وقال تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢].

(٨) وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك: ١٢].

(٩) وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٧، ٨].

(١٠) وقال تعالى:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣١ – ٣٥].

ومن الأحاديث:

(١) عن عائشة – رضي الله عنها – أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يستفتيه، وهي تسمعُ من وراء الباب، فقال:

يا رسول الله، تدركُني الصّلاة[1] وأنا جنب، أفأصوم؟

فقال رسولُ الله ﷺ :

« **وأنا تُدْرِكُني الصّلاةُ وأنا جُنُبٌ فَأَصومُ** ».

فقال: لست مِثْلَنا يا رسولَ الله، قد غفر اللّهُ لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر.

---

(١) أي: صلاة الصّبح.

فقال: « واللهِ إني لأرجو أن أكون أخْشاكم لِلّه، وأعْلَمَكُم بما أَتّقِي »[١].

(٢) وعن حذيفة رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« إنّ رَجُلاً حَضَرهُ الموتُ، فلما يَئِس من الحَيَاة أوْصَى أَهْلَه: إذا أنا مُتُّ فاجْمَعوا لي حَطَبًا كثيرًا وأوْقِدوا فيه نارًا، حتى إذا أَكَلَتْ لَحْمي وَخَلَصَتْ إلى عَظْمي فامْتَحَشْتُ[٢]، فَخُذُوها فاطْحَنُوها، ثم انظروا يَوْمًا رَاحًا[٣] فاذْرُوه في الْيَمِّ[٤]، فَفَعلوا، فَجَمَعه اللّهُ فقال له: لِمَ فَعْلتَ ذلك؟ قال: من خَشْيَتِك، فَغَفَر اللّهُ له »[٥].

(٣) وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« عَيْنَانِ لا تَمَسُّهما النارُ: عَينٌ بكت من خشيةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتتْ تَحْرَسُ في سبيل الله »[٦].

(٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« لا يَلِجُ النّارَ رَجُلٌ بكى من خشية الله حتى يعودَ اللَّبُن في الضَّرْعِ، ولا يجتمعُ غُبارٌ في سبيل الله وَدُخَانُ جَهنّم »[٧].

(٥) وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) رواه مسلم (١١١٠).

(٢)**امتحشتُ** : احترقت.

(٣)**يومًا راحًا** : أي: شديد الريح.

(٤)**اليم** : البحر.

(٥) رواه البخاري (٣٤٥٢)، ومسلم (٢٧٥٦).

(٦)**صحيح بشواهده** : رواه الترمذي (١٦٣٩)، وقال: حديث حسن، وقال محقق جامع الأصول (٩/٤٨٧): حديث صحيح بشواهده.

(٧)**صحيح** : رواه الترمذي (١٦٣٣) واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي (٦/١٢).

« لَيْسَ شَيءٌ أحبَّ إلى الله من قَطْرتين وأَثَرَيْن: قَطْرَةٌ من دموع في خَشْية الله، وَقَطْرَةُ دَم تُهْراقُ في سَبِيل الله. وأما الأثران: فَأَثَرٌ في سَبِيلَ الله ، وأثرٌ في فَرِيضةٍ من فَرَائِض الله »(١).

(٦) وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:

« مَنْ ذَكَر الله ففاضت عَيْناه من خشيةِ الله حتى يُصِيبَ الأرْض مِنْ دُمُوعه لم يُعَذِّبْه اللّهُ تعالى يوم القيامة »(٢).

ومن الآثار:

□ قال الإمام **الحسن** – رحمه الله – :

« بَلَغَنا أن الباكي من خشية الله لا تقطر دموعُه قَطْرةً على الأرض حتى تُعْتَق رَقبتهُ من النار، ولو أن باكيًا بكى في ملأٍ من الملأ لَرُحِمُوا جميعًا ببكائِه، وليس شيء إلاّ له وَزْنٌ إلاّ البكاء فإنه لا يُوزن »(٣).

□ وقال **خالد بن معدان** – رحمه الله تعالى – :

« إن الدَّمْعة لتطفئ البحورَ من النِّيران، فإن سالت على خَدِّ باكيها لَم يَرَ ذلك الوجْه النّارَ، وما بكى عَبْدٌ من خشية الله إلا خشعت لذلك جوارحُه، وكان مكتوبًا في الملأ الأعلى باسْمه واسْم أبيه مُنوّر قلبه بذكره الله! »(٤).

□ وقال **عمر بن الخطاب** ﷺ :

« لا تصحب الفجَّارَ، لِتَعَلَّم من فُجورهم، واعْتَزل عَدوَّك، واحْذَرْ صَدِيقَك إلاّ الأمين، ولا أمينَ إلاّ مَنْ خَشِيَ الله، وتَخَشَّع عند القُبور، وَذِلَّ عند الطّاعة، واسْتَعْصِمْ عند المعصِية، واسْتَشِرِ الذين يَخْشَوْن الله »(٥).

---

(١) **حسن** : رواه الترمذي (١٦٦٩)، وقال محقق جامع الأصول (٥٧٦/٩): إسناده حسن.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٦٠/٤)، وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » وقال محققه: مسعد السّعدني: إسناده لا باس به في « الترغيب ».

(٤) **إسناده حسن** : رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (١٩)، وقال محققه: إسناده حسن.

(٥) « الدّر المنثور » للسيوطي (٢٢/٧).

- وقال ابن مسعود رضي الله عنه :

«ليس العلمُ من كثرةِ الحديث، ولكنّ العِلْمَ من الخشية»(١).

- وقال الإمام مَسْروق - رحمه الله تعالى - :

«كفى بالمرء عِلْمًا أن يَخْشى الله، وكفى بالمرء جَهْلاً أن يُعْجَبَ بعمله»(٢).

رابعًا: علامات الخشية من الله تعالى:

اعلم - أخي الكريم - أن للخشية من الله تعالى علامات تدل على نَفَاسة مَعْدن صاحبها، وصدق إيمانه، وَحُسْن إسلامه، وقوّة يقينه، منها:

العلامة الأولى: اتقاء الشبهات:

قال أبو الدّرْداء رضي الله عنه :

«تمام التقوى: أن يَتَقي الله الْعَبْدُ حتى يَتَّقيه مِنْ مثقال ذَرّة، وحتى يَتْرُكَ بَعْضَ ما يرى أنه حلالٌ خشية أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام»(٣).

العلامة الثانية: العمل بالعلم:

- فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨]. قال:

«العلماء بالله الذين يخافونه»(٤).

- وقال أبو الدرداء رضي الله عنه :

«إنّما أخاف أن يكون أوّلَ ما يسألُني عنه ربي أن يقول: قَدْ عَلِمْتَ فماذا عَمِلْتَ

---

(١) نفس المرجع (٧/٢٠).

(٢) نفس المرجع (٧/٢٠).

(٣) نفس المرجع (١/٦١).

(٤) «الدّر المنثور» (٧/٢٠).

فيما عَلِمْتَ؟»[١].

العلامة الثالثة: القلق الدّائم، والخوف الملازم:

قال الإمام **الحسن** - رحمه الله - :

«لقد مضى بَيْن يديكم أقوامٌ لو أنّ أَحَدهم أَنْفَق عَدَد هذا الحَصَى لَخَشِي أن لا ينجو من عِظَم ذلك اليوم»[٢].

وقال - رحمه الله - :

«عملوا لله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرَدَّ عليهم. إن المؤمن جَمَع إيمانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا».

حكاية:

قال إبراهيم التيمي[٣] - رحمه الله - :

«كنتُ كثير التردّد إلى المقابر أَذْكُر الموتى وطول البلاء، فبينما أنا ذات ليلة فيها إذ غلبتني عَيْني فنمتُ فرأيتُ قَبْرًا قد شُقّ وسمعتُ قائلاً يقول:

خذوا هذه السلسلة فاسلكوها في فِيه وأخروجها من دُبُرِه، وإذ الميت يقول:

يا ربّ ألم أكن أقرأ القرآن؟! ألم أكن أحجّ بيتك الحرام؟! وجعل يَذْكر أفعال الْبِرّ شيئًا بعد شيء، وإذا قائل يقول:

نعم كنتَ تفعلُ ذلك ظاهرًا، فإذا خَلَوْتَ بارزتَني بالمعاصي و لم تُراقِبْني»[٤].

أخي:

إذا مَضَى لِلْمَرء من أعْوامه خمسون وهو إلى المظالم يَجْنَح

---

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (٤١).

(٢) «الزهد» لابن المبارك (٥١).

(٣) من التابعين.

(٤) «المواعظ والمجالس» لابن الجوزي (٤٨).

رَكَضَتْ عليه الْمُخْزِيات وَقُلْنَ قَدْ أَضْحَكْتَنا وسَرَرْتَنا لا تبرح
وإذا رأى إبليسُ غُرَّة وَجْهِه حَيّا وقال قد تَبَّ[1] مَنْ لا يُفْلح

اللّهم استرْ، واجعل تحت ستْرك ما تُحبّ.

العلامة الرابعة: فعل الطاعات، واجتناب المحرمات:

قال الإمام **الحسن** - رحمه الله تعالى - :

« الإيمانُ مَنْ خَشِيَ الله بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزَهِدَ فيما أسخطَ الله ».

العلامة الخامسة: كثيرة البكاء والتضرّع:

قال **السّرِّي السَّقَطي** - رحمه الله تعالى - :

« للخائف عشرُ مقاماتٍ منها: الحزن اللاّزم، والهمّ الغالب، والخشية المقلقة، وكثرة البكاء، والتّضرّعُ في الليل والنّهار، والهرب من موطن الرّاحة، ووجل القلب »[2].

العلامة السادسة: كثرة الدّعاء بالخشية:

- فعن السّائب، قال:

صَلّى بنا عمّار بْنُ ياسر صلاةً فأوْجَز فيها فقال له بعضُ القوم: لقد خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصّلاة، فقال:

أَمَّا على ذلك فقد دعوتُ فيها بدَعَوات سمعتُهنّ مِنَ رسولِ الله ﷺ، فلمّا قام تَبعَه رَجُلٌ مِنَ القوم هو أُبيّ غَيْر أنه كَنَى عن نفسه فسأله عن الدعاء، ثم جاء فأخبر به القوم:

« **اللّهمَّ بعلْمك الغَيْبَ، وَقُدْرَتِك على الْخَلْقِ، أَحْيني ما علمتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لي، وَتَوَفَّني إذا علمتَ الوفاةَ خَيْرًا لي.**

اللّهم، وأسأَلُك خَشْيَتَك في الغَيْب والشَّهَادة، وأسألك كَلِمَةَ الْحَقِّ في الرِّضا

---

(١) تَبّ: خَسر وهَلَك.

(٢) « حلية الأولياء » (١١٨/١٠).

والغَضَب، وأسألُك القَصْد في الفقر والغِنى، وأسألك نَعِيمًا لا يَنْفَدُ، وأسألُك قُرَّةَ عَيْن لا تَنْقَطِعُ، وأسألُكِ الرِّضاء بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ الْعَيْش بَعْد الْمَوْت، وأسألك لَذَّة النَّظَر إلى وَجْهِك، والشَّوْقَ إلى لِقَائِك في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فِتْنَة مُضِلَّة.

اللّهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجْعَلْنا هُدَاةً مُهْتَدِين »[١].

□ وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قَلّما كان رسولُ الله ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلسٍ حَتّى يَدْعو هؤلاء الدَّعَوات لأَصْحَابه:

« اللّهُمّ اقْسِمْ لنا من خَشْيَتِك ما يَحولُ بَيْنَنَا وَبَيْن مَعَاصِيك، وَمِنْ طَاعَتِك ما تُبَلِّغُنا به جَنّتَك، ومن اليقين ما تُهَوِّنُ به عَلَيْنا مُصِيبَاتِ الدُّنْيا، وَمَتِّعْنا بأسماعنا وأبْصارِنا وَقوَّتنا ما أَحْيَيْتَنا، واجْعَلْه الوارثَ منّا، واجْعَلْ ثَأْرَنا على من ظَلَمنا، وانْصُرنا على مَنْ عَادَانا، ولا تَجْعَلْ مصيبَتَنا في دِيننا، ولا تَجْعَلِ الدُّنْيا أكْبَرَ هَمِّنا، ولا مَبْلَغَ عِلْمنا، ولا تُسَلِّط عَلَيْنا من لا يَرْحَمُنَا »[٢].

العلامة السّابعة: الأمْرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر:

فعن أبي سعيد ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« لا يَحْقِرْ أحدُكم نَفْسَهُ ».

قالوا: يا رسولَ الله، كيف يَحْقِرُ أَحَدُنا نَفْسَه؟

قال: « يَرَى أَمْرًا لِلّه عليه فيه مَقَالٌ، ثُمّ لا يقولُ فيه. فيقول اللّهُ ﷻ له يَوْمَ القيامة: مَا مَنَعَك أن تقول فِيَّ كَذَا وَكَذَا؟

(١) **صحيح** « صحيح سنن النسائي » (١٢٣٧).

(٢) **حسن** رواه الترمذي (٣٥٠٢)، والحاكم (٥٢٨/١) وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه محقق « جامع الأصول » (٢٨٠/٤).

فيقولُ: خَشْيَةُ النَّاس.

فيقولُ: فإيّاي كُنْتَ أحَقَّ أنْ تَخْشَى»[١].

أخي المسلم:

هذه بعضُ العلامات الدّالة على خشية الله - تعالى - فجاهد نَفْسَك أن تَتَّصفَ بها، واحذر من لحظات الفتور، وَصَوْلات الغرور، واستعن بالله ولا تعجز، واعلم أن الإمداد يأتي على قدر الاستعداد، والهداية ثمرة المجاهدة. قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وفّقني الله - تعالى - وإيّاك لطاعته.

خامساً: لَقَطاتٌ مِنْ حَيَاةِ أَهْلِ الْخَشْيَة:

اللقطة الأولى: خشية النبي ﷺ:

الحديث عن خشية النبي ﷺ لربّه حديث يطول، ويكفي أن نشير هنا إلى لقطة واحدة:

عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - قال:

قال أبو بكر ﷺ يا رسول الله، قَدْ شِبْتَ! قال:

«**شيبتني هود والواقعة والمرسلات و «عَمّ يتساءلون» و «إذا الشمس كُورت»**»[٢].

قال الإمام **القرطبي** - رحمه الله - :

«ففي تلاوة هذه السّور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس، وتشيب منه الرءوس. وقد قيل: إن الذي شيّب النبي ﷺ من سورة «هود» قوله تعالى:

---

(١) **صحيح** رواه ابن ماجه (٤٠٠٨)، وقال في الزوائد: «إسناده صحيح رجاله ثقات».

(٢) **صحيح** رواه الترمذي (٣٢٩٧)، والحاكم في «التفسير» (٣٣١٤)، وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الحافظ في «التلخيص».

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢].

وقال يزيد بن أبّان: رأيتُ رسول الله ﷺ في منامي فقرأتُ عليه سورة « هود » فلمّا ختمتُها قال:

« **يا يزيد، هذه القرآن فأين البكاء؟!** » ا.هـ[١].

اللقطة الثانية: خشية جبريل عليه السلام:

عن جابر رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **مَرَرتُ لَيْلَةَ أُسْرِى بي بالملأِ الأعْلى، وجبريل كالْحِلْس[٢] الْبَالِي[٣] دن خشية الله تعالى** »[٤].

اللقطة الثالثة: خَشْيَةُ الصَّحَابة - رضي الله عنهم - :

الحديث عن خشية الصّحابة يحتاج إلى « مُصَنّف » مُسْتقل، ويكفي أن نذكر - هنا - وَصْفَ الإمام **الحسن** - رحمه الله - لخشيتهم. قال - رحمه الله - :

« والله لقد أدركتُ أقوامًا، وَصَحِبْتُ طوائفَ منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أَقْبل، ولا يأسفون على شيء منها أدْبر، وَلَهِي كانت أهون في أعينهم من هذا التّراب.

كان أحدهم يعيش خَمْسين سنة لم يُطْوَ له ثَوْبٌ قَطُّ، ولا نُصِبَ له قِدْرٌ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا، ولا أمَر في بَيْته بصنعة طعام قَطّ، فإذا كان الليل فقيام على أطْرافهم، يَفْتَرِشون وجوهَهم، تَجْري دُموعُهم على خدودهم، يناجون رَبَّهم، في فِكاك رقابهم.

---

(١) « تفسير القرطبي » (٩/٤).

(٢) الحصير ونحوه.

(٣) القديم.

(٤) **حسن** : رواه الطبراني في « الأوسط »، وانظر: « صحيح الجامع » (٥٨٦٤).

وكانوا إذا عملوا الحَسَنة دَأَبُوا في شُكْرها، وسألوا الله أن يَقْبَلَها، وإذا عملوا السّيئة أحْزَنَتهم، وسألوا الله أن يغفرها.

فما زالوا على ذلك، فوالله ما سَلِمُوا من الذّنوب ولا نَجوا إلاّ بالمغفرة، وإنكم أصبحتم في أَجَل منقوص، والعمل مَحْفوظ، والموت والله في رقابكم، والنار بين أيديكم، فتوقّعوا قضاءَ الله ﷻ في كلِّ يَوْمٍ وليلة»[1].

اللقطة الرابعة: حِكايةُ تَوْبَة عَبْد يَخْشَى الله تعالى:

ذكر الإمامُ ابن الجوزيّ - رحمه الله تعالى - :

«أن بعض السّادة الأخيار قال لولده لمّا حَضَرته الوفاةُ: يا بُني اسْمَعْ وَصِيَّتي واعْمَلْ ما أُوصِيك به.

قال: نعم يا أبه.

قال: يا بُنّي، اجْعَلْ في عُنُقي حَبْلاً، وَجُرّني إلى عَذابي، وَمَرِّغْ خَدِّي على التراب، وقل: هذا جزاء من عَصَى مولاه!.

قال: فلمّا فعل ذلك به، رفع طرفه إلى السماء، وقال:

إلهي وسيّدي ومولاي، قد آن الرّحيلُ إليك، وَأَزِفَ القدومُ عليك، ولا عُذْر لي بين يديك، غير أنك الغفور وأنا العاصي، وأنت الرحيم وأنا الجاني، وأنت السّيد وأنا العبد، ارْحم خُضوعي وزَلّتي بَيْن يديك، فإنه لا حول ولا قوة إلاّ بك.

قال: فخرجت روحُه في الحال، فإذا بصوتٍ ينادي في زاوية البيت - سمعه كُلُّ من حَضَر - وهو يقول:

«تذلل العبدُ إلى مَوْلاه، واعْتَذَر إليه مِمّا جنَاه، فَقرَّبه وَأَدْنَاه، وجعل جنّة

(١) «الزّهد» للحسن البصري (٣١).

الْخُلْدِ مَأْوَاه»(١).

فيا أخا الإسلام:

أقبل على قِبلَة التوجّه إلى مولاك، واعْرض عن مواصلة غَيِّك وهواك، وواصل بقية العمر بوظائف الطاعات، واصبر على ترك عاجل الشهوات.

فالفرار أيّها المكَلَّف كل الفرار، من مواصلة الجرائم والأوزار، فالصّبر على الطاعة في الدنيا أهون من الصّبر على النار.

مَـــــوْلاَى إني عَـــــبْدٌ ضـــــعيف أَتَيْـــتُك أَرْغَـــب فــــيما لَدَيْـــك

أتيــتُك أشــكو مُصَــابَ الذّنــوب وهــــل يُشْــتَكى الضُّـــرّ إلا إلـــيك

فَمُــــنَّ بِعَفْـــوِك يــــا ســــيّدي فلــــيس اعْـــتِمادي إلاّ علـــيك

اللَّقْطَةُ الخامسة: قصَّةُ شَابٍّ قَتَله الخوف!!:

قال **بَعْضُ الصّالحين:**

«كنا في مجلس بعض الوعّاظ، فَوَعَظ حتى أَبْكَى مَنْ حَضَر، وكان في المجلس شابٌّ فذكر الواعظُ النّارَ وما أعدّ الله - تعالى - فيها من العذاب الأليم لمن عصاه، فصاح الشّابُّ:

واأسفي على ما فرطت في جنب الله، ضيَّعتُ عمري، ونسيتُ أَجَلي، وقصّرت في عملي.

ثم استقبل القبلة، وقال:

اللّهم إني استقبلتُك في يومي هذا بتوبة لك لا يخالطها رياء لغيرك فاقبلني على ما كان مني، وأقل عثرتي، وارحم غربتي.

---

(١) «بحر الدموع» (٢٩).

إلهي، إليك رجعتُ بجميع جوارحي صادقًا من قلبي ، فالويل لي إن لم تقبلني، ثم سقط مغشيًا عليه فحرّكناه، فإذا هو ميّت - رحمه الله - »[1].

أخي:

هذا عبدٌ استيقظ فَعَلِم تَقْصِيرَه واستبصر، فشاهد بعين البصيرة مَصِيره، فاستولى عليه وارد الخوف، فصدع قلبه، فرضى الله عنه وأرضاه، ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البيّنة: ٨].



(١) «المواعظ والمجالس» لابن الجوزي (٦٥).

٧٦- البُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تعالى

قال **بكرُ بْنُ عَبْد اللهِ الْمُزَني** [(١)]- رحمه الله - : «مَنْ مِثْلُك يا ابْنَ آدم؟ خُلِّيَ بَيْنَك وبين الْمحراب، تَدْخل منه إذا شئتَ، وتُنَاجي رَبَّك، لَيْس بَيْنَك وبينه حجاب ولا تُرْجمان. إنّما طِيبُ المؤمنين: الماءُ المالِح؟ هذه الدّمُوع فَأَيْنَ مَنْ يَتَطيَّبون به؟!».

هكذا كانت القلوب رقيقة رفيقة.. نَدِيَّة بِذِكر الله - تعالى - ... فكانت العيون دامعة... بسبب هذه القلوب الخاشِعة: يبكي أصحابُها مِمّا عَرَفوا مِنَ الحق... أو مِمّا اجْتَرحُوا مع الخَلْق...

أولئك قوم استشعروا الخطر... فاستعدّوا للسَّفَر... فوق أَثْباج أَبْحُرٍ من دموعهم... فَوَصلوا إلى الشاطئ سالمين آمنين.

فأين الذين يبكون من خطاياهم... فَيُضَمِّخون أنفسَهم بهذا العطر الحلال؟ أين الذين يبكون على طاعة فاتتهم بعد أن وَافَتْهُم ... ومن معصية ركبتهم... بَعْدُ أو تركتهم؟[(٢)].

يـــا مَـــنْ خلقــتَ الدَّمْــع لُطْفًــا مــــــنك بالــــباكي الحـــــزين
بــــارك لِعَــــبْدِك في الدّمــــوعِ فإنّهــــا نِعْــــمَ الْمُعِــــين

أخي الكريم:

ولأهمية البكاء من خشية الله تعالى، فحديثي إليك - هنا - يدور حول **ثلاثة أمور:**

الأول: تعريفُ الْبُكَاء.

والثاني: فضله.

والثالث: أنواعه.

واللّهُ الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

---

(١) تابعيّ جليل.

(٢) «تائبون يغسلون بالدموع خطاياهم» د. محمود محمد عمارة (٥).

أولًا: تعريفُ البكاء:

البكاء «**لُغَةً**»: مَصْدرُ قولهم بَكَى يَبْكى بُكاء وَبُكّى، فهو باك، والجمعُ بكاةٌ وبكيٌّ، وهذا المصدر مأخوذ من مادّةٌ (ب ك ى) التي تدلُّ في أَصْل اللّغة على معنيين:

الأول: بمعنى خروج الدَّمْع.

والآخر: نُقْصَانُ الشّيء وقلّتُهُ.

ويرجع البكاء - هنا - إلى المعنى الأوّل.

و«**اصطلاحًا**»: هو إِرَاقَةُ الدُّمُوع مِنْ أَثَر الْخَوْف مِنَ الله - تعالى - أو للتعبير عن حُزْن في الفؤاد.

ثانيًا: فضل البكاء من خشية الله تعالى:

وَرَدَ في فَضْل البكاء من خَشْية الله ﷻ آيات وأحاديث وآثار:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

(٢) وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم: ٥٨].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

ومن الأحاديث:

(١) عن ثوبان رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« طُوبى لِمَنْ مَلَكَ نَفْسَه، وَوَسِعَه بَيْتُهُ، وَبَكَى على خَطِيئَتِه »[1].

(٢) وعن أنس رضي الله عنه قال:

بَلَغَ رَسولَ الله ﷺ عن أَصْحابه شيءٌ، فَخَطَب فقال:

« عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ والنَّارُ، فَلَمْ أَرَ كاليومِ في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحِكْتُم قليلاً وَلَبَكَيْتُم كثيرًا ».

قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يَوْمٌ أَشَدُّ مِنْهُ، قال:

« غَطَّوْا رءُوسَهُم وَلَهُم خَنِين[2] »[3].

(٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

« سَبْعَةٌ يُظلّهم اللّهُ تعالى في ظِلِّه يَوْمَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه: إمامٌ عادلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ في عبادة الله، وَرَجُلٌ قَلْبُه مُعَلَّقٌ في المساجد، ورجلان تَحابّا في الله اجْتَمَعا عليه وَتَفرَّقا عليه، ورجلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصب وَجَمَال فقال: إني أخافُ الله، ورجلٌ تَصدّق بصَدَقة، فأَخْفَاها حتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنفِق يَمينه[4]، وَرَجُلٌ ذَكَر الله خاليًا فَفَاضَتْ عَيْنَاه »[5].

(٤) وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال:

وَعَظَنا رسولُ الله ﷺ يومًا بعد صَلاة الغَدَاة[6] موعظةً بليغة ذَرَفَت[7] منها العيونُ،

---

(١) قال المنذري في « الترغيب » (٢٣٢/٤): رواه الطبراني في « الأوسط » و « الصغير »، وحسّن إسناده.

(٢) **الخنين** : صوت البكاء، وهو نوع من البكاء دون الانتحاب.

(٣) رواه البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩) واللّفظ له.

(٤) المراد المبالغة في كتمان الصّدقة.

(٥) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) واللّفظ له.

(٦) **صلاة الغداة** : الصّبح.

(٧) **ذرفت** : انصبّ الدّمع منها.

وَوَجِلَتْ [١] منها القلوبُ. فقال رجلٌ:

إن هذه موعظةُ مُوَدِّعٍ فبِمَاذا تَعْهَدُ إلينا يا رسول الله؟

قال: «**أُوصِيك بتقوى الله، والسَّمْع والطّاعة وإن عَبْدٌ حَبَشَيّ** [٢]**، فإنه مَنْ يَعِشْ منكم يَرَ اخْتِلافًا كثيرًا، وإيّاكم وَمُحْدَثات الأمور فإنّها ضَلالة، فَمَنْ أَدْرَك ذلك منكم فعلَيْه بِسُنَّتي وَسنةِ الخلفاء الرّاشِدين المهدّيين، عَضُّوا عليها بالنّواجذ**» [٣].

هذه بعضُ الأحاديث الواردة في فضل البكاء من خشية الله، وسيأتي المزيد بعد قليل.

ومن الآثار:

- قال الإمامُ **الحسن** - رحمه الله تعالى - :

«إن المؤمنين قَوْمٌ ذَلَّتْ والله منهم الأسْمَاعُ والأبصارُ والأبدانُ حتى حَسِبَهُمُ الجاهلُ مَرْضَى، وهم والله أصحابُ القلوب، ألا تراه يقول:

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤].

والله لقد كابدوا في الدّنيا حُزْنًا شديدًا، وجَرَى عليهم ما جَرى على مَنْ كان قَبْلَهُم، والله ما أحزَنَهم ما أَحْزَنَ النّاس، ولكن أبكاهم وأحزنهم الخوفُ من النّار» [٤].

- وقال **عَبْدُ الأَعْلَى التَّيْميّ** - رحمه الله - :

مَنْ أُوتي مِنَ العلم ما لا يُبَكّيه لَخَليقٌ ألاّ يكون أُوتي عِلْمًا يَنْفَعُ، لأنّ الله تعالى نَعَت العلماءَ فقال:

﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

---

(١) **وجلت** : خافت وفزعت.

(٢) وفي رواية: «**إن تأمّر عليكم عَبْدٌ** ».

(٣) **صحيح** : رواه الترمذي (٢٦٧٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، وابن ماجه في «المقدمة» (٤٢).

(٤) «التخويف من النار» لابن رجب (٢٣).

□ وقال **غاضِرةُ بْنُ فَرْهد:**

كان «فرقد السَّبخيّ» قد بكى حتى أضرّه ذلك البكاء وتناثرت أشفاره، فقيل له في ذلك، فقال:

«بلغني أن كُلّ عَيْن بَكَت من خشية الله لا يُصيبها لَفْحُ النّار يَوْمَ القيامة». قال:

فكان يبكي ويبكي أصحابه معه![1].

□ وقال **صدقة بن بكر:**

سمعتُ معاذ بن زياد التميمي يذكر أن فتى من الأزد بكى حتى أظلم بصره، فعوتب في ذلك، فقال:

ألم يَـــرث الـــبكاء أُنَـــاس صِـــدْق ... فقـــادهم الـــبكاءُ خَـــيْر المقـــام
ألم يَقُـــــل الإلــــهُ إليَّ عَـــبْدي ... فَكُـــل الخـــير عِـــنْدي في المعـــاد

والله لأَبكينّ أيام الدنيا، فإذا جاءت الآخرةُ فعند الله احتسب مصيبتي في تقصيري[2].

□ وقال **جعفر بن سليمان:**

اشتكى «ثابت البُناني»[3] عينه، فقال له الطبيب، اضمن لي خصلة تبرأ عينك، قال:

وما هي؟

قال: لا تبك.

قال: وما خَيْر في عَيْن لا تبكي[4].

□ وعن **عبد الله بن صالح** قال:

حدّثني رجلٌ من بني تميم: أن حسن بن صالح كان يُصلّي إلى السَّحَر، ثم يجلس

(١) **صحيح**إلى فرقد: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٥٣)، والبلاغات من أنواع الحديث الضعيف.
(٢) «الرِّقة والبكاء» (٢٠٤).
(٣) تابعيٌّ جليل.
(٤) **صحيح** أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٣٢٣).

فيبكي في مصلاّه، ويجلس عليٌّ فيبكي في حُجرته، قال: وكانت أُمّهم تبكي الليل والنهار. قال: فماتت، ثم مات عليٌّ، ثم مات حسن، قال: فرأيت حَسَنًا في منامي فقلتُ:

ما فعلت الوالدة؟

قال: بُدِّلتُ بطول ذاك البكاء سرور الأبد.

قلتُ: فعليّ؟

قال: وعليٌّ على خير.

قال: قلت: فأنت؟

قال: وهل نتّكل إلاّ على عفوه؟[1].

- وحُكي عن «محمد بن المنكدر» - رحمه الله : أنه كان إذا بكى يمسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول:

«بلغني أن النّار لا تأكل مَوْضِعًا مَسَّته الدّمُوعُ!»[2].

- وقال **خالد بن معدان** - رحمه الله - :

«إن الدمعة لتطفئ البحورَ من النِّيران، فإن سالت على خَدٍّ باكيها لم يَرَ ذلك الوجهُ النارَ، وما بكى عبدٌ من خشية الله إلاّ خشعت لذلك جوارحُه، وكان مكتوبًا في الملأ الأعلى باسمه واسم أبيه مُنَوّر قَلْبه بِذِكْره الله»[3].

- وعن **أبي الجودي** - رحمه الله - قال:

قال لي عمر بن عبد العزيز: «يا أبا الجودي، اغْتَنم الدّمْعَة تسيلها على خَدِّك لِلّه»[4].

- وعن **ابْنِ أبي مُلَيْكَة**، قال:

---

(١) **حسن:** رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» وقال محققه: مسعد السعدني: حسن.

(٢) «الإحياء» (٣/١٦٣).

(٣) **إسناده حسن:** رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٢٦).

(٤) **صحيح:** رواه ابن أبي الدنيا في «الرّقة والبكاء» (٤٣).

جلسنا إلى عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - في الحِجْر، فقال:

« ابْكُوا، فإن لم تجدوا البكاء فَتَباكَوْا، لو تعلمون العِلْمَ لَصَلَّى أحدُكم حتى ينكَسِر ظَهْرُهُ، وَلَبَكَى حتى يَنْقَطِعَ صَوْتُه »[(١)].

هذه بعض الآثار الثابتة في فضل البكاء من خشية الله - تعالى - وسيأتي المزيد بعد قليل إن شاء الله تعالى.

ثالثًا: أنواع البكاء:

قال **يزيد بن ميسرة** - رحمه الله - :

« البكاءُ مِنْ سَبْعَة أشياء: البكاءُ من الْفَرَح، والْبُكَاءُ من الحُزْن، والفَزَع، والرِّياء، والْوَجَع، والشّكر، وبكاءٌ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تعالى، فذلك الذي تُطْفِئُ الدَّمْعة منها أَمْثال الْبُحور من النّار »[(٢)].

أولاً: البكاء من الفرح:

وهذا نوع معروف، فكم من إنسان بُشّر بأَمْر يَسُرّه فَبَكى لأجْله فَرَحًا!

قال إسحاق بن راهويه: قلتُ لسفيان بن عُيَيْنة:

ألا ترى إلى أبي عليّ - يعني فضيلاً بن عياض - لا تكاد تجفّ الدّمعة! فقال سفيان:

« إذا فَرِحَ الْقَلْبُ نَدِيت العينان »، ثم تنفَّس سُفْيانُ نَفَسًا مفكّرًا[(٣)].

ثانيًا: البكاء من الحزن:

قال تعالى - حكاية عن حال يعقوب عليه السلام - :

(١) **صحيح** أخرجه الحاكم (٤/٥٧٨، ٥٧٩)، وغيره.
(٢) « حلية الأولياء » (١٠/١١٨).
(٣) **صحيح** أخرجه ابن أبي الدنيا في « الهمّ والحزن » (١٠٠).

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٨٤].

قال الإمام **القرطبي** - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية ما مختصره :

« قوله تعالى: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أي: أعَرْضَ عَنْهم؛ وذلك أن « يعقوب » لمّا بَلَغه خَبَرُ « بنيامين » تتامَّ حُزْنُهُ، وبلغ جهده، وجدّد اللّهُ مصيبته له في يوسف فقال: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ونسى ابنه « بنيامين » فلم يذكره. قال قتادة والحسن: والمعنى يا حزناه!

والأسف: شدّة الحزن على ما فات. ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ قيل: تبيضّ العين ويبقى شيءٌ من الرؤية، والله أعلم بحال يعقوب؛ إنما ابيضت عيناه من البكاء، ولكن سبب البكاء الحزن، فلهذا قال: ﴿ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾.

قال **النحاس**: فإن سأل قوم عن معنى شدّة حُزن يعقوب - عليه السلام - فللعلماء في هذا **ثلاثة أجوبة:**

منها: أن يعقوب عليه السلام لمّا علم أن يوسف عليه السلام حَيٌّ خاف على دينه، فاشتدّ حزنه لذلك.

وقيل: إنّما حزن لأنه سَلَّمَه إليهم صغيرًا، فندم على ذلك.

والجواب الثالث - وهو أَبْيَنُها - : هو أن الحزن ليس بمحظور، وإنما المحظور الْوَلْولَة، وشقّ الثّياب، والكلام بما لا ينبغي. وقال النبي ﷺ:

« **تَدْمَعُ الْعَيْنُ، ويَحْزن القلبُ، ولا نقول ما يُسخط الرَّبّ** »(١).

وقد بيَّن الله عز وجل ذلك بقوله: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يبثّه؛ ومنه كظم الغيظ وهو إخفاؤه؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال اللّهُ تعالى:

(١) رواه البخاري (١٣٠٣) بلفظ: « **إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون** ».

﴿ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨]. أي: مملوء كَرْبًا. ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم؛ وهو المشتمل على حزنه. وعن ابن عباس في قوله: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ قال: فهو كَمِد؛ يقول: يعلم أن يوسف حَيّ، وأنه لا يدري أين هو؛ فهو كَمِد من ذلك» ا.هـ(١).

ثالثًا: البكاء من الفزع:

وهذا أمْرٌ مُشَاهَدٌ معروف، وهو - غالبًا - يعقب الفَزَع الشّديد، ويكثر في الأطفال والنِّساء.

رابعًا: البكاءُ رياءً:

- جاء في «**حلية الأولياء**»: عن سفيان الثوريّ - رحمه الله - قال:

«البكاء عشرة أجزاء؛ تسعة لغير الله، وواحد لِلّه، فإذا جاء الذي لله في السَّنة مرَّة فهو كثير»، وقال:

«إذا استكمل العبدُ الْفُجور مَلَك عَيْنَيْه يبكي بهما متى شاء!».

- ولّما رأى **الحسنُ** رجلاً يبكي وقد ارتفع صوته، قال:

«إنّ الشَّيْطَان لَيُبْكي هذا الآن».

- وقال **بعضُ الصالحين**: «يأتي على الناس زمان يسكن الشيطانُ في أعينِ الناس، فمن شاءَ أن يبكي بَكَى».

لذا اجتهد الصّالحون في إخفاء بكاءهم، وكلّ أعمالهم الصّالحة، وضربوا في ذلك أروع الأمثال، فمن ذلك:

- قال محمّد بن واسع: «لقد أدركتُ زَمَانًا كان الرّجل يَضعَ رَأْسَه ورأس امرأته على وسادة واحدة، قد بَلّ ما تَحْت خَدِّه من دموعه لا تشعر به امرأتُهُ، ولقد أدركتُ رجالاً

(١) «تفسير القرطبي» (٩/٢١٦، ٢١٧) باختصار.

كان أحدُهم يقوم في الصّف فتسيل دُموعه على خَدَّيْه لا يشعر به الذي جَنْبه!»[١].

- وعنه - رحمه الله - قال:

«إن كان الرّجُل لَيَبْكِي عشرين سَنَةَ ومعه امرأتُه ما تَعلم به!»[٢].

- وعن معمّر، قال:

بكى رَجُلٌ إلى جَنْبِ الْحَسَن، فقال:

«قد كان أحدُهم يبكي إلى جَنْب صاحبه فما يَعْلَم به!»[٣].

- وعن الأعمش، قال:

بكى حذيفة - يعني: ابن اليمان - في صلاته، فلمّا فرغ التفتَ فإذا رجلٌ خلفه، فقال:

«لا تعلمنّ بهذا أحدًا»[٤].

وأحوال الصّالحين في هذا المقام أكثر من أن تُحْصَى.

فجاهد نفسك - **أخي المسلم** - في إخفاء بكائك، واعلم أن الصالحين كانوا يخفون حسناتهم كما كانوا يستحيون من ظهور سيئاتهم، وليكن على بالك: قولُ النبي ﷺ في وصف من يظلهم الله:

«**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»[٥].

اللّهم اجعلنا منهم.

---

(١) «الرقة والبكاء» لابن أبي الدنيا (١٧٥).

(٢) نفس المرجع السابق (١٧٦).

(٣) «الرّقة والبكاء» (١٧٦).

(٤) نفس المرجع السابق (١٧٣).

(٥) جزء من حديث طويل رواه البخاريَ ومسلم، وقد تقدّم قريبًا.

خامسًا: البكاء من الْوَجَع:

وهذا مشاهد ومعروف، فكم رأينا من مرضى ومصابين يبكون من شدّة آلامهم وَمُصَابهم.

كان لمحمد بن المنكدر - رحمه الله - جارٌ مُبْتَلى، فكان يرفع صَوْته بالبلاء، وكان محمّد يرفع صوته بالْحَمْد!!

سادسًا: بكاءُ الشُكْر:

عن أبي حباب عطاء، قال:

دخلتُ أنا وعبد الله بن عمر وعبيد بن عمير على أمّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وهي في خِدْرها، فسلّمنا عليها، فقالت:

من هؤلاء؟

قال: فقلنا: هذا عبد الله بن عمر وعبيد بن عمير.

قالت: يا عبيد بن عمير، ما يمنعك من زيارتنا؟

قال: ما قال الأول: زُرْ غبًا[١] تَزْدَدَ حُبًّا.

قالت: إنا لنحبّ زيارتك وغشيانك.

قال عبد الله بن عمر: دَعِينا من بطالتكما هذه، أخبرينا بأَعْجَب ما رأيت مِنْ رسولِ الله ﷺ؟

قال: فبكت ثم قالت:

كُلّ أَمْره كان عَجَبًا، أتاني في ليلتي حتى دخل معي في الفراش، حتى لصق جِلْدُه بجلدي؛ ثم قال:

«يا عائشة ائْذَني لي أَتَعبَّد لِرَبّي».

---

(١) غبًا: مرّة بعد مرّة.

قالت: إني لأحبّ قُرْبَك وأحبّ هواك. قالت: فقام إلى قِرْبةٍ في البيت فما أكثر صَبّ الماء، ثم قام فقرأ القرآن، ثم بكى حتى رأيتُ دموعه قد بلغت حِجْره، قالت:

ثم اتّكأ على جَنْبه الأيمن، وَوَضَع يده تحت خَدِّه، قالت: ثم بكى، حتى رأيتُ دموعه قد بَلَغَتِ الأَرْضَ، فدخل عليه بلالٌ فآذنه بصَلاة الْفَجْر، ثم قال:

الصّلاة يا رسول الله، فلمّا رآه بلالٌ يبكي، قال:

يا رسول الله، تبكي، وقد غفر اللّهُ لَكَ؛ ما تقدّم من ذَنْبِك وما تأخَّر؟

فقال: «**يا بلال، أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ وما لي لا أبكي وقد نزل عليَّ الليلة:**

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ إلى قوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١]، ثم قال:

«**وَيْلٌ لِمَنْ قَرأَ هَذِه الآيات ثم لم يَتفكَّرْ فيها**»(١).

فدّلت هذه الرواية على أن هناك بكاء شكر.

سابعًا: البكاء من خشية الله تعالى:

وقد ورد في فضله عدّة أحاديث، تقدّم بعضها، ونذكر - هنا - بعضها:

- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«**عَيْنان لا تَمَسُّهُما النّار: عَيْنٌ بَكَتْ مِنَ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ باتَتْ تَحْرُسُ في سبيل الله**»(٢).

- وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وابن حبّان في «صحيحه».

(٢) **صحيح بشواهده**: رواه الترمذي (١٦٣٩)، وقال محقق جامع الأصول (٤٨٧/٩): صحيح بشواهده.

« لا يَلِجُ النّار[1]، رجَلٌ بكى من خشيةِ الله حتى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ[2]، ولا يجتمعُ غُبارٌ في سَبيلِ الله[3] ودُخَانُ جهَنَّم »[4].

□ وعن أبي أُمامة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال:

« لَيْسَ شَيءٌ أحبَّ إلى الله مِن قَطْرتين وأثَرَيْن: قَطْرَةٍ من دموع في خَشْية الله، وقَطْرَةِ دَمٍ تُهْراقُ[5] في سَبِيل الله.

وأما الأثران: فَأَثَرٌ في سَبِيلَ الله ، وأثرٌ في فَرِيضةٍ من فَرَائِض الله »[6].

□ وعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال:

« مَنْ ذَكر الله ففاضت عَيْناه[7] مِنْ خَشْيَةِ الله حتى يُصِيبَ الأَرْض من دموعه لم يُعَذْبهُ اللّهُ تعالى يَوْم القيامة »[8].

هذا، والبكاء من خشية الله - تعالى - أنواع:

الأوّل: البكاء عند قراءة القرآن وسماعه:

□ عن ابن مسعود ﷺ قال:

قال لي رسول الله ﷺ:

« اقرأ عليَّ القرآن ».

قال: فقلتُ: يا رسول الله، أقرأُ عَلَيْك وعليك أُنزلَ؟

---

(١) **لا يلج**: لا يدخل.

(٢) المعنى: أنه من المحال أن يدخل النار من بكى من خشية الله.

(٣) المعنى: أن من غبّر نفسه في سبيل الله فلن يغير بدخان جنهم، وكل ذلك مبنى على فضل الله.

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي (١٦٣٣)، وغيره.

(٥) **تهراق**: بمعنى تراق.

(٦) **حسن**: رواه الترمذي (١٦٦٩)، وقال محقق جامع الأصول (٥٧٦/٩): إسناده حسن.

(٧) **ففاضت عيناه**: فبكى.

(٨) أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٢٦٠/٤)، وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

قال: « **إني أشتهي أن أسمَعه من غيري** » .

فقرأتُ النساء حتى إذا بلغتُ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾.[النساء: ٤١]، رفعتُ رأسي أو غَمَزَني رَجُلٌ إلى جَنْبي فرفعتُ رأسي فرأيتُ دُموعَه تَسيل »[1].

- وعن عبد الله بن عمرو، قال:

لما نزلت: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١]، بَكَى أبو بكر الصّدّيق - رحمه الله - فقال له رسولُ الله ﷺ :

« **ما يُبْكيكَ يا أبا بكر؟** » .

قال: أبكتني يا رسول الله هذه السّورة[2].

- وعن نافع، عن ابن عمر، أنه كان إذا أَتَى عَلى هَذه الآية:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦]، بكى حتى بَلَّ لِحْيَته البكاء ويقول:

« بلى يا ربّ »[3]

- وعن إبراهيم التيمي، قال: قرأ الحارث بن سويد: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فبكى ثم قال:

« إن هذا الإحصاء شديد »[4].

- وعن مقاتل بن حيّان، قال:

صلّيتُ خلف عمر بن عبد العزيز، فقرأ:

---

(١) رواه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠)، واللفظ له.

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبري في « تفسيره » (١٧٤/٣٠).

(٣) **إسناده حسن**: رواه ابن أبي الدنيا في « الرقة والبكاء » (٨٨).

(٤) **صحيح**: أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١/١٤)، وغيره.

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، فجعل يكررها لا يستطيع أن يُجَاوزها - يعني من البكاء - [١].

□ وعن مسروق، عن عائشة - رضي الله عنها - : أنها قرأت هذه الآية:

﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور: ٢٧]، فبكت، وقالت: «رَبّ مُنَّ عَليَّ وَقِني عذابَ السَّموم»[٢].

والثاني: البكاء عند سماع المواعظ:

□ عن ابن عمر، قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يَخْطُب وهو يقول:

«**لا تنسوا العظيمتين**».

قلنا: وما العظيمتان؟

قال: «**الجنة والنار**».

فذكر رسول الله ﷺ ما ذكر ثم بكى حتى جرى أوائل دموعه جانبي لحيته، ثم قال:

«**والذي نَفسَ مُحمّد بيده لو تعلمون من عِلْمِ الآخرة ما أعلم لَمَشيتم إلى الصّعيد ولحثيتم على رءوسكم التّراب**»[٣].

□ وعن قتادة، قال:

دخل على عمر بن عبد العزيز رجلٌ يقال له «ابن الأهتم»، فلم يزل يعظه وعمر يبكي حتى سَقَط مغشيًا عليه![٤].

وأحوال البكّائين عند سماع المواعظ أكثر من أن تحصى.

---

(١) **إسناده حسن**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٠٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، وابن أبي شيبة، وغيرهما.

(٣) **إسناده لا بأس به**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١١٣).

(٤) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرّقة والبكاء» (١٢٧).

والثالث: البكاء في الصّلاة:

□ عن عبد الله بن الشّخير ﷺ قال:

«رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُصَلِّي وفي صدره أَزِيزٌ كأَزِيزِ[(١)] الرَّحَى من البكاء ﷺ»[(٢)].

□ وعن راهويه، قال:

رأيتُ أبا عبد الرحمن الغَنَويّ رَفَع رأسه من السّجود خَلْف الْمَقام، فإذا الموضع مُبْتَلّ من دموعه، فلمّا سَلّم رَفَع يديه يدعو فرأيت دموعه سائلة على لِحيته![(٣)].

□ وعن محمد بن عبد الله الزراد، قال:

صَلَّيْتُ إلى جَنْبِ رياح القَيْسى فكنتُ أسمع وَقْعَ دُموعه على البواري مثل الوكف طَق طَق![(٤)].

□ وعن عبيد الله بن عمر، قال:

أتيتُ صاحبًا لي يقال له «عمران بن مسلم» فأراني موضعين مبتلين أحدهما بحذاء الآخر، فقلتُ:

ما هذا؟

قال: هذا والله دموع «ضيغم»[(٥)] البارحة بين المغرب والعشاء وهو راكع[(٦)].

والرابع: البكاء عند النّداء بالصّلاة:

□ عن سفيان، قال:

---

(١) **الأزيز**: صوت كصوت الرَّحى في التحرّك والاضطراب.
(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٩٠٤)، وغيره، وقال محقق جامع الأصول (٤٣٥/٥): حديث صحيح.
(٣) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٣٩).
(٤) **حسن**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرّقة والبكاء» (١٤٣).
(٥) هو: «ضيغم بن مالك»: العابد، انظر ترجمته في «صفة الصفوة» (٢٤٠/٣- ٢٤٣).
(٦) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٤٨).

كان «موسى بن جعفر» يبكي في وقت كلّ صلاة، فكانوا يرون أنه يذكر الموت، والقيامة عند الصّلوات[١].

□ وعن سفيان - أيضًا - قال:

كان «يزيد بن السّباطة» - رحمه الله - إذا أذّن بكى، وربّما صَرَخ... فقال له بعضُ الأمراء:

ما الذي يغشاك عند النداء؟ فبكى ثم قال:

«إني لأشبهه بالنّفخة» ثم غشى عليه.

قال سفيان: وسمعتُه يقول: لولا ما أؤمّل من الفَرَج والرّاحة بعد الموت لظننتُ أن نفسي ستخرج فَرَقًا من الموت.

قال سفيان: وذكروا عنه أنه كان يقول إذا فَرَغ من أذانه: انقطعت الرّغَائب دونك، وَكَلَّت الألْسنُ إلاّ عن ذِكْرك، وذهلت عقولُ أولئك عن غيرك شوقًا واشتياقًا، فاعْطِ القومَ إلهي أمنيتهم، وأَجْب دعوهم، وتفضّل علينا وعليهم بِجُودِك يا كريم[٢].

والخامس: البكاء على الذنوب:

□ وعن عقبة بن عامر ﷺ قال:

قلتُ: يا رسول الله ما النجاة؟

قال: «**امْلك عليك لسانك، ولْيَسَعْك بَيْتُك، وَابْكِ على خطيئتك**»[٣].

وأحوال وأقوال البكّائين على ذنوبهم، وما فرّطوا في جَنْب رَبّهم كثيرة، وكلّها تدلّ على صدق أوبتهم، وإخلاص توبتهم، ورقة قلوبهم، وإليك بعضها:

□ عن قيس بن سليم العنبري، قال:

---

(١) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٥٢).
(٢) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٥٧).
(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٤٠٦)، وابن المبارك في «الزهد» (١٤٣)، وغيرهما.

كان الضحّاك بن مزاحم إذا أمسى بكى، فقيل له:

ما يبكيك؟

قال: «لا أدري ما صنعتُ اليوم من عملي»(١).

- وعن زهير السلولي، قال:

كان رجل من بني عنبر قد لهج بالبكاء، فكان لا يُرَى إلاّ باكيًا، قال:

فعاتبه رجلٌ من إخوانه يومًا فقال:

لِمَ تبكي - رحمك الله - هذا البكاء الطويل؟ فبكى ثم قال:

بكيتُ على الذّنوب لعظَم جُرْمي ... وَحُق لكلّ من يَعْصِي البكاء

فلو كان البكاءُ يَردّ هَمِّي ... لأسعدت الدُّموع مَعًا دِمَاء

ثم بكى حتى غشي عليه، فقام الرجل عنه وتركه(٢).

- وعن ابن أبي الدنيا قال:

سمعتُ أبا جعفر القاري في جوف الليل وهو يبكي ويقول:

ابكِ لذَنْبِك طول الدَّهْر مُجْتَهِدًا ... إن البكاء معولُ الأحزانِ

لا تَنْسَ ذَنْبَك في النّهار وطوله ... إن الذّنوبَ تُحِيطُ بالإنْسانِ

ويبكي بكاءًا شديدًا ويردد ذلك.

- وعن فهد بن حيان، قال:

سمعتُ صالح المرّي، قال:

قال يزيد الرّقاشي: إذا أنت لم تَبْك على ذَنْبِك فمن يبكي لك عليه بَعْدَك؟!

قال: ثم يبكي صالح ويقول:

---

(١) **صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٨٦).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (١٨٧).

«يا إخوتاه ابكوا على الذّنوب فإنها ترين القلوب حتى تَنْطَمِسَ فلا يَصِل إليها من خير الموعظة شيءٌ»(١).

فيا أيُّها العاصي:

لا تُغْسل أدناسُ الذّنوب إلا بماء المدامع.

ولا ينجو من قتار المعصية إلاّ من يُسارع.

أحضر قلبك ساعة عساه بنائحة الموعظة يراجع.

كم لي أتلو عليك صحف الموعظة وما أظنّك سامع؟!

لكن يوم المعصية ما أنحسه من طالع.

ويوم الطاعة مختار وكُلّ سَعْد فيه طالع.

اطلب وَيْحَك رفاق التائبين.

وجدّد رسائلك للحبيب فطالع.

مِصْباح التقوى يدلّ على الجادة.

وكم في ظُلْمة الغفلة من قاطع!

ابْكِ - وَيْحَك - على موت قلبك وعمى بصيرتك وكثرة الموانع.

إذا لم يَعظْك الدّهرُ والشَّيْبُ والضّعفُ فما أنت صانع؟

فبالله - **يا إخواني** - بادروا بالمتاب، وراجعوا أنفسكم قبل يوم الحساب.

ما اعتذاري وَأَمْر رَبي عَصَيتُ ... حتّى تُبْدي(٢) صحائفي ما أتيتُ

ما اعتذاري إذا وقفتُ ذليلاً ... قد نَهاني ما رآني اشتهيتُ

يا غنيًّا عن العبادِ جَميعًا ... وعليمًا بكلّ ما قد سَعَيْتُ

---

(١) نفس المرجع.

(٢) **تُبْدي**: تُظْهر.

لـــــيْسَ لي حُجــــةٌ ولا لي عُــــــذرٌ فـــاعفُ عـــن زَلَّـــتي ومـــا قـــد جَنَيتُ

والسادس: البكاء عند ذكر الحساب:

ذكر الحساب هو الذي أبكى أولي الألباب...

ولم لا يكون؟ والله تعالى يقول:

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٧].

وقال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذه بعض أقوالهم وأحوالهم:

- عن البراء، قال:

كُنّا مع رسول الله ﷺ في جنازة فَجَلس على شفير القبر فبكى حتى بَلَّ الثّرى، ثم قال:

«**يا إخْواني! لمِثل هذا فأعدُّوا**»(١).

- وعن بشر بن منصور، قال:

بكى بديل العقيلي حتى قرحت مآقيه، فكان يعاتب في ذلك، فيقول:

إنما أبكي خوفًا من طول العطش يوم القيامة.

- وعن عبد الرحمن بن مالك، قال:

بكى أسيد الضّبي حتى فقد بصره، وقد عوتب على البكاء هذا، فقال:

«الآن حين لا أهدأ، وكيف أهدأ وأنا أموت غدًا؟ والله لأبكين، ثم لأبكين، ثم لأبكين، فإن أدركتُ بالبكاءِ خيرًا فبِمَنٍّ مِنَ الله وَفَضْله، وإن تكن الأخرى فما بكائي في جَنْب ما أَلْقَى؟».

---

(١) حسن: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٠٢).

نعم يا سيّدي، ما بكاؤنا في جَنْب ما نَلْقى:

وَلَوْ أَنَّا إذا مِتْنَا تُرِكْنا لكانَ الموتُ رَاحةُ كُلِّ حَيّ
ولكنّا إذا مِتْنَا بُعِثْنَا وَنُسْئلُ بعدها عن كُلِّ شَيّ

قال حميد: بَيْنما الحسن البصري جالسًا في المسجد حتى تَنَفّس الصّعداء وبكى بكاء شديدًا، ارتعدت منْكباه وخفق قَلْبُه، ثم قال:

«لو أن بالقلوب حياة، أو أن بها صلاحًا لبكت من ليلةٍ صبيحتها القيامة، أي يوم عباد الله ما سمع الخلائقُ بيوم أكثر من عَوْرَة بادية، ولا عَيْنًا باكية».

فيا أخا الإسلام:

تذكَرّ وقوفك يَومَ الْحَشْرِ عُرْيَانا مُسْتَوْحِشًا قلق الأَحْشَاء حَيْرانا
والنّار تَلْهب من غيظ ومن حنق على العُصَاة ورَبّ العرش غضبانا
اقرأ كتابك يا عَبْدي على مَهل فهل ترى فيه حَرْفًا غير مَا كانا
فلمّا قرأتَ ولم تُنْكِرْ قراءته وأقررتَ إقرارَ من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليلُ خُذوه يا ملائكتي وامْضُوا بعبدٍ عَصَى للنّار عَطْشَانا
المشركون غَدًا في جَهَنّم يَلْتَهبوا والموحّدون بدارِ الْخُلْد سُكّانا

يا رب:

يا مَنْ يَرَى مَدّ الْبَعوض جَنَاحَها في ظُلْمَةِ اللّيل البهيم الأَلْيَلِ
وَيَرى مَنَاطَ عُروقها في نَحْرِها والمخّ في تِلْك العِظَام النُّحّلِ
امْنُنْ عَليَّ بتوبةٍ تَمْحُو بِها ما كان مِني في الزّمان الأَوّل

۞۞۞۞۞

٧٧- الخشوع

الخشوع: قيامُ القلبِ بين يدي الرَّبِّ بالخضوع والذُّل.

وهو: انقياد الجوارح وانكسارها بين يدي خالقها وسيّدها.

وهذا التسليمُ الشّامل، يثمر عزَّ الدّارين.

وإذا تَذَلّلَتِ الرِّقَابُ تَواضُعًا   مِنّا إلَيْكَ فَعِزّها في ذُلّها

وهذا الخشوع: أوّل شيء يُرفع من هذه الأمّة!

فعن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال:

« **أوّل شَيءٍ يُرْفَع مِنْ هذهِ الأُمّة: الخشوع، حتى لا تَرَى فيها خاشعًا!** »[1].

وعن شَدّاد بن أَوْس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال:

« **إنَّ أَوّل ما يُرفَع من النّاس: الْخُشُوع** »[2].

وقال **حذيفةُ** ﷺ:

« أوّل ما تفقدون من دينكم: الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم: الصّلاة! »[3].

ولأهمية هذا الْخُلُق، فالحديث عنه ينحصر في:

الأول: تعريف الخشوع.

والثاني: فضله.

والثالث: أنواعه.

والرابع: فضل الانكسار لله.

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في « الكبير »، وانظر: « صحيح الجامع » (٢٥٦٩).

(٢) **صحيح**: أخرجه الطبراني في « الكبير »، والحاكم، وصحّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) « مدارج السالكين » (١/٥٢١).

والخامس: درجاته.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

أولاً: تعريف الخشوع:

الخشوع «**لُغَةً**»: مَصْدرُ خَشَعَ يَخْشَعُ وهو مأخوذٌ من مادّة (خ ش ع) التي تدلُّ كما يقول ابن فارس على معنى واحد هو التطامن، يقال خشع فلان إذا تطامن وطأطأ رأسه وهو قريب المعنى من الخضوع، إلاّ أن الخضوع في البدن وهو الإقرار بالاستخذاء، والخشوع في البدن والصّوت والبصر، قال تعالى:

﴿ خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ ﴾ [القلم: ٤٣].

و«**اصطلاحًا**»: قيامُ القَلْب بين يَدَي الرَّبِّ بالخضوع والذّلّ. وقيل: هو الانقياد للحقّ.

وقال الإمام **الجُنيد** - رحمه الله - :

«الخشوع: تذلّل القلوب لعلاّم الغيوب».

وقال الإمام **ابن القيّم** - رحمه الله - :

«والحقّ أن الخشوع معنى يلتئم من التعظيم والمحبّة والذُّلّ والانكسار»[١].

والخشوع: قاسِمٌ مشترك بين الأخلاق والعقيدة والعمل، يغذوها بخشية الله، فتؤدِّي مقصودها في النّفس والقلب معًا.

وهو: عِلْمٌ نافع يُبَاشِر القلب، فَيُوجب له السكينة والخشية، والإخْبات والتواضع والانكسار لله، وكلٌّ أولئك رَشْحٌ مِنْ فَيْض الْخُشُوع[٢].

وهو: حَيَاةُ القلب، وَسِرّ صَلاَحه، وَفَلاحه، إذا فارق الْقَلْبَ فَسَد، وإذا رَحَل عنه مَات!

لذا كان النبي ﷺ يستعيذُ بِرَبِّه من قلب لا يخشع:

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٥٨).

(٢) «الخشوع وأثره في بناء الأمّة» للشيخ/ سليم الهلالي.

عن زيد بن أرقم ﷺ؛ أن النبي ﷺ كان يقول:

«اللّهُمّ إني أعوذ بك من عِلْمٍ لا يَنْفع، وقلبٍ لا يَخْشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا تُسْتجاب»(١).

ثانيًا: فضيلة الخشوع:

للخشوع فضائل كثيرة، منها:

الفضيلة الأولى: التَّخلّق بِخُلُقِ الأنبياء:

قال الله تعالى:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

وقال الحافظ **ابن كثير** - رحمه الله - في تفسيره لهاتين الآيتين:

«يخبر تعالى عن عبده زكريا ﷺ حين طلب أن يهبه اللّهُ ولدًا يكون بعده نَبيًّا ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ أي: خفية عن قومه ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾ أي: لا ولد لي ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ أي امرأته، قال ابن عباس: كانت عاقرًا لا تلد فولدت.

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي: في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ قال الثوري: رغبًا فيما عندنا ورهبًا ممّا عندنا: ﴿ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي: مصدّقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: مؤمنين حقًا.

---

(١) رواه مسلم.

وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبدًا. وعن مجاهد أيضًا: خاشعين أي: متواضعين. وقال الحسن وقتادة والضّحاك: خاشعين: أي: مُتَذَلِّلين لله ﷻ وكل هذه الأقوال متقاربة، وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن حكيم، قال: خطبنا أبو بكر ﷺ ثم قال: أمّا بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله، وتُثْنُوا عليه بما هو له أَهْل، وتخلطوا الرّغبة بالرّهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله ﷻ أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ »ا.هـ[1].

الفضيلة الثانية: أنّه طريق الفلاح:

قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

فبيّن تعالى أن الخشوع طريق الفلاح في الدنيا والآخرة.

الفضيلة الثالثة: أنه طريق إلى مغفرة الذنوب:

- قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

- وعن عثمان ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٣١٠).

«مَا من امْرئ مُسْلم تَحْضُرُه صلاةٌ مَكْتُوبةٌ، فَيُحْسِنُ وضوءَها، وخشوعَها، وركوعَها، إلاّ كانت كفّارةً لِمَا قَبْلَها من الذنُوب، ما لم يُؤْتِ كَبِيرةً، وذلك الدَّهْرَ كُلَّه»(١).

الفضيلة الرابعة: أنه طريق إلى أعالي الفردوس:

قال تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١- ١١].

الفضيلة الخامسة: أن القلب الخاشع بعيد عن الشيطان:

قال **سهل بن عبد الله** - رحمه الله تعالى -:

«مَنْ خَشَع قَلْبُه لم يقربْ منه الشَّيْطان»(٢).

الفضيلة السادسة: أنه طريق إلى رفعة الآخرة:

قال **عبد الله بن مسعود** ﷺ:

«مَنْ تَواضَع لِلّه تَخَشُّعًا، رَفَعَه اللّهُ يَوْمَ القيامة، ومن تَطَاول تَعظُّمًا، وَضعه اللّهُ يَوْمَ القيامة»(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٢٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٥٥٩/١).

(٣) «الزهد» للإمام وكيع بن الجرّاح (٤٦٧/٢).

الفضيلة السابعة: أنه دَليلٌ على صَلاَح العبد واسْتقَامَته:

قال الإمام **ابن القيم** – رحمه الله – :

«الخشوع: هو الاستسلام للْحُكْمَيْن: الدِّيني الشَّرْعيّ؛ بعدم معارضته برأي أو شهوة، والقَدَريّ؛ بعدم تلّقيه بالتَّسَخُّط والكراهية والاعتَراض» ا.هـ[1].

وقال **عباد بن زياد التيميّ** – رحمه الله تعالى – يَرْثي إخوة له مُتَعبِّدين:

فتْـــيةٌ يُعْـــرَف التَّخَشُّـــعُ فـــيهم كُلُّهـــم أحْكَـــمَ القُـــرآنَ غُلامـــا
قَـــدْ بَـــرَى جلْـــدَه الـــتَّهَجُّدُ حَـــتَّى عَـــاد جلْـــدًا مُصـــفرًا وعظَامًـــا
تَـــتَجَافى عَـــنِ الفِـــراشِ مِـــنَ الْخَوْفِ إذا الجـــاهلُون بـــاتوا نـــيَامًا
بـــأنِين وَعَـــبْرة ونحيـــب ويَظلُّـــونَ بالـــنَّهار صـــياما
يَقْـــرءُون القـــرآنَ لا رَيْـــبَ فـــيه ويَبيـــتُون سُـــجَّدًا وَقـــياما[2]

ثالثاً: أنواع الخشوع:

اعلم – **أخي المسلم**– أن الخشوع **نوعان:**

الأول: خشوع النّفاق:

وهو تكلّف الإنسان تعاطى الخشوع في جوارحه أو أطرافه، مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوّه منه! [3].

وقد كان السّلف يستعيذون بالله – تعالى – منه. قال أبو الدَّرْداء ﷺ:

استعيذوا بالله من خشوع النفاق. قالوا:

وما خشوع النفاق؟ قال:

أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع!

---

(١) «مدارج السالكين» (١/٥٦٠).
(٢) «التخويف من النار» للحافظ ابن رجب (٢٩، ٣٠).
(٣) «الخشوع في الصلاة» للحافظ ابن رجب (٩).

وعن عمر بن الخطّاب ﷺ أنه رأى رجلاً طأطأ رقبته في الصّلاة. فقال:

« يا صاحِب الرَّقَبة ارْفَعْ رَقَبتك، ليس الخشوع في الرِّقاب، إنّما الخشوع في القلوب».

فمن أظهر خشوعًا غير ما في قلبه، فإنما هو نفاق على نفاق.

أخي الكريم:

ونفاق الظاهر ثمرة نفاق الباطن، فمرض القلب وقسوته وخبثه والشبهات التي تصول وتجول فيه يُنْشِئ هذا الخشوع المزيف وأمثاله.

يتزيّا صاحبه بزي الصّالحين، ويتسربل بسربال المتقين، ويلبس ثياب العارفين، وَقَلْبُه أقسى من قلب فرعون!

- عن منصور عن مجاهد في قوله - تعالى - : ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال: « الخشوع».

قلت: ما كنتُ أراه إلاّ هذا الأثر في الوجه[١]. فقال:

« ربّما كان بَيْن عَيْني من هو أقْسَى قَلْبًا من فِرعون! »[٢].

ومن كان هذا حاله فقد تمّت خسارته - والعياذ بالله تعالى - .

قال **ابن الأعرابي** - رحمه الله - :

« أَخْسَرُ الخاسِرين: من أَبْدى[٣] للناس صالح أعماله، وبارز بالقبيح من هو أقْرب إليه من حَبْل الوريد»[٤].

---

(١) يعني: أثر السجود في الجبهة.

(٢) « تفسير ابن كثير» (٣١٣/٤).

(٣) أبدى: أظهر.

(٤) « الرسالة القشيرية» (٣٠).

وكم رأينا في دنيا الناس أصنافًا كما وصف مجاهد - رحمه الله - :

المسبحة في يمينه، وعلامة الصّلاة في جبينه، ولسانه أنجس من بَوْله، وعمله أخبث من قوله!

حاله كما روى الترمذي - بسندٍ ضَعِيفٍ - عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«يخرجُ في آخرِ الزّمان قومٌ يَخْتَلون الدُّنْيَا بالدِّين، ويلبسون للنّاس مُسوك الضّأْن من اللّين، ألسنتُهم أحْلَى من السُّكر، وقلوبُهم قُلوب الذّئاب، يقول اللّهُ ﷻ:

أبِيَ يَغْتَرّون؟ وَعَلَيَّ يَجْتَرِئون؟ لأبعثنَّ على أولئك فِتْنَةً تدع الحَلِيم فيها حَيْران».

نسأل الله تعالى السّلامة.

علاجه:

وعلاج هذا النّوع من الخشوع يتم **بثلاثة أمور**:

الأول: الاتِضَاعُ لِنَظَر الْحَقّ:

وهو اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرّب إليها، واطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح، وخوف العبد الحاصل من هذا يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلّما كان أشدّ استحضارًا له كان أشدّ خشوعًا، وإنّما يفارق الخشوع القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه.

الأمر الثاني: تَرَقُّب آفَات النَّفْس والعمل:

فظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبها لك يجعل القلب خاشعًا لا محالة، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما: من الكبر، والعُجْب، والرّياء، وضعف الصدق، وقلة اليقين، وتشتت النية، وعدم إيقاع العمل على وجهٍ يرضاه الله - تعالى - وغير ذلك من عيوب النفس.

وقد كان بعض السَّلف يقول: «كفى بالنَّفْس شُغْلاً عن الناس».

الأمر الثالث: رؤيةُ فَضْلَ كُلّ ذِي فَضْلٍ عليك:

وذلك بأن تراعي حقوق الناس فتؤدِّيها، ولا ترى أن ما فعلوه فيك من حقوقك عليهم، فلا تعارضهم عليها؛ فإن هذا من رُعونات النَّفْس، وحماقاتها، ولا تطالِبْهُم بحقوقِ نَفْسِك، وتعترف بفضل ذِي الفَضْل منهم وتَنْسَى فضل نفسك.

وقد قال شيخ الإسلام **ابن تيمية** - رحمه الله - :

« العارفُ لا يَرَى له على أَحدٍ حَقًّا ولا يَشْهَدُ له على غيرِه فَضْلاً، ولذلك لا يُعَاتِبُ ولا يُطالِبُ، ولا يُضَارِب » ا.هـ.

هذا معجون من العلم والعمل، به يستقيم ظاهرُ الإنسان وباطنه، ولكنه يحتاج إلى همّة عالية، وصبر طويل، وعزم لا يلين.

فيا أخا الإسلام:

كُـنْ كالصُّقور عـلى الـذُرَا   تَصْـغَى لوَسْوَسَـة القَمَـرْ
لا كالغـرابِ يُطـارد   الجِـيَفَ الحَقِـيرَةَ في الحُفَـرْ

واعلم أن النّصر مع الصّبر.

النوع الثاني: خشوع الإيمان:

وهذا هو الخشوع الذي يترتب عليه فلاحُ العبد في الدنيا والآخرة، وهو الممدوح في الكتاب والسّنة وعلى ألسنة سلف الأمّة.

قال الحافظ **ابن رجب** - رحمه الله تعالى - :

« وأصل الخشوع الحاصل في القلب، إنما هو من معرفة الله، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف، فهو له أخشع.

ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصّفات المقتضية للخشوع.

- فمن خاشع لقوّة مطالعته لقرب الله من عبده واطلاعه على سِرِّه وَضَمِيره، المقتضي للاستحياء من الله تعالى، ومراقبته في الحركات والسّكنات.
- ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضى للاستغراق في محبّته والشوق إلى لقائه ورؤيته.
- ومن خاشع لمطالعته شدّة بَطْشه وانتقامه وعقابه المقتضى للخوف منه. وهو سبحانه وتعالى جابر المنكسرة قلوبهم من أجله.

وهو سبحانه وتعالى يتقرب مِمَّن يُنَاجيه في الصّلاة وَيُعَفِّر وَجْهَه في التُّرَاب بالسُّجود، كما يتقرّب من عباده الدّاعين له، السائلين له، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار، ويجيب دعاءهم، ويعطيهم سؤلهم، ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والإجابة.

روى الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - في كتاب «الزّهد» بإسناده عن عمران القصير، قال:

«قال موسى عليه السلام : أيْ رَبّ: أين أَبْغيك؟ قال: ابغني عند المنكسرة قُلوبهم مِنْ أَجْلِي، إني أدْنو منهم كُلّ يَوْم باعًا فلولا ذلك لانْهَدَموا».

وقد جاء في السُّنَّة «الصّحيحة» ما يشهد بقرب الله من القلب المنكسر ببلائه، الصّابر على قضائه، والرّاضي بذلك، كما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

«يقولُ اللّهُ عز وجل يَوْمَ القيامة: يا ابْنَ آدم مَرِضتُ فلم تَعُدْني؟ قال: رَبّ كيف أعودك وأنت رَبّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عَبْدي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْه، أما علمتَ أنك لو عُدْتَه لوجدتّني عِنْدَه»[1].

وروى أبو نُعيم من طريق حمزة عن ابن شوذب قال:

«أوحى اللّهُ تعالى إلى موسى عليه السلام: أَتَدْري لأيّ شَيءٍ اصْطَفَيْتُك على الناس

---

(١) جزء من حديث طويل رواه الإمام مسلم.

برسالاتِي وبكلامي؟ قال: لا يا ربّ! قال: لأنّه لم يتواضع لي أَحَدٌ قَطُّ تَوَاضُعَكَ».

وتواضعه هذا هو الخشوع، وهو العلم النافع، وهو أوّل ما يُرفع من العلم.

فخرّج النّسائي[1] من حديث جُبير بن نفير ﷺ عن عوف بن مالك ﷺ:

أنّ رسولَ الله ﷺ نَظَر إلى السَّماء يومًا، فقال:

«**هَذَا أوان يُرْفَع فيه العِلْم**».

فقال رَجُلٌ مِنَ الأنصار يقال له زيادُ بْن لبيد: يا رسول الله، أَوَيُرْفَع العِلْم وقد أُثْبت ووعته القلوبُ؟!

فقال له رسولُ اللهﷺ:

«**إن كنتُ لأَحْسَبُك من أَفْقه أَهْل المدينة**»، وذكر ضلاّل اليهود والنصارى، على ما في أيديهم من كتاب الله ﷻ، قال:

فلقيتُ شدّاد بن أَوْس فحدَّثْته بحديث عَوْف بْنِ مالك، فقال:

صَدَق عَوْف، ألا أخبرك بأوّل ذلك يُرفع؟

قلتُ: بلى.

قال: «الخشوع، حتى لا تَرَى خَاشِعًا».

فالعلم النافع: هو ما باشر القلوب فَأَوْجَب لها السّكينة والخشية والإخْبات للّه، والتواضع والانكسار وإذا لم يباشر القلب ذلك العلم، وإنما كان على اللسان، فهو حجّة الله على ابن آدم يقوم على صاحبه وغيره كما قال ابن مسعود ﷺ:

«إنّ أقوامًا يقرءون القرآنَ لا يُجاوز تَرَاقيهم، ولكن إذا وَقَع في القلب، فَرَسَخَ فيه نَفَع صاحبه».

وقال **الحسن** - رحمه الله -:

---

(١) في «السنن الكبرى»، وأخرجه الحاكم (٩٩/١) بنحوه، وصحّحه، وأقرّه الذهبي.

«العِلْمُ عِلْمَان: عِلْم باللّسان، وعلم بالقلب: فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان حُجّة الله على ابن آدم».

فأخبر النبي ﷺ أن العلم الذي عند أهل الكتابَيْن من قبلنا موجود بأيديهم ولا ينتفعون بشيء منه، لما فقدوا المقصود منه، وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم وإنما هو على ألسنتهم تقام به الحجة عليهم.

ولهذا المعنى وصف الله – تعالى – في كتابه العلماء بالخشية كما قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

ووصف العلماء من أهل الكتاب من قبلنا بالخشوع كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧- ١٠٩].

وقوله تعالى في وصف هؤلاء الذين أتوا العلم:

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ : مدح لمن أوجب له سماع كتاب الله الخشوع في قلبه، وقال تعالى:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣].

ولين القلوب هو زوال قساوتها لحدوث الخشوع فيها والرّقة. وقد قبّح اللّهُ من لا يخشع قلبه لسماع كتاب الله وتدبّره. قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ ﴾ (الآية) [الحديد: ١٦].

قال **ابن مسعود** ﷺ:

«ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلاّ أربع سنين!!» خرّجه مسلم، وخرّجه النسائي، وزاد فيه:

«... فجعل المؤمنون يعاتب بعضهم بعضًا».

وقد سمع كثير من الصّالحين هذه الآية تتلى، فأثّرت فيهم آثارًا متعددة:

فمنهم من مات عند ذلك لانصداع قلبه بها، ومنهم من تاب عند ذلك وخرج عمّا فيه!

وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (الآية) [الحشر: ٢١].

قال **أبو عمران الْجَوْني**(١) – رحمه الله – :

«والله لقد صرّف إلينا ربُّنا في القرآن مَا لَوْ صرّفه إلى الجبال لَمَحاها وَدَحَاها».

وكان **مالك بن دينار**(٢) – رحمه الله- يقرأ هذه الآية ثم يقول:

«أقسم لكم لا يؤمنُ عبد بهذا القرآن إلاّ صدع قلبه».

ورُوى عن **الحسن** – رحمه الله – قال:

«يا ابْنَ آدم إذا وَسْوَسَ لك الشيطانُ بخطيئة، أو حدّثْتَ بها نَفْسك فاذكر عند ذلك ما حملك اللّهُ من كتابه مِمّا لو حَمِلته الجبالُ الرّواسي لخشعَتْ وتَصَدّعَتْ، أما سمعته يقول:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (الآية)، فإنما ضرب لك الأمثال لتتفكّر فيها وتَنزجر بها عن معاصي الله ﷻ، وأنت يا ابن

---

(١) أحد العلماء، من التابعين، سمع من عمران بن حصين، وغيره، تُوفّي سنة ١٢٨هـ.

(٢) السّيد الكبير، أبو يحيى، كان عالمًا، زاهدًا، يأكل من عمل يده.

آدم أحقّ أن تخشع لِذكر الله وما حَمَّلك من كتابه وآتاك من حكمه لأن عليك الحساب ولك الجنّة أو النّار».

وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من قلب لا يخشع كما في «صحيح مسلم» عن زَيْد بن أرقم: أن النبي ﷺ كان يقول:

«اللّهُمّ إني أعوذُ بِك من عِلْم لا يَنْفع، ومن قَلْبٍ لا يَخْشَع، ومن نَفْس لا تَشْبع، ومن دعوةٍ لا يُسْتجاب لها».

وقال أسد بن موسى في كتاب «الورع»: حدّثنا مبارك بن فضالة: كان الحسن - رحمه الله تعالى - يقول:

«إن المؤمنين لمّا جاءهم هذه الدعوة من الله صدّقوا بها، وأَفْضَى يَقينُها إلى قلوبهم، وخشعت لله قلوبُهم وأبدانُهم وأبصارُهُم، وكنت والله إذا رأيتهم، رأيت قومًا كأنهم يرون الآخرة رأي عين فوالله ما كانوا بأهل جدل ولا باطل ولا اطمأنوا إلاّ إلى كتاب الله ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم، ولكن جاءهم عن الله أمر فَصَدَّقوا به، فَنَعتهم اللّهُ تعالى في القرآن أَحْسَن نَعْت فقال:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال:

«حلماء لا يجهلون، وإذا جهل عليهم حلموا، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون، ثم ذكر ليلهم خير ليلٍ فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٤].

ينتصبون للّه على أَقْدامهم، ويفترشون وُجُوهَهم لِربِّهم سُجّدًا، تَجْري دموعهم على خدودهم فَرَقًا[1] من رَبِّهم.

---

(١) **الفرق:** الخوف والوجل.

ثم قال - رحمه الله - :

«لأَمْرٍ ما سَهروا ليلهم، ولأَمْرٍ ما خَشَعوا نهارَهم، قال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان ٦٥]، قال: وكل شيء يصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام، إنّما الغَرَام الملازم له ما دامت السموات والأرض. قال: صَدَق القومُ والله الذي لا إله إلاّ هو فعملوا، وأنتم تتمنّون، فإيّاكم وهذه الأماني رحمكم الله فإن الله لم يُعْط عبدًا بأمنيّته خيرًا قطّ، في الدّنيا والآخرة»، وكان يقول:

«يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حَيَاة».

وقد شرع الله تعالى لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان الناشئ عن خشوع القلب وذلّه وانكساره، ومن أعظم ما يظهر فيه ذلك من العبادات: الصّلاة، وقد مدح الله تعالى الخاشعين فيها بقوله:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

قال ابن لَهِيعَة عن عطاء بن يسار - رحمه الله تعالى - عن سعيد بن جبير - رحمه الله - :

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ : يعني: متواضعون لا يعرف مَنْ عن يمينه، ولا مَنْ على شماله، ولا يلتفت من الخشوع لله ﷻ ».

وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، قال:

«القنوت: طول الركوع والخشوع وغضّ البصر وخفض الجناح من رهبة الله تعالى»

قال: «وكان العلماء إذا قام أحدهم إلى الصّلاة، هاب الرحمن ﷻ عن أن يشذّ نظره أو يلتفت أو يقلب الحصى، أو يعبث بشيء، أو يحدّث نفسه بشيء من أمر الدنيا إلاّ ناسيًا، ما دام في صلاته».

وقال منصور عن مجاهد - رحمه الله - في قوله تعالى:

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، قال:

«الخشوع في الصّلاة».

وفي «صحيح مسلم» عن عثمان ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«مَا مِنَ امْرِئٍ مُسْلم، تحضره صَلاَة مكتوبة، فَيُحْسن وضوءَها، وَخُشُوعَها، وركوعها؛ إلاّ كانت كفّارة لما قَبْلها من الذّنوب، ما لم تُؤتَ كبيرة، وذلك الدّهْر كلّه».

ومما يظهر فيه الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصّلاة:

- **وَضْعُ الْيَدَيْن إحْدَاهما على الأخرى لله حال القيام:**

وقد روي عن الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - أنه سُئل عن المراد بذلك، فقال:

«هو ذُلٌّ بَيْن يَدَي عَزِيز».

قال علي بن محمد المصري - الواعظ - رحمه الله - :

«ما سمعتُ في العلم بأحسن من هذا»(١).

وملاحظة هذا المعنى في الصلاة، يوجب للمصلّي أن يتذكّر وقوفه بين يدي الله تعالى للحساب.

كان **ذو النّون المصري** - رحمه الله تعالى - يقول في وصف العُبَّاد:

«لو رأيت أحدهم وقد قام إلى صلاته، فلمّا وقف في مِحْرابه واستفتح كلامَ سيِّده، خطر على قلبه أن ذلك المقام هو الذي يقوم النّاس فيه لربِّ العالمين، فانخلع قَلْبُه، وذَهل عَقْلُه» خرّجه أبو نُعيم - رحمه الله - .

ومن ذلك: **إقْباله على الله ﷻ، وعدم التِفَاتِه إلى غيره**: وهو **نوعان**:

أحدُهما: عَدَمُ التفات قَلْبِه إلى غير ما هو مُبَاح له، وتفريغ القلب لِلرَّبّ ﷻ

---

(١) وقال العلماء: «الحِكْمُة في هذه الهيئة أنه صفة السّائل الذّليل، وهو أمنع من العبث وأقرب إلى الخشوع» ا.هـ.

والثاني: عدم الالتفات بالنظر يمينًا وشمالاً وقصر النظر على موضع السجود: وهو من لوازم الخشوع للقلب وعدم التفاته.

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

سألتُ النبي ﷺ عن الالتفات في الصّلاة، فقال:

«هو اخْتِلاسٌ يَخْتلسه الشّيْطانُ من صَلاَة الْعَبْد».

وعن أبي ذرّ ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«لا يزال اللّهُ مُقْبِلاً على العبد في صَلاَته ما لم يَلْتَفت، فإذا الْتَفَتَ انْصَرَف عنه»(١).

وفي المعنى أحاديث أخرى متعددة(٢).

وقال **أبو عمران الجوني** - رحمه الله تعالى - :

«أَوْحى اللّهُ ﷻ إلى موسى ﷺ : إذا قُمْتَ بَيْن يَدَيَّ، فَقُم مقام الْعَبْدِ الحقير الذّليل، وذَمّ نَفْسَك فهي أَوْلى بالذّمّ، وناجني بِقَلْبٍ وَجِلٍ، ولسان صادق».

□ ومن ذلك: **الرّكوع:**

وهو ذلّ بظاهر الجسد، ولهذا كانت العرب تأنف منه، ولا تفعله حتى بايع بعضهم النبي ﷺ أن لا يخرّ إلاّ قائمًا، يعني يسجد من غير ركوع! كذلك فسّره الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - والمحققون من العلماء. وقال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٨].

وتمام الخضوع في الركوع: أن يخضع العبد بباطنه وظاهره لله ﷻ.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه:

«اللّهمّ لك رَكَعْتُ، وبك آمَنْتُ، وَلَكَ أسْلَمْتُ، خَشَع لَكَ سَمْعِي، وَبَصَري، وَمُخّي،

---

(١) حسن: رواه أحمد، وأبو داود، وغيرهما، انظر: «صحيح الترغيب» (٥٥٥).

(٢) ذكرنا بعضها في صفة «الصلاة».

وَعَظْمِي، وَعَصَبَي، وما استَقَلَّ بِهِ قَدَمِي»(١).

إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها: القلب الذي هو مَلِكُ الجوارح والأعضاء، فإذا خشع خشعت الجوارح والأعضاء كلّها تبعًا له ولخشوعه.

□ ومن ذلك: **السّجود**:

وهو أعظم ما يظهر فيه ذلّ العبد لربّه ﷻ حيث جعل العبدُ أشرف أعضائه، وأعزّها عليه، وأعلاها حقيقة ، أوضع ما يمكنه، فيضعه في التراب متعفّرًا، ويتبع ذلك انكسار القلب، وتواضعه، وخشوعه لله ﷻ، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك، أن يقرّبه الله ﷻ إليه، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، كما صحّ ذلك عن النبي ﷺ ، وقال الله تعالى:

﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

والسّجود - أيضًا - مما كان يأنف منه المشركون المتكبّرون عن عبادة الله ﷻ، وكان بعضهم يقول:

« أكْره أن أَسْجد فَتعلوني إستي » .

وبعضُهم يأخذ كَفًّا من حَصَى فيرفعه إلى جبهته ويكتفي بذلك عن السجود!

وإبليس إنّما طرده الله لمّا استكبر عن السّجود لمّا أمره الله بالسجود له، ولهذا يبكي إذا سجد المؤمن ويقول:

«أُمِر ابْنُ آدم بالسّجود ففعل فَلَه الجنّة، وَأُمِرتُ بالسجود فَعَصَيْتُ فَلِي النّار»(٢).

ومن تمام خشوع العبد لله ﷻ وتواضعه له في ركوعه وسجوده أنه إذا ذلّ لربه

(١) رواه مسلم، وغيره.

(٢) رواه مسلم، ولفظه: قال ﷺ : «إذا قرأ ابنُ آدم السّجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله - وفي رواية - : يا وَيْلي - أُمر ابْن آدم بالسّجود، فَسَجد، فله الجنّة، وأُمرت بالسّجود فأَبَيْتُ فَلي النّار».

بالركوع والسجود، وصف ربّه حينئذٍ بصفات العزّ والكبرياء والعظمة والعلوّ، فكأنّه يقول: الذّلّ والتواضع وصفي، والعلوّ والعظمة والكبرياء وصفك.

ولهذا شرع للعبد في ركوعه أن يقول:

« **سبحان ربي العظيم** ».

وفي سجوده: « **سبحان ربي الأعلى** ».

وروى عنه ﷺ أنه قال ليلة في سجوده:

« **أقولُ كما قال أخي داودُ عليه السلام: أُعَفِّر وَجْهي في التّراب لِسيِّدي، وحق لسيّدي أن تُعَفّر الوجوه له** »[١].

وقال **الحسن** - رحمه الله - :

« إذا قمتَ إلى الصّلاة فَقُم قَانِتًا كما أمرك اللّهُ، وإيّاك والسَّهْو والالتفات، وإيّاك أن ينظر اللّهُ إليك وتنظر إلى غيره، وتسأل الله الجنة وتعوذ به من النار، وقلْبُك سَاهٍ لا تَدْرِي ما تقول بلسانك »[٢].

والآثار في هذا المعنى كثيرة جدًا.

ومرّ عصام بن يوسف - رحمه الله - بحاتم الأصم[٣]، وهو يتكلّم في مجلسه، فقال:

يا حاتم، تحسن أن تصلّي؟

قال: نعم.

قال: كيف تصلّي؟

قال حاتم: « أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأدخل بالنّية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكّر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهّد بالتمام، وأسلّم

---

(١) رواه البيهقي، وقال المنذري (٨١/٢): هذا مرسل جيد.

(٢) أخرجه ابن نصر المروزي.

(٣) العالم، العابد، الورع، شيخ مشايخ خراسان، تُوفّي سنة ٢٣٧هـ.

بالنّية، وأختمها بالإخلاص لله ﷻ، وأرجع على نفسي بالخوف، أخاف أن لا يقبل مني، وأحفظه بالجهد إلى الموت». قال:

«تكلّم فأنتَ تُحْسِن تُصَلِّي».

ومن أنواع العبادات التي يظهر فيها الذل والخضوع لله ﷻ: الدُّعَاء:

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ومما يظهر فيه من الذ ّل: رفع اليدين:

وقد صحّ عن النبي ﷺ رفع اليدين من الدعاء في مواطن كثيرة، وأعظمها في «الاستسقاء» فإنه كان يرفع يديه حتىَ يُرى بياض إبطيه.

وكذلك كان يجتهد في الرّفع عشية عرفة بعرفة.

وقد كان بعض الخائفين يجلس بالليل ساكنًا مطرقًا برأسه، ويمد يديه كحال السائل، وهذا من أبلغ صفات الذّلّ وإظهار المسكنة والافتقار.

ومنه: افتقار القلب في الدعاء، وانكساره لله ﷻ، واستشعاره شدّة الفاقة إليه، والحاجة لديه، وعلى قدر الحرقة والفاقة تكون إجابة الدعاء.

وفي مستدرك الحاكم، وسنن الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«**ادْعُوا الله وأنتم مُوقِنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يَقْبل دُعَاءً من قلب غافِل لاه**»[1].

- ومن ذلك: **إظهار الذّلَ باللسان في نفس السّؤال والدعاء والإلحاح فيه.**

قال **الأوزاعيّ** - رحمه الله تعالى - :

«كان يقال: أفضل الدّعَاء الإلحاح على الله والتضرّع إليه».

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٣٤٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤٩٣/١)، وانظر: «الصحيحة» (٥٦٤/٢).

وكان بعضهم يقول: «بعزّتك وذلّي، وغناك وفقري».

وقال **طاوس** - رحمه الله - :

دخل عليّ بن الحسين[١] - رحمه الله تعالى - ذات ليلة الحُجْرة، فصلّى، فسمعتُه يقول في سجوده: عُبَيْدُك بِفِنائك، فقيرك بفنائك، مسكينك بفنائك، سائلك بفنائك.

قال طاوس: «فحفظتهنّ، فما دعوتُ بهنّ في كَرْبٍ، إلاّ فَرَّج عَنّي» أخرجه ابن أبي الدنيا.

رابعًا: فَضْلُ الانكسار لله:

عن أبي سعيد الْخُدْريّ ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يقول في دعائه:

«**اللّهمّ أحْيني مِسْكِينًا، وأمِتْني مِسْكِينًا، واحْشُرْني في زُمْرَة المساكين**»[٢].

وعن أبي ذرّ ﷺ قال:

«أَوْصَاني رسولُ الله ﷺ أن أُحِبّ المساكين وأن أَدْنو منهم»[٣].

وفي حديث معاذ ﷺ عن النبي ﷺ قال في قصّة المنام:

«**أسألُك فعْل الخَيرات، وتَرْكَ المنكرات، وحُبّ المساكين، وأن تَغْفِر لي وتَرْحَمني، وإذا أردتَ فِتْنَةَ قومٍ فَتوفّني إليك غَيْر مَفْتون، أسألك حُبّك، وحُبّ من يُحبّك، وحُبّ عَمَل يُقَرِّب إلى حبِّك**»[٤].

والمراد بالمساكين في هذه الأحاديث ونحوها: من كان قلبه مسكينًا خاضعًا لله، خاشعًا له وظاهره كذلك، وأكثر ما يوجد ذلك مع الفقر من المال، لأن المال يطغى - غالبًا - .

---

(١) هو: زين العابدين عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب - رحمه الله - .

(٢) **حسن**: رواه ابن ماجه (٤١٢٦)، والترمذيّ (٥٧٧/٤) وحسّنه، وهو كما قال.

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٢٦٣/١٠): رواه أحمد والطبراني في «الأوسط» بنحوه، وأحد إسنادي أحمد ثقات.

(٤) رواه الترمذي (٣٦٩/٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ قال:

«ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غِنى النّفس».

ولهذا قال الإمامُ أحمد وابن عيينة، وابن وهب وجماعة من الأئمّة: «إن الفقر الذي استعاذ منه النبي ﷺ : فَقْر النَّفس».

فمن استكان قلبه لله ﷻ وخشع له فهو مسكين وإن كان غنيًّا من المال؛ لأن استكانة القلب لا تنفك عن استكانة الجوارح، ومن خشع ظاهره واستكان، وقلبه ليس بخاشع ولا مستكين، فهو جبّار.

قال **الحسن** - رحمه الله تعالى - :

«إن أقوامًا جعلوا التواضع في لباسهم، والكبر في قلوبهم، ولبسوا مدارع الصوف، والله لأحدهم أشدّ كِبْرًا بمدرعته من صاحب السّرير بسريره، وصاحب المطرف[1] بمطرفه».

وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه أنكر أن لبس الثوب الحسن، والنعل الحسن كبر، قال:

«الكِبْرُ بَطَر الحَقّ، وَغَمْطُ النّاس»[2].

«وهذا تصريح بأن حسن اللباس ليس بكبر، والكبر إنما هو في القلب وهو عدم الانقياد للحق تكبرًا عليه، وغمط الناس: هو احتقارهم وازدراؤهم، فمن كان في نفسه عظيمًا، بحيث يحقر الناس لاستعظام نفسه، ويأنف من الانقياد للحق تكبّرًا عليه فهو المتكبّر، وإن كان ثوبه ليس بحسن، ونعله ليس بحسن، ومن ترك اللّباس الحسن تواضعًا لله وخشية أن يقع في نفسه شيء من الكبر، فقد أحسن فيما فعل، فقد كان ابن عمر - رضي الله عنهما - يفعل ذلك، وقول النبي ﷺ في الخميصة التي لبسها:

«أنها أَلْهَتنني آنِفًا عن صَلاَتِي»[3] يدلّ على ذلك» اهـ.

---

(١) المطرف - بكسر الميم وضمّها، وسكون الطّاء وفتح الرّاء- : رداء من خز مربع له أعلام.

(٢) رواه مسلم (٢/٨٩)، وغيره.

(٣) نصّ الرواية: عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ صلى في خميصة لها أعْلام فنظر في أعلامها

خامساً: درجات الخشوع:

قال الإمام **ابن القيم** – رحمه الله تعالى – :

« قال صاحب المنازل[١]: أي الخشوع – على **ثلاث درجات:**

الأولى: التَّذلُّل للأَمْر، والاسْتِسْلامِ لِلحُكْم، والاتِّضَاعُ لِنَظَرِ الْحَقِّ:

أما التَّذلُّل للأَمْر: فهو تلقيه بذلة القبول والانقياد والامتثال مع مواطأة الظاهر الباطن، وإظهار الضّعف، والافتقار للهداية.

وأما الاستسلام للحكم: فيشمل الحكم الشّرعي بعدم معارضته برأي أو شَهْوة، كما يشمل الحكم القَدَريّ بعدم تَلقّيه بالتّسخُّط والكراهة والاعْتِراض.

وأما الاتِّضاع لِنَظرِ الحَقِّ: فهو اتّضاع القلب والجوارح، وانكسارها لِنَظر الرَّبِّ إليها واطّلاعه على تفاصيل ما فيها.

الثانية: تَرَقُّب آفاتِ النَّفْسِ والعمل، ورؤية فَضْل كُلّ ذي فَضْل:

ويتحقق ذلك بانتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبها لك، وذلك يجعل القلب خاشعًا لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما.

أما رؤية فَضْل كُلّ ذي فَضْل: فيتحقق بمراعاة حقوق الناس وأدائها، ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم؛ فلا تعاوضُهم عليها، فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفسك[٢].

الثالثة: حفظُ الْحُرْمة عند المكاشفة، وتصفية القلب مِنْ مُراءَاة الخَلْق؛

ويعني ذلك ضبط النفس بالذّل والانكسار عن البسط والإذلال الذي تقتضيه

= نظرةً، فلمّا انصرف قال: « **اذهبوا بخميصتي هذه وائتوني بأنبجانية أبي جهْم فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي** » رواه البخاري. والأنبجانية: كساء غليظ لا علم له.

(١) هو الإمام الهروي – رحمه الله – .

(٢) تقدم نحو هذا الكلام – قريبًا – في علاج خشوع النفاق، أعاذنا الله منه.

المكاشفة لأنها توجب بسطًا يخاف منه شطح إن لم يَصْحَبْه خشوعٌ يَحْفَظ الحُرْمَة، مع إخفاء أحواله عن الْخَلْق جُهْده»ا.هـ[(١)].

فاحذر - **أخي الكريم** - خشوع النِّفاق، واعلم أن القلب مَحَلّ نَظَر الرَّبِّ، فاجتهد ألاّ ينظر رَبُّك فيه إلى ما يكْره، فإنّه يغار.

«اللّهم إنا نعوذ بك من بَدَنٍ لا يَنْتَصِب إلَيْك، ونعوذ بك من قَلْبٍ لا يشتاق إليك، ونعوذ بك من دعاءٍ لا يَصِل إليك، ونعوذ بك من عَيْن لا تبكي إليك».



(١) «مدارج السالكين» (٥٥٩/١، ٥٦٠) باختصار وتصرّف.

٧٨- حُسْنُ الظَّنِّ بالله تعالى

حُسْنُ الظَّن بالله - تعالى - واجب، ولكن هناك من - المسلمين- من أُصِيب بالْحَوَل في الْفَهْمِ، فأساء فهم حسن الظن بالله، وظنّ أنه إذن مفتوح لفعل الموبقات، وارتكاب المحرّمات، والإفلات مِنْ رِبْقة الإسلام!!

وفي محاولة - متواضعة - منا، لردّ الناس إلى الفهم الصّحيح، فالحديث - هنا - يدور حول أربعة أمور:

الأول: تعريف حُسْن الظّن.

والثاني: فَضْله.

والثالث: المفهوم الصَّحيح له.

والرابع: مواقف من حُسْن ظَنّ الصّالحين بِربِّهم.

وأسال الله - تعالى - حُسن الإصابة في القول والعمل.

أوّلاً: تَعْريف حُسْن الظّن:

الْحُسْن: ضِدّ القُبْح، يقال: رَجُلٌ حَسَنٌ، وامرأة حَسْنَاء، وَحُسَّانَةٌ، والْحُسْنُ: الجمال.

وهو نَعتٌ لَما حَسُن. يُقالُ: حَسُنَ الشَّيء وحَسَنَ يَحْسُنُ حُسْنًا فيهما فهو حاسِنٌ وحَسَنٌ.

أما **الظّن** في «**اللّغة**»: فإنه مصدر قولهم ظَنّ يظنّ ظَنًّا وهو مأخوذ من مادة (ظ ن ن) التي تدلّ على معنيين:

أحدهما: اليقين.

والآخر: الشّك.

فأمّا اليقين: فقول القائل: ظننت ظنًا أي: أيقنتُ، قال تعالى:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أراد – والله أعلم – يوقنون.

والأصل الآخر: الشّكّ: يقال: ظننتُ الشيء، إذا لم تَتَيقّنَهُ، والدَّيْنُ الظَّنُون: الّذي لا يُدْرَى أَيُقْضَى أَمْ لا[١].

والظّنّ «اصطلاحًا»: قال الكَفَوِيُّ: الظّنّ: أخْذُ طَرَفَي الشَّكِّ بِصفَةِ الرُّجْحَانِ، وقال أيضًا: والرَّاجِحُ إنْ قَارَبَهُ إمكان الْمَرْجُوح يُسَمّى ظَنًّا، أو هو التَّرَدُّد الرّاجح بَيْن طَرَفَي الاعتقاد غير الجازم.

وقال التّهانوي: الظّنّ عند الفقهاء: التّردّد بين أَمْرَيْن استَوَيا أو ترجّح أحدُهما على الآخر، وعند المتكلّمين: الظّنّ: تجويز أَمْرَيْن أحدُهما أرْجَح من الآخر والمرجوح يُسمّى بالْوَهْم[٢].

وقال ابْنُ العربيّ: الظنّ: تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر[٣].

وعلى هذا، فَحُسْن الظّنّ تَرْجِيحُ جانبِ الخير على جانبِ الشّر.

ضابط معنى الظّنّ في القرآن الكريم:

قال الزّركشيُّ: للفرق بينهما (أي الظّنّ بمعنى اليقين، والظّن بمعنى الشّك) ضابطان في القرآن:

أحدهما: أنّه حَيْثُ وُجِدَ الظّنُّ مَحْمُودًا مُثَابًا عَلَيْه فهو يقين، وحيث وُجِدَ مَذْمُومًا مُتوعَّدًا عليه بالعذاب فهو شَكٌّ.

والثاني: أن كل ظنّ يتصل به أنْ الْمُخَفَّفَة فهو شَكٌّ نحو قوله تعالى:

---

(١) «نضرة النعيم» (٥/١٥٩٦).

(٢) نفس المرجع (٥/١٥٩٧).

(٣) «أحكام القرآن» (٤/١٧١٢).

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ ﴾ [الفتح: ١٢]، وكُلّ ظنّ يتّصل به أنَّ المشدّدة فهو يقين كقوله تعالى:

﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٠]، والمعنى في ذلك أنَّ «أنَّ» المشدّدة للتأكيد فَدَخَلَتْ في اليقين، والمخففة بخلافها فَدَخَلَت في الشّك[١].

وصفوة القول: أن الظَّنَّ لا يخرج عن أمور خمسة:

الأوّل: الظّنّ المحرّم، وهو سوء الظّنّ بالله، ويقابله وجوب حسن الظّن بالله.

الثاني: حُرْمة سوء الظّن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة، والمطلوب حُسْن الظنّ بهم.

الثالث: الظّنُّ المباح، وهو الذي يَعْرِضُ في قَلْبِ الْمُسْلِم في أخيه بِسَبَبٍ ما يُوجِبُ الرِّيبة، وهذا الظّنّ لا يُحَقّق.

الرابع: الظّنُّ المندوب إليه، وهو حُسْن الظَّنّ بالأخ المسلم وعليه الثَّوَابُ.

الخامس: الظّنُّ المأمور به، وهو الظّنُّ فيما لم يُنَصَّ عليه دَليلٌ يُوصِلُنا إلى العلم، وقد تعبدّنا الله بالاقتصار على الغالب الظّني فيه، كقبول شهادة العدول وَتَحرِّي القِبْلة وتَقْوِيم الْمُسْتَهْلَكَات وأروش الجنايات التي لم يَرِدْ نَصٌّ في تقديرها[٢].

ثانيًا: فضل حسن الظّن بالله تعالى:

ورد في فضل «حُسن الظنّ بالله» آيات، وأحاديث وآثار:

فمن الآيات:

(١) قال الله تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦].

---

(١) «الكليات» للكفوي (١٦٥/٣).

(٢) «منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي» (٤١٢). نقلاً عن «نَضْرة النعيم» (١٥٩٨).

(٢) وقال تعالى:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

(٣) وقال تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٩- ٢٣].

ومن الأحاديث:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**يقولُ اللّهُ تعالى: أنا عند ظَنّ عَبْدي بي**[١]**، وأنا معه إذَا ذَكَرني، فإن ذَكَرني في نَفْسه، ذكرتُه في نَفْسي، وإن ذكرني في مَلإٍ، ذكرتُه في ملإٍ خَيْر منهم، وإن تَقَرَّبَ إليّ شِبْرًا تَقرّبْتُ إليه ذِرَاعًا، وإنَ تَقرَّبَ إليَّ ذِرَاعًا تَقرّبْتُ إليه باعًا**[٢]**، وإن أَتَاني يَمْشي أَتَيْتُه هَرْوَلَة**»[٣].

قال الإمام **القرطبي** - رحمه الله -:

«معنى: «**ظنّ عبدي بي**» ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار» ا.هـ.

(٢) وعنه ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بالله تعالى مِنْ حُسْنِ الْعِبَادة**»[٤].

---

(١) المراد بالظّن - هنا -: العلم.

(٢) **الباع**: قَدْر مَدّ اليدين وما بينهما من البدن.

(٣) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٤) **حسن**: رواه أبو داود (٤٩٩٣)، والترمذي (٣٦٧٩)، وأحمد (١٠٣٦٩)، وقال محققه: حسن.

(٣) وعن جابر ﷺ قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ قَبْل مَوْته بِثلاَثَة أَيَام يقول:

« لا يَمُوتَنّ أحدُكم إلاّ وهو يُحْسِن الظّن بالله » ﷻ[١].

قال الإمام **النووي** – رحمه الله تعالى – في شرحه لهذا الحديث:

« قال العلماء: هذا تحذير من القنوط، وحثّ على الرجاء عند الخاتمة، وقد سبق الحديث الآخر قوله – سبحانه وتعالى – **« أنا عند ظن عبدي بي »** قال العلماء: معنى حُسن الظّنّ بالله تعالى: أن يظنّ أنه يرحمه، ويعفو عنه. قالوا: وفي حال الصّحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرّجاء؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح، والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذّر ذلك أو معظمه في هذا الحال، فاستحبّ إحسان الظنّ المتضمن للافتقار إلى الله تعالى، والإذعان له » ا.هـ[٢].

(٤) وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ :

« أنّ الله – ﷻ – قال: أنا عِند ظنّ عَبْدي بي، إن ظَنَّ بي خَيْرًا فَلَهُ، وإن ظنّ شَرًّا فَلَهُ »[٣].

(٥) وعن أبي بكر ﷺ قال:

قلتُ للنبي ﷺ ، وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تَحْتَ قَدَمَيْه لأَبْصَرَنا، فقال:

« ما ظَنُّك يا أبا بكر باثْنَيْن اللّهُ ثَالِثُهُما »[٤].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وسيأتي المزيد بعد قليل إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).

(٢) « صحيح مسلم بشرح النووي » (٣٢٩/١٨).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣٩١/٢)، وانظر: « صحيح الجامع » (٤٣/٥).

(٤) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

ومن الآثار:

- **قال عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه:

«والذي لا إله غَيْرُهُ ما أُعْطِى عَبْدٌ مُؤْمِنٌ شيئًا خَيْرًا من حُسْن الظَّنِّ بالله عز وجل، والذي لا إله غيره، لا يُحْسنُ عَبْدٌ بالله عز وجل الظنَّ إلاّ أعطاه اللّهُ عز وجل ظَنَّه، ذلك بأنّ الْخَيْرَ في يَدِه»(١).

- **وقال عاصم بن بهدلة:**

«لا تذهب الدنيا حتى يقوم البكّائون، باكٍ يَبكي على دِينه، وباك يبكي على دُنياه، وأحسنُهم حَالاً أحسنهم ظَنًّا بالله»(٢).

- **ولقى مالك بن دينار إبّان بن أبي عياش فقال له مالك:**

إلى كم تحدث الناس بالرُّخص؟

قال: يا أبا يحيى إني لأرجو أن ترى من عَفْو الله يوم القيامة ما تخرّق له كساؤك من هذا الفَرَح! (٣).

هذه بعض أقوال الصالحين في «حسن الظن بالله» - وسيأتي من أقوالهم وأحوالهم المزيد.

ثالثاً: المفهوم الصحيح لِحُسْن الظّن بالله تعالى:

قال الشيخ/ **محمد الغزاليّ** - رحمه الله تعالى - في إيضاح مفهوم حُسْن الظن بالله كلامًا طيّبًا يستحق التسجيل، نسوقه - هنا - بعد اختصاره:

قال رحمه الله: «والرجاء في الله - تعالى - وحُسْن الظّن به، إنما يُقبلان إذا اقترنا

---

(١) «حسن الظّن بالله» لابن أبي الدنيا (٨٢).

(٢) نفس المرجع (٨٤).

(٣) نفس المرجع السابق (٨٦).

بالعمل الواجب، وصحبهما الإسراع في حق الله تعالى، والسّهر على مرضاته.

أمّا مع البطالة والاسترخاء فلا مكان لرجاء ولا موضع لِحُسْن الظّن.

وتدبّر قوله تعالى يصف من ترشّحهم أعمالُهم لرضاه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

إيمان وهجرة وجهاد، تلك هي التي يرجو أصحابُها فضل الله تعالى.

أمّا الرّيبة والقعود والرّاحة فلا تبلغ أملاً، ولا تنتج إلاّ شرًّا.

وتدبّر قوله تعالى يُحصي أنواعًا أخرى من البرّ، هي التي تؤهّل لحسن القبول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

تلاوة القرآن - يعني إحياء تعاليمه، وإعزاز شرائعه - والنفقة التي تسدّ ثغرات المجتمع ما علن منها وما خفى، والإقبال على الصّلوات الجامعة إقبالاً يُعْلي ذِكْرَ الله تعالى في الحياة، ويجعل الهتاف باسْمه وَحْده شارة الأمّة، تلك هي أسباب الرّجاء الحقّ، وتأميل النصر، والتمكين، والنّعماء.

وللناس - بطبيعتهم البشرية - أخطاء تبدو منهم - ويسيئون بها إلى أنفسهم وغيرِهم، وربّما جرّت غضب الله عليهم، إلاّ أنهم إذا أحسّوا سوءها، وضرعوا إلى الله تعالى أن يفكّ عنهم إصرها، كان للرجاء في غفران الله تعالى موضع.

إن هذا الرجاء الحارّ لا يجوز أن يفارق المؤمن في أي لحظة من حياته، سواء كان قويّ السّاعد يضرب في الأرض ببأسٍ، أو وهو يولّي ظهره للحياة، ويضع قدمه على عتبة الآخرة قادمًا إلى الله تعالى.

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ دخل على شابّ وهو في الموت، فقال:

« **كَيْفَ تَجدكَ؟** ».

قال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي.

فقال رسولُ الله ﷺ: « **لا يَجْتَمِعان في قَلْب عَبْدٍ في مِثْل هذا الموطن إلاّ أعْطاه اللّهُ ما يَرْجُو وأمنّه مِمّا يخاف** »(١).

□ وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **أَمَرَ اللّهُ ﷻ بعبد إلى النّار، فَلَمّا وَقَف على شَفَتِها الْتَفَتَ فقال: أَمَا والله يا رَبِّ إن كان ظَنّي بِكَ لَحَسَنًا. فقال اللّهُ ﷻ: رُدُّوُهُ، أنا عِنْد حُسْنِ ظَنّ عَبْدي بي** »(٢).

وهذا الحديث: ضعيف السّند، ومعناه يُقبل في حدود الدائرة التي رسمناها من صريح الكتاب، وصحيح السّنة، وأقصى ما يشير إليه: التنويه بقيمة حُسن الظنّ.

وهذا الحديث - إن صحّ - لا يُهوّن من قيمة العمل.

إنه يصوّر حالة امرئ مؤمن خلط عملاً صالحًا وآخر سيّئًا، وكان يجوز أن يقذف في النار لتحرق بقايا السوء في نفسه، كما سيقع ذلك لكثير من المؤمنين الذين بيّنت السُّنن الصّحاح عُقبى تخليطهم، وتفريطهم، غير أن الله جلّت رحمته عفا عنه.

وكأن كفّة الخير في عمله كان ينقصها القليل لتميل جهة اليمين، فكان حُسن ظنه بالله - وحُسْن الظّنّ إيمان - المرجِّح الذي نَجَا به.

أمّا قلّة الاكتراث بالواجب، وسرعة التهاوي على المحرّم فلا يمكن أن يكُونَا في نَفْسٍ تُحْسن بالله تعالى الظّن، بل هما في نَفْسٍ صَدَّق عليها إبليسُ ظَنّه(٣).

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٩٨٥)، وصحّحه الألباني.

(٢) **ضعيف**: رواه البيهقي، وانظر: « ضعيف الجامع » (١٢٥٥).

(٣) عن الحسن البصري - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿**هاؤم اقرءوا كتابيه. إني ظننت أني ملاق حسابيه**﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠]، قال: « إن المؤمن أحسن الظّنّ بربِّه فأحسن العمل، وإن المنافق أساءَ الظّنَّ فأساء العمل ».

ومن التلاعب بالألفاظ أن ترى أُمَمًا جاهلة بالله تعالى، تمرق من حدوده، وتهدر أحكامه، وتؤمل مع ذلك في نعيمه ورضوانه بدعوى أنها تحسن الظّنّ بالله تعالى!!

ومن أدعياء التديّن من يشغب على قواعد الدين، ومن يجرّئ العامّة والخاصّة على الإفلات من ربقته باسْم الأمل في الرّحمة، والتعويل على حُسْن الظّن.

وذلك كلّه ضرب من الفوضى الفكرية والخُلقية لا يجوز السكوت عليه، وقد حاربه الأئمة من قدىم، وشدّدوا النكير على أصحابه[1]»ا.هـ[2].

رابعًا: مواقف من حُسْن ظَنّ الصّالحين بربِّهم :

بَدَتْ من الصّالحين مواقف تدلّ على عُمْق إيمانهم، وَحُسْن ظنّهم بربِّهم، وثقتهم فيه، فعطّروا بها صَحَائِف أعمالهم، واستَمْطروا بها رَحْمَة الله تعالى، ومن هذه المواقف:

الموقف الأوّل: مَوْقف الزُّبَيْر بن العوّام قبل اسْتِشْهاده:

عن عبد الله بن الزّبير – رضي الله عنهما – قال:

«لمّا وَقَف الزُّبيرُ يَوْمَ الْجَمَل[3] دعَاني فَقُمْتُ إلى جَنْبه، فقال: يا بُني لا يُقْتَلُ الْيَوْمَ إلاّ ظالمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وإني لا أُرَاني إلاّ سَأُقْتلُ اليوم مَظْلومًا، وإن من أكبر هَمِّي لَدَيْني ... قال عَبْد الله:

فجعل يُوصيني بِدَيْنه، ويقول:

«يا بُني إن عَجَزَتَ عن شَيءٍ منه فاسْتَعِنْ عليه بِمَوْلاَي».

– انظر: «الزهد» للحسن البصري (١٠١).

(١) راجع: خُلُق «الرّجاء» فهناك مزيد بيان.

(٢) «الجانب العاطفي من الإسلام» (٢٦٨– ٢٧٢) باختصار شديد.

(٣) يعني: يوم «موقعة الجمل» والتي دارت رحاها بين جَيْشَي: عليّ بن أبي طالب – من ناحية ، وعائشة وطلحة والزّبير – من ناحية أخرى – ، وكان الزّبير قد ترك الجيش وانصرف لمّا ذكّره عليٌّ بقول النبي ﷺ : «لتقاتلنه وأنت له ظالم»، فقُتل – الزبير– في طريق عودته. انظر ترجمته في كتابنا «فتن آخر الزمان» ط. المكتبة التوفيقية.

قال: فوالله ما دَرَيْتُ ما أرادَ حتى قُلْتُ: يا أبتِ مَنْ مَوْلاَكَ؟

قال: «اللّهُ».

قال فوالله ما وقَعتُ في كُرْبةٍ مِنْ دَيْنه إلاّ قُلتُ: يا مَوْلى الزُّبيرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنه فَيَقْضيه[١].

فانظر - **أخي الكريم** - إلى هذه الثّقة المطلقة في الله تعالى، وإلى مدى حسن ظنّ السّلف بِرَبِّهم، ورحم اللّهُ قائلَهم:

«نِعْم الرَّبُّ رَبّنا، لو أطعناه ما عَصَانا!».

الموقف الثاني: حُسْنُ ظَنّ أبي الأَسْود الْجُرَشِيّ:

عن حيّان أبي النَّضْر، قال:

دخلتُ مع «واثلةَ بْنِ الأسْقَعِ[٢]» على «أبي الأسْوَد الجُرَشيّ»[٣] في مرضه الذي مات فيه، فَسَلَّم عليه وجلس. قال:

فأَخَذ أبو الأسود يَمين واثلةَ، فَمَسح بها عَيْنَيه وَوَجْهَه لَبيْعَته بها رسولَ الله ﷺ، فقال له واثلةُ:

واحدةٌ أسأَلُك عنها.

قال: وما هي؟

قال: كيف ظَنّك بِرَبِّك؟

فقال أبو الأسود، وأشار برأسه، أي حَسَنٌ.

قال واثلة: أَبْشرْ إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) «حلية الأولياء» (٣١٨/٩).

(٢) صحابي جليل.

(٣) تابعيّ جليل، وكان من العُبّاد.

« قال اللَّهُ ﷻ أنا عند ظَنّ عَبْدي بي، فَلْيَظُنَّ بي مَا شَاء »[١].

يا رب

حُسْــــنُ ظَــــني بحُسْــــن عَفْــــوِكَ رَبِّ جَمــيلٌ وأنــــتَ مــالِكُ أَمْــري
صُــنْتُ ســرِّي عــن القــرابةِ والأَهْلِ جمــيعًا وكُنْــــتَ مَوْضِــعَ ســرِّي
ثقَــةٌ بــالّذي لَدَيْــكَ مــن السَّــتْر فــــلا تُخْــــزِني يَــــوْمَ نَشْــــري
يَــوْمَ هَــتْكِ السُّتُور عن حُجُب الغَيْب فــــلا تَهْــــتِكَنَّ للــــنّاس ســــتْري
لَقِّــني حُجّــتي وإن لم أكــن يَــا رَبّ لي حُجَّـــةٌ ولا وَجْــــهُ عُــــذْرِ

الموقف الثالث: من آداب زيارة المريض - مرض الموت - :

من الآداب التي ينبغي مراعاتها عند زيارة المريض - مرض الموت - : تبشيره بسعة رحمة الله تعالى، وعظيم عفوه:

عن يحيى بن عَوْن ، قال:

دخلتُ مع « سُحْنونٍ » على ابن القَصَّار وهو مريض، فقال:

ما هذا القلق؟

قال له: الموتُ والقدومُ على الله.

قال له سُحنون: ألستَ مُصَدِّقًا بالرّسلِ والبعثِ والحساب، والجنّة والنار، وأنَّ أفضل هذه الأمّة أبو بكر، ثم عُمر، والقرآنُ كلامُ الله غَيْرُ مخلوق، وأنَّ الله يُرى يَوْم القيامة، وأنّهُ على العرش اسْتوى، ولا تخرجُ على الأئمةِ بالسَّيف، وإن جارُوا؟

قال: إي والله.

فقال: « مُتْ إذا شئتَ، مُتْ إذا شئتَ »[٢].

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/٤٩١)، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٤٣١٦).
(٢) « سير أعلام النبلاء » (١٢/٦٧).

الموقف الرابع: قِصَّةُ عابِدٍ علا رَجَاؤُه على بَلائِه!:

عن محمد بن مِسْعَر اليربوعي، قال:

صليتُ الجمعة ثم انصرفتُ فجلستُ إلى «يُونس بن عُبَيْد»[١] حتى صَلَّيْتُ العَصْر، فقال:

هل لكم في جنازة فلان؟

فمشينا إلى ناحية بني سعد، فصلّينا على جنازة، فقال:

هل لكم في فلان العابد نعوده.

فأتينا رجلاً قد وقعت في فيه[٢] الخبيثة حتى أبدت عن أضراسه، فكأن إذا أراد أن يتكلّم دعا بقعب من ماء وقطنة فيبلّ لسانه، حتى يبتل ثم يتكلّم بكلمات يحسن فيهنّ، فلمّا دخلنا عليه دعا بالقدح ليفعل كما يفعل، فبينما هو يبلّ لسانه إذ سقطت حدقتاه في القدح، فأخذهما فغرسهما بيده، ثم قال:

إني لأجد فيهما دسمًا، وما كنتُ أظنّه بَقِيَ فيهما[٣]! ثم استقبل القبلة، وقال:

الحمد لله الذي أعطانيهما، وأمتعني بهما شَبابي، وصحّتي ، حتى إذا فنيت أيّامي، وَحَضَر أَجَلي، أخذهما مِنّي، لِيبدلني بهما إن شاء الله خيرًا [٤] منهما.

قال: فقال له يونس:

قد كنا جئناك لِنُعزّيك، فنحن الآن سَنُهَنّئك.

فقال خيرًا، ودعا، ثم خرجنا من عنده حتى أتينا أَبَا رَجاء العَطَاردي[٥]، فحدّثنا فقال:

---

(١) هو: يونس بن عبيد بن دينار، ثقة، ثَبْت، فاضل، ورع، من الطبقة الخامسة، مات سنة ١٣٩ هـ.

(٢) في فيه: أي في فمه.

(٣) وهذا غاية الصّبر والرّضا فللّه دَرُّه.

(٤) قال ﷺ: «إنّ الله ﷻ قال: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدي بِحَبِيبَتَيْه فَصَبَر عَوَّضتُهُ مِنْهُما الْجَنَّة» يريدُ عَيْنَيْه. رواه البخاري.

(٥) ثقة، مخضرم، أسلم بعد فتح مكة، ولم يَرَ النّبي ﷺ، تُوفّي سنة ١٠٧هـ.

« شهدتم خيرًا، وجلستم حتى صلّيتم جماعة، ثم شيعتُم جنازة، ثم عُدتم مريضًا، ثم زرْتُم أخًا، لقد أصبتم خيرًا، لقد أصبتم خيرًا، وأنا والله قد أصبتُ خيرًا، قد قرأتُ البارحة أكثر من أَلْف آية »[١].

هذه حال المؤمن، أَمْره كلّه له خير، إن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له.

كاللّؤلؤة، أينما كانت معها حُسْنها.

الموقف الخامس: حسن ظَنَ الْفَرزْدق:

قال سلمة بن الهزال: سمعتُ الحسن - يعني: البصري - في جنازة، فيها الفَرَزْدَق[٢]، والقوم حافّين بالْفَتى يتذاكرون الْمَوْت فقال الحسن:

يا أبا فراس ما أعددتَ لهذا اليوم؟ قال:

لا والله ما أعددتُ له إلاّ شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة، فقال الحسن:

« اثْبت عليها وأَبْشِر، نِعْمَتِ العدّة، نِعْمَتِ العدّة »[٣].

أخي المسلم:

هذه مواقف من حُسن ظنّ الصّالحين بربّهم وهي كما رأيت جاءت بعد عمل موصول، وسعي مشكور في طاعة الله، فجاء حُسْن ظنهم بالله في موضعه، فإن حسن الظّن بالله، يقوم على ساق حسن العمل:

قال **سعيدُ بْنُ عبد العزيز** - رحمه الله - :

« مَنْ أَحْسَن فَلْيَرْجُ الثّواب، وَمَنْ أَسَاء فلا يَسْتَنْكِر الْجَزَاءَ، وَمَنْ أَخَذَ عِزًّا بِغير حَقٍّ

---

(١) « كتاب المتحابّين في الله » لابن قدامة المقدسي (٤٩، ٥٠).

(٢) الشاعر المعروف.

(٣) « حسن الظن بالله » (١٠٢).

أَوْرَثه اللّهُ ذُلاًّ بِحَقٍّ، وَمَنْ جَمَعَ مالاً بِظُلْمٍ أَوْرَثه اللّهُ فَقْرًا بِغَيْر ظُلْم»[١].

ولا يعني هذا يَأْسُ العُصَاة مِنْ رَحْمَة الله ، فَمَنْ مِنّا يَسْلم من الزَّلل؟ - كُلّنا ذُوو أخَطاء - ، لكن هناك فرق بين عُصاة يمشون على استحياء، وعُصَاة يَجْهَرون باستعلاء.

وفي الحديث الصحيح: «**كُلّ أُمَّتِي مُعَافى إلاّ الْمجَاهِرين**».

فالفريق الأوّل أقرب إلى رحمه الله، والفريق الثاني أقرب إلى عذابه.

نسأل الله العافية.

مِسْكُ الخِتام:

لَمّا أحَسَّ **أبو العتاهية**- رحمه الله - بالموت أخذ يُردّد قوله:

إلَهِي لا تُعَذّبنِي فإني ... مُقِرٌّ بالّذي قَدْ كان مِنّي
فَمَا لِي حِيلةٌ إلاّ رَجَائِي ... لِعَفْوك إن عَفَوْتَ وَحُسْن ظَنِّي
وكم مِن زَلّة لي في الخَطَايا ... وأنتَ عليَّ ذو فَضْلٍ وَمَنِّ
إذا فكّرتُ في نَدَمِي عليها ... عَضَضْتُ أَنَامِلي وَقَرَعتُ سِنِّي[٢]

«اللّهم اغْفِرْ وارْحَم، واعْفُ وتكرَّم، وتجاوز عمّا تعلم، إنّك أنْتَ الأعزُّ الأكْرم».

يا رَبّ العالمين.

۞۞۞۞۞

---

(١) «السّير» (٨/٣٦).

(٢) «ديوان أبي العتاهية» (١٣).

٧٩- الغُرْبَةُ

لا يشكّ عاقِلٌ أن المسلمَ المتمسِّك بدِينِه : يعيش في هذا الزّمان في غربة بين أَهْله وَبَنِي وَطَنِه، فهو:

يُعَيَّر بصلاته، وَيُتَّهمُ بالتّخلّف، وَيُرْجم بالرَّجْعية، وَيُوصَم بالجمود، وَيُنْظر إليه على أنه عَضْو غريب في جَسَد الأمّة!!! (١).

وسبب هذا: غلبةُ الجهل، والتشبّع بالأفكار الوافدة «المضلِّلة»، والانهماك في الدّنيا، ونسيان الآخرة، وتقصير العلماء، والآباء، وتقليص ظلّ الحديث عن الإسلام في وسائل الإعلام.

وهذه الغُربة التي عاشها ويعيشها «المتمسّكون بالْهَدْى» على مرّ العصور وكرّ الدّهور، مرّت بمراحل وأطوار سنعرض لها بالتفصيل بعد قليل - إن شاء الله تعالى -.

هذا، والحديث عن «الغُربة» يرتكز على أصلين:

الأوّل: تعريف الغربة.

والثاني: وصف حال أهلها.

واللّهُ وليُّ التوفيق.

أولاً: تعريف الغربة:

الغربة: البعد، والنزوح عن الوطن.

أو أنه ليس من القوم، وهذا هو الغريب.

---

(١) لا ننكر أن هناك بعض «المتديّنين» أساءوا فهم الإسلام، فشوّهوا جماله، وقدّموه للناس مشوّهًا، فاستَعْدَوا الأَلْسُن عليه، ونفَروا النّاسَ منه.

وتُطلق على الغموض والخفاء وعدم الشهرة، وتُطْلق على الذهاب والتنحّي عن الناس.

وجاءا استعمال الغُربة في «السُّنّة» بمعنى المقيم في غير وطنه وبين قوم غير قومه.

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

أَخَذَ رسولُ الله ﷺ بِمنْكَبِي فقال:

«كُنْ في الدّنْيا كأنّك غريبٌ أو عابِر سَبيلٍ»(١).

فالمقصود: تشبيه المؤمن بالغريب لقلّة انبساطه إلى الناس، واستحيائه منهم، وعدم استئناسه معهم.

والغريب لا يكاد يتعلّق قلبه بشيء من بلد غربته فقلبه بوطنه الذي سيعود إليه.

وكذلك المؤمن شأنه مع الدنيا لا يتعلّق قلبه بشيء منها لتعلّقه بالدار الآخرة التي إليها الرُّجْعى وفيها المستقرّ.

والغريب: سالم من الرذائل التي منشؤها الاختلاط بالناس، والاشتغال بالخلق.

فهو قليل الحسد، والحقد، والنّفاق، والنزاع، قليل الوقوع في أعراض الناس والوشاية بهم، فهذه هي **الغُربة الحسّية**.

وهناك **الغربة المعنوية**: وهي أن يكون المرء على حال من الاستقامة، ولزوم الجادة، ومجانبة الفتن والأهواء، وملازمة السَّمْت الذي كان عليه الصَّدر الأوّل مع قلّة النّصير والمعين والموافق، وكثرة المنابز والمخذل والمخالف، فيسمّى صاحب هذه الغربة غريبًا، وهو مقصد حديث: «**طوبى للغرباء**»(٢)، (٣).

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٣)، والترمذي (٢٣٣٤).

(٢) سيأتي بتمامه بعد قليل.

(٣) «طوبى للغرباء» د. سيد عبد الحليم (١٠، ١١)

ثانيًا، وَصْفُ حَالِ أَهْلِ الغُرْبَة:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« بَدَأَ الإسْلاَمُ غَرِيبًا، وسيعودُ كما بدأ غَرِيبًا فَطُوبى[1] لِلْغُرَباء »[2].

وفي زيادة من حديث ابن مسعود: قيل:

يا رسول الله، ومن الغرباء؟ قال:

« النُّزَّاعُ[3] مِنَ القبائل »[4].

وفي رواية: قيل من هم يا رسول الله؟ قال:

« الذين يصلحون إذا فَسَدَ النَّاسُ »[5].

وفي رواية: **« الذين يُصْلِحون ما أفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدي من سُنَّتي »[6].**

وعن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال:

« طوبى للغرباء ».

قلنا: ومن الغرباء؟

قال: **« قَوْمٌ قليل في ناس سوء كثير، مَنْ يَعْصِيهم أكثر مِمَّن يُطيعهم »[7].**

وقد تناول كثير من العلماء - قديمًا وحديثًا - هذا الحديث - بتعدد رواياته -

---

(١) طوبى: قيل معناها: فرح وقُرَّة عين، وقيل: حُسنى لهم، وفي الحديث: أنها شجرة في الجنة.

(٢) رواه مسلم.

(٣) النزاع: جمع نازع ونزيع، وهو الغريب الذي نزع عن أهله وعشيرته، أي: بعد وغاب.

(٤) رواه أحمد في «المسند» (٥/٢٩٦)، وابن ماجه (٣٩٨٨)، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٥) رواه أبو بكر الآجرّي.

(٦) رواه الترمذي (٥/١٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٧) رواه أحمد والطبراني.

بالشرح والبيان، ومن أَبْيَن الشروح له، شرح الحافظ ابن رجب - رحمه الله - في رسالته القيمة: «كشف الكُربة في وصف حال أهل الغربة» فقد قال كلامًا يستحق التسجيل، أنقله - هنا - مختصرًا، مع إضافات ألجأتنا الضرورةُ إليها:

قال - رحمه الله تعالى - : «قوله: «بدأ الإسلام غريبًا» يريد به أن الناس كانوا قبل مبعثه ﷺ على ضلالة عامّة، فلمّا بُعث النبيُّ ﷺ ودعا إلى الإسلام لم يستجب له في أوّل الأمر إلاّ الواحد بعد الواحد من كلّ قبيلة، وكان المستجيب له خائفًا من عشيرته وقبيلته يُؤْذَى غاية الأذى وينال منه وهو صابر على ذلك في الله ﷻ، وكان المسلمون إذ ذاك مستضعفين يُشرّدون كل مُشردّ ويهربون بدينهم إلى البلاد النائية كما هاجروا إلى الحبشة مرّتين، ثم هاجروا إلى المدينة، وكان منهم من يُعذّب في الله، ومنهم من يُقْتل، فكان الداخلون في الإسلام حينئذ غُرباء، ثم ظهر الإسلامُ بعد الهجرة إلى المدينة وَعَزَّ، وصار أهلُه ظاهرين كلّ الظّهور، ودخل الناسُ بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وأكمل اللّهُ لهم الدّين، وأتمّ عليهم النّعمة، وتُوفّي رسولُ الله ﷺ والأمر على ذلك، وأهل الإسلام على غاية من الاستقامة في دينهم، وهم متعاضدون متناصرون، وكانوا على ذلك في زمن أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - .

ثم عمل الشيطان مكائده على المسلمين، وألقى بأسهم بينهم، وأفشى فيهم فتنة الشّبهات والشّهوات.

ولم تزل هاتان الفتنتان تتزايدان شيئًا فشيئًا حتى استحكمت مكيدة الشيطان وأطاعه أكثرُ الْخَلْق.

فأمّا فتنة الشبهات: فقد ثبت عن النبيّ ﷺ أن أُمّته ستفترق على أَزْيد من سَبْعين فِرقة، وأن جميع الفِرق في النّار إلاّ فرقة واحدة، وهي ما كانت على ما هو عليه وأصحابه ﷺ(١).

---

(١) صحيح: ولفظه: «ألا إن مَنْ كان قَبْلكم من أَهْل الكتاب افْتَرقوا على ثِنْتَيْن وسبعين مِلّة، وإن هذه الأُمَة سَتَفْتَرِق على ثلاثٍ وسبعين: ثِنْتان وسبعون في النّار، وواحدةٌ في الجنة وهي الجماعة» رواه أحمد وأبو داود، وفي رواية: «ما أنا عليه وأصحابي».

وأمّا فتنة الشهوات: ففي «صحيح البخاري» عن عمرو بن عوف عن النبيّ ﷺ قال:

«فوالله ما الْفَقْر أخَشْى عليكم، ولكن أَخْشى عليكم أن تبسط عليكم الدُّنْيا كما بسطت على من كان قَبْلكم فَتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم».

وكان النبيُّ ﷺ يَخْشَى على أُمّته هاتين الفِتْنَتَيْن، فعن أبي برزة عن النبيّ ﷺ قال: **«إنّما أخْشَى عليكم شهوات الْغَيّ في بطونكم وفروجكم وَمُضَلاّت الْهَوى»**[1].

فلمّا دخل أكثر الناس في هاتين الفتنتين أو إحداهما أصبحوا متحابِّين متواصلين، فإن فتنة الشهوات عمّت غالب الخَلْق فَفُتِنوا بالدّنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم، لها يطلبون، وبها يرضون، ولها يغضبون، ولها يوالون، وعليها يعادون؛ فقطعوا لذلك أرحامهم، وسفكوا دماءهم، وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك!

وأمّا فتنة الشبهات والأهواء المضلّة فبسببها تفرّق أهلُ القبلة وصاروا شيعًا، وكفّر بعضُهم بعضًا، وأصبحوا أعداء، وفِرقًا، وأحزابًا بعد أن كانوا إخوانًا، قلوبهم على قلب رجل واحد، فلم يَنْج من هذه الفرق كلّها إلاّ الفِرقة الواحدة الناجية وهم المذكورون في قوله ﷺ:

«لا تزال طائفة من أُمّتي ظاهرين على الحقّ لا يَضرّهم مَنْ خَذَلهم ولا مَنْ خالفهم حتى يأتِيَ أَمْرُ الله وهم على ذلك»[2].

وهم في آخر الزمان الغرباء المذكورون في هذه الأحاديث الذين يصلحون إذا فسد الناس، وهم الذين يصلحون ما أفسد الناسُ من السُّنّة، وهم الذين يفرّون بدينهم من الفتن، وهم النُّزَّاع من القبائل، لأنّهم قلّوا فلا يوجد في كل قبيلة منهم إلاّ الواحد، والاثنان، وقد لا يوجد في بعض القبائل منهم أحدٌ كما كان الداخلون في الإسلام في أوّل

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني، وغيره، وانظر: «صحيح الترغيب» (٥٠).

(٢) رواه البخاري (٤/٢٥٢)، ومسلم (١٧٠)، وغيرهما.

الأمر كذلك، وبهذا فسّر الأئمّة هذا الحديث.

قال **الأوزاعيّ** في قوله ﷺ: «**بدأ الإسلام غَريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»: «أما أنه ما يذهب الإسلام، ولكن يذهب أهل السُّنّة حتى ما يبقى في البلد منهم إلاّ رجلٌ واحد».

وعن **سفيان الثوريّ**، قال:

«استوصوا بأهل السُّنّة خيرًا فإنهم غُرباء».

ومُراد هؤلاء الأئمة بالسُّنّة: طريقة النبيّ ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السّالمة من الشّبهات، والشهوات، ولهذا كان **الفضيل بن عياض** يقول:

«أهل السُّنّة من عرف ما يدخل في بطنه من حلال».

ثمّ صار في عُرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم السُّنّة عبارة عمّا سلم من الشّبهات في الاعتقادات خاصّة في مسائل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

وكذلك في مسائل القدر، وفضائل الصحابة. وصنّفوا في هذا العلم تصانيف وسمّوها كُتب السُّنّة، وإنّما خصّوا هذا العلم باسم السُّنّة لأن خطره عظيم والمخالف فيه على شفا هلكة!

وأمّا السُّنة الكاملة فهي «الطريقة السّالمة من الشُّبهات، والشهوات» كما قال الحسن، وغيره.

ولهذا وُصِف أهلُها بالغربة في آخر الزّمان لقلّتهم وَغُرْبتهم فيه. ولهذا جاء في أحاديث متعددة مَدْح المتمسّك بدينه في آخر الزّمان وأنه كالقابض على الجَمْر وأن للعامل منهم أجْرُ خَمْسين مِمَّن قَبْلَهم لأنهم لا يجدون أعوانًا في الخير.

وهؤلاء الغرباء **قسمان**:

أحدهما: من يصلح نفسه عند فساد الناس.

وقد قال **ابْنُ مسعود** ﷺ: «يأتي على الناس زمان يكون المؤمن فيه أذلّ من الأمَة».

وإنّما ذلّ المؤمن آخر الزّمان لغربته بين أهل الفساد من أهل الشّبهات والشهوات، فكلّهم يكرهه ويؤذيه لمخالفة طريقته لطريقتهم، ومقصوده لمقصودهم، ومباينته لما هم عليه!

وقد كان السّلف قديمًا يصفون المؤمن بالغربة في زمانهم.

ومن كلام أحمد بن عاصم الأنطاكي - وكان من كبار العارفين في زمان أبي سليمان الداراني - قال:

«إني أدركتُ من ٱلأزمنة زمانًا عاد فيه الإسلام غريبًا كما بدأ وعاد وصف الحقّ فيه غريبًا كما بدأ، إن ترغب فيه إلى عالم وجدته مفتونًا بحبّ الدنيا، يحبّ التعظيم والرئاسة، وإن ترغب فيه إلى عابد وجدته جاهلاً في عبادته مخدوعًا صريع عدوّه إبليس قد صعد به إلى أعلى درجة العبادة وهو جاهل بأدْناها، فكيف له بأعلاها؟ وسائر ذلك من الرعاع[1]؛ همج عوج، وذئاب مختلسة، وسباع ضارية، وثعالب جارية هذا وصف عيون أهل زمانك من حملة العلم والقرآن، ودعاة الحكمة» خرّجه أبو نعيم في «الحلية».

فهذا وصف أهل زمانه فكيف بما حَدَث بعده من العظائم والدّواهي التي لم تخطر بباله و لم تَدُرْ في خياله؟![2].

وخرّج أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن **الحسن**، قال:

«لو أن رجلاً من الصّدر الأوّل بُعث اليوم ما عرف من الإسلام شيئًا إلاّ هذه الصّلاة!» ثم قال:

«أما والله لئن عاش إلى هذه المنكرات فرأى صاحب بدعة يدعو إلى بدعته أو صاحب دنيا يدعو إلى دنياه فعصمه الله ﷻ وقَلْبُه يحنّ إلى ذلك السّلف الصّالح فيتبع

---

(١) الرعاع: السّفلة من الناس.

(٢) قال ابن رجب هذا الكلام في زمنه، فكيف لو رأى أهل زماننا؟!

آثارهم، ويستنّ بسنّتهم، ويتبع سبيلهم، كان له أَجْرٌ عظيم».

فالمؤمن في الدنيا كالغريب المجتاز ببلدة غير مستوطن فيها فهو يشتاق إلى بلده وهمّه الرجوع إليه، والتزوّد بما يوصله في طريقه إلى وطنه، ولا ينافس أهل ذلك البلد المستوطن فيه في عزّهم ولا يجزع ممّا أصابه عندهم من الذّلّ.

قال **الحسن**: «المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلّها، ولا ينافس في عزّها، له شأن وللناس شأن».

والمؤمنون في هذا القسم أقسام: منهم من قَلْبُه مُعَلّق بالجنّة، ومنهم من قلبه مُعَلّق عند خالقه، وهم العارفون.

قال **عليٌّ** ﷺ: «العارفون أبدانهم في الدنيا، وقلوبهم عند المولى».

وأهل هذا الشأن هم غرباء الغرباء، وغربتهم أعزّ الغربة، فإن الغربة عند أهل الطريقة **غربتان: ظاهرة وباطنة:**

فالظّاهرة:

غربة أهل الصّلاح بين الفسّاق، وغربة الصّادقين بين أهل الرّياء، والنفاق، وغربة العلماء بين أهل الجهل وسوء الأخلاق، وغربة علماء الآخرة بين علماء الدنيا الذين سُلِبوا الخشية، والإشفاق، وغربة الزّاهدين بين الراغبين فيما ينفد وليس بباق.

وأمّا الغربة الباطنة:

فغربة الهمّة وهي غربة العارفين بين الْخَلق كلّهم حتى العلماء والعُبّاد والزّهاد فإن أولئك واقفون مع علمهم وعبادتهم وزهدهم وهؤلاء واقفون مع معبودهم لا يعرجون بقلوبهم عنه، فكان **أبو سليمان الدّاراني** يقول في صفتهم:

«وهمّتهم غير همّة الناس، وإرادتهم الآخرة غير إرادة الناس، ودعاؤهم غير دعاء الناس».

وقال **يحيى بن معاذ** : «الزاهد غريب الدنيا، والعارف غريب الآخرة».

يشير إلى أن الزّاهد غريب بين أهل الدنيا، والعارف غريب بين أهل الآخرة لا يعرفه العُبّاد ولا الزُّهاد، وإنما يعرفه من هو مثله وهمّته كهمّته.

وفي حديث سعد بن أبي وقاص عن النبيّ ﷺ: «**إنّ الله يُحبّ العَبد التَّقِيّ الغَنّي الخَفِيّ**»[1].

وقال **ابن مسعود** رضي الله عنه: «كونوا جدد القلوب، خلقان الثياب، مصابيح الظّلام، تخفون على أهل الدنيا، وتعرفون في أهل السماء».

فهؤلاء أخصّ أهل الغربة، وهم الفرّارون بدينهم من الفتن، وهم النزّاع من القبائل، وهم بين أهل الآخرة أعزّ من الكبريت الأحمر فيكف يكون حالهم بين أهل الدنيا، وتخفى حالهم - غالبًا - على الفريقين، كما قال:

تواريتُ عن دَهْري بظلّ جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
ولو تسأل الأيام ما اسمي؟ لما درت وأين مكاني؟ ما عرفن مكاني

ومن ظهر منهم للناس فهو بينهم ببدنه، وقلبه معلق بالنظر الأعلى كما قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه في وصفهم:

جسمي معي غير أن الرُّوح عندكم فالجسم في غُرْبة والروح في وطن

وأكثرهم لا يقوى على مخالطة الخلق فهو يفرّ إلى الخلوة ليستأنس بحبيبه. ولهذا كان أكثرهم يطيل الوحدة... وقيل لبعضهم:

ألا تستوحش؟

قال: «كيف أستوحش وهو يقول: أنا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَني؟».

وعوتب ابن غزوان على خلوته، فقال:

«إني أصبتُ راحة قلبي في مجالسة من لديه حاجتي» ا.هـ.

---

(١) رواه مسلم (٤/٢٢٧٧).

فالزم - **أخي المسلم** - طريق أهل الغُربة، فإنه طريق النجاة، ولا يضرّك قلّة السالكين، واحذر من متابعة أهل الشبهات والشهوات، ولا يغرنّك كثرة الهالكين.

«اللّهم أرِنا الحقّ حقًّا وارْزُقْنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارْزُقنا اجْتنابه».. آمين.



٨٠- الثَّبَاتُ

«الثَّبَاتُ»: خُلُق كريم، يدلّ عل صفاء الجوهر، وصحّة المعتقد، وقوّة التوكّل.

وما أحوجنا إليه - في هذا العصر - الذي عَصفَت فيه «فِتْنَةُ الشُّبُهات» بالقلوب فاضّطربتْ، وعَصَفَت فيه «فِتْنَةُ الشَّهَوات» بالأخْلاق فاعْوَجَّت.

ولأهميته: فالحديث على السطور التالية يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: تعريف الثبات.

والثاني: أهميته.

والثالث: مواطنه.

والرابع: وسائله.

ونسأل الله - تعالى - الثَّبات في الأمْر، والْعَزِيمَة على الرُّشْد.

أولاً: تعريف الثبات:

الثبات «لُغَةً» مصدر «ثَبَتَ»، وهو مأخوذٌ من مادّة (ث ب ت) التي تدلّ على دوام الشيء، يقال: ثَبَتَ ثَبَاتًا وثُبُوتًا (أي: دَامَ واستَقَرّ)[١].

و«اصطلاحًا»:

الثبات: هو عدم احتمال الزّوال بتشكيك الْمُشَكِّك، والثّابتُ هو الموجود الذي لا يزول بتشكيك الْمُشَكّك، والإثْبات عند القُرَّاء ضِدُّ الحَذْف[٢].

---

(١) «نضرة النعيم» (١٤٣٧/٤).

(٢) «كشاف اصطلاحات الفنون» للتهانوي (٢٦٤/١).

ثانيًا: أهمية الثبات:

اعلم: أن الثبات مِنْحَة إلهيّة، وقوّة ربانية، يقذفها رَبُّ البريّة - تبارك وتعالى - في قلب من يشاء من عباده.

لذا لجأ إليه النّبيون، وتوجّه إليه الصّالحون، يسألونه الثّبات في الأمر، والعزيمة على الرشد.

وسيأتي بعد قليل شيءٌ من أقوالهم وأحوالهم.

ثالثًا: مواطن الثبات:

المواطن التي يحتاج فيها المسلمُ إلى « الثبات » كثيرة، نذكر منها:

الموطن الأوّل: الثباتُ على الدِّين:

وهذا الثّبات أعظم ما يَتفضّل اللّهُ - تعالى - به على عباده.

قال الشيخ/ **محمد الغزالي** - رحمه الله تعالى - :

« بئستِ الحياةُ أن تَبْقَى بعد أن يَمُوتَ دِينُك »ا.هـ.

أخي المسلم:

ولمكانة الثّبات على الدِّين: كان الأنبياء والصّالحون يسألون ربَّهم أن يَتَفضَّل عليهم به:

- عن النّوّاس بن سمعان ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« ما مِنْ قَلْب إلاّ بَيْن إصْبَعَيْنِ مِنْ أصَابع الرَّحْمن. إن شَاء أَقَامَه، وإن شَاءَ أَزَاغَه ».

وكان رسولُ الله ﷺ يقول:

« يا مُثَبِّتْ القلوب، ثَبِّتْ قُلُوبَنا على دِينك ».

قال: **« والميزانُ بِيَدِ الرّحمن يَرْفَعُ أقوامًا، ويَخْفِضُ آخرين إلى يَوْمِ القيامة »**[1].

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٩٩)، وقال في « الزوائد »: إسناده صحيح.

□ وحكى القرآن العظيم عن المؤمنين أن من دعائهم:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

ولقد سجل الصّالحون عَبْر العصور مواقفَ رائعة، تدلّ على عُمقِ إيمانهم، وشدّةِ رغبتهم فيما عند ربِّهم، ومن هذه المواقف:

(١) ثباتُ أهل الكهف:

فقد أخبر القرآنُ عنهم، وسجّل لنا قصَّتهم، وكيف أنهم لمّا آمنوا، وذاقوا طعَم الإيمان، ومَسّ نورُ التوحيد شغاف قلوبهم، فرُّوا بدينهم، وفارقوا أوطانهم، وقومهم، ولجأوا إلى « كهف »، ومن داخل الكهف يخبُرنا ربُّنا عَنْ حَالهم فيقول:

﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١٠ - ١٥].

لقد تحوّل الكهفُ مع ضِيقه وظُلْمته ووَحْشَته إلى رَوْضةٍ من رياض الجنة!

و لم لا؟ أليست عنايةُ الله معهم؟

إذن، فالمخاوف كلّهنّ أَمَان.

(٢) ثباتُ بِلالِ بْن رَباح:

لمّا أعلَن إسلامه، سحبه سيّدُه « أميّةُ بْنُ خلف » - قبّحَه الله - على وجهه في لهيب

الشمس، ووضع على صدره صخرة عظيمة، وقال له:

اكفر بمحمد.

فكان بلال لا يزيد على قول:

«أَحَدٌ ... أَحَدٌ».

نعم يا بلال ... «أَحَدٌ ... أَحَدٌ».

لا إله غيره، ولا رَبَّ سواه.

أخي:

أرأيت الثبات في أسمى صوره، وأحلى معانيه؟

وإذا كانت النّفوس كِبارًا تعبت في مُرَادِها الأَجْسَام

الموطن الثاني: الثبات أيّام الفتن:

والفتن نَوْعَان:

فتن الشُّبُهات:

وهي الفتن التي يُلْقيها الشّيطانُ على ألسنة أوليائه من شياطين الإنس. في محاولة لزعزعة اعتقاد هذه الأمّة، وصرفها عن دينها، عن طريق:

التشكيك في وجود الله تعالى.

التشكيك في نبوّة الرسول ﷺ

التشكيك في سُنّته.

التشكيك في القرآن وصلاحيته.

التشكيك في سلوك الرسول ﷺ وصحابته.

كلّ ذلك تحت شعارات برّاقة، مثل:

« الحرية »، « التّنْوير »، « حقوق الإنسان »، « حقوق المرأة »... إلخ.

النوع الثاني: فتن الشهوات:

وهي تأجيج الشهوة عن طريق:

- الأفلام الخليعة.
- الرقص بجميع أنواعه.
- انتشار التبرّج.
- الغناء الدّاعر.
- انتشار الخنوثة.
- انتشار الاختلاط.

ومع مخالطة هذه الأمور، والجلوس إليها، تعتادها النفوس وتألفها، ويصعب على النفس - فيما بعد - مفارقتها.

وهذا المجون يثمر:

- الدِّياثة.
- موت الغيرة.
- ذَبْحُ الشّرف على أعتاب الرّذيلة.
- الزّنا.
- تفكك الأسر والمجتمع.
- انتشار الأمراض المستعصية.
- تسلّط الأعداء.
- فرار البركة من العمر والرزق.
- انتشار الخنوثة ... إلخ.

وعلى المؤمن أن يواجه أمواج هذه الفتن، بالتعلّق بالله تعالى، ثمّ بذكر قصّة يوسف ﷺ، وكيف أنه واجه فتنة امرأة العزيز، بقوله:

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولّما اجتمع كيدُ النّسوة عليه، في محاولة لجرِّه إلى الفاحشة، استعان بمولاه، قائلاً:

﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣].

فأدركته عنايةُ ربِّه:

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٤].

الموطن الثالث: الثبات في الجهاد:

وهذا الثبات من أسباب النصر.

والمعين عليه: اللجوءُ إلى الله تعالى، وكثرةُ ذكْره، والرَّغْبَةُ في الشّهادة.

قال تعالى - حكاية عن جنود طالوت - :

﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

الموطن الرابع: عند مواجهة الظَّلَمة:

والمعين على ذلك: التعلّق بالله، ثم ذكر امرأة فرعون «آسية»، و «ماشطة بنت فرعون».

أمّا آسية:

فإنها لمّا آمنت بربِّ موسى، أخذها فرعونُ، فصَلَبها، وتركها في شدّة الحرّ دون

طعام ولا شراب، فثبتت، وتعلّق قَلْبها بربِّها، وانطلق لسانها:

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١].

فانظر - **أخي الكريم** - لهذا الثبات العجيب، والتحدّي الغريب.

وانظر: كيف اختارت الجار قبل الدّار!!

إنّه الإيمان الذي يصنع الأعاجيب.

فأين هذا الثبات اليوم؟

لقد سمعنا أقوامًا - لا خَلاَق لهم - يَسُبُّون الله في عُلاه، حين يعتريهم مرضٌ، أو تضايقهم مشكلة!!

وأما ماشطة بنت فرعون:

فيحكي لنا قَصّتَها ابْنُ عَبّاس - رضي الله عنهما - كما سمعها من النبيّ ﷺ فيقول:

قال النبيُّ ﷺ :

« لَمّا أُسْرِي بي مَرَرْتُ برائحة طَيِّبة، فقلتُ لجبريل: ما هذه الرّائحة؟

قال: هذه ماشِطة آل فرعون، وأولادها، كانت تمشط ذات يوم شَعْر بنت فرعون، فوقع الْمُشْط من يَدِيها، فقالت:

بِسْم الله.

فقالت بِنْتُ فِرْعَوْن: أَبي؟

قالت: لا، بل رَبِّي وَرَبّ أبيك.

فقالت: لأخبرنّ بذلك أبي.

فلمّا أخبرته دَعَا بها وبولدِها، وقال لها:

مَنْ رَبُّك؟

فقالت: إن رَبِّي وَرَبُّك الله.

فأمر ببقرة من نُحاس فَأُحْمِيَتْ ثم أُمِرَ بها[١] أن تُلْقى فيها، فقالت له:

إن لي إليك حَاجَة، فقال:

وما هي؟

قالت: تَجْمَع عِظامي، وعِظَامَ وَلَدي فَتَدْفِنَا جميعًا.

قال: فَلَكِ ذلك لِمَا لَكِ عَلَيْنا مِنْ الحقِّ.

ثم أمر بأوْلاَدها فألقوا واحدًا واحدًا حتى بلغ رضِيعًا فيهم، فقال:

يا أمُّه، قَعِي ولا تَقَاعسي، فإنَّك على الحقّ»

وفي رواية:

« فلم يزلْ أولادُها يُلْقَوْن في البقرة حتى انتهى إلى ابن لها رَضيع، فكأنَّها تقاعست من أَجْلِه، فقال لها:

يا أُمّاه، اقْتَحِمي، فإن عذابَ الدنيا أَهْون من عذاب الآخرة »[٢].

فانظر - **أخي المسلم** - إلى هذا الثبات!

امرأة تواجه فرعون بهذا العزم؟!

وتواجه الموت بهذه الشجاعة؟

نعم. إنّه اليقين.

إنه الإيمان.

---

(١) وفي رواية: « وولدها »، وبدلاً من « بقرة » « تَنُور ».

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد، وقال ابن كثير: إسناده لا بأس به و لم يخرجوه.

إنها الرّغبة «الصّادقة» فيما عند الله.

لقد واجهت العذاب بثبات، ولسان حالها يقول:

يا رب

رضاك خَيْرٌ من الدُّنْيا وما فيها ... يا مَالك النّفس قاصيها ودانيها
فليس للرّوح آمَالٌ تُحققها ... سوى رضاك، فَذَا أقْصَى أمانيها
فنظرة منك يا سُؤْلِي ويا أَمَلي ... خَيْرٌ إليّ من الدُّنْيا وما فيها

الموطن الخامس: الثبات عند الموت:

والثبات عند الموت: ثمرة فعل الطاعات، واجتناب المحرّمات.

فاللّواحق تُبْنى على السّوابق.

ومن أشرقت بداياته، أشرقت نهاياته.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

قال مجاهد: «تتنزل الملائكةُ عليهم عند الموت».

رابعًا: وسائلُ الثبات:

من الوسائل المعينة على الثبات:

(١) الاستعانة بالله تعالى:

عن شدّاد بن أوس ﷺأنه قال:

إن رسول الله ﷺ كان يقول في صلاته:

«اللّهم إنّي أسْألُك الثّباتَ في الأَمْر، والعزيمَةَ على الرُّشْد، وأسألُك شُكْرَ نِعْمَتِك، وحُسْنَ عِبَادَتك، وأسألُك قَلْبًا سَلِيمًا، ولسانًا صادقًا، وأسْألُك مِنْ خَيْر ما تعلم، وأعوذُ بك

من شرّ ما تعلم، وأستغفرُك لِمَا تَعْلم»(١).

(٢) تلاوة القرآن، والعمل به:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

(٣) فعلُ الواجبات، وترك المحرَمات:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

(٤) الدّعاء والذِّكْر:

وقد تقدّم - قريبًا - الدليل على ذلك

والدعاء سببٌ في التثبيت حتى بعد الموت!

عن هانئ مولى عثمان بن عفّان ﷺ أنه قال:

كان النبيُّ ﷺ إذا فَرَغ من دَفْن الميّت وَقَفَ عليه فقال:

« استغفروا لأخيكم، وسَلُوا له التّثبيت فإنّه الآن يُسْأل »(٢).

(٥) مطالعة سِيَر الأنبياء والمرسلين:

قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ [هود: ١٢٠].

(٦) مطالعة سِيَر الصّالحين ومصاحبتهم:

فثبات الصّالحين والصالحات عند المحن والفتن يقوّي العزم، ويثمر الثبات، وهذا معلوم.

---

(١) رواه النسائي (٣/٥٤)، وللحديث طرق أخرى يتقوّى بها.

(٢) صحيح رواه أبو داود (٣٢٢١)، وصحّحه الألباني.

يعرفه مَنْ يطالع:

قصّة أصحاب الأخدود.

قصة مؤمن آل فرعون.

قصّة آسية.

وغير ذلك من قصص المجاهدين قديمًا وحديثًا.

(٧) الإيمان بالقضاء والقدر:

فاليقين بأن الأَجَل مَحْسُوم، والرّزقَ مقسوم، وأن ما أصَابَك لم يكن لِيُخْطِئك، وما أخطأك لم يكن لِيُصِيبك: يورث الثّبات في القلب، وَيُذْهب الخوفَ من الفؤاد.

(٨) الرغبة فيما عند الله من الثواب:

فهذا الاعتقاد، يقوّي القلب، ويورث الصّبر.

أخي الكريم:

هذه بعض وسائل الثبات، فما أحوجنا إليها – في هذا العصر – الذي تموج فيه الفتن كموج البحر.

فَعضّ عليها – **أخي** – بالنواجذ، ولا تغفل عنها، واعلم: أن النّصر مع الصّبر.

ثَبّتني اللّهُ تعالى وإيّاك بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

۞۞۞۞۞

٨١- التّفكّر

قال الشيخ/ **محمد الغزالي** – رحمه الله – :

«لابد أن نُصارح بأن الضَّمِير الْمُعْتَلّ والفكْرَ الْمُخْتلّ ليسا من الإسْلام في شيء، وقد انتمت إلى الإسلام اليوم أُمَمٌ فاقدة الوعي، عَوْجاء الخُطى قد يحسبها البعضُ أُمَما حَيَّة ولكنها مُغمى عليها، وينتظر أن تفيق! ومهما كان التشخيص الطبّي لهذه الأُمم فنحن نؤكّد أن الحياة الإسلامية تقوم على فكر ناضر إذ الغباء في ديننا معصية، قال تعالى:

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

الغباوة ذنب فردي واجتماعي. والشعوب عندما تدير ظهرها للوحي تنحدر من الآدمية إلى الحيوانية. ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

وأذكر أن أحد الناس قال لي: عيبك أنك تخلط الدين بالعقل!!

فقلت له: ويحك. وهل الدين إلاّ عقل ذكي مستقيم؟ ألم تسمع قول الله لنبيّه:

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢].

إن الدين الذي لا عقل معه هو الوثنية والتجسيد والتعديد.

أما المسلمون فقد ناداهم اللّهُ بقوله:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

وقد بلّغنا محمّدٌ الصّادق الأمين ﷺ هذه الآيات ووعى أصحابه وتابعوه كيف عاش، وكيف جاهد، وكيف نصح للأمّة، وكيف حصّنها ضد الوساوس والأوهام، وفي سُنّته المضيئة تراث نفيس وحكمة بالغة، شرحت الطريق لمن أراد سلوكه، وما يستطيع

ذلك مَنْ سُرِق وَعْيُهم ونام عقلُهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] اهـ[١].

أخي المسلم:

وبعد هذا التمهيد «المهمّ»، نشرع في الحديث عن «**التفكُّر**»، ومكانته.

والحديث عنه يدور حول **أربعة أمور:**

الأول: تعريف التفكّر.

والثاني: حقيقته.

والثالث: الحث عليه من القرآن والسُّنة.

والرابع: ثمراته.

والله الموفق، لا إله غيره ولا ربّ سواه.

أوّلاً: تعريف التفكُّر:

التفكّر «**لغة**»: قال **الجَوْهَرِيُّ**:

«التفكّر: التأمُّل، والاسْمُ: الفِكْرُ، والْمَصْدرُ: الفَكَر - بالْفَتْح -» اهـ[٢].

و«**اصطلاحًا**»: تصرّفُ الْقَلْبِ في معاني الأشياء لِدَرَكِ الْمَطْلُوب[٣].

ثانيًا: حقيقةُ التفكّر:

قال الإمام **ابْنُ القَيِّم** - رحمه الله -:

«أَصْلُ الخير والشّر من قِبَلِ التّفكُّر؛ فإن الفكرَ مَبْدأ الإرادة والطّلب في الزّهد والترك والْحُبّ والبغض. وأنفع الفكر: الفكرُ في مَصَالح الْمَعَاد وفي طرق اجْتلابها وفي دَفْع مفاسد

(١) «كنوز من السّنة» للغزالي (١٠، ١١).

(٢) «لسان العرب» (٥/٦٥).

(٣) «التعريفات» للجرجاني (٦٦).

الْمَعَاد وفي طُرق اجتنابها، فهذه أربعةُ أفْكار هي أجَلُّ الأفكار، ويليها أربعةٌ:

فكر في مصالح الدنيا وطرق تحصيلها، وفكر في مفاسد الدنيا وطرق الاحتراز منها، فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكارُ العقلاء.

ورأسُ القِسم الأوّل: الفِكرُ في آلاء الله وَنِعَمه وأَمْره ونَهْيه وَمَا والاهُما، وهذا الفكر يثمر لصاحبه المحبّة والمعرفة، فإذا فكّر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخسّتها وفنائها: أثمر له ذلك الرغبةَ في الآخرة والزّهَد في الدنيا، وكلّما فكّر في قِصَر الأَمَل وضيق الوقت: أورثه ذلك الجدَّ والاجتهادَ وبَذْلَ الْوُسْع في اغتنام الوقت.

وهذه الأفكار تُعلي همّته وتُحييها بعد موتها وسفولها وتجعله في وادٍ والناسُ في وادٍ.

وبإزاء هذه الأفكار: الأفكارُ الرَّدئية التي تجول في قلوب أكثر الخَلْق.

كالفِكْر فيما لم يكلّف الفِكْرُ فيه ولا أُعْطِي الإحاطة به مِنْ فضول العِلْم الذي لا ينفع، كالفكر في كيفية ذات الرَّبّ مِمّا لا سبيلَ لِلْعُقول إلى إدْراكه» ا.هـ[1].

ثالثاً: الحثُّ على التفكّر من القرآنِ والسُّنّة:

ورد في فضل «التفكّر» والحث عليه آيات وأحاديث كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

(٢) وقال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ

(١) «الفوائد» (٢٥٥).

تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

(٣) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩٢].

(٤) وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

(٥) وقال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١].

والآيات في هذا المقام كثيرة جدًا. قال الإمام **الغزاليّ** – رحمه الله – :

«كثر الحثُّ في كتاب الله على التدبّر والاعتبار والنّظر والافتكار، ولا يخفى أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأُ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم، وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته لكن جهلوا حقيقته وثمرته ومصدره» ا.هـ[1].

ومن السُّنة:

عن عطاء، قال:

دخلتُ أنا وعُبيد بن عُمير على عائشة – رضي الله عنها – فقالت لعبيد بن عمير:

قد آن لك أن تزورنا، فقال:

---

(١) «الإحياء» (٤/٤٢٣).

أقول يا أُمَّهْ كما قال الأوَّلُ: «زُرْ غِبًّا[1] تَزْدَدْ حُبًّا». قال: فقالت:

دعونا من رطَانَتِكم[2] هذه. قال ابْنُ عُمير:

أخبرينا بأَعْجَبِ شيء رأيتيه مِنْ رسولِ الله ﷺ؟

قال: فسكتت ثم قالت:

لمّا كانت ليلةٌ من الليالي، قال:

«**يا عائشةُ، ذَرِيني أَتَعَبَّدُ الليلةَ لرَبِّي**».

قلتُ: واللهِ إنِّي لأُحِبُّ قُرْبَك وأُحِبّ ما سَرَّكَ. قالت: فقام فَتَطهّر ثم قام يُصلِّي. قالت: فلم يزل يبكي حتى بَلّ حِجْرَهُ، قال: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ لِحْيَتَه، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بَلَّ الأرْضَ، فجاء بلالٌ يُؤْذِنُهُ بالصّلاة، فلمّا رآه يبكي، قال:

يا رسول الله، لم تبكي، وقد غَفَرَ اللَّهُ لَكَ، ما تقدّم من ذَنْبك وما تأخَّر؟

فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ لقد نزل عليَّ الليلة آيةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرأَ هَذِهِ الآيات ثم لم يَتفكَّرْ فيها:**

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١]»[3].

رابعًا: ثمرات التفكّر:

اعلم - **أخي الكريم**- أن للتفكر ثمرات يانعة، يَجْنيها المسلمُ في حياته وبعد مماته:

الثمرة الأولى: معرفة الله تعالى ومحبته:

قال الإمام **ابن القيم**: «الفكر في آلاء الله ونعمه وأمره ونهيه وطرق العلم به وبأسمائه

---

(١) أي: مرّة بعد مرّة.

(٢) وفي رواية «بطالتكم».

(٣) **إسناده قويّ على شرط مسلم**: انظر: «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» (٢/٦٢٠).

وصفاته من كتابه وسُنّة نبيّه وما والاهما: يثمر لصاحبه المحبّة والمعرفة»ا.هـ[(١)].

وقال الشيخ/ **أبو سليمان الدّاراني** - رحمه الله - :

«إني لأخرجُ مِنْ مَنزلي فما يقعُ بَصَري على شيء إلاّ رأيتُ لِلّه فيه نِعمةً ولي فيه عِبْرة»[(٢)].

وقال **بِشْرُ بن الحارث** - رحمه الله - :

«لو تَفكّر الناسُ في عَظَمة الله، ما عَصَوْا الله ﷻ »[(٣)].

ومن وسائل «معرفة الله»: رؤية عجائب قدرة الله في خلق الإنسان.

قال بعضهم: «مَنْ عَرِف نَفْسه، فقد عَرِف ربَّه».

وَتَحْسَــــب أنّــــك جِـــرْمٌ صـــغير وفـــيك انْطـــوى العَـــالَمُ الأكْـــبر!

الثمرة الثانية: الجنّة - إن شاء الله - :

كان لقمان الحكيم يطيل الجلوس وحده، فكان يمرّ به مولاه فيقول:

يا لقمانُ، إنك تدم الجلوسَ وحَدْكَ، فلو جلست مع الناس كان آنسَ لك. فيقول لقمان:

«إن طول الْوَحْدَة أَفْهَمُ لِلفكر وطولَ الفكر دليلٌ على طريق الجنّة»[(٤)].

الثمرة الثالثة: استثمار الوقت:

فإن من تفكّر في مسيره ومصيره وما يؤول إليه حاله بعد موته، استثمر وقته في الطاعات وعمل الخيرات، وَسَلا عن الشهوات، ولذلك قال **الحسن**:

---

(١) هذا جزء من كلامه المتقدّم قبل قليل.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤٣٨/١).

(٣) «الإحياء» (٤٢٤/٤).

(٤) نفس المرجع (٤٢٥/٤).

«تفكّر ساعةٍ خير من قيام ليلة»(١).

الثمرة الرابعة: الخشوع:

فإن من تفكّر في عَظَمة ربِّه، وَعِظَم ذَنْبه، وضَعْف نفسه، وتدبّر في آيات رَبِّه: خَشَع وذلّ. قال **ابن عباس:**

«ركعتان مقتصدتان في تفكّر خَيْرٌ من قيام ليلةٍ بلا قَلْب»(٢).

الثمرة الخامسة: الشُكر:

فإن من تفكّر في نعم الله - تعالى - عليه، أدّى شكرها، وانطلق لسانُه بالثناء على مُسْديها - جلّ وعلا - .

قال **عُمَرُ بْنُ عبد العزيز** - رحمه الله - :

«الفكرةُ في نعم الله ﷻ من أفضل العبادة»(٣).

الثمرة السادسة: الزهد في الدنيا:

فإن من تفكّر في الدنيا، وعلم أن مآلها إلى زوال، وأنّه فيها كرجلٍ استظل تحت ظلّ شجرة ساعة ثم راح وتركها: زهد فيها.

عن **عمر بن عبد العزيز** - رحمه الله - أنه بكى يومًا بين أصحابه فسُئل عن ذلك، فقال:

«فكّرتُ في الدنيا ولذّاتها وشهواتها فاعتبرتُ منها بها، ما تكاد شهواتُها تَنْقضي حتى تكدّرها مَرَارتُها، ولئن لم يكن فيها عِبْرَةٌ لِمن اعتبر إنّ فيها مواعِظَ لمن ادَّكَر»(٤).

---

(١) نفس المرجع (٤/٤٢٤).
(٢) نفس المرجع (٤/٤٢٥).
(٣) نفس المرجع، والصفحة.
(٤) «تفسير ابن كثير» (١/٤٣٨).

وكلام الصالحين في هذا المقام أكثر من أن يُحصى.

الثمرة السابعة: المسارعة إلى فِعْل الخيرات واجتناب المحرّمات:

كتب الحسنُ إلى عمر بن عبد العزيز - رحمهما الله - :

«اعلم أن التفكّر يدعو إلى الخير والعمل به، والنّدمَ على الشَّر يدعو إلى تَرْكه، وليس ما فَنِيَ وإن كان كثيرًا يَعْدلُ ما يَبْقَى وإن كان طَلَبُهُ عزيزًا، واحتمال المَئونة المنقطعة التي تَعْقبُ الرّاحَة الطَّويلة خَيْرٌ من تعجيل راحةٍ مُنْقَطِعةٍ تَعْقُبُ مَئُونَةً باقِية»[1].

الثمرة الثامنة: الاتّعاظ:

فإن من تفكّر فيما آل إليه أمرُ الظالمين؛ اعتبر بِسيَرِهم ومآلهم، فاستقام قلبُه، وقاد جوارحه إلى ما ينفعه في أُخْراه.

قال **ابن مسعود** ﷺ:

«السّعيُد من وُعِظَ بِغَيْره».

وقال **عبد الله بن المبارك** - رحمه الله - :

«مرّ رجلٌ براهب عند مَقْبرة وَمَزْبَلة فناداه فقال: يا راهبُ، إن عندك كَنزيْن من كنوز الدنيا لك فيهما مُعْتَبرٌ: كَنز الرّجال، وكَنز الأمْوال»[2].

الثمرة التاسعة: السلامة من الغرور:

قال الإمام **الشافعي** - رحمه الله - :

«استعينوا على الكلام بالصَّمت، وعلى الاستنباط بالفكر»، وقال أيضًا:

«صحّة النظر في الأمور: نجاة من الغرور، والعَزْم في الرَّأي: سلامة من التفريط والنّدم، والرُّؤْية والفكر: يكْشِفان عن الْحَزْم والفِطنة، ومشاورة الحُكَماء: ثباتٌ في النَّفْس،

---

(١) «الإحياء» (٤/٤٢٤).

(٢) نفس المرجع (٤/٤٢٥)

وقوّةٌ في البصيرة، ففكِّر قبل أن تَعْزم، وتدبّر قبل أن تَهْجُم، وشاور قبل أن تُقْدِم»[1].

الثمرة العاشرة: النجاة من ألم الندم: *ندمَ الدُّنيا والآخرة.*

فإن من تفكّر في عواقب الأمور، وتريّث قبل أخذ القرار، كان من أسلم الناس وأسعدهم.

عن أنس ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« **التّأنّي من الله، والعَجَلةُ من الشّيْطان** »[2].

ولله دَرُّ القائل:

قَــدِّر لــرِجْلكِ قَــبْل الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا　　فَمَــنْ عَــلاَ زَلَقًــا عَــنْ غِــرَّةٍ زَلَجَــا

الثمرة الحادية عشرة: نهضة الأمم:

فإن إعمال الفكر في الكون، والبحث والتنقيب في هذا العالم، يثمر تطوّرًا، وتقدّمًا، ترقى به أُمّتنا، وتقود به الأمم.

وكان المسلمون أَوْلى من غيرهم بالصعود على ظهر القمر، وكان من الواجب عليهم أن يكونوا من أسبق الأمم إلى كل تطّور حضاري نافع، لماذا؟

لأن دينهم أمرهم بهذا وحثهم عليه.

وبالجملة: فالتفكّر نعمة عظيمة تثمر سعادة الدّارين. ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

۞۞۞۞۞

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) حسن: رواه البيهقي، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٠١١).

٨٢- التَّذْكِيرُ

قال بعضُ السّلَف:

« صَاحِب: مَنْ تُذكِّرك باللهِ رؤيتُهُ، وَيَزيدُ فِي عِلْمِك مَنْطِقُهُ، إنَ ذكَرْتَ الله أعَانَك، وإن نَسيتَ الله ذكّرك ».

وقال **ابْنُ عَطاءِ اللهِ السّكندري** - رحمه الله تعالى - :

« لا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حَالُهُ، ولا يَدُلُّك على الله مَقَالُهُ »(١).

كلمات... قليلة الْمَبْنَى، عَظِيمة الْمَعْنى، تشير إلى أدَب الصُّحْبة، وَتُعَظِّم شأن التذكير.

ولمكانة هذا الخُلُق وفضله، فالحديث يدور حول **أربعة أمور**:

الأوّل: تعريف التذكير.

الثاني: مكانته.

الثالث: فوائده.

الرابع: دروسٌ وَعِبرٌ من قصّة « أصحاب السّبت ».

والله الهادي إلى الصّواب.

أوّلاً: تعريفُ التذكير

التذكِيرُ: أن تجعل غَيْرَك يَسْتَحْضِر ما تُذكِّره به بغرض الاتّعَاظ والخروج من ميدان الغفلة والنّسيان إلى مجال الْمُشَاهدة والحضور.

أو هو: أن تجعل المخاطَب على ذِكْر مِمَّا تظن أنه غافل عنه إمّا حقيقة وإمّا على

---

(١) « الحكم العطائية » (١٤).

سبيل التغافل فيخرج بذلك من دائرة الغفلة والنسّيان إلى مجال الذكرى التي تَنْفَعُ المؤمنين(١).

ثانيًا: مكانةُ التذكير:

اعلم: أن التذكير مهمّة الأنبياء والمرسلين، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

- قال تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٠].
- وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥].
- وقال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٨، ١٩].
- وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥].
- وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية: ٢١].
- وعن عليّ أو عن الزّبير - رضي الله عنهما - قال:

«كان رسولُ الله ﷺ يَخْطُبُنا فَيذكّرُنا بأَيّام الله حتى يُعْرفَ ذلك في وجهه، وكأنّه نَذيرُ قَوْمٍ يُصَبِّحُهُم الأَمْرُ غُدْوَةً، وكان إذا كان حَدِيثَ عَهْدٍ بجبريلَ لَمْ يَتَبَسمْ ضاحِكًا حتى يَرْتفعَ»(٢).

---

(١) «نضرة النعيم» (٣/٩٦٩).

(٢) صحيح أخرجه أحمد (١/١٦٧)، وغيره، وصحّحه الشيخ/ أحمد شاكر في «المسند» (١٤٣٧).

- وقال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في قوله تعالى:

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الأنعام: ٧٠]: أي: ذكِّر الناس بهذا القرآن، وحذِّرهم نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة(١).

- وقال الإمام ابن كثير - أيضًا - في قوله:

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩]: ذكِّر حيث تنفع التذكرة، ومن هنا يؤخذ الأدب في نشر العلم فلا يضعُهُ عند غير أهله(٢).

- وعن أبي وائل، قال:

كان عبدُ الله - يعني ابن مسعود - يُذكِّر النّاسَ في كُلِّ يَوْمِ خميس، فقال له رَجُلٌ: يا أبا عَبْد الرّحمن، لَوَددْتُ أنَّك ذَكَّرْتنا كُلَّ يَوْمٍ. قال:

«أمَا إنّه يَمْنَعُني من ذلك أنّي أكْرَهُ أن أُملّكم، وإنّي أتَخوّلُكم بالْمَوْعِظة، كما كان النبيُّ ﷺ يَتَخوَّلُنا بها مَخَافَةَ السَّآمة(٣) عَلَيْنا»(٤).

وقد حذّر القرآن العظيم من مَغبّة الإعراض عن التذكير، والانصراف عنه.

(١) قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٥٧].

قال الإمام **القرطبيّ** - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أي: لا أحد أظلم لنفسه ممَّن وُعِظ بآيات ربّه، فتهاون بها، وأعرض عن قبولها. ﴿ وَنَسِىَ مَا

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/١٤٩).
٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٥٣٤).
٣) السَّآمة: الملل.
) رواه البخاري (٧٠)، ومسلم (٢٨٢١).

قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ ﴾ أي: ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها؛ فالنسيان هنا بمعنى الترك. وقيل: المعنى: نسي ما قدّم لنفسه وحصّل من العذاب؛ والمعنى متقارب. ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ ﴾ بسبب كفرهم؛ أي: نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم. ﴿ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ أي: إلى الإيمان. ﴿ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ نزل في قوم معينين، وهو يردّ على القدرية قولهم»ا.هـ[(١)].

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢].

قال العلاّمة **السَّعْدي** – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

«أي: لا أحد أظلم وأزيد تعديًا، مِمّن ذُكِّر بآيات ربِّه، التي أَوْصَلها إليه ربُّهُ، الذي يريد تربيته، وتكميل نِعْمَته عليه على يد رُسُلِه، وتأمره وتذكّره مصالحه الدِّينية والدّنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتَّسْليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظّالِمُ بضد ما يَنْبَغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقّون شديد النّقمة، ولهذا قال: ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ ا.هـ[(٢)].

أيُّها العاصي:

أَيّها المقيم على الخطايا والعصيان، التارك لِمَا أَمَر به الرحمن، المطيع لغوى الشيطان.

إلى متى أنت على جُرْمِك مُصِرٌّ؟!

ومِمّا يُقرّبك إلى مولاك تَفِرُّ؟!

متى تطلب من الدنيا ما لا تدركه؟!

وتبتغي من الآخرة بما لا تملكه؟!

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/٣٨٣).

(٢) «تفسير السّعدي» (٦٥٦).

لا أنت بما قسم الله لَك من الرزق واثق.

ولا أنت بما أَمَرَك به لاحق!

الموعظة لا تنفعك.

والحوادث لا تردعك.

وداعي الموت لا يوقظك!

كأنّك يا مسكين لم تزل حيًّا موجودًا.

وكأنّك لا تعود نَسْيًا مفقودًا!

فاز - والله - المخفّفون من الأوزار.

وَسَلِمَ المتقّون من عذاب النار.

وأنت مقيم على كَسْب الجرائم والأوزار!!

أيها الغافل:

مَكَرَ بِكَ في إحْسَانه فَتَناسَيْتَ!

وأَمْهَلَك في غَيِّك فَتَماديْت!

وأسقطَك من عَيْنه فما دَرَيْت ولا بَالَيْت!!

يا مَنْ غَدَا في الغَيّ والتّيه وغَرّه طُولُ تَمَاديه
أَمْلَى لَكَ اللّهُ فَبَارَزْتَه ولم تَخَفْ غِبّ مَعَاصِيه

يا إخْوان الغَفْلَة تيقّظوا.

يا مقيمين على الذّنوب انتبهوا واتّعظوا.

أخبروني من أسوأ حالاً؟

مَنِ استَعبدَه هواهُ، أَمَّن خَسِر صفقته، أمَّن باع آخرته بدنياه؟

فما للغفلة قد شملت قلوبكم.

وما للجهالة قد سترت عنكم عيوبكم.

أما تَرَوْن صَوارِم[١] الموت بينكم لامعة؟!

وقوارعه[٢] بكم واقعة.

وطلائعه عليكم طالعة.

وفجائعه لعذركم قاطعة.

وسهامه فيكم نافذة.

وأحكامه بنواصيكم آخِذة.

أتطمعون في بقاء الأَبْعَد؟

كلاّ والواحِد الصَّمَد.

إن الموت لَبِالْمِرْصَاد.

ولا يُبقى على والد ولا ولد.

فجدّوا - رحمكم الله - في خدمة مولاكم.

وأقلعوا عن الذنوب فلعله يتولاّكم[٣].

وها هو رَبّكُمُ الرّحيمُ الغَفّارُ يناديكم:

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وأخرج أبو نُعيم في «الحلية» (٩٢/٨) عن الفضيل بن عياض - رحمه الله - أنه

(١) الصّوارم: السيوف القاطعة الباترة.
(٢) القوارع: جمع قارعة وهي المصيبة.
(٣) «بحر الدموع» لابن الجوزي (٥١).

قال:

« مَا مِنْ لَيْلَةٍ اخْتَلطَ ظلامُها، وأَرْخَى اللّيْلُ سِرْبالَ سِتْرِها إلاّ نادى الجليلُ جَلّ جَلاَلُه:

مَنْ أعْظَم مِنّي جُودًا، والخلائقُ لي عاصون، وأَنَا لهم مُرَاقِب.

أَكْلَؤهم[1] في مَضَاجعهم كأنّهم لم يعصوني!

وأتولّى حِفْظهم كأنّهم لم يُذْنِبوا فيما بَيْني وبينهم!

أَجُودُ بالفَضَلْ على العاصي، وأَتَفضّل على المسيء!

مَنْ ذَا الّذي دَعَاني فَلَمْ أُلَبّه؟

أَمّ من ذَا الذي سألني فَلَمْ أُعْطِه؟

أم من ذَا الذي أَنَاخَ بِبَابِي فَنَحَّيْتُه؟

أنا الفَضْلُ، وَمِنّي الفَضْل، وأنا الجواد ومنّي الجُود، وأنا الكريم ومنّي الكَرَم.

وَمِنْ كَرَمي: أن أَغْفر للعاصين بعد المعاصي.

وَمِنْ كَرَمي: أن أعطي الْعَبْدَ ما سَأَلَني، وأُعْطِيه ما لم يَسْأَلْني.

وَمِنْ كَرَمي: أن أُعْطي التّائب كأنّه لَمْ يَعْصِني!

فأين إلى غيري يهرب الخلائق؟

وَأَيْنَ عَنْ بَابِي يَنْتَحِي[2] العاصون؟ »[3].

فاستيقظوا - رحمكم الله - من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم قبل أن يُقال:

فلانٌ عليل، فهل على الدّواء من دليل، وهل إلى الطبيب من سبيل؟

فَتُدْعَى لَكَ الأطباءُ، ولا يُرْجى لك الشّفاء، ثم يقال:

---

(١) أحفظهم.

(٢) وفي رواية: « يلتجئ ».

(٣) « جامع العلوم والحكم » (٣١٢).

فلان أَوْصَى، وَلِمَالِه أَحْصَى.

ثم يقال:

قد ثَقُل لِسَانُه، فما يكلّم إخْوانَهُ، ولا يَعَرف جيرانَه، وقد عَرَق عند ذلك جَبِينُك، وتَتَابع أَنِينُك، وَثَبَتَ يَقِينُك، وطَمَحت جُفونُك، وصَدَقَتْ ظُنُونُك، وَتَلَجْلَجَ لِسَانُك، وبكى إخْوانُك، وقيل لك:

هذا ابْنك فلان، وهذا أخوك فلان.

وَمُنِعْتَ من الكلام فلا تَنْطِق، وَخُتِم على لِسَانِك فلا يَنْطَق.

ثم حَلّ بك القَضَاءُ، وانْتُزِعَت نَفْسُك من الأَعْضِاء، ثم عُرِج بها إلى السماء.

فاجتمع عند ذلك إخْوَانُك، وَأُحضِرَتْ أَكَفانُك، فَغَسَّلُوك وكَفَّنوك، فانقطع عُوَّادُك، واسْتَراح حُسّادُك، وانْصرِف أَهْلُك إلى مَالِك، وَبِقيتَ مُرْتَهَنًا بأعمالِك.

ثالثاً: فوائد التذكير

وللتذكير فوائد كثيرة، منها:

(١) تحصيلُ الثواب في الحياة وبعد الممات:

وذلك إذا حَسُنَت النِّيَّة.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

« مَنْ دَعَا إلى هُدىً كان له مِنَ الأجْرِ مِثْل أجُوُرِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِك من أجورِهم شَيْئًا.

ومَنْ دَعَا إلى ضلالة كان عليه من الإثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلَك مِنْ آثَامِهِم شَيْئًا »[١].

---

(١) رواه مسلم، وغيره.

وعن أبي أُمامة ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« أَرْبَعةٌ تَجْري عليهم أُجُورُهم بَعْد الموت:

رجلٌ مات مُرَابطًا في سبيل الله.

ورجلٌ عَلَّم عِلمًا فأَجْرُهُ يَجْري عَلَيْه ما عُمِلَ به.

ورجلٌ أَجْرى صَدَقَةً فأجْرُها له ما جَرَتْ.

وَرَجُلٌ تَرَك وَلَدًا صالحًا يَدْعُو له »[١].

فأيّ فضل بعد هذا؟

(٢) اتّساعُ رُقْعة الخَيْر، وانْحِسَار رُقْعَة الشَّر:

فكم من كلمة طيّبة شرح اللّهُ فيها صُدُورًا، وَأَنَارَ بها عُقُولاً، وَعَصم بها من الشرور.

وكم من كلمة « طيّبة » - كانت سببًا - في نَقْل أقوام من الظّلمات إلى النور.

وكم من موعظةٍ « حَسَنة » - كانت سببًا - في إحياء سُنن انْدَرسَتْ، وإماتة بدع انْتَعَشتْ.

(٣) علامة على كمال الإيمان:

فعن تميم الدّاريّ ﷺ أن النبيّ ﷺ قال:

« الدِّين النّصيحة » .

قلنا: لمن يا رسول الله؟

قال: « لِلّه ﷻ، ولكتابهِ، ولرسولهِ ﷺ، ولأئمّةِ المسلمين وعامّتِهم »[٢].

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وغيره، وانظر: « صحيح الترغيب » (١١٠).

(٢) رواه مسلم (٥٥/٩٥).

رابعًا: دروسٌ وَعِبرٌ مِنْ قِصَّةِ «أصْحَابِ السَّبْتِ»:

قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٥].

هذه القصّة - كما هو واضح - تُحَذِّر من مَغَبّة متابعة بني إسرائيل في ضلالهم، ومن هذا الضّلال:

أ - التحايل:

وقد حذّر النبيُّ ﷺ أمّته منه، فقال:

«لا تَرْتكبوا ما ارتكبت اليهودُ فَتَسْتَحلّوا مَحَارِمِ الله بأَدْنى الحِيَل»[1].

أي: لا تسمّوا «الرّبا» فائدة! ولا الخلاعة والمجون: فَنًّا! ولا الرِّشوة: إكرامية! ولا الدّعارة: حرّية!!

ب - ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لأن ذلك كان سبب لعنة الله لبني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم.

فَتَرْكُ «التّذكير»: يوجب اللّعنة والمقت.

أَحدَاثُ القِصَّة:

وقعت أحداثُ هذه القصّة في قرية تسمى «**أيلة**»، وتقع على شاطئ بحر «القلزم».

قال الإمام **ابن عباس** - رضي الله عنهما - :

(١) رواه ابن بطّة، وقال ابن كثير: إسناده جيد.

« إن قومًا من بني إسرائيل في زمن « داود » عليه السلام سكنوا قرية على شاطئ البحر بين مصر وحطّين، يقال لها « أيلة » وقال أيضًا:

« إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم « يوم الجمعة » فخالفوا إلى السّبت. فعظّموه وتركوا ما أمروا به، فلمّا أبوا إلاّ لزوم « السبت » ابتلاهم الله فيه، فحرّم عليهم ما أحلّ لهم في غيره، فحرّم عليهم في « السّبت » الحيتان، صيدها، وأكلها، وكانوا إذا كان يوم « السبت » أقبلتِ الحيتان إليهم شُرَّعًا[1] إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السّبت، ذهبن فلم يَرَوْا حوتًا صغيرًا ولا كبيرًا، حتى إذا كان يوم السبت أَتَيْن سِرًّا، حتى إذا ذهب السّبتُ، ذهبن فكانوا كذلك، حتى طال عليهم الأمد، وقَرَمُوا إلى الحيتان[2]، عمد رجلٌ منهم فأخذ حوتًا سرًّا يوم السّبت فحزمه بخيط ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتدًا في السّاحل فأوثقه ثم تركه، حتى إذا كان يوم السّبت الآخر عاد لمثل ذلك، ووجد الناسُ ريح الحيتان، فقال أهلُ القرية:

والله لقد وَجَدْنا رِيحَ الحِيتان، ثم عثروا على صُنع ذلك الرّجل، قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا سِرًّا زمانًا طويلاً فلم يعجّل اللّهُ عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق ».

قال الإمام **الشوكاني**- رحمه الله - :

« فاحتالوا لصيدها، وحفروا الحفائر، وشقّوا الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السّبت فيصيدونها يوم الأحد! ».

قال **ابن عباس**:

« فقالت طائفةٌ منهم من أهل البقية: وَيْحَكُم اتقوا الله، ونهوهم عمّا كانوا يصنعون، وقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تَنْه القوم عمّا صنعوا: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ

(١) **شُرّعًا**: ظاهرةً على وجه الماء.

(٢) اشتدت شهوتهم نحوها.

مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بسخطنا أعمالهم ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فبينما هم على ذلك، أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم ففقدوا الناس لم يروهم».

وفي بعض الروايات: أن الطائفة الآمرة الناهية بنت جدارًا ليحجز بينهم وبين العُصاة، وذات يوم لم يسمعوا لهم حِسًّا، فَقال بعضهم لبعضٍ:

إن للناس شأنًا، فانظروا ما هو؟

فَوَضَعَوُا سُلَّمًا وأَعْلُوا سُورَ المدينة رَجُلاً فالتفت إليهم فقال:

أي عباد الله، قَرَدة والله تعاوى لها أذناب!! ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرودُ أنسابَها من الإنس، ولا تعرف الإنسُ أنسابَها من القردة، فجعلت القرودُ يأتيها نسيبُها من الإنس فَتَشمّ ثيابه، وتبكي فيقول:

ألم ننهكم عن كذا؟ فتقول برأسها أي «نعم»!

قال الإمام **القرطبيُّ** - رحمه الله - :

«معنى هذا، أنهم كانوا في أجساد القرود بعقول البشر، وفي هذا حقًّا عذاب بئيس» ا.هـ.

قال الإمام **الحسن** - رحمه الله - :

«أَكَلوا والله أَوْخَم أَكْلَة أَكَلها أَهْلها، أَثْقَلها خِزْيًا في الدنيا، وأطولها عذابًا في الآخرة!».

قال الإمام **ابن كثير** - رحمه الله - :

«فلمّا فعلوا ذلك، مسخهم اللّهُ إلى صورة القردة وهي أشبه بالأناسيّ في الشكل الظّاهري، وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لمّا كانت مشابهة للحقّ في الظّاهر، ومخالفة له في الباطن، وكان جزاؤهم من جنس عملهم. ومكثوا ثلاثة أيّام على حالتهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون، ثم أماتهم الله تعالى وأبادهم

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١]. قال رسولُ الله ﷺ:

«إن الله لم يجعلْ لِمَسْخ نَسْلاً ولا عَقِبًا، وقد كانت القردةُ والخَنَازير قبل ذلك».

وقال **ابْنُ عباس**: «ولم تَعِشْ مَسْخٌ قَطّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل، ولم يشرب، ولم ينسل». وكذلك يفعل اللّهُ بِمَنْ شاء كما يشاء ويُحوّله كما يشاء.

والمقصود - هنا - أن الله أخبر أنّه أهلك الظالمين، ونجّى المؤمنين المنكرين، وسكت عن السّاكتين، وقد اختلف فيهم العلماءُ على **قولين**:

فقيل: إنّهم من النّاجين.

وقيل: إنّهم من الهالكين.

والصحيح الأوّل عند المحققين، وهو الذي رجع إليه ابْنُ عبّاس إمام المفسّرين»ا.هـ.

فليكن - **أخي الكريم** - خُلُق «التذكير» شعارك، عسى أن تكون من الناجين.

والله الموفّق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.



٨٣- الاسْتِعْدادُ لِلْمَوْت

اعلم: أن الاستعداد للموت، دليل على صحّةِ الاعتقاد، ويقظةِ الإيمان، والزُّهد في الدنيا.

وكم أبكى القدومُ على الله - تعالى - من عيون، وكم أرَّق مِنْ مَضَاجِع.

□ كتب «زرُّ بْنُ حُبَيْش»[١] إلى أمير المؤمنين «عبد الملك بن مروان»:

لا يطمعنَّك في طولِ الحياة ما ترى من صحة بدنك، واذكر قول الأوّل:

إذا الرّجالُ وَلَدَتْ أوْلادَها وَبَلِيَتْ من كِبَر أجسَادُها
وجَعَلَتْ أسْقَامُها تَعْتَادها تلك زروعٌ قد دَنَا حَصَادُها

فلمّا قرأ الكتاب بَكَى حتى بُلّ طَرْفُ ثَوْبه[٢].

□ ولّما حضرت «معاوية بْن سفيان» - رضي الله عنهما - الوفاةُ، قال:

أقعدوني، فأُقعد، فجعل يسبّح الله تعالى ويذكره، ثم بكى، وقال:

تذكر رَبَّك يا معاويةُ بَعْد هذا الهرم والانحطاط! ألا كان هذا وغصن الشباب نضر ريّان؟، وبكى حتى علا بكاؤه، وقال:

«يا ربّ ارْحَم الشّيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللّهم أَقِلِ العَثْرة، واغْفِرِ الزّلّة، وَعُد بحِلْمِك على مَنْ لا يرجو غيرك، و لم يثق بأحد سواك»[٣].

أخي:

وجدير بِمَنِ الموت مَصْرعه، والتراب مَضْجعه، والدّود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه،

---

(١) هو: التابعيّ الجليل، مُقرئ الكوفة، كان الليلُ مطيّته، يوظّفه في طاعة ربّه، قانتًا، ساجدًا، وقائمًا، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه. يقول عاصم: «أدركت أقوامًا كانوا يتخذون هذا الليل جَمَلاً - أي: يمتطيه كالبعير - منهم: زرّ بن حُبيش».

(٢) «الحلية» (١٨٤/٤).

(٣) «الإحياء» (٤٨٠/٤).

والقبر مَقرّه، وبطن الأرض مُسْتقرّه، والقيامة مَوْعده، والجنة أو النار مَوْرده أن لا يكون له فكر إلاّ في الموت، ولا ذكر إلاّ له، ولا استعداد إلاّ لأجْله، ولا تدبير إلاّ فيه، ولا تطلّع إلاّ إليه، ولا تعريج إلاّ عليه، ولا اهتمام إلاّ به، ولا انتظار وتربّص إلاّ له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى، وَيَراها من أصحاب القبور، فإن كل ما هو آتٍ قريب، والبعيد ما لَيْس بآت.

يـــا نَفْـــس قـــد أَزِفَ الرّحـــيل ... وأظَلّـــــك الخَطْــــب الجلـــــيل

فــــتأهَّبي يــــــا نفْـــــس ... لا يَلْعَـــبنّ بِـــك الأَمَـــلُ الطويـــــل

فلتــــــــــنزلنّ بِمَـــــــــنزل ... ينســــى الخلــــيلُ بـــه الخلـــيل

وليركـــــبنّ علـــــيك فــــيه ... مـــن الــــثّرى ثقـــل ثقـــيل

قُـــرِنَ الفَـــنَاءُ بـــنا جمـــيعًا ... فمـــا يَـــبْقى العزيـــزُ ولا الذّلـــيل

- لمّا حضرت الوفاةُ «حسّان بن سنان» - رحمه الله - قيل له:

كيف تجدك؟

قال: بخير إن نجوتُ من النار.

فقيل له: فما تشتهي؟

قال: «ليلة بعيدة ما بين الطرفين أحيي ما بين طرفيها!!»[1].

فاستعدّ - **أخي** - ليوم الفقر الأعظم.

كان أبو ذرّ ﷺ يقول:

«أتدرون ما يوم فقري؟ يوم أدخل قبري».

تـــالله لَـــوْ عَـــاش الفـــتى في دَهْـــره ... أَلْفًـــا مـــن الأعـــوام مـــالِكُ أَمْـــرِه

مُتمَـــــتِّعًا فــــيها بكـــلّ نَفيســـــة ... مُـــــتلذّذًا فــــيها بـــنُعْمى عَصْــــرِهِ

لا يَعْــــتَريه السُّـــقْمُ فــــيها مَـــرَّة ... كَـــلاً ولا تَـــرِدُ الهمـــومُ بِفِكْـــرِهِ

مـــا كـــان هـــذا كُلُّـــه في أن يَفـــي ... بمبيــــت أَوَّل لَـــيْلَةِ في قَـــبْره

---

(١) «الحلية» (١٧/٣، ١٨).

واعلم - **أخي الكريم** - أن البدايات تحكي النهايات، فمن أشرقت بداياته أشرقت نهاياته: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال بعضهم: «كنت عند «ممشاد الدينوري» - رحمه الله - فقدم فقيرٌ، وقال:

السلام عليكم؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه؟!!

قال: فأشاروا إليه بمكان - وكان ثمّ عين ماء - فجدّد الفقيرُ الوضوء، وركع ما شاء الله، ومضى إلى ذلك المكان، ومدّ رجليه ومات!!»(١).

هذا حصاد الطاعة، وثمرة معرفة الله تعالى، قال الله تَعَالَىٰ:

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦].

وعلى النقيض من هذا النوع، يحكي «**يزيد الرُّقاشيّ**» - رحمه الله - قصّة مصرع جبّار، فيقول:

«بينما جبّار من الجبابرة من بني إسرائيل جالسٌ في منزله قد خلا ببعض أهله، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعًا مغضبًا فقال له:

من أنت؟ ومن أدخلك داري؟

فقال: أمّا الذي أَدْخَلني الدّار فَرَبُّها، وأمّا أنا فالذي لا يمنع من الحجاب، ولا أستأذن على الملوك، ولا أخاف صَوْلة الْمُتسلّطين، ولا يمتنع مِنّي كُلّ جَبّار عنيد، ولا شيطان مَريد؟

قال: فَسُقط في يد الجبّار، وارتعد حتى سقط مُنْكَبًّا على وجهه، ثم رفع رأسه إليه مستجديًا متذلّلاً له، فقال له:

أنت إذن ملك الموت!

قال: أنا هو.

---

(١) «الإحياء» (٤/٤٨٢).

قال: فهل أنت مُمْهلي حتى أحدث عهدًا؟

قال: هيهات! انقطعت مُدَّتُك، وانقضت أَنْفَاسُك، ونَفدت سَاعاتُك، فليس إلى تأخيرك سبيل!

فقال: فإلى أين تذهب بي؟

قال: إلى عملك الذي قدّمته، وإلى بيتك الذي مَهدَّته.

قال: فإني لم أُقدّم عملاً صالحًا، و لم أمهّد بيتًا حسنًا؟!

قال: فإلى لَظَى، نزاعَةً للشَّوى. ثم قَبض رَوْحَه، فَسقط مَيّتًا بين أهله، فمن بين صَارخ وبَاك!»(١).

فاختَرْ لنفسك - أخي - من أيّ النوعين تحبّ أن تكون؟

فالبدايات، تحكي النهايات.

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

أخي الكريم:

اعلم: أن الجنائز عبرة للبصير، وفيها تنبيه لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلاّ قساوة، لأنهم يظنون أنهم أبدًا إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون، ولا يتفكّرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسبانهم، وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظر عبدٌ إلى جنازة إلاّ ويقدّر نفسه محمولاً عليها، فإنه محمول عليها، على القرب وكأن قد، ولعلّه في غدٍ أو بعد غد.

ويُروى عن أبي هريرة ﷺ أنه كان إذا رأى جنازة قال:

---

(١) «الإحياء» (٤/٤٦٨).

« امْضُوا فإنّا على الأَثَر ».

وكان مكحول الدّمشقي - رحمه الله - إذا رأى جنازة قال:

« اغدوا فإنا رائحون، مَوْعِظَة بليغة، وغفلة سَرِيعة، يَذْهب الأوّل، ويبقى الآخر لا عقل له ».

وقال الأعمش - رحمه الله - : « كُنّا نشهد الجنائز، فلا ندري من نُعَزِّي؟ لحزن الجميع! ».

وقال ثابت البُنَاني - رحمه الله - « كنّا نشهد الجنائز، فلا نرى إلاّ متقنّعًا باكيًا ».

فهكذا كان خوفهم من الموت. والآن! لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلاّ وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلّمون إلاّ في ميراثه وما خلّفه لورثته، ولا يتفكّر أقرانه وأقاربه إلاّ في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلفه، ولا يتفكّر واحد منهم - إلاّ ما شاء الله - في جنازة نفسه وفي حاله إذا حُمل عليها.

كُلّ ابْن أنثى - وإن طالت سلامَتُه - يومًا على آلة حَدْباء محمول
فإذا حَمَلْتَ إلى القبور جنازة فاعلم بأنّك بَعْدَها مَحْمُول!

ولا سبب لهذه الغفلة إلاّ قسوة القلب بكثرة المعاصي والذنوب.

فنسأل الله - تعالى - اليقظة من هذه الغفلة، فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز: بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت.

نظر إبراهيم الزيات - رحمه الله - إلى أُناس يترحمون على الميت فقال:

« لو ترحّمون على أنفسكم لكان خيرًا لكم، إنه نجا من أهوال ثلاثة:

وجه مَلَك الموت وقد رآه.

ومرارة الموت وقد ذاق.

وخوف الخاتمة وقد أَمِن ».

فيا أخا الإسلام:

تَـزَوّد مِـن الـتقوى فـإنّك لا تَدْري إذا جَـنّ لـيلٌ هـل تعـيش إلى الْفَجَر
فكـم مـن فتى أَمْسَى وأصبح ضاحكًا وقـد نُسِـجت أكفانُـه وهو لا يَدْري
وكـم مـن عـروس زَيّـنوها لزوجِها وقـد قُبِضـت أرواحُهـم لـيلة القَدْر
وكـم مِـنْ صِغار يُرتَجى طول عمرهم وقـد أُدْخِلـت أجْسَـادُهم ظُلْمة القبر
وكـم مـن صحيح مات من غير عِلّة وكـم مـن سَقيم عاش حِينًا من الدَّهْر

ولا تظن أن القبر هو المثوى الأخير - كما يقول الجهلاء: «شُيِّع فلان إلى مثواه الأخير!!» - فهذه عقيدة وثنية، فالمشركون كان اعتقادهم:

«إن هي إلاّ أرحام تَدْفع، وأرض تَبْلع، وما يُهْلِكُنا إلاّ الدّهر!!».

وهذا تكذيب بالبعث والحساب والجنة والنار.

فالقبر: مرحلة انتقالية. قال تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

ولله دَرُّ القائل:

ولـو أنـا إذا متْـنا تُركْـنا لكـان المـوت رَاحـة كُـلِّ حَـيّ
ولكـنّا إذا متـنا بُعِثْـنا وَنُسْـأل بَعْـده عـن كُـلِّ شَـي

فيا أخي:

تَذكّـر وقوفـك يَـوْمَ الْحَشْر عُرْيانًا مُسْتَوْحشًـا قلـق الأحشـاء حيرانـا
والـنّار تلهـب مـن غَـيظ ومن حنق عـلى العُصَـاة وَرَبّ الْعَـرْش غضبانا
اقـرأ كـتابك يـا عَـبْدي على مَهَل فهـل تـرى فـيه حَـرْفًا غـير ما كانا
فـلمّا قـرأتَ ولم تـنكر قـراءتَه وأقـررتَ إقْرارَ مَنْ عَرف الأشياء عرفانا
نـادى الجلـيلُ خُـذوه يـا ملائكتي وامْضـوا بَعْـبدِ عَصَـى للـنَّار عَطْشَانا

المشــركون غــدًا في جهــنّم يَلْتَهِــبوا   والموحِّــدون بِــدَارِ الْخُلْــد سُــكّانا

أخيْ المسلم:

كيف نَسْتعِدّ للموت؟

اعلم: أن الاستعداد للموت يكون بعدّة أمور:

الأوّل: صحّة الاعتقاد:

قال ﷺ:

«مَنْ مَات ولا يُشْرِكْ بالله شيئًا دَخَل الجنَّة»(١).

الثاني: الاستقامة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وللمزيد: انظر: «صفة الاستقامة» فهناك مزيد إيضاح.

الثالث: التقوى والعمل الصالح: فإنهما خير زاد، ولله دَرُّ القائل:

الْمَــوتُ بَحْــرٌ طَــامِحٌ مَوْجُــهُ   تَذْهَــب فــيه حــيلةُ السّــابِح
يــا نَفْــسُ إنّــي قــائلٌ فاسْــمَعي   مقالــةً مــنْ مُشْــفِقٍ ناصــح
لا يَصْــحَبُ الإنْســانَ في قَــبْره   غَــيْرُ الــتُّقَى والعمــل الصّــالِح

وقد وردت نصوص - كثيرة - في فضل ذلك، انظرها في صفة «التقوى».

الرابع: الموت على وصيّة شرعية:

فمن البشارة: موت الإنسان على وصية شرعية، يوصي فيها الورثة بتقوى الله، وعمل الخيرات، وصلة الأرحام، والتمسّك بالإسلام، وينهاهم عن البدع، والخرافات، ويقسم بينهم بما أمر الله به، ولا يجور ولا يظلم.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه».

روى ابن ماجه بسند فيه ضعف عن جابر، قال:

قال رسول الله ﷺ:

« مَنْ مات على وَصية، مات على سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ وَمات على تُقىً وَشَهَادةٍ، ومَات مَغْفُورًا له ».

الخامس: التّوبة النصوح:

فالتّوبة النّصوح: ماحية للخطايا، وموجبة للمغفرة.

عن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« التّائبُ من الذّنْب كَمَنْ لا ذَنْبَ له »(١).

وعن أبي ذرّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« مَنْ أَحْسَنَ فيما بَقِي غُفِر له ما مَضَى، ومن أسَاءِ فيما بَقِي، أُخِذَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقى »(٢).

وللتوبة النّصوح علامات، انظرها في صفة « التوبة ».

السادس: الخوف من الله تعالى:

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبيّ ﷺ فيما يرويه عن ربّه جلّ وعلا أنه قال:

« وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ على عَبْدي خَوْفَيْن وأَمْنَيْن: إذا خافني في الدُّنْيا: أَمَّنْتُه يَوْمَ القيامة، وإذا أَمِنَني في الدُّنْيا: أَخَفْتُه يَوْمَ القيامة »(٣).

والخوفُ من الله: يَحْمِلُ على فِعْل الطّاعات، واجْتناب المحرّمات، والمسارعة إلى الخيرات.

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وانظر: « صحيح الجامع » (٣٠٠٨).

(٢) قال المنذريّ: رواه الطبرانيّ بإسناد حسن.

(٣) حسن: رواه ابن حيان في « صحيحه »، وانظر: « صحيح الجامع » (٤٣٣٢).

السابع: حُسْن الظّن بالله تعالى:

فعن جابر ﷺ أنه سمع النبيَّ ﷺ قبل موته بثلاثة أيّام يقول:

«**لا يموتن أحدكم إلاّ وهو يُحْسِن الظّن بالله** »ﷻ[1].

ولّما احتُضِر أبو بكر العامريّ المعروف بابن الجنازة، قال له أصحابه:

أوصنا.

فقال: أوصيكم بثلاث.

بتقوى الله.

ومراقبته في الخلوة.

واحذروا مصرعي هذا، عشتُ إحدى وستِّين سنة، وما كأني رأيتُ الدنيا، ثم قال ببعض أصحابه:

انظر هل ترى جبيني يعرق؟

قال: نعم.

فقال: الحمد لله هذه علامة المؤمن[2]، ثم بسط يده عند الموت، وقال:

ها قد مَددتُ يَدي إليك فَرُدَّها بالفَضْل لا بِشَمَاتَة الأعداء[3]

أخي الكريم:

هذه بعض الأمور التي يستعد الإنسانُ بها لِلقَاء مَوْلاه، فاحْرِص عليها، ولا تكن من الغافلين.

واعلم: أن أكيس المؤمنين: أكثرهم للموت ذِكْرًا، وأحسنهم لِمَا بَعده استعدادًا.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) قال ﷺ: «المؤمنُ يَمُوتُ بعَرَق الْجَبين» رواه النسائي، والترمذي، وقال: حديث حسن.

(٣) «المنتظم» لابن الجوزي (٣١٨/١٧).

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

كنتُ جَالِسًا مع رسول الله ﷺ فجاء رجلٌ من الأنصار، فَسَلَّم على النّبيّ ﷺ فقال:

يا رسول الله، أيّ المؤمنين أفَضْل؟

قال: « **أحْسَنُهم خُلُقًا** ».

قال: فأي المؤمنين أكيس؟

قال: « **أكثرُهم للموتِ ذِكرًا، وأحْسَنُهم لِما بَعْده اسْتعدادًا أولئك الأكياس** »[(١)].

فجاهد نفسك أن تكون منهم، وفّقني اللّهُ - تعالى - وإيّاك.

« اللّهم اقْبَل الْعَمَل مع قلّته، والجهد مع ضآلته، والسَّعي مع شوائبه، عزّ جَاهُك، وَجَلّ ثناؤُك. ولا إله إلاّ أنت ».



(١) حسن: رواه مالك.

٨٤- الشَّفَاعَة

الشّفاعةُ: من الأمور الغَيْبيّة «الثّابتة» بالكِتاب والسُّنّةِ وإجْماعِ الأُمّة.

والحديث عنها يدور حول الأمور التالية:

أولاً: معنى الشفاعة.

ثانيًا: أقسامها.

ثالثًا: أنواع شفاعة النبيّ ﷺ.

رابعًا: بعض الأعمال الموجبة لشفاعته ﷺ.

خامسًا: شفاعة غير النبيّ ﷺ من الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء والصّالحين والأولاد.

سادسًا: شفاعة الصّيام والقرآن. والله الهادي إلى الصّواب.

أوّلاً: معنى الشفاعة:

قال **الفيروزآبادي**: الشَّفْع «**لُغَةً**»: ضَمُّ الشّيء إلى مِثله، ويقال للمشفوع: شفع.

والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصرًا له ومسائلاً عنه، وأكثر ما يُستعمل في انضمام ما هو أعلى مرتبة إلى مَنْ هو أَدْنَى؛ ومنه الشّفاعة في القيامة.

واستشفعتُ بفلان على فلان فتشفّع لي فيه. وشفّعه: أجاب شفاعته؛ ومنه الحديث: «**القرآنُ شَافِعٌ مُشَفَّع**»، وإن فلانًا ليُستشفع به.

قال الشّاعر:

مَضَى زَمَن والنّاسُ يَسْتَشفعون بي ... فهل لي إلى ليلى الغَدَاةَ شفيعُ؟![1]

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (١٣٧/٣).

أمّا الشّفاعة « **اعتقادًا** » :

فقال الإمام **ابن عبد البرّ** - رحمه الله - :

« الشّفاعة رُكْن من أركان اعتقاد أَهْل السُّنّة »ا.هـــ.

ثانيًا: أقسامُ الشَّفاعة:

قال العلاّمة/ **ابن عُثَيْمين** - رحمه اللّهُ تعالى - :

« الشفاعة تنقسم إلى **قسمين**:

شفاعة باطلة.

وشفاعة صحيحة.

- **فالشفاعة الباطلة**: ما يتعلّق به المشركون في أصنامهم؛ حيث يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله؛ كما قال تعالى:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

ويقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

لكن هذه الشفاعة باطلة لا تنفع؛ كما قال تعالى:

﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدّثر: ٤٨].

- **والشفاعة الصّحيحة**: ما جمعت **شروطًا ثلاثة**:

الأول: رِضَى الله عن الشّافع.

الثاني: رضاه عن المشفوع له، لكن « الشفاعة العظمى » في الموقف عامّة لجميع الناس، من رضي الله عنهم ومن لم يَرْضَ عنهم.

الثالث: إذْنُه في الشّفاعة.

والإذن لا يكون إلاّ بعد الرضى عن الشافع والمشفوع له.

ودليل ذلك: قوله تعالى:

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

ولم يقل: عن الشافع، ولا: المشفوع له؛ ليكون أشمل.

وقال تعالى: ﴿ يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ﴾ [طه: ١٠٩].

وقال - سبحانه -: ﴿ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالآية الأولى: تضمّنت الشروط الثلاثة.

والثانية: تضمّنت شرطين.

والثالثة: تضمّنت شرطًا واحدًا» اهـ[1].

ثالثًا: أنواعُ شفاعة النّبيّ ﷺ:

للنبيّ ﷺ ثمانية أنوع من الشفاعات:

النَّوعُ الأوَّل: الشَّفاعَة العُظْمَى:

الخاصَّة بنبيِّنا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد ورد في ثبوتها أحاديث «صحيحة»، منها:

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال:

«إذا كان يومُ القِيامة مَاجَ النّاسُ بَعْضُهُم إلى بَعْض، فيأتون آدمَ، فيقولون له:

اشفَعْ لِذُرِّيَّتك، فيقول:

لستُ لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام؛ فإنه خليلُ الله، فيأتون إبراهيمَ، فيقول:

(١) «شرح العقيدة الواسطية» (٢/١٦٨، ١٦٩).

لستُ لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كَليمُ الله، فَيُؤْتَى موسى، فيقول:

لَسْتُ لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمتُهُ، فَيُؤْتَى عيسى عليه السلام فيقول:

لستُ لها، ولكن عليكم بِمُحَمّد ﷺ فَأُوتَى فأقول:

أنا لها، فأنْطَلِقُ فأستأذن على رَبِّي فَيُؤْذَنُ لي، فأقومُ بين يديه، فأَحْمَدُه بِمَحَامِد لا أَقْدر عَلَيْهِ الآن؛ يُلْهِمُنيه اللّهُ ، ثم أَخِرُّ له سَاجِدًا فيقُالُ لي:

يا محمّدُ، ارْفَعْ رأسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّع، فأقولُ:

رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقال:

انْطَلِقْ فَمَنْ كَان في قَلْبِه مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أو شَعِيرةٍ مِنْ إيمان فَأَخْرِجْهُ منها.

فأنْطلقُ فَأَفْعَلْ، ثم أرْجِع إلى رَبِّي، فأحْمَدُه بتلك المحامِد، ثم أَخِرُّ له سَاجِدًا فيقال لي:

يا محمد ارفَع رأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وسَلْ تُعْطَهْ، واشفَعْ تُشَفَّعْ، فأقول:

أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لي:

انْطلقْ فَمَن كان في قلبه مِثْقَالُ حَبَّةٍ من خَرْدل من إيمان فأَخْرِجْه منها.

فأنطلقُ فأفعلُ، ثم أَعُود إلى رَبِّي، فأَحْمَدُه بتلك المحامد، ثم أَخِرُّ له سَاجِدًا، فَيُقَال لي:

يا مُحَمّد ارْفِعَ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأقول:

أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لي:

انْطلقْ فَمَن كان في قلبه أَدْنَى أَدْنَى مِن مِثْقَالُ حَبَّةٍ من خَرْدل من إيمان فأَخْرِجْه من النّار.

فأنطلقُ فأفعلُ، ثم أَعُود إلى رَبِّي في الرَّابعة، فأَحْمَدُه بتلك المحامد، ثم أَخِرُّ له سَاجِدًا، فَيُقَال لي:

يا مُحَمّد ارْفِعَ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأقول:

يا رَبِّ ائذَنْ لي فِيمَنْ قال: لا إله إلاّ الله.

قال: لَيْس ذَاكَ لَكَ - أَوْ قَال: لَيْس ذَاك إلَيْك - ولكن وَعزَّتِي وكِبْريائي وعَظَمتي وَجبْرِيائي[(١)] لأُخْرِجَنّ منْ قال: لا إله إلاّ الله»[(٢)].

(٢) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال النبيُّ ﷺ:

ما يزالُ الرجلُ يسألُ النَاسَ حتى يأتِيَ يوم القيامة ليس في وَجْهِه مُزْعَةُ لَحْمٍ» وقال:

«إنّ الشمْسَ تَدْنو يَوْمَ القيامة حتى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نصْفَ الأُذُن، فَبَيْنَا هم كذلك اسْتغاثوا بآدم، ثم بموسى، ثم بمُحَمّد ﷺ، فَيَشْفَعُ لِيُقْضَي بين الخَلْق، فيمشي حتى يَأخُذ بِحَلْقَة الْبَاب، فَيَوْمئذٍ يَبْعَثُهُ اللّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْع كُلّهم»[(٣)].

لـــهُ مقـــامُ الرِّضـــا المحمـــودُ شـــاهِدُهُ
في موقـــف الحَشْـــرِ إذَ نابَـــتْ نوائـــبهُ

والرُسْـــلُ تَحْـــتَ لواءِ الْحَمْد قد أَمَّها
مُحَمَّـــدٌ أَحْمَـــدُ السَّـــامِي مراتـــبهُ

لـــه الشَّـــفاعاتُ مَقْـــبولاً وَسَـــائلها
إذا دَهَـــى الأَمْـــرُ واشْـــتَدَّتْ مَصَـــاعبهُ

النوع الثاني: شفاعته ﷺ في أقوامٍ قد تساوت حَسَناتُهم وسَيئاتهم:

فَيَشْفَعُ فيهم لِيَدْخلوا الجنّة.

النوع الثالث: شَفاعتُهُ ﷺ في قَوْمٍ آخرين قد أُمِرَ بهم إلى النّار أن لا يَدْخُلُوها.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فوق ما كان يقتضيه

---

(١) جبريائي: أي: عظمتي وسلطاني أو قهري «صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/٤٢٨).

(٢) رواه مسلم (٣٢٦).

(٣) رواه البخاري (١٣٨١).

ثواب أعمالهم.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام ليدخلوا الجنّة بغير حساب!:

وقد ورد في هذا النّوع من الشفاعة أحاديث، منها:

عن أبي أُمامة ﷺ قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«وَعَدَنِي رَبِّي أن يُدْخِلَ الجَنَّة من أُمَّتي سبعين أَلْفًا لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ ولا عَذَابَ، مع كُلِّ أَلْفٍ سَبْعونَ أَلْفًا، وثلاثُ حَثَيَات مِنْ حَثَيَات رَبِّي»[1].

النوع السادس: الشَفَاعَةُ في تَخَفِيف العذاب عَمَّنْ يَسْتَحِقّه:

كشفاعته في عَمِّه أبي طالب أن يُخَفَّف عنه عَذَابُهُ.

فعن العباس بن عبد المطلب، قال:

يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟

قال: **«نعم هو في ضَحْضَاحٍ[2] من نَار، ولَوْلا أنا لكان في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النّار»**[3].

قال الإمام **القرطبيُّ** - رحمه الله - في «التذكرة»:

«فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر: ٤٨]. قيل له: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين، الذين يخرجون منها، ويدخلون الجنة»١.هـ.

النوع السابع: شفاعتُهُ أن يُؤذَنَ لجميع المؤمنين في دخول الجنة:

فعن أنس ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وانظر: «صحيح سنن الترمذي» (١٩٨٤).

(٢) الضحضاح من الماء: ما يبلغ الكَعْب، والمعنى: أنه خفّف عنه العذاب.

(٣) رواه البخاري (٣٨٨٣).

«أنا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الجَنَة».

النوع الثامن: شفاعتُهُ ﷺ في أَهْل الكبائر من أُمَّته، مِمَّن دخل النّار، فيخرجون منها:

وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث. وقد خفى علم ذلك على الخوارج والمعتزلة[١]، فخالفوا في ذلك، جهلاً منهم بصحّة الأحاديث، وعنادًا ممّن علم ذلك واستمرّ على بدعته.

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكةُ والنبيّون والمؤمنون أيضًا.

ومن أحاديث هذا النوع:

حديث أنس ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«شَفَاعَتِي لأَهْلِ الكبائر من أُمَّتي»[٢].

وقد تقدّم حديث «أنس» - أيضًا - في ذكر النوع الأوّل، فانظره.

رابعًا: بعض الأعمال الموجبة لشفاعة النبيّ ﷺ:

من الأعمال الموجبة لشفاعة النبيّ ﷺ

(١) قول: «لا إله إلا الله» بإخلاص:

فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال:

قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟

فقال رسولُ الله ﷺ:

«لقد ظننتُ يا أبا هريرة أن لا يسأَلُني عن هذا الحديث أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ لِمَا رأيتُ من

---

(١) وبعضُ جُهّال العصر، الذين أنكروا الشّفاعة، بغير عِلْم ولا هُدى ولا كتاب مُنير.

(٢) صحيح: «صحيح سنن الترمذي» (١٩٨٣).

حِرْصِك على الحديث، أسعَدُ النّاسِ بشفاعتي يَوْمَ القيامة:

من قال: لا إله إلا الله خَالِصًا من قَلْبه أو نَفْسِه»[١].

ومن قالها بإخلاص، حَجَزَته عن مَحَارم الله.

(٢) الدُّعاء عَقب الأذان بالحديث التالي:

عن جابر رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ

«مَنْ قال حين يَسْمَعُ النِّداء: اللّهم رَبَّ هذه الدَّعْوةِ التَّامَّة، والصَّلاة القائمة، آتِ مُحمّدًا الوسيلةَ، والفَضيلة، وابْعَثْهُ الْمَقَام الْمَحْمُودَ الَّذي وَعَدتَهُ، إلاَّ حَلَّتْ له شَفَاعَتِي يَوْمَ القيامة»[٢].

(٣) الصَّبرُ على شدّة العَيْش والجهد في المدينة:

لقوله ﷺ :

«مَنْ صَبَر على شِدّتِها ولأوائِها كنتُ له شهيدًا أو شَفِيعًا يَوْمَ القيامة»[٣].

(٤) الموت بالمدينة:

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«مَن اسْتَطاع أن يَمُوت بالمدينة فَلْيَمُتْ[٤]؛ فإنّي أشْفَعَ لِمَنْ يَموتُ بها»[٥].

---

(١) رواه البخاري (٩٧).

(٢) صحيح : رواه أحمد في «المسند» (١٤٢٨٩).

(٣) صحيح : رواه الترمذي (٣٨٥٣).

(٤) فيه حثّ على ملازمتها، وعدم مفارقتها.

(٥) صحيح : رواه الترمذي (٣٨٥٢)، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٠١٥).

(٥) كَثْرَةُ الصَّلاة عليه:

فعن ابن مسعود ﷺأن رسول الله ﷺ قال:

«أَوْلى النّاس بِي يَوْمَ القيامة: أكثرُهُم عليَّ صلاة»(١).

خامسًا، شفاعة غير النبيّ ﷺ من الأنبياء والملائكة والعلماء والشهداء والصّالحين والأولاد،

ثبتت شفاعات هؤلاء في أحاديث، منها:

(١) عن المِقْدام بن مَعْدِ يكَرِب ﷺأنه قال:

وقال ﷺ: «للشّهيد عنْد اللّه ستُّ خِصَال: يُغْفَر لَهُ في أوّل دُفْعة مِنَ دَمه، وَيَرى مقعَده من الجنّة، وَيُجَار مِنْ عَذَابِ القبر، ويأْمَنْ مِنَ الفَزَع الأكبر، وَيُوضَع على رأْسه تاجَ الْوقَار، الياقُوتَةُ منه خيرٌ مِنَ الدّنيا وما فيها، وَيُزَوَّج اثْنَيْن وسبعين زوجةً مِنَ الْحُور العين، وَيَشْفَعُ في سَبعين من أقاربه»(٢).

(٢) وعن عبد الله بن شقيق ﷺقال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«لَيَدْخُلَنَ الجنّةَ بِشَفَاعة رَجُلٍ من أُمّتي، أَكْثَرُ مِنْ بَني تَميم»(٣).

(٣) عن عائشة – رضي الله عنها – قالت:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَا مِنْ مَيّت تُصَلّى عليه أُمّةٌ مِن الْمُسْلمين يَبْلُغون مائةً كُلُّهم يَشْفَعون له إلاّ شُفّعُوا فيه»(٤).

---

(١) رواه الترمذي (٤٤٦).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (١٦٦٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣) أخرجه أحمد (٤٦٩/٣)، وغيره، وهو حديث صحيح.

(٤) رواه مسلم (٩٤٧).

(٤) وفي حديث الرؤية «الطويل» قال ﷺ:

«... **فيقول الله ﷻ: شَفَعَت الملائكةُ، وشَفَع النَّبيون، وشَفَع المؤمنون، ولم يَبْقَ إلاَّ أَرْحَم الرّاحمين، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً من النّار، فَيُخْرِجُ منها قَوْمًا لم يَعْمَلوا خَيْرًا قَطُّ...**» الحديث[١].

(٥) وعن أبي هريرة ﷺ أنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إنّ اللّهَ ﷻ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَة لِلْعَبْدِ الصَّالِح في الجنَّة، فيقولُ:**

يا رَبّ أنَّى لي هذه؟ فيقول:

باسْتِغْفَار وَلَدِكَ لَكَ»[٢].

سادسًا: شفاعةُ الصِّيام والقرآن:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**الصِّيامُ والقرآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبد يَوْمَ القيامة، يقول الصِّيامُ: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُه الطَّعام والشّهوات بالنّهار فَشفِّعْنِي فيه، ويقول القُرْآنُ: مَنَعْتُه النَّوْمَ باللَّيْل فَشَفِّعْني فيه. قال: فَيُشَفَّعَانِ**»[٣].

أخي الكريم:

هذه أنواع الشفاعات، وهي كما ترى ثابتة بالكتاب والسُّنة، وإجماع الأمّة...

فلا يغرنّك بعد أن حصحص الحق إنكارُ بعضُ الضُّلاَّل - قديمًا وحديثًا - لها.

---

(١) جزء من حديث طويل: رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللفظ له.

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٦٦٠)، وأحمد (٢/٥٠٩).

(٣) صحيح: رواه الحاكم (١/٥٥٤)، وأحمد (٢/١٧٤) واللفظ له، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

قَــد تُنْكِرُ الْعَيْنَان ضَوْءَ الشَمْسِ مِن رَمَدِ

ويُــنكِرُ الفَــمُ طَعْــمَ المَــاءَ مــن سَقَمِ

«اللّهمّ أَرِنَا الحقّ حَقًّا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطِلاً، وارْزُقْنا اجْتِنابه، ولا تجعله مُلْتَبِسًا علينا فَنَضِلّ».



٨٥- طَلَبُ الْجَنَّةِ

لمّا علم الْمُوَفَّقُون ما خُلِقوا له، وما أُريد بإيجادهم، رفعوا رؤوسهم، فإذا علم الجنة قد رُفع لهم فشمّروا إليه، وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن(١): بَيْع ما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خَطَر عل قلب بشر، في أبد لا يزول ولا ينفد، بصبابة عيش، وإنّما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنّغص، ممزوج بالغصص، إن أضحك قليلاً أبكى كثيرًا وإن سرّ يومًا أَحْزَن شهورًا، آلامه تزيد على لذّاته، وأحزانه أضعاف أضعاف مسرّاته، أوّله مخاوف وآخره متالف.

فيا عجبًا من سفيه في صورة حليم، ومعتوه في مسلاخ عاقل، آثر الحظّ الفاني الخسيس، على الحظّ الباقي النفيس، وباع جنة عرضها السموات والأرض، بسجن ضيق بين أرباب العاهات، والبليّات، ومساكن طيّبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، بأعطان(٢) ضيقة آخرها الخراب والبوار، وأبكارًا عُربًا أترابًا كأنّهن الياقوت والمرجان، بقذرات دنسات سيئات الأخلاق مسافحات أو متخذات أخدان، وحورًا مقصورات في الخيام، بخبيثات مسيبات بين الأنام، وأنهارًا من خمر لذّة للشّاربين، بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين، ولذّة النظر إلى وجه العزيز الرحيم، بالتمتع برؤية الوجه القبيح الدّميم، وسماع الخطاب من الرحمن، بسماع المعازف والغناء والألحان، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزّبرجد يوم المزيد، بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد، ونداء المنادي: يا أهل الجنة: إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا، وتحيوا فلا تموتوا، وتقيموا فلا تظعنوا(٣)، وتشبّوا فلا تهرموا، بغناء المغنّين:

---

(١) **الغبن:** الخداع والغش.

(٢) **أعطان:** جمع عطن، وهو مبرك الإبل حول الماء.

(٣) **فلا تظعنوا:** فلا ترحلوا.

وقف الهوى بي حيث أنتَ فليس لي … متأخر عنه ولا متقدّم
أجد الملامة في هواك لذيذة … حُبًّا لذكْرك فليلمني اللُّوّم

وإنما يظهر الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبيّن سفه بائعه يوم الحسرة والنّدامة، إذا حُشر المتقون إلى الرحمن وفدًا، وسيق المجرمون إلى جهنم وردًا، ونادى المنادى على رؤوس الأشهاد: ليعلمن أهل الموقف مَنْ أَوْلى بالكرَم من بين العباد، فلو توهّم المتخلّف عن هذه الرّفقة ما أُعدَّ لهم من الإكرام، وادُّخر لهم من الفَضْل والإنعام، وما أُخفى لهم من قُرَّة أعين لم يقع على مثلها بَصَر، ولا سمعته أُذُن ولا خَطَر على قلب بَشَر، لَعَلِمَ أيّ بضاعة أضاع، وأنه لا خير له في حياته وهو معدود من سَقْط المتاع، وعلم أن القوم قد توسّطوا ملكًا كبيرًا لا تعتريه[1] الآفات، ولا يلحقه الزّوال، وفازوا بالنّعيم المقيم في جوار الكبير المتعال.

فهم في روضات الجنّة يتقلّبون، وعلى أسرّتها تحت الحجال يجلسون، وعلى الفُرش التي بطائنها من إستبرق يتكئون، وبالحور العين يتمتعون، وبأنواع الثمار يتفكّهون، و ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧- ٢٤]، و ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١].

تالله لقد نودي عليها في سوق الكساد، فما قلّب ولا استّام إلاّ أفراد من العباد.

فواعجبًا لها كيف نام طالبُها؟

وكيف لم يسمع بمهرها خاطبُها؟

وكيف طاب العيشُ في هذه الدّار بعد سماع أخبارها؟

(١) **لا تعتريه:** لا تصيبه.

وكيف قَرّ للمشتاق القرار دون مُعَانقة أبكارها؟

وكيف قرّت دونها أعين المشتاقين؟

وكيف صبرت عنها أنْفسُ الموقنين؟

وكيف صَدَفت عنها قلوبُ أكثر العالمين؟

وبأي شيء تعوّضت عنها نفوسُ المعرضين؟!(١).

فَحَيَّ على جَنّات عَدْن فإنّها ... منازلنا الأولى وفيها المخيّم
وحيّ على السُّوق الذي فيه يلْتقي ... المحبّون ذاك السّوق للقوم يعلم
حيَّ على يوم الْمَزيد الذي به ... زيارة رَبّ العرش فاليوم موسم
وحيّ على واد هُنالك أفيح ... وتربته من إذفر الْمِسْك أعظم

وهلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السّلام، بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطّرق وأسهلها، وذلك أنّك في وقت بين وقتين، هو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر، بين ما مَضَى وما يُسْتَقْبَل؛ فالذي مضى تُصلحه بالتوبة والنّدم، وهو عمل قلب وما يُسْتَقْبل تصلحه بالعَزْم والتوبة»(٢).

وإيّاك أن تكون مِمّن قال فيهم «**يحيى بن معاذ**»:

«عَمَلٌ كالسَّراب، وقلبٌ من التقوى خرَاب، وذنوبٌ بعدد الرَّمل والتُّراب، ثم تطمع في الكَواعب الأَتْراب؟! هَيْهَات؛ أنت سَكْرَانٌ بغَيْر شَراب. ما أَكْمَلَك لو بادرتَ أمَلَك، من أجَلّك لو بادرتَ أجَلَك، ما أَقْوَاك لو خَالَفْتَ هواك».

أخي:

إنّها الجنّة:

سلعة الله الغالية، قال ﷺ:

---

(١) «حادي الأرواح» لابن القيم (٧، ٨).

(٢) «الفوائد» لابن القيم.

« **مَنْ خَافَ أَدْلَجَ**[1]**، ومَنْ أَدْلَج بَلَغ المَنزل، ألا إنّ سِلْعَةَ الله غالية، ألا إن سِلْعَة الله الجنّة** »[2]

إنها الجنّة:

التي حولها دندن رسولُ الله ﷺ وأنبياءُ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إنها الجنّة:

بأنفاسها الرّضيَّة النّديّة، تتجلّى عليها طلْعة الرّحمن الجليلة البهيَّة.

إنها الجنّة:

التي اشتاق إليها الصّالحون في كلّ العصور.

- فهذا « **عمير بن الحمام** » رضي الله عنه، في يوم « بدر » يسمع رسول الله ﷺ يقول:

« **قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض** ».

فيقول عمير: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟

قال: « **نعم** ».

قال: بَخٍ بَخٍ.

فقال رسول الله ﷺ: « **ما يَحْمِلُك على قول: بَخٍ بَخٍ؟** ».

قال: لا والله يا رسول الله، إلاّ رجاء أن أكون من أهلها.

قال: « **فإنّك من أهلها** ».

قال: فأخرج تمرات من قَرْنه فجعل يأكل منهنّ، ثم قال:

« لئن حَييتُ حتى آكل تمراتي هذه؛ إنها لحياة طويلة ».

---

(١) أدلج: سار من أوّل الليل.

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٦٠٩٨).

قال: فَرَمى ما كان معه من التمر، ثم قاتلهم - يعني المشركين - حتى قُتل[1].

- وهذا «**عمرو بن الجموح**» ﷺ؛ لمّا كان يوم «أُحُد» قال رسول الله ﷺ

«**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين**».

فقام وهو أعرج، فقال:

«والله لأقحزنّ[2] عليها في الجنة».

فقاتل حتى قُتل![3].

- وهذا «**سعيد ملاً الكُرْديّ**»: أتعرفون هذا الاسم؟ ... إن كنتم لا تعرفوه، فمن الآن فاحفظوه:

إنه الشيخ المجاهد/ سعيد ملاً الكردي - شيخ أكبر القبائل الكرديّة - الذي تصدّى لمؤامرات الرِّدة التي قادها العلماني/ مصطفى كمال أتاتورك.

أسس في عام ١٩١٩ حزبًا أطلق عليه «حزب انبعاث وحدة الإسلام» ليقف أمام محاولات التغريب، وشتّت أتاتورك أعضاءه، وحين أعلن أتاتورك إلغاء الخلافة في عام ١٩٢٤م، ثار ضده الشيخ سعيد ملاً سنة ١٩٢٥، واندفعت معه الجماهير المسلمة تحت راياته الخضراء التي كُتب عليها: «لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله»، وكوّن الشيخ جيشًا من الأكراد، وتمكّن من السيطرة على مناطق شاسعة، حتى وصل إلى «ديار بكر» فحاصرها، وكاد يسيطر عليها، لولا أن أتاتورك سارع فقذف بكل ما لديه من قوّات زاد تعدادُها عن ثمانية فرق عسكرية كاملة التجهيز، واستعملت في تقدّمها أبشع أساليب البطش والتنكيل، واضطر الشيخ «سعيد ملاً» - أمام هذه القوّة الغاشمة - إلى التراجع إلى الجبال الوعرة؛ ليبدأ من هناك شن حرب عصابات ضد قوّات أتاتورك، فأحكم أتاتورك الحصار حول الشيخ، ومنع وصول أيّة إمدادات أو مؤن إليه.

---

(١) رواه أحمد ومسلم.

(٢) أي: لأثِبَنّ.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٥٣/١).

وتمّ إلقاء القبض عليه. وفي ميدان «ديار بكر» الرئيسي، انعقدت محكمة الطغاة؛ لمحاكمة الشيخ سعيد ملاً وإخوانه، فحكمت بإعدامه مع عدد كبير من إخوانه، وأمر أتاتورك بأن تبقى أجسادهم الطّاهرة معلّقةً على أبواب مسجد ديار بكر الكبير.

وكان الشيخ سعيد ملاّ - رحمه الله - قد أظهر أثناء المحاكمة رباطة جأش لا يقدر عليها إلاّ الأبطال، ولقد ظلّ - رحمه الله - محتفظًا برباطة جأشه حتى آخر لحظة من حياته، وتوجّه إلى رئيس المحكمة العسكرية التي حكمت بإعدامه قائلاً:

«سوف نُصَفِّي حسابنا يَوْمَ الحِساب الأخير».

ثمّ توجّه إلى قائد الحملة العسكرية التي هزمته قائلاً:

«يا أمير اللّواء، تَعَال ودِّع غريمك».

ثم تقدّم من منصّة الإعدام/ ووضع الجلاّد حبل المشنقة حول عنقه، وأجمعت المراجع التركية التي وصفت تنفيذ حكم الإعدام بالشيخ الملاّ، أن صوته شقّ عنان السّماء مردِّدًا بشموخ:

لا إله إلاّ الله، محمّدٌ رسول الله».

وتدلّى الجسدُ الطّاهر على أبواب مسجد «ديار بكر» شاهد صدق على أن جماهير الشعب التركي المسلم قدّمت القوافل المتتالية من الشهداء؛ دفاعًا عن دينها ووفاءً لعهدها مع الله(١).

إنها الجنّة:

﴿ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ [مريم: ٦١].

إنها الجنّة:

التي خلقها اللّهُ - تعالى - بيده!!

---

(١) «مواقف بطولية من صنع الإسلام» لزياد أبي غنيمة (٤٤- ٤٨).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **خلَق اللّهُ جَنّة عَدْن بيده، وَدَلّى فيها ثمارها، وَشَقّ فيها أنهارَها، ثم نَظَر إليها فقال لها: تَكَلّمي، فقالَتْ:**

قد أفلح المؤمنون، فقال:

وعِزَّتي لا يُجَاوِرُني فِيكِ بَخِيل»[١].

وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - :

« خلَق اللّهُ أربَعة أشياء بِيَده: الْعَرْش، والقلم، وعَدْن، وآدم عليه السلام »[٢]

إنها الجنّة:

التي غرس غراسها الرحمن بيده:

قال أبو سعيد الخدْريّ رضي الله عنه:

« إنّ الله عز وجل أحاط حائط الجنَّة لَبِنَةً مِنْ ذَهَب، ولَبِنَةً من فِضَّة، ثم شَقَّق فيها الأنهارَ، وغَرَس فيها الأشْجَارَ، فلمَّا نَظَرت الملائكةُ إلى حُسْنها قالت:

طوبى لك مَنَازِلُ الْمُلُوك »[٣].

فرحم اللّهُ أقوامًا عظَّموا مَنْ غَرَسها، وقَدَّروا قَدْر الغَرْس.

إنّها الجنّة:

التي أعدّها اللّهُ لعباده الصّالحين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) قال المنذريّ في « الترغيب » (٥٢٩٣): رواه الطبراني في « الكبير » و « الأوسط » بإسنادين أحدهما جيد.

(٢) **صحيح موقوف**: رواه الدارمي، والحاكم، وصحّحه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه البيهقي.

قال رسولُ الله ﷺ:

«**قال الله: أعددتُ لعبادي الصّالحين ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُن سَمِعَتْ، ولا خَطَر على قَلْب بَشَر، فاقرءوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]»[1].

إنّها الجنّة:

التي شمّ الصالحون ريحها قبل الموت!!

يحكي أهل السِّير: أن «أنس بن النّضر» لقى «سعد بن معاذ» - رضي الله عنهما - يوم «أُحُد» فقال له:

«أيْ سَعْد، هذه الجنّة ورَبّ أَنَس، أَجِدُ رِيحَها دون أُحُد».

ثم قاتل حتى قُتِل رضي الله عنه[2].

إنّها الجنّة:

التي مات بعض الصّالحين شوقًا إليها!!

اقرأ:

عن يزيد الرّقاشي، قال:

بلغني أن نورًا سطع في الجنة، لم يبق موضع في الجنة إلاّ دخل من ذلك النور فيه، فقيل: ما هذا؟ قال: حوراء ضحكت في وجه زوجها!! قال صالحُ الْمُرِّيّ: فشهق رجلٌ من ناحية المسجد، فلم يزل يشهق حتى مات!![3].

أخي:

وهكذا كانت القلوب رقيقة رفيقة، ندّية بذكر الله تعالى. يبكي أصحابُها، بل

---

(١) رواه البخاري.

(٢) «أُسد الغابة» (١/١٥٥).

(٣) «صلاح الأمّة» د. سيد العفّاني (٥/٦٩٢).

ويموتون أحيانًا، مِمّا عَرَفوا من الحق... أو مِمّا اجْتَرحوا مع الخَلْق.

أولئك قوم استشعروا الخَطَر، فاستعدوا للسّفر.. فوق أَثْباج أَبْحُرٍ من دموعهم ودمائهم... فوصلوا إلى الشّاطئ سالمين آمنين.

أخي:

ولعلّك تشتاق إلى المزيد من وصف دار المتقين.

فتعال - معي - نلقي نظرة سريعة على وصفها:

- **أما عن بنائها:**

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قلنا: يا رسول الله، حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها؟

قال: «**لَبِنةٌ ذَهَب، ولَبِنةٌ فضَّة، ومِلاطُهَا**[١] **الْمِسْكُ، وحَصْباؤها اللّؤلؤُ والياقوتُ، وتَرابُها الزّعْفَرانُ، مَنْ يَدْخُلْها يُنْعَمُ ولا يَبْأسُ، ويَخْلُدُ لا يموتُ، لا تَبْلَى ثِيابُهُ، ولا يَفْنَى شَبابُه**»[٢].

- **وأمّا عن خيامِها وغُرَفِها:**

فقال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠].

ما أحْلاَه من وَصْف، وما أعظمه من فَخْر، وما أجمله من نعيم.

وعن أبي موسى، عن النبيّ ﷺ قال:

«**إن للمؤمن في الجنّة لَخَيْمَةً من لؤلؤةٍ واحدة مُجَوَّفَة طولُها في السّماء سِتُّون مِيلاً، للمؤمِن فيها أَهْلُونَ يطوفُ عليهم المؤمُن فلا يَرى بَعْضُهم بَعْضًا**»[٣].

الله أكبر، إنّه فضل الله على عباده المؤمنين.

---

(١) الملاط: الطين الذي يجعل بين ساقي البناء. يعني أن الطين المستعمل في البناء: مِسْك.

(٢) **صحيح بطرقه** : رواه أحمد، والترمذي، والدارمي، وانظر: «المشكاة» (٨٩/٣).

(٣) رواه البخاري ومسلم.

- **وأما عن أنهارها:**

فعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال:

قال رسول الله ﷺ:

« الكوثرُ نَهَرٌ في الجنّة حافَّتاه من ذَهَب، وَمَجْرَاهُ عَلى الدُّرِّ والياقوت، تُرْبَتُهُ أطْيَبُ من الْمِسْكِ، وماؤه أحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وأبْيَضُ من الثَّلْجِ »(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال:

سُئل رسولُ الله ﷺ: ما الكوثر؟

قال: « **ذاك نَهْرٌ أعطانيه اللّهُ** – يعني في الجنّة – **أشَدُّ بَيَاضًا من اللّبَن، وأحْلَى من الْعَسَل، فيه طَيْرٌ أعْنَاقُها كأعناقِ الجُزُرِ**(٢) »(٣).

وعنه رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« رُفِعَتْ لي السِّدْرة(٤)**، فإذا أربَعة أنْهار: نهران ظاهران، ونهران باطنان، فأمّا الظّاهران: فالنّيلُ والفُرَات، وأمّا الباطنان: فنهران في الجنّة »**(٥).

قال الشيخ **الألباني** – رحمه الله –:

« ولعلّ المراد من كون هذه الأنهار من الجنة أن أصلها منها كما أن أصل الإنسان من الجنة، فلا ينافي الحديث ما هو معلوم مشاهد من أن هذه الأنهار تنبع من منابعها المعروفة في الأرض، فإذا لم يكن هذا المعنى أو ما يشبهه، فالحديث عن أموز الغيب التي يجب الإيمان بها، والتّسليم لِلْمُخْبِر عنها » ا.هـ(٦).

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه والترمذي، وانظر: « صحيح الجامع » (٤٦١٥).

(٢) الجزر – بضم الجيم والزاي –: جمع جزور، وهو البعير.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي، وقال: حديث حسن. وصححه الألباني.

(٤) **سدرة المنتهى**: رأى ذلك ليلة الإسراء والمعراج.

(٥) رواه البخاري – تعليقًا – وقال الحافظ في « الفتح »: وصله أبو عوانة والإسماعيلي والطبراني.

(٦) « السلسلة الصحيحة » (١/١٨).

هذا، وأنهار الجنة ليست ماء فحسب، بل منها الماء، ومنها اللّبن، ومنها الخمر، ومنها العسل المصفّى. قال تعالى:

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥].

- **وأمّا عن شجر الجنة وثمارها:**

فأشجار الجنة كثيرة طيّبة متنوّعة، وقد أخبرنا ربُّنا - تباركت أسماؤه — أن في الجنة أشجار العنب، والنخل، والرمان، والسِّدر(١)، والطلح(٢)، وذلك في آيات كثيرة.

وهذا الذي ذكره القرآن من أشجار الجنان شيء قليل ممّا تحويه تلك الجنان، ولذا قال الله تعالى:

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٢].

ولكثرتها فإن أهلها يدعون منها بما يريدون، ويتخيرّون منها ما يشتهون ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ [ص: ٥].

وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطى في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الإثمار والظلال:

قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥].

ومن أشجار الجنة:

(١) الشجرةُ التي يسير الراكب في ظلها مائة عام!:

فعن أنس ﷺ قال:

---

(١) السِّدْر: هو شجر النبق الشائك، ولكنه في الجنّة مخضود شوكه أي: منزوع.

(٢) الطَّلْح: شجر من شجر الحجاز من نوع العضاه فيه شوك، ولكنه في الجنة منضود معدّ للتناول بلا كدّ ولا مشقة.

قال رسولُ الله ﷺ:

«إن في الجنّة شَجَرة يَسير الرّاكبُ في ظِلّها مائةَ عَامٍ لا يَقْطَعُها، إن شئتم فاقرءوا: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ » [الواقعة: ٣٠، ٣١][1].

إنها قدرة الله تعالى التي لا تقف أمامها قُدْرة.

(٢) سدرة المنتهى:

وهذه الشجرة: عند جنة المأوى، وقد رآها النبيُّ ﷺ ليلة الإسراء والمعراج.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٤- ١٧].

وفي «الصحيحين» - في حديث الإسراء - قال ﷺ:

«ثم انطلق بي حتى انتهى[2] إلى سِدْرة المنتهى، وَنَبْقُها مثل قلاَلَ هَجَر[3]، وورقها مثل آذان الفيلة، تكاد الورقة تغطّي هذه الأمّة، فغشيها ألوانٌ لا أدْري ما هي، ثم أُدْخِلْتُ الجنّة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المِسْك».

(٣) شجرة طوبى:

وهي شجرة عظيمة تصنع ثياب أهل الجنة!!

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«طوبى شجرة في الجنة، مَسيرة مائة عام، ثياب أَهْل الجنّة تَخرج من أكْمامها»[4].

---

(١) رواه البخاري والترمذي.

(٢) أي: جبريل عليه السلام.

(٣) قِلاَلَ هَجَر: القلال: جمع قلّة، وهي الجرار التي يوضع فيها الماء.

(٤) حسن: رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه»، وانظر: «الصحيحة» (١٩٨٥).

أما عن ثياب أهل الجنة وحللهم:

فقد قال تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الكهف: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [فاطر: ٣٣].

وهذه الثياب لا تبلى كما قال ﷺ:

« **من يدخل الجنة، يَنْعَم ولا يَبْأس، لا تَبْلى ثيابُه، ولا يَفْنَى شَبَابُهُ، في الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خَطَر على قلب بشر** »(١).

أما عن عيون الجنة:

ففي الجنة عيون كثيرة، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الذاريات: ١٥].

وفيها عينان يشرب منها المقربون:

الأولى: عين الكافور:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٥، ٦].

العين الثانية: عين التسنيم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢- ٢٨].

---

(١) رواه مسلم.

- أما عن دوابّ الجنة وطيورها:

ففي الجنة من الدّواب والطّيور ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى. قال تعالى:

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢١].

وعن ابن مسعود، قال:

جاء رجلٌ بناقة مخطومة(١)، فقال:

يا رسول الله، هذه الناقة في سبيل الله.

فقال: «لك بها سبعمائة ناقة مَخْطومة في الجنة»(٢)

- أما عن فراش الجنّة:

فقد قال - تعالى - ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣٤].

وعن ابن مسعود ﷺ في قوله - تعالى - : ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤]، قال:

«أُخبِرتم بالبطائن، فكَيْفَ بالظَّهائر؟!»(٣)

- أمّا عن أهل الجنة:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ

«إنّ أوّلَ زُمْرَةٍ يدخلون الجَنّةَ على صورة القَمَر لَيْلَةَ الْبَدْر، والذين يلونهم على أشدّ

---

(١) مخطومة: فيها خطام وهو قريب من الزّمام.

(٢) حسن: أخرجه أبو نعيم، والحاكم، وغيرهما، وحسنه الألباني، ورواه مسلم بنحوه.

(٣) قال المنذري في «الترغيب» (٥٣٤٥): رواه البيهقيّ موقوفًا بإسناد حسن.

كوكب دُرِّيٍّ في السّماء إضاءة، لا يَبُولُون، ولا يَتغوَّطون، ولا يَمْتَخِطون، ولا يَتْفُلُون، أَمْشَاطُهم الذهَبُ، وَرَشْحُهُم الْمِسْكُ، ومَجَامِرُهُم الأَلُوَّةُ[1]، أزواجُهُمُ الحُورُ العِينُ، أخلاقُهُم على خَلْقِ رجلٍ واحد على صورة أَبيهم آدَمَ سِتُّون ذِرَاعًا في السَّمَاء».

وفي رواية:

«لكلّ واحدٍ منهم زَوْجَتَان يُرَى مُخُّ سُوقِهما مِنْ وَرَاء اللَّحْم مِنَ الْحُسْن، لا اخْتِلاَفَ بَيْنَهم، ولا تَبَاغُض، قُلُوبُهم قَلْبُ واحدٍ، يُسَبِّحُون اللّهُ بُكْرةً وَعَشيًّا»[2].

□ وأمّا عن الحور ونساء أهل الجنة:

فقد قال تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن: ٧٢- ٧٤].

وعن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«لَغَدْوَةٌ في سبيل الله أَوْ رَوْحةٌ خَيْرٌ من الدُّنْيا وما فيها، وَلَقَابُ قَوْسِ أحدِكم أَوْ مَوْضع قَيْده – يعني سَوْطه – من الجنّة خَيْرٌ من الدنيا وما فيها، ولو اطّلعت امْرأةٌ من نِساءِ أهل الجنّة إلى الأرض لَمَلأَت ما بَيْنَهما رِيحًا، ولأضاءتْ ما بينهما، وَلَنَصِيفُها على رَأْسِها خَيْرٌ من الدّنيا وما فيها»[3].

وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إن أزواجَ أَهْل الجَنّة لَيُغَنِّين أَزْوَاجهُنّ بأحسنِ أَصْواتٍ سَمِعَها أَحَدٌ قَطُّ، وإنّ مِمَّا يُغَنِّين به:

(١) الأَلوّة: من أسماء العود الذي يتبخّر به.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

نَحْنُ الخَيِّرَاتُ الحِسَان، أزواجُ قَوْمٍ كِرَام، يَنْظُرون بِقُرَّةِ أَعْيَان... وإنَّ مِمَّا يُغَنِّين به: نحن الخالدات فلا نَمُتْنَه، نَحْنُ الآمِنَاتُ فلا نَخَفْنَهُ، نَحْنُ الْمُقيماتُ فلا نَظْعَنَّه»[1].

- **وأمّا عن سُوق الجنة:**

فعن أنس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ في الجنّة لَسُوقًا يأتونها كُلْ جُمُعَة، فَتَهُبُّ ريحُ الشّمال فَتَحْثُوا في وُجُوهِهم وثيابهم فَيَزْدَادون حُسْنًا وجَمَالاً، فتقولُ لهم أهْلُوهم: والله لقد ازددتُم بَعْدَنا حُسْنًا وجَمَالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازْدَدتُم بَعْدَنا حُسْنًا وجَمَالاً»[2].

وفوق كلّ ما تقدّم من نعيم، فالنّعيم الذي لا يُدَاني، هو: رؤية ربّ العالمين. ورؤية الله في الدار الآخرة ثابتة بالكتاب والسّنة.

فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن السُّنة:

عن أبي هريرة ﷺ أن ناسًا قالوا:

يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال رسولُ الله ﷺ:

«هل تُضَارُون في رؤية القَمَر ليلةَ الْبَدْر؟».

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الصغير» و «الأوسط»، وانظر: «صحيح الجامع» (١٥٦١).

(٢) رواه مسلم.

قالوا: لا يا رسول الله.

قال: «**هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**».

قالوا: لا.

قال: «**فإنكم ترَوْنه كذا**»(١).

أخي الكريم:

هذه بعض أوصاف الجنة، فاستعدّ لها، وفّقني الله تعالى وإيّاك.

۞۞۞۞۞

(١) رواه البخاري ومسلم بطوله.

٨٦- الاسْتِعْدَادُ لِلجنَّة

اعلم - أخي الكريم - أن الجنة درجة عالية، والصّعود إلى العلياء يحتاج إلى جهد كبير، وطريق الجنة فيه مخالفة لأهواء النفوس ومحبوباتها، وهذا يحتاج إلى عزيمة ماضية، وإرادة قويّة(١).

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« حُفَّتِ النّارُ بالشَّهَوات، وَحُفَّت الجَنَّة بالْمَكارِهِ »(٢)

وطلبُ الجنّة دون استعداد وعمل، من علامات الاغترار.

قال **يحيى بن معاذ** - رحمه الله -

« **من أعظم الاغترار** عندي: انتظار غراس الجنة، ببذر أهل النار ».

وقال **معروف الكَرْخي** - رحمه الله -

« رجاؤك لِرَحْمَة مَنْ لا تُطيعه: خُذْلانٌ وَحُمْقٌ ».

فعمل الصّالحات، واجتناب المحرّمات، من أسباب نيل المغفرة، ودخول الجنة.

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢].

فهيّا- **أخي الكريم** - إلى جنة الخلد، وإلى النعيم المقيم فاستعدّ، وإلى المقام الأمين، فاجتهد، وشَمّر عن ساعد الجد.

---

(١) « الجنة والنار » د. عمر سليمان الأشقر (١٩٠).

(٢) رواه مسلم.

وكن مِمّن وصفهم الشاعر:

تَسْعَى بهم أعمالُهم سوْقًا إلى الدَّارين سَوْقَ الخيلِ بالرُّكْبانِ
صبروا قَليلاً فاسْتَراحوا دائمًا يا عزَّةَ التوفيق للإنسان
حَمَدوا التُّقى عند الممات كذا السُّرَى عَنْد الصَّباح فَحَبَّذا الحَمْدان
وَحَدَتْ بهم عَزمَاتُهم نَحو الْعُلاَ وسَرَوا فما نزلوا إلى نعمان
باعُوا الذي يَفْنى من الْخَزَف الخَسيس بدائم من خالص العقيَان
رُفعت لهم في السِّير أعْلاَمُ السَّعادة والْهُدَى يا ذلَّةَ الحَيْران
فَتَسابَق الأقوامُ وابْتَدروا لها كَتَسابُقِ الفرسان يَوْمِ رهان
وأخو الْهُوَيْنَي في الدِّيار مُخَلَّف مَعْ شَكْله يا خَيْبةَ الكَسْلانِ

ولا يُعارِضُ ما ذكَرْنا، قولُ رسول الله ﷺ:

« **لن يُدْخِل أحَدًا منكم عَمَلُهُ الجنّة** ».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: « **ولا أنا، إلاّ أن يتغمَّدني اللّهُ منه بِفَضْل وَرَحْمة** »[١].

فقد أجاب **شارحُ الطحاوية** - رحمه الله - عن ذلك فقال:

« وأمّا ترتّب الجزاء على الأعمال، فقد ضلّ فيه الْجَبْرية والقَدَريّة، وهدى اللّهُ أهل السُّنّة، وله الحمد والمنّة، فإن الباء التي في النّفي غيرُ الباء التي في الإثبات.

فالمنفي في قوله ﷺ: « **لن يدخل الجنة أحَدٌ بعمله** » - باء العِوَض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحقّ دخول الجنة على ربّه بعمله! بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء التي في قوله تعالى:

﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

وغيرها، باء السّبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات،

(١) رواه مسلم (٢٨١٦).

فرجع الكلّ إلى مَحْض فضل الله ورحمته»ا.هـ[١].

أسباب دخول الجنة:

هذا، ومن الاستعداد للجنة: الأخذ بأسباب دخولها، ومن هذه الأسباب:

(١) أداء الصلوات الخمس:

فعن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«خَمْسُ صَلَواتٍ كَتَبهنَّ اللّهُ على العباد، فَمَنْ جَاءَ بهنّ ولم يضيِّع منهنّ شيئًا اسْتخْفَافًا بحقهنّ، كان له عند الله عَهْدٌ أن يُدْخلَه الجنّة، ومن لم يأت بهنّ، فليس له عند الله عَهْدٌ إن شاء عَذَّبَه، وإن شاء أَدْخَلَه الجنّة»[٢].

(٢) السّلام على أهل بيتك عند دخولك عليهم.

(٣) السّعي إلى الصّلاة.

(٤) الخروج في سبيل الله.

يدلّ على ما سبق، الحديث التالي:

عن أبي أُمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ثلاثةٌ كلّهم ضامِنٌ على الله، إن عاش رُزِقَ وَكُفِي، وإن مات أَدْخَله اللّهُ الجنّة:

مَنْ دَخل بَيْتَه فَسَلّم فهو ضَامِنٌ على الله.

وَمَنْ خرَج إلى الْمَسْجد فهو ضَامِنٌ على الله.

وَمَنْ خرَج في سَبِيل الله فهو ضامِنٌ على الله»[٣].

---

(١) «شرح الطحاوية» (٤٣٨).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وغيره، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣٦٦).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وغيره، وصحّحه الألباني.

(٥) بناء المساجد لله:

فعن عمر بن الخطاب ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« مَنْ بَنى لِلّه مَسْجدًا يُذْكرُ فيه، بَنَى اللّهُ له بَيْتًا في الجنّة »[١].

(٦) رفعُ الصوت بالأذان:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

كُنّا مع رسول الله ﷺ فقام بلالٌ يُنادي: فلمّا سَكَتَ، قال رسولُ الله ﷺ

« مَنْ قال مِثْلَ هذا يَقِينًا دَخَل الجَنَّة »[٢].

(٧) إسباغَ الوضوء ثم الدعاء بالمأثور بعده:

فعن عمر بن الخطاب ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال:

« ما منكم من أحد يتوضّأ فَيُبْلغُ » أو « فَيُسْبغُ الوُضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأشهد أن محمّدًا عَبْدُه ورسولُهُ إلاّ فُتِحت له أبوابُ الجنّة الثمانية يَدْخُلُ مِنْ أَيِّها شاء »[٣].

(٨) إفشاء السلام.

(٩) إطعام الطعام.

(١٠) صلة الأرحام.

(١١) الصلاة بالليل والناس نيام.

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وابن حبان في « صحيحه »، وانظر: « صحيح الترغيب » (٢٦٦).

(٢) **صحيح**: رواه النسائي، وابن حبان في « صحيحه »، وانظر: « صحيح الترغيب » (٢٤٠).

(٣) رواه مسلم (٢٣٤).

يدل على ما سبق: الحديث التالي:

عن عبد الله بن سلام ﷺ قال:

لمّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينة انْجَفَل النّاسُ إليه[1]، فكنتُ فيمن جَاءَه، فلمّا **تأملتُ وَجْهَه** واسْتَبَنْتُه[2] عرفتُ أن وَجْهَه ليس بوَجْه كَذّاب.

قال: فكان أوّل ما سمعتُ من كلامه أن قال:

«أيها الناسُ، أَفْشُوا السَّلام، وأطعموا الطّعام، وَصِلُوا الأرحام، وَصَلُّوا باللّيل والنّاسُ نيام، تدْخلوا الجنّة بِسَلَام»[3].

(١٢) المثابرة على الصلاة ثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة:

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ ثَابَر على ثِنْتَي عَشْرَةَ رَكْعَةً في اليوم واللّيلة، دَخل الجنّة، أَرْبعًا قبل الظّهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر»[4].

(١٣) إيتاء الزكاة.

(١٤) صوم رمضان.

(١٥) حَجّ البيت.

يدلّ على ما سبق: الحديث التالي:

عن معاذ بن جبل، قال:

كنتُ مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يومًا قريبًا منه، ونحن نسير، فقلتُ:

---

(١) **انجفل:** أسرعوا ومضوا كلّهم.

(٢) **استبنته:** تحققته وتبيّنته.

(٣) **صحيح:** رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وصحّحه الألباني.

(٤) **صحيح:** «صحيح سنن النسائي» (١٧٩٣).

يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة، ويباعدني من النار؟

قال: «**لقد سألتَ عن عظيم، وإنّهُ ليَسيرٌ على من يَسَّرَه اللّهُ عليه: تَعْبدُ الله ولا تشركُ به شيئًا، وتقيمُ الصّلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصومُ رَمَضان، وتحجُّ البيتَ**»[1].

(١٦) التّعَفُّف:

فعن ثوبان ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَنْ يَكْفُلْ لي أن لا يسألَ النّاسَ شَيْئًا أتَكَفَّلْ له بالجَنّة**».

فقلت: أنا.

فكان لا يسألُ أَحَدًا شيئًا[2].

(١٧) عمل المعروف.

(١٨) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(١٩) إعانة المظلوم.

(٢٠) إمْسَاك الشّر عن الناس.

يدلّ على ما تقدم: الحديث التالي:

عن أبي ذرّ ﷺ قال:

سألتُ رسولَ الله ﷺ: ماذا ينجي العبد من النار؟

قال: «**الإيمانُ بالله**».

قلت: يا نبيّ الله، مع الإيمان عمل؟

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، والترمذي، وغيرهما.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، وابن ماجه، وأبو داود بإسناد صحيح. كذا قال المنذريّ.

قال: «أن ترضخ[1] مما خوَّلك[2] اللهُ، وتَرْضخ مما رزقك الله».

قلت: يا نبيَّ الله، فإن كان فقيرًا لا يجدُ ما يَرْضَخُ؟

قال: «يأمرُ بالمعروف، ويَنهي عن المنكر».

قلت: إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف، ولا ينهي عن المنكر؟

قال: «فَلْيُعِنِ الأخرق»[3]

قلت: يا رسول الله، أرأيتَ إن كان لا يُحْسِنُ أن يَصْنَع؟

قال: «فَلْيُعِنْ مظلومًا».

قلتُ: يا نبيَّ الله، أرأيت إن كان ضعيفًا لا يستطيع أن يُعين مظلومًا؟

قال: «ما تُريدُ أن تَترك لصاحبك من خَيْرٍ، لِيُمْسِك أذاه عَنِ النّاس».

قلت: يا رسول الله، أرأيت إن فعل هذا يُدْخله الجنة؟

قال: «ما مِنْ عَبْدٍ مؤمنٍ يُصيبُ خَصْلَةً مِنْ هذه الخِصَال إلاّ أَخَذَتْ بِيَده حتى تُدْخِلَه الجنة»[4].

(۲۱) إنظارُ الْمُعْسِر أو الوضع عنه:

فعن حذيفة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«تَلَقَّتِ الملائكةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّن كان قبلكم، فقالوا: عَمِلْتَ من الْخَيْر شيئًا؟

قال: لا. قالوا: تَذَكّر. قال: كنتُ أُدَايِنُ النّاس، فآمُرُ فِتْيَاني أن يُنْظِروا الْمُعْسِرَ، ويَتَجوَّزُوا عن الْمُوسِر. قال: قال اللّهُ: تجاوزوا عنه»[5]

(۱) ترضخ: تُعْطي عطاء قليلاً.

(۲) مما خولك: ممّا مَلّكك اللّهُ، والتَخوُّل: التّعهد.

(۳) الأخرق: الأحمق.

(٤) صحيح: رواه البيهقي، وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم (۸٦۹).

(٥) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٢٢) صيام التطوّع.

(٢٣) إطعام المسكين.

(٢٤) اتباع الجنائز.

(٢٥) عيادة المريض.

والدليل على ما سبق: الحديث التالي:

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **مَنْ أَصْبَحَ منكم اليومَ صائمًا؟** ».

فقال أبو بكر ﷺ: أنا.

فقال: « **مَنْ أطعم منكم اليومَ مِسْكينًا؟** ».

فقال أبو بكر: أنا.

قال: « **فَمَنْ تَبِع منكم اليومَ جَنَازة؟** ».

قال أبو بكر: أنا.

فقال: « **مَنْ عَادَ منكم اليومَ مَريضًا؟** ».

فقال أبو بكر: أنا.

فقال رسول الله ﷺ:

« **ما اجْتَمَعَتْ هَذِه الخِصَال قَطّ في رَجُلٍ إلاّ دَخَل الجَنَة** »[1].

(٢٦) التوبة النصوح:

والأدلة على أنها من أسباب دخول الجنة كثيرة، وانظر بعضها في خُلُق « التوبة ».

---

(١) **صحيح**: رواه ابن خزيمة في « صحيحه »، وصحّحه الألباني في « صحيح الترغيب » (٩٤٥).

(٢٧) **البكاء من خشية الله.**

(٢٨) **الحراسة في سبيل الله.**

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«عَيْنَان لا تَمسُّهُما النّارُ؛ عَيْنٌ بَكَتْ من خَشْية الله، وَعَيْنٌ باتَت تَحْرُسُ في سبيل الله»[1].

(٢٩) **الجهاد في سبيل الله:**

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«لا يَلِجُ[2] النّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْية الله حتى يعودَ اللَّبن في الضَّرْع، ولا يَجْتَمِعُ غبارٌ في سبيل الله وَدُخَانُ جَهَنَّم»[3].

وعن **يحيى بن أبي كثير**، قال:

«مَوْطنان تُزخرف فيهما الجَنّة، وَتُزيّن الحورُ العين: عند الصّلاة، وعند القتال»[4].

(٣٠) **الشهادة في سبيل الله تعالى:**

والآيات والأحاديث الدّالة على أن الشهادة في سبيل الله - تعالى - أحد أسباب دخول الجنة كثيرة، ذكرنا بعضها في «الجهاد في سبيل الله»، فانظرها.

(٣١) **تلاوة القرآن والعمل به:**

فعن جابر ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (٤١١٢).

(٢) **لا يلج**: لا يدخل.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب صحيح، وصحّحه الألباني.

(٤) «حلية» (٣/ ٧٠).

«القرآن شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ[١] مُصَدَّقٌ، مَنْ جَعَله أَمَامَهُ[٢]: قاده إلى الجنّة، ومن جعله خَلْفَ ظَهْرِه[٣]: ساقه إلى النّار»[٤].

(٣٢) ذِكْرُ الله تعالى:

فعن جابر ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**ما عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلاً أَنْجَى لَهُ مِنْ العَذَابِ مِنْ ذِكْرِ الله تعالى**».

قيل: ولا الجهاد في سبيل الله؟

قال: «**ولا الجهادُ في سبيل الله إلاّ أن يَضْرِب بِسَيْفِهِ حتى يَنْقَطِع**»[٥].

(٣٣) تقوى الله تعالى:

(٣٤) حُسْنُ الْخُلُق.

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

سُئل رسولُ الله ﷺ عَنْ أَكْثَر ما يُدْخِلُ النّاسَ النّار؟

قال: «**الفَمُ، والْفَرْجُ**».

وسُئل عن أكثر ما يُدْخل الناسَ الجنّة؟

قال: «**تقوى الله، وحُسْنُ الْخُلُق**»[٦].

---

(١) ماحل - بكسر الحاء المهملة - أي: ساعٍ، وقيل: خصم مجادل.

(٢) أي: قائدًا له.

(٣) أي: هجره وغفل عنه.

(٤) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه»، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٣).

(٥) قال المنذري في «الترغيب» (٢١٣٥): رواه الطبراني في «الصغير» و «الأوسط»، ورجالهما رجال الصحيح.

(٦) **حسن**: رواه الترمذي، وابن ماجه، وصحّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢٤).

(٣٥) العطْفُ على البنات وإحسان تربيتهن:

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«دَخَلَتْ عَلَيَّ امرأةٌ ومعها ابْنَتَانِ لها تَسْأَلُ، فَلَمْ تَجِدْ عندي شيئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ واحدة فَأَعْطَيْتُها إيَّاها فَقَسَمَتْها بَيْن ابْنَتَيْها ولم تأكُل منها شيئًا، ثم قامتْ فَخَرَجَتْ، فدخل النبيُّ ﷺ علينا فأخبرتُهُ فقال:

«مَن ابْتُلِي مِنْ هذه البنات بِشَيءٍ فَأَحْسَنَ إليهنّ: كُنَّ له سِتْرًا مِنَ النَّار»[1].

(٣٦) كفالة اليتيم:

فعن سهل بن سعد، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا»، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما[2].

(٣٧) الصَّبْرُ عند فَقْد الأولاد:

فعن معاذ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«ما مِنْ مُسْلِمَيْن يُتَوفّى لهما ثلاثةٌ من الولد إلاّ أَدْخَلَهما اللّهُ الجَنّة بِفَضْلِ رحمته إيّاهما».

فقالوا: يا رسولَ الله، أو اثنان؟

قال: «أو اثنان».

قالوا: أو واحدة.

قال: «أو واحدة».

ثم قال: «والذي نفسي بيده إن السِّقْط لَيَجُرُّ أُمّه بِسَرَرِه[3] إلى الجنّة - إذا احْتَسَبَتْهُ-»[4].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) السرر: هو ما تقطعه القابلة، وما بقي بعد القطع فهو السُّرّة.

(٤) قال المنذري في «الترغيب» (٢٨٨٥): رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن، أو قريب من الحسن.

(٣٨) الزيارة في الله.

(٣٩) إحسان المرأة عِشْرة زوجها:

فعن أنس، عن النبيّ ﷺ قال:

« ألا أخبرُكم بِرِجالِكُم في الجنّة؟ ».

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: « النبيُّ في الجنة، والصِّدّيقُ في الجنّة، والرّجُلُ يزور أَخَاه في نَاحِيَة الْمِصْرِ لا يزورُهُ إلاّ للّه في الجنّة، ألا أخبرُكم بنسائِكم في الجنّة؟

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: « كُل وَدُود وَلُود إذا غَضَبْت أَوْ أُسِيء إليها أَوْ غَضِب زَوْجُها قالت: هَذِه يَدِي في يدِك لا أَكْتَحِلُ بِغَمْضٍ[1] حتى تَرْضَى »[2].

(٤٠) بِرُّ الوالدين:

فعن كعب بن عُجْرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« احْضرُوا المنبر ».

فَحَضَرْناه، فلمّا ارْتَقى دَرَجةً قال:

« آمين ».

فلمّا ارْتَقى الدّرجة الثانية، قال:

« آمين ».

---

(١) أي: لا تذوق طعمًا للنوم.

(٢) صحيح: رواه الطبراني، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع »، وصحّحه لشواهده في « الصحيحة » برقم (٢٨٧).

فلما رقي الدرجة الثالثة، قال:

«آمين».

فلما نزل قلنا: يا رسول الله، لقد سمعْنا منك اليومَ شيئًا ما كُنّا نَسْمَعُهُ؟

قال: «إن جبريلَ عَرَض لي، فقال: بَعُدَ مَنْ أدْرَك رمضان فَلَم يُغْفَرْ له، قلتُ: آمين، فلما رَقِيتُ الثانية، قال: بَعُدَ مَنْ ذُكِرْت عِنده، فلم يُصَلِّ عليك، فقلتُ: آمين، فلما رَقِيتُ الثالثة قال: بَعُد من أدْرك أَبَوَيْه الكِبَرُ عِنْده أو أحَدَهما فلم يُدْخلاه الجَنّة، قلت: آمين»[1].

أخي:

هذه بعض الأعمال، والأسباب الموجبة لدخول الجنة، فَعَضّ عليها بالنّواجذ، واحرص على تنفيذها، والأخذ بها.

واعلم: أن كل عملٍ صالحٍ، وكلّ اجتناب لمحرّم – بعد صحّة المعتقد – ، يقرّب من الجنّة ويبعد عن النار.

قال تعالى:

﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

أخي:

وبعد أن بان لك الطريق، وظهرت لك معالمه:

فاسْلُكْ طريق المتقين ... وَظُنَّ خيرًا بالكريم

واذكُرْ وقوفك خائفًا ... والنّاس في أمْرٍ عظيم

إمّا إلى دار الشّقاوة ... أو إلى العِزّ المقيم

---

(١) صحيح: رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الألباني، «صحيح الترغيب» (٩٨٥).

فاغْـــــنَمْ حـــــياتك واجْـــــتَهِد وَتُـــــبْ إلى الـــــرَّبِّ الرّحـــــيم

« اللّهم إنا نسألُك موجبات رَحْمَتك، وعزائمَ مَغْفرتك، والغنيمةَ مِنْ كُلِّ برٍّ، والسّلامَةَ من كُلِّ شَرٍّ، والفوزَ بالجنّة، والنجاةَ مِنَ النّار ».

۞۞۞۞۞

٨٧- الخَوْفُ مِنَ النّار

صَاحَ بالصَّحَابة واعظٌ: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾[الأنبياء: ١]. فجزعت بخوف قلوب، فَجَّرت لِلْحُزْن عيونًا، ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧].

رَمَى **الصِّدِّيقُ** ﷺ مَالَه حتى ثَوْبَه على الْمُذَكِّر، وتخلل بالعَبَا[1].

وقال **عمرُ**: ليتني كنتُ تِبْنة.

وصاح **عليّ** بالدنيا: «طلقتك ثلاثًا لا رجعة لي فيك»، وقد كانت تكفي واحدة، لكنه أكّد كَي لا يَتصوَّر الْهَوى جواز الْمُراجعة، وَطَبْعُهُ الكريم يأْنف من الْمحلِّل.

أَقْدامُ العارفين على التعبّد قد أَلِفَتْ أَقْدَامُها الصُّفوف تعتمد على سَنَابك الخوف، فإذا أَثَّر النَّصَبُ[2]، رَاوَحَتْ بين أَرْجَاء الرَّجَاء.

انقسم القوم عند الموت:

فبعضهم صابر هجير الخوف حتى قضى نَحْبَه كَعُمَر ﷺ كان يقول عند الرّحيل:

«الْوَيْلُ لِعُمر إن لم يُغْفر له!!».

ومنهم من أقلقه عطشُ الحَذَر، فَتَبرَّد بماء الرَّجاء كبلال ﷺ، كانت زوجتهُ عند موته تقول:

«واكرباه».

وهو يقول:

«واطرباه! غدًا نَلْقَى الأَحِبَّة، محمّدًا وَحِزْبه»[3].

---

(١) قصة تصدق أبي بكر بكل ماله وردت في «سنن الترمذي» بسند حسن.

(٢) النصب التعب.

(٣) «المصنف في الوعظ» لابن الجوزي (٨٢).

أخي:

كان هذا حالُ أصحاب النبيّ ﷺ مع علوّ مكانهم، وشدّة اجتهادهم!!

فيا تُرى ما الأسباب التي أخافَتْهم، وأَقْلَقَتْ مَضَاجِعهم، وَأَجْرَتْ دُمُوعَهم؟!

إن من هذه الأسباب : « **ذِكْرُ النّار** ».

نعم، « ذكر النار » هوالذي أرّق مضاجهم، ومضاجع مَنْ جَاءَ بَعْدهم مِمّن سار على نهجهم، واهتدى بهديهم:

- كان **شَدّاد بن أَوْس** رضي الله عن إذا دخل الفراش يتقلّب على فراشه بمنزلة القمحة في المقلاة على النار، ويقول:

« اللّهم إنّ النار قد أذهبت منّي النوم ».

ثمّ يقوم يصلّي حتى يُصبح!!

- وأُتِيَ **الحسن البصري** – رحمه الله – بكوزٍ من ماء ليفطر عليه، فلمّا أدناه إلى فيه بكى، وقال:

« ذكرتُ أُمنيّة أهل النار، وقولهم:

﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وذكرتُ ما أجيبوا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

- وكان **طاووس اليماني** – رحمه الله – يُفرش له الفرشُ فيضطجع ويتقلّى كما تتقلّى الحبّة في المِقْلَى، ثم يَثِبُ فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصَّباح، ويقول:

« طَيَّر ذِكْرُ جَهَنّم نَوْمَ الخائفين »[١].

- وكان **سفيانُ الثوريّ** – رحمه الله – إذا أَخَذَ في ذِكْر الآخرة يبول الدَّم!![٢]

---

(١) « الإحياء » (١٩٨/٤).

(٢) « سير أعلام النبلاء » (٢٤٢/٧).

وقال ابن مهدي: كنتُ أَرْقُ سفيان في اللّيلة بعد الليلة ينهض مَرْعُوبًا، ينادي: «النّار، النّار، شَغَلني ذِكرُ النّار عن النَّوْم والشّهوات»[١].

□ وكان **مالك بن دينار** - رحمه الله - يقول:

«لو استطعت أن لا أنام لم أَنَم؛ مخافة أن ينزل العذابُ وأنا نائم، ولو وجدتُ أعوانًا لفرّقتُهم ينادون في سائر الدّنيا كلّها: *أيّها الناس، النّارَ النّارَ*».

وكان يقول: «لقد هممتُ إذا أنا متُّ آمرهم أن يُقيِّدوني ويغلّوني، ثم يَنْطَلقوا بي إلى ربِّي كما يُنطلق بالعبد الآبق إلى سيّده»[٢].

□ وقيل **لعطاء السّليمي** - رحمه الله - في مرضه:

ألا تشتهي شيئًا؟

فقال: «إن خوف جهنم لم يَدَعْ في قلبي مَوْضِعًا لِشَهْوة!».

□ وقال أبو بكر بن عيّاش:

«صلَّيتُ خلف **فضيل بن عياض** صلاة المغرب، وإلى جانبي **عليٌّ** ابنه، فقرأ الفضيل: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾. [التكاثر: ١].

فلمّا بلغ: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ [التكاثر: ٦]، سقط **عليٌّ** مغشيًّا عليه، وبقى الفضيلُ لا يَقْدر يجاوز الآية، ثم صلّى بنا صلاة خائف، قال:

ثم رابطتُ **عليًّا** فما أفاق إلاّ في نصف الليل!»

وكان عليٌّ يومًا عند سُفيان بن عُيَيْنة، فحدَّث سفيانُ بحديث فيه ذِكْر النّار، وفي يد عليّ قرطاس في شيء مربوط، فشهق شهقة ووقع، ورَمَى بالقرطاس، أو وقع من يده، فالتفتَ إليه سفيان، فقال:

لو علمتُ أنّك ها هنا ما حدّثتُ به.

---

(١) نفس المرجع (٢٧٦/٧).

(٢) «الإحياء» (١٩٥/٤).

فما إفاق إلاّ بعد أن شاء الله[١].

وقال إبراهيم بن بشّار: «الآية التي مات فيها عليٌّ بن الفضيل في الأنعام:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ ﴾(الآية) [الأنعام: ٢٧]، مع هذا الموضع مات، وكنتُ فيمن صلّى عليه، رحمه الله»[٢].

أخي:

كان هذا خوفهم من النار، وكان هذا حالهم عند ذكرها!

- **وكيف لا يخافون من جهنم**: والملائكة الذين هم: ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، خافت منها لمّا خُلقت.

عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال لجبريل:

«**ما لي لا أرى ميكائيل يَضْحَكْ؟ قال: ما ضَحِكَ ميكائيلُ مُنذ خُلقَتِ النّار!**»[٣].

- **بل كيف لا يخافون منها**: وها هو أنس ﷺ يقول:

كان أكثرُ دُعَاءِ النبيِّ ﷺ :

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]»[٤].

وكان ﷺ يُخوِّفُ بها في خُطَبه:

عن النعمان بن بشير، قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يخطب يقول:

---

(١) «التخويف من النار» لابن رجب الحنبلي (٢١).

(٢) «السير» (٤٤٦/٨).

(٣) **إسناده جيد**: رواه أحمد، وابن أبي الدنيا، وقال الحافظ العراقي: إسناده جيد.

(٤) رواه البخاري.

«أَنذرْتكُم النّار، أنذرْتُكم النّار».

حتى لو أن رَجُلاً كان بالسُّوق لَسَمِعَه مِنْ مقامي هذا، حتى وقعتْ خَمِيصَةٌ كانت على عَاتِقه عند رِجْلَيْه! [(١)].

وكان ﷺ يقول:

«والذي نفسي بيده، لو رأيتُم ما رأيتُ، لَضَحِكْتُم قليلاً ولبكَيْتُم كثيرًا».

قالوا: وما رأيتَ يا رسول الله؟

قال: **«رأيتُ الجنّة والنّار»** [(٢)].

□ **بل كيف لا تنخلع قلوبُهم عند ذِكرها، ووصفها ﴿ يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾** [المزمل: ١٧]؟!.

أخي:

وإذا كان الخوفُ - كما قال **خَيْرُ النَّسَّاج** - سَوْطُ الله يُقَوِّم به أَنْفُسًا قد تعوَّدت سُوءَ الأدب.

فهذا وَصْفٌ سريع لجهنّم، عساه أن يُهَيِّج الْخَوْف، وَيُقوّم السُّلوك، ويكبح جماح النّفس عن الشهوات:

□ **أما عن سَعَتِها وَبُعْد قَعْرها:**

فالنار شاسعة واسعة، بعيد قعرها، مترامية أطرافها، يدلّ على ذلك

أ- قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق: ٣٠].

ب- وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة ﷺ قال:

كُنَّا مع رسولِ الله ﷺ، إذ سَمِع وَجْبَةً [(٣)]، فقال النبيُّ ﷺ:

---

(١) رواه الحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم».

(٢) رواه مسلم وأبو يعلى.

(٣) وجبة: سقطة.

«تَدْرونَ ما هذا؟».

قلنا: اللّهُ ورسولهُ أعلم.

قال: **«هذا حَجَرٌ رُمِي به في النّار مُنْذُ سَبْعين خَرِيفًا، فهو يهوي في النار إلى الآن»**[1].

- **وأمّا عن دركاتها:**

فالنار متفاوته في شدّة حرّها. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

والعرب تُطلق: «الدرك» على كُلّ ما تسافل، كما تطلق: «الدرج» على كل ما تعالى، فيقال: للجنة دَرَجات، وللنّار دَرَكَات، وكلّما ذهبت النار سفلاً كُلّما عَلاَ حرُّها واشتدّ لهيبها[2]، والمنافقون لهم النّصيب الأوفر من العذاب، ولذلك كانوا في الدرك الأسفل من النار[3].

- **وأما عن أبوابها:**

فللنار سبعة أبواب. قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

«أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأوّل، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تمتلئ كلّها»[4].

وهذه الأبواب تُغْلق على المجرمين، فلا مطمع لهم في الخروج منها بعد ذلك.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٤).

(٢) «التخويف من النار» لابن رجب (٥٠).

(٣) «الجنة والنار» د. الأشقر (٢٥).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٦٢/٤).

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةُۢ ﴾ [البلد: ١٩، ٢٠].

قال ابن عباس : ﴿ مُّؤْصَدَةُۢ ﴾: مغلقة.

وقال مقاتل: ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةُۢ ﴾ يعني: أبوابها مُطْبَقة فلا يُفْتَح لهم بابٌ، ولا يَخْرج منها غَمٌّ، ولا يدخل فيها روح أَبَدَ الآباد(١).

وأما عن وقودها:

فوقود النار: الأحجار، والكفّار الفجّار. قال تعالى:

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤].

قال العلاّمة **السَّعْدي** – في تفسيره لهذه الآية – :

«وفي قوله: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السُّنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافًا للمعتزلة، وفيها أيضًا: أن الموحّدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلّدون في النار، لأنه قال: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فلو كان [عصاة الموحدين] يخلّدون فيها لم تكن مُعدّة للكافرين وحدهم، خلافًا للخوارج والمعتزلة.

وفيه دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر وأنواع المعاصي على اختلافها» ا.هـ(٢).

وأما عن شدّة حَرّها، وَعِظَم دُخانها وَشَررها:

فإن ذلك شيءٌ ترتجف لِهَوْله الأفئدة، وتقشعر عند سماعه الأبدان.

أمّا عن آيات القرآن في وصف ذلك، فكثيرة جدًّا، ولا تخفى.

أمّا الأحاديث: فمنها:

■ عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال:

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١/٤٣١).
(٢) «تفسير السّعدي» (٤٦).

« نارُكم هذه ما يُوقِدُ بَنو آدمَ جُزءٌ من سَبْعِين جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنّم ».

قالوا: والله إن كانت لكافية.

قال: « إنّها فُضِّلَتْ عليها بتسعةٍ وستِّين جُزءًا كُلُّهنّ مثْلُ حَرِّها »(١).

■ وعن أبي هريرة ﷺ - أيضًا - قال:

قال رسول الله ﷺ :

« اشتكتِ النّارُ إلى رَبِّها فقالت: يا رَبّ، أَكَل بَعْضي بعضًا، فَأَذِنَ لها في نَفَسَين: نَفَسٍ في الشتاء، ونفسٍ في الصَّيف، فأشد ما تَجدونه في الصَّيف من حَرَّها، وأشدّ ما تجدونه في الشتاء من زَمْهَرِيرِها »(٢).

□ أمّا عن سَلاَسِلها وغير ذلك:

فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠- ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[الحاقة: ٢٥- ٣٣].

□ وأما عن شراب أهل النّار:

فمنه: « الْمُهلْ». قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٣- ٤٦].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧/١٨٥).

والمهل: صديد مُنْتن، شديد الحرارة، خبيث الطعم، يغلي في البطون(١).

ومنه: «**الحميم**». قال تعالى: ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

قال **الضّحّاك**: «الحميم يغلي منذ خلق الله السموات والأرض إلى يوم يسقونه، ويصبّ على رءوسهم».

ومنه: «**الصّديد**». قال تعالى: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

ومنه: «**الغسّاق**». قال تعالى: ﴿ فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص: ٥٧]

قال **عبد الله بن عمرو**: «الغسّاق: القيح الغَليظ، لو أن قَطْرة منه تهراق في المغرب لأنتنت أهل المشرق، ولو تهراق في المشرق لأنتنت أهل المغرب».

وقيل غير ذلك.

ومنه: «**طينة الخَبال**». قال ﷺ:

«**مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لم يرض اللّهُ عَنه أرْبَعِين ليلة، فإن مات، مات كافِرًا، فإن عاد كان حَقًّا على الله أن يَسْقِيَهُ مِنْ طِينة الخَبال**».

قيل: وما طينة الخبال؟

قال: «**صَدِيدُ أَهْلِ النار**»(٢).

- **وأمّا عن طعام أهل النار:**

فمنه: «**الزّقوم**». قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤].

ومنه: «**الضّريع**». قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية: ٦، ٧].

---

(١) «تفسير السّعدي» (٧٧٤).

(٢) قال المنذري في «الترغيب» (٥٢٣٥): رواه أحمد بإسناد حسن.

والضّريع: ما يبس من الشبرق، وهو جنس من الشوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا، فإذا يبس تحامته وهو سمٌّ قاتل.

قال الإمام **الفخر**: «والمقصد من ذكر هذا الشراب وهذا الطعام، بيان نهاية ذلّهم، وذلك لأن القوم لمّا أقاموا في تلك السلاسل والأغلال تلك المدّة الطويلة عطاشًا جياعًا، ثم ألقوا في النار فرأوا فيها ماء وشيئًا من النبات، فأحب أولئك القوم تسكين ما بهم من العطش والجوع فوجدوا الماء حميمًا لا يروي بل يشوي، ووجدوا النبات مما لا يشبع ولا يغني من جوع، فأيسوا وانقطعت أطماعهم في إزالة ما بهم من الجوع والعطش... وبيّن أن هذه الحالة لا تزول ولا تنقطع، نعوذ بالله منها»ا.هـ(١).

□ وأمّا عَنْ عِظَم أهْلِ النار وَقُبْحهم فيها:

فقال تعالى: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

روى أحمد والترمذيّ، وقال: حسن غريب عن أبي سعيد عن النبيّ ﷺ قال:

﴿ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴾، قال: «**تَشْويه النّارُ فتقلّص شَفَته العُلْيا حتى تبلغ وَسط رأسه، وتَسْتَرْخي شَفَتُه السُّفْلَى حتى تَبْلغ سُرّته!**».

فيا له من منظر ما أقبحه، ويا له من عذاب ما أفظعه.

وعن الحارث بن أقيش ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إنّ مِنْ أُمَّتي مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَتهِ أكثرُ مِنْ مُضَرَ، وإنّ من أُمّتي من يَعْظُمُ للنّارِ حتى يكونَ أَحَدَ زَوَايَاها**»(٢).

□ أما عن تفاوتهم في العذاب:

فعن النعمان بن بشير، قال:

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٣١/٣٧٣).

(٢) **صحيح**: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٩٠).

قال رسول الله ﷺ:

«**إنّ أَهْونَ أَهْلِ النّار عَذَابًا مَنْ لَه نَعْلان وَشراكان من نَار يَغْلي مِنهما دِمَاغُه كما يَغْلي الْمِرْجَلُ، مَا يَرى أَنّ أَحَدًا أشَدُّ منه عَذَابًا، وإنّه لأَهْوَنَهُمُ عَذَابًا**»[1].

وعن سمرة بن جندب، عن النبيّ ﷺ قال:

«**منهم من تأخذُه النّارُ إلى كَعْبَيْه، ومنهم من تأخذُه النّارُ إلى رُكْبَتَيْه، ومنهم من تأخذُه النّارُ إلى حُجْزَتِه، ومنهم من تأخذُه النّارُ إلى عُنُقِه، ومنهم من تأخذُه النّارُ إلى تَرْقُوتِه**»[2].

قال الحافظ **ابن رجب** - رحمه الله -:

«واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي أُدخلوا بها النار» اهـ[3].

- **أما عن عذاب جلودهم:**

فقد قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

قال **الحسن**: «تأكلهم النارُ كل يوم سبعين ألف مرّة، كلّما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فيعودون كما كانوا!!».

- **أما عن دعائهم واستغاثهم:**

فيقول **محمد بن كعب القرظي** - رحمه الله -:

لأهل النار **خمس دعوات**، يجيبهم الله ﷻ في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبدًا:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) «التخويف من النار» (١٤٢).

(١) يقولون: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١١].

فيقول الله تعالى مجيبًا لهم:

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

(٢) ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

فيجيبهم الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

(٣) فيقولون: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر: ٣٧].

فيجيبهم الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

(٤) ثم يقولون: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧].

فيجيبهم الله تعالى:

﴿ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فلا يتكلمون بعدها أبدًا، وذلك غاية شدّة العذاب.

وقال ﷺ: «**يُؤْتى بالموت يَوْمَ القيامة كأنه كبش أَمْلَح فَيُذْبح بين الجنّة والنّار، ويُقال: يا أهل الجنّةِ خُلود بلا مَوْت، ويا أهل النّار خلود بلا مَوْت**»(١)..

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وعندئذٍ يزداد أهل الجنة سرورًا على سرورهم، ويزداد أهل النار حسرة على حسرتهم.

أخي المسلم:

هذه بعض أصناف عذاب جهنم على الجملة، وتفصيل غمومها، وأحزانها، ومحنها، وحسرتها لا نهاية له.

فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة، وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا ذلك بثمن بخس دراهم معدودة؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلاّ بشهوات حقيرة في الدنيا أيّامًا قصيرة وكانت غير صافية، بل كانت مكدّرة منغّصة فيقولون في أنفسهم: واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربّنا!

وكيف لم نكلّف أنفسنا الصّبر أيّامًا قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن جـ [illegible] العالمين متنعّمين بالرّضا والرضوان؟

فيالحسرة هؤلاء.

ويالشدّة مصيبتهم.

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال، واعلم: أن الله تعالى خلق النار بأهوالها، وخلق أهْلاً لها لا يزيدون ولا ينقصون، وأن هذا أَمْر قد قضى وفرغ منه.

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩].

فإن قُلْتَ: فَلَيْتَ شِعْري ماذا مَوْردي، وإلى ماذا مآلي ومرجعي، وما الذي سبق به القضاءُ في حَقّي؟

فلك علامة تستأنس بها، وتصدق رجاءك بسببها وهي: أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كُلاّ مُيسّر لما خُلق له، فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنتَ لا تقصد خيرًا إلاّ وتحيط بك العوائق فتدفعه، ولا تقصد شرًّا إلاّ

ويتيسّر لك أسبابه، فاعلم أنّك مقضي عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات، ودلالة الدخان على النّار. فقد قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

فاعرض نفسك على الآيتين، وقد عرفتَ مُسْتَقرّك من الدّارين. والله أعلم.

فيا أخا الإسلام:

تــأدّب بــآداب الشــريعة واسْــتَقِمْ ... وَقُــلْ: يــا إلــه العــرش إنّــي راجع
ويــا واهــب الخــيرات هب لي هداية ... فمــا غــير فقــدان الهداية قــاطع
أَقِــلْ عَــثْرتي عفــوًا وَلُطْفًــا ورحمــة ... فمــا لجمــيل الصّــنع غــير صــانع

واعلم: أنه:

لا دار لــلمرء بعــد المــوت يســكنها ... إلاّ الــتي كــان قــبل المــوت يَبْنــيها
فــإن بــناها بخــيرٍ طــاب مســكَنُهُ ... وإن بــناها بِشَــرٍّ خــابَ بانــيها

«اللّهم قنا عذابك، يوم تبعث عبادك».

۞۞۞۞۞

٨٨- الْهَرَبُ مِنَ النَّار

اعلم - **أخي الكريم** - أن من خاف من شيءٍ هَرَب منه، ومن خاف من الله فَرَّ إليه.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« ما رأيتُ مِثْلَ النَّار نَامَ هَارِبُها، ولا مِثْلَ الجنّة نَامَ طَالِبُها »[1].

- وعن المعلَّى بن زياد، قال:

كان هَرِمُ بن حَيّان[2] - رحمه الله - يخرج في بعض الليل وينادي بأعلى صوته:

« عجبتُ من الجَنّة كيف نامَ طالبُها؟ وعجبتُ من النّار كيف نَامَ هَارِبُها؟ » .

ثم يقول:

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ثم يقرأ:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ و ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ﴾ ثم يرجع إلى أهله!!

فكيف الْهَرَبُ من النّار؟

الهرب من النار يكون بمعرفة **شيئين**:

الأول: معرفة الأسباب المؤدّية إلى دخولها.

والثاني: معرفة الأسباب المنجية من عذابها.

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي، وحسّنه الألباني في « صحيح الجامع » برقم (٥٦٢٢).

(٢) من التابعين. لما دُفن أرسل اللّهُ تعالى على قَبْره سَحَابةً أَظَلّته وأَمْطَرَتْ عليه!!

أولاً: الأسباب المؤدية إلى عذاب النار:

من هذه الأسباب:

الأول: الكُفْر والشّرْك:

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦].

وقال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

السبب الثاني: النفاق:

فقد وعد اللّهُ المنافقين النار. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨].

والنفاق **نوعان:**

الأول: نفاق اعتقادي:

وهو النفاق الأكبر، الذي يظهر صاحبُهُ الإسلام، ويبطن الكفر - وهذا النوع مُخْرِج من الدِّين بالكلِّيَّة، وصاحب هذا النَّوْع في الدَّرك الأسفل من النار، وقد وصف اللّهُ أهله بصفات الشرِّ كلها: من الكفر، وعدم الإيمان، والاستهزاء بالدِّين وأهله، والسخرية منهم،

والميل بالكلية إلى أعداء الله، وهؤلاء موجودون في كلّ زمان.

والثاني: نفاق عملي:

وهو عمل شيء من أعمال المنافقين مع بقاء الإيمان في القلب، وهذا لا يُخرج من الملّة، لكنه وسيلة إلى ذلك. وصاحبه يكون فيه إيمان ونفاق، وإذا كَثُر صار بسببه مُنافقًا خالصًا، والدليل عليه: قوله ﷺ:

«أربَعٌ من كنّ فيه كان مُنافقًا خالِصًا، ومن كانت فيه خصلة منهنّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها:

إذا أؤتمن خان، وإذا حدّث كَذَب، وإذا عاهد غَدَر، وإذا خاصم فَجَر».

فمن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع فقد اجتمع فيه الشّر وخلصت فيه نعوت المنافقين. ومن كانت فيه واحدة منها صار فيه خصلة من النفاق، فإنه قد يجتمع في العبد خصال خير، وخصال شرّ، وخصال إيمان، وخصال كفر ونفاق. ويستحق من الثواب **والعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك**[1].

وعلى كلّ حال، فالنفاق شرّ كله، لذا كان الصّحابة يتخوّفون منه.

قال **ابنُ أبي مُليكة** - رحمه الله - :

«**أدركتُ** ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلّهم يخاف النفاق على نفسه».

نسأل الله - تعالى - العافية.

السبب الثالث: طاعة رؤساء الضلال، وزعماء الكفر فيما قرروه من مبادي الضلال وخطوات الكفر التي تصد عن دين الله ومتابعة المرسلين[2].

قال تعالى في هؤلاء:

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦

---

(١) «كتاب التوحيد» د. صالح الفوزان (١٩، ٢٠) باختصار.

(٢) «الجنة والنار» د.الأشقر (٥٥).

وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٦- ٦٨].

السبب الرابع: الكِبْر:

والآيات الدّالة على دخول المتكبرين النار كثيرة.

أمّا الأحاديث: فمنها:

عن أبي سعيد ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

«احْتجَّت الجنَّةُ والنّار، فقالت النّارُ: فِيَّ الجبّارون والمتكبّرون، وقالت الجنَةُ: فِيّ ضعفاءُ المسلمين ومساكينُهُم، فَقَضى اللّهُ بينهما: إنّك الجنّةُ رَحْمَتي أرْحَم بك مَنْ أَشَاء، وإنّك النّارُ عَذَابي أُعَذّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكليْكُمَا عَليَّ مِلْؤُها»[1].

السبب الخامس: عدم القيام بالتكاليف الشرعية مع التكذيب بيوم الدين:

يدل على ذلك: قوله تعالى:

﴿ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٣٩- ٤٨].

السبب السادس: اتّباع الهدى.

السبب السابع: الخيانة.

السبب الثامن: الخِداع والمكر.

السبب التاسع: البخل.

السبب العاشر: الكَذب.

---

(١) رواه مسلم.

السبب الحادي عشر: **الفُحْش.**

يدلّ على ما سبق: قوله ﷺ:

«**وأَهْلُ النّار خَمْسَةٌ: الضّعيف الذي لا زَبْرَ له**[١]. **الّذين هم فيكم تَبَعًا لا يَبْتَغون أهلاً ولا مالاً، والخائنُ الذي لا يَخفَى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلاّ خَانَه، وَرَجُلٌ لا يُصبِح ولا يُمْسي إلاّ وهو يُخَادعك عن أهلِك ومالِك. وذكر الْبُخْلَ أو الكَذِبَ والشِّنْظِير**[٢] **الفَحَّاشُ**»[٣].

هذه بعض الأسباب المؤدّية إلى عذاب النار، وقد ذكر الإمام **ابن تيمية** - رحمه الله - جملة الجرائم التي تُدخل النار، فقال:

«عمل أهل النار: الإشراك بالله تعالى، والتكذيب للرسل، والكفر، والحسد، والكذب، والخيانة، والظّلم، والفواحش، والغدر، وقطيعة الرحم، والجبن عن الجهاد، والبخل، واختلاف السّر والعلانية، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والجزع عند المصائب، والفخر والبَطَر عند النّعم، وترك فرائض الله، واعتداء حدوده، وانتهاك حُرماته، وخوف المخلوق دون الخالق، والعمل رياءً وسُمْعة، ومخالفة الكتاب والسّنة، أي اعتقادًا وعملاً، وطاعة المخلوق في معصية الخالق، والتعصّب للباطل، والاستهزاء بآيات الله، وَجَحْد الحَقّ، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهاده، والسِّحْر، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حَرَّم الله إلاّ بالحق، وأكل مال اليتيم، والرّبا، والفرار من الزّحْف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»ا.هـ[٤].

وبالجملة: فالمعاصي كُلّها شؤم على صاحبها.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لا يغرنكم قول الله ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ

(١) أي: لا عقل له يزبره ويمنعه مما لا ينبغي.

(٢) الشنظير: الفحّاش، وهو السّيئ الخلق. انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/٣٢٢).

(٣) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٤) «يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار» لصديق حسن خان (٢٢٢).

بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فإن السّيئة وإن كانت واحدة فإنها تتبعها **عشر خصال مذمومة**.

أوّلها: إذا أذنب العَبْدُ ذَنْبًا فقد أسْخَط الله، وهو قادر عليه.

والثانية: أنه فَرّح إبليس لعنه الله.

والثالثة: أنّه تَبَاعد من الجنة.

والرابعة: تَقَرَّب من النار.

والخامسة: أنه قد آذى أحبّ الأشياء إليه وهي نَفْسه.

والسادسة: أنه نجّس نفسه وقد كان طاهرًا.

والسابعة: أنه قد آذى الحَفَظة.

والثامنة: أنه أحزن النبيّ ﷺ في قبره.

والتاسعة: أنه أشهد على نفسه السموات والأرض وجميع المخلوقات بالعصيان.

والعاشرة: أنه خان جميع الآدميين، وعصى ربَّ العالمين»(١).

ثانيًا: الأسباب المنجية من عذاب النار:

اعلم: أن الأسباب المنجية من عذاب جهنم - بفضل الله ورحمته - كثيرة، منها:

السبب الأول: الإيمان والاستقامة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وللمزيد: انظر: خلق «الاستقامة» فهناك مزيد بيان.

---

(١) «بحر الدموع» لابن الجوزي (٤٢، ٤٣).

السبب الثاني: حُبُّ اللهِ - تعالى - للعبد:

وحبُّ اللهِ للعبد ثمرة طاعة العبد لله ورسوله.

والدليل على أن حُبّ الله تعالى للعبد ينقذه من النار ما جاء في الحديث التالي:

عن أنس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **والله لا يلقى الله حَبِيبَه في النّار** »[١].

السبب الثالث: الصّيام:

فعن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **الصَّومُ جُنّة مِنْ عَذَاب الله** »[٢].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

السبب الرابع: مخافة الله:

السبب الخامس: الجهاد في سبيل الله:

قال ﷺ : « **لا يَلِجُ النّارَ[٣] من بَكى من خشية الله حتى يَعود اللّبن في الضَّرْع، ولا يجتمع على عبد: غبار في سبيل الله، وَدُخَانُ جَهنّم** »[٤].

السبب السادس: اسْتِجارَةُ الْعَبْد منها:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

---

(١)صحيح : رواه أحمد والحاكم في «المستدرك»، وانظر: «صحيح الجامع» (٦/١٠٤).

(٢)صحيح : رواه أحمد، وغيره، وإسناده صحيح.

(٣)لا يلج : لا يدخل.

(٤)صحيح : رواه الترمذي، وغيره.

قال رسولُ الله ﷺ :

« ما اسْتجار عَبْدٌ من النار سَبْع مَرَّات إلاّ قالت النّارُ: يا رَبُّ، إن عَبْدَك فلانًا اسْتجار منّي فَأَجِرْه، ولا سأل عَبْدٌ الجنة سَبْعَ مَرّاتٍ إلاّ قالت الجنّةُ: يا رَبُّ إن عَبْدَك فُلانًا سَألَني فأدْخلْه الجنَّة »[١].

وعن أنس ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« مَنْ سَألَ الله الجَنة ثَلاث مرَّات ، قالت الجنّة: اللهم أدْخِلْه الجنّة، ومن استجار من النّار ثلاث مرّات، قالت النّارُ: اللّهم أجِرْه من النّار »[٢].

السبب السابع: الصّدقة:

فعن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« لِيَقِ أحدُكُم وَجْهَه النّارَ، ولو بِشِقِّ تَمْرة»[٣].

وبالجملة:

فكلّ عَمَل صَالح، وإن قَلّ، قد يكون سببًا في دخول الإنسان الجنّة، ونجاته من النار، فإن الله تعالى قد أخفى رضاه في طاعته، وأخفى انتقامه في معصيته. فلا يحتقرن مسلمٌ طاعةً ولا معصية.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال **بلال بن سعد** - رحمه الله - :

« لا تَنْظرْ إلى صِغَر الخَطِيئة، ولكن انْظُرْ إلى عَظَمَة مَنْ عَصَيْت ».

---

(١) قال المنذري في « الترغيب » (٥١٧٥): رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخاري ومسلم.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٦٢٧٥).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد، وصحّحه المنذريّ والألباني.

فجاهد نفسك - **أخي الكريم**- في طاعة رَبِّك، واجتنب معاصيه، واصْبِر أيَّامًا قليلة، عسى أن تنال بعدها راحة طويلة.

واهْتِفْ من أعماق قلبك:

يــا بــارئ الكَــوْن في عِــزٍّ وتمكــين ... وَكُــلُّ أَمْــرِ جَــرَى بالكــاف والنّون
يــا مــن لطفــتَ بِحَــالي قَبل تَكْوِيني ... لا تجعــل الــنّارَ يَــوْمَ الحَشْــرِ تكْويني



٨٩- تَصْحِيحُ النِّيَّة

اعلم - **يا أخي** - أن تجريد النيّة من شوائب الرِّياء، شرط لقبول العمل، لذا قال **يحيى بن أبي كثير** - رحمه الله - :

« تعلّموا النيِّة، فإنّها أبلغ مِنَ الْعَمَل »(١).

وقال **ابن عباس** - رضي الله عنهما - « إنّما يُحفظ الرّجل على قَدْر نيَّته ».

ولأهميّتها، فالحديث عنها يدور حول حديث قال عنه الإمام **الشافعيُّ** - رحمه الله - :

« هذا الحديث: ثلث العلم! » وهو الحديث التالي:

□ عن عمر بن الخطاب ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« **إنّما الأعمالُ بالنِّيات، وإنّما لكل امْرِئ ما نَوى، فَمَنْ كانت هجْرتُهُ إلى الله ورسوله، فهجرتُه إلى الله ورسولِه، ومن كانت هِجْرتُهُ لِدُنْيا يُصيبُها، أو امرأةٍ يَنْكحُها فهجرتُه إلى ما هاجر إلَيْه** »(٢).

قال الإمام **ابن رجب الحنبلي** - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث ما مختصره:

« هذا الحديث: أحد الأحاديث التي يدور الدين عليها.

وقوله ﷺ: « **إنما الأعمال بالنيات** »: يقتضي الحصر على الصَّحيح، وقد اختلفوا في تقدير قوله: « **الأعمال بالنيات** » فكثير من المتأخرين يزعم أن تقديره الأعمال صحيحة أو معتبرة ومقبولة بالنِّيات، وعلى هذا فالأعمال إنما أُريد بها الأعمال « الشرعية » المفتقرة إلى النّية، فأمّا ما لا يفتقر إلى نيّة كالعادات من الأكل والشرب واللبس وغيرها، أو مثل ردّ الأمانات والمضمونات كالودائع والغصوب فلا يحتاج شيء من ذلك إلى نيّة، فيخصّ هذا

(١) « حلية الأولياء » (٣/٧٠).

(٢) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧/١٥٥).

كلّه من عموم الأعمال المذكورة ههنا.

وقال آخرون: بل الأعمال ههنا على عمومها لا يختصّ منها شيء، وهو ظاهر كلام الإمام أحمد. قال في رواية حنبل[١]: أحبّ لكلّ من عمل من صلاة أو صيام أو صدقة أو نوع من أنواع البرّ أن تكون النّية متقدّمة في ذلك قبل الفعل، قال النبيُّ ﷺ:

« **الأعمال بالنيات** »[٢] فهذا يأتي على كل أمر من الأمور.

وعلى هذا القول فقيل: تقدير الكلام: الأعمال واقعة أو حاصلة بالنِّيات، فيكون إخبارًا عن الأعمال الاختيارية أنها لا تقع إلا عن قَصْد من العامل هو سبب عملها ووجودها، ويكون قوله بعد ذلك: « **وإنما لكل امرئ ما نوى** » إخبارًا عن حكم الشّرع، وهو أن حظ العامل من عمله نيّته، فإن كانت صالحة فعمله صالح فله أجره، وإن كانت فاسدة فعمله فاسد، فعليه وزره، ويحتمل أن يكون التقدير في قوله: « **الأعمال بالنِّيات** » صالحة أو فاسدة أو مقبولة أو مردودة أو مثاب عليها أو غير مثاب عليها: « بالنّيات »، فيكون خبرًا عن الحكم الشّرعي، وهو أن صلاحها وفسادها بحسب صلاح النّية، وفسادها، كقوله ﷺ:

« **إنما الأعمال بالخواتيم** »[٣].

أي: إن صلاحها وفسادها، وقبولها وعدمها بحسب الخاتمة.

وقوله بعد ذلك: « **وإنما لكلّ امرئ ما نوى** » إخبار أنه لا يحصل له من عمله إلاّ ما نواه به، فإن نوى خيرًا حصل له خير، وإن نوى شرًّا حصل له شرٌّ.

وليس هذا تكريرًا محضًا للجملة الأولى، فإن الجملة الأولى دلّت على أن صلاح العمل وفساده بحسب النّية المقتضية لإيجاده، والجملة الثانية دَلّت على أن ثواب العامل على عمله بحسب نيّته الصّالحة، وأن عقابه عليه بحسب نيّته الفاسدة، وقد تكون نيّته

---

(١) وسبق.

(٢) هي رواية ثانية، غير رواية: « **إنما الأعمال بالنيات** ».

(٣) رواه البخاري (٦٤٩٣).

مباحة فيكون العمل مباحًا، فلا يحصل له ثواب ولا عقاب، فالعمل في نفسه صلاحه وفساده وإباحته بحسب النّية التي صار بها العمل صالحًا أو فاسدًا أو مباحًا.

واعلم: أن النيّة في «**اللغة**»: نوع من القصد والإرادة.

والنِّية في كلام العلماء تقع **بمعنيين**:

أحدهما: تمييز العبادات بعضها عن بعض كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر مثلاً، وتمييز رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرّد والتنظّف ونحو ذلك، وهذه النّية هي التي توجد كثيرًا في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل، وهل هو لله وحده لا شريك له أم لله وغيره؟

وهذه هي النِّية التي يتكلّم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرًا من كلام السّلف المتقدمين.

وهي النِّية التي يتكرر ذكرها في كلام النبيّ ﷺ تارة بلفظ النّية، وتارة بلفظ الإرادة، وتارة بلفظ مقارب لذلك.

وقد ذكرنا أن النِّية في كلام النبيّ ﷺ وسلف الأمّة إنما يُراد بها هذا المعنى الثاني – غالبًا – فهي حينئذ بمعنى الإرادة، ولذلك يُعبَّر عنها بلفظ الإرادة في القرآن كثيرًا كما في قوله تعالى:

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وقد يُعبّر عنها في القرآن بلفظ الابتغاء كما في قوله تعالى:

﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ ﴾ (الآية) [النساء: ١١٤].

فنفى الخير عن كثير ممّا يتناجى الناس به إلاّ في الأمر بالمعروف، وخصّ من أفراده الصّدقة والإصلاح بين الناس لعموم نفعها، فدلّ ذلك على أن التناجي بذلك خير، وأمّا الثواب عليه من الله فخصه بمن فعله ابتغاء مرضات الله، وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصّدقة والإصلاح بين الناس وغيرهما خيرًا، وإن لم يبتغ به وجه الله لما يترتب على ذلك من النفع المتعدّى فيحصل به للناس إحسان وخير.

وأمّا بالنسبة إلى الآمر، فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته كان خيرًا له وأثيب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيرًا له ولا ثواب عليه، وهذا بخلاف من صلّى وصام وذكر الله، يقصد بذلك عَرَض الدنيا، فإنه لا خير له فيه بالكليّة؛ لأنه لا نفع في ذلك لصاحبه، لما يترتب عليه من الإثم فيه، ولا لغيره؛ لأنه لا يتعدّى نفعه إلى أحد، اللّهم إلاّ أن يحصل لأحد اقتداء به في ذلك.

وأمّا ما ورد في السُّنّة وكلام السَّلف من تسمية هذا المعنى بالنّية فكثير جدًّا، ونحن نذكر بعضه.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«**إنّما يُبْعَثُ النّاس على نيّاهم**»[1].

وعن زيد بن ثابت عن النبيّ ﷺ قال:

«**من كانت همّه الدنيا، فرّق اللّهُ شمْله**» وفي لفظ: «**أمْره، وجعل فقْرَه بيْن عيْنيْه، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما كُتب له، ومن كانت الآخرة نِيّته، جمَع اللّهُ له أمْره، وجعل غِناه في قلْبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»[2].

وعن زيد الشامي، قال:

«إني لأُحب أن تكون لي نيّة في كلّ شيء حتى في الطعام والشراب!».

وعن سفيان الثوريّ، قال:

---

(١) **حسن**: رواه ابن ماجه (٤٢٢٩).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤١٠٥)، وقال في «الزوائد»: إسناده صحيح ورجاله ثقات.

« ما عالجتُ شيئًا أشدّ عليّ من نيّتي لأنها تتقلّب عليّ ».

وعن يوسف بن أسباط، قال:

« تخليص النّية من فسادها أشدّ على العاملين من طول الاجتهاد ».

وقيل لنافع بن حبيب: ألا تشهد الجنازة؟

قال: « كما أنت حتى أنوى ». قال:

ففكّر هنيهة، ثم قال:

« امْضِ ».

وقال ابن المبارك: « رُبّ عملٍ صغير تعظِّمه النّية، ورُبّ عَمَل كبير تُصَغِّره النّية ».

وقال ابن عجلان: « لا يصلح العمل إلا بثلاث: التقوى لله، والنّية الحسنة، والإصابة ».

وبهذا يُعلم معنى ما روى الإمام أحمد: أن أصول الإسلام ثلاثة أحاديث:

- حديث: « **إنما الأعمال بالنّيات** ».
- وحديث: « **مَنْ أَحْدَثَ**[١] **في أَمْرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ** »[٢].
- وحديث: « **الحلال بَيِّن، والحرام بَيِّن** »[٣].

فإن الدِّين كلّه يرجع إلى فعل المأمورات وترك المحظورات والتوقّف عن الشبهات، وهذا كلّه تضمّنه حديث « النعمان بن بشير »[٤].

وإنما يتم ذلك **بأمرين:**

---

(١) **أحدث:** ابتدع واخترع.

(٢) رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧/١٧١٨، ١٨) من حديث عائشة - رضي الله عنها - .

(٣) نصّه: عن النعمان بن بشير، قال ﷺ: « **إنّ الحلال بَيِّن، وإن الحرامَ بيّن، وبينهما أمور مُشْتبهات، لا يعلمهنّ كثيرٌ من الناس، فمن اتَّقى الشُّبهات فقد استَبْرأ لدينه وعِرْضه، وَمَنْ وَقَع في الشُّبهات وقع في الحرام، كالرّاعي حَوْل الحِمَى يوشك أن يَرْتَع فيه، ألا وإن لكل مَلِك حمىً، ألا وإن حِمَى الله مَحَارِمُه، ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صَلَحَت صَلَح الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فسدت فَسَدَ الجَسَدُ كُلّه، ألا وهي القلب** » رواه البخاري ومسلم.

(٤) السّابق.

أحدهما: أن يكون العمل في ظاهره على موافقة السُّنَّة، وهذا الذي يتضمنه حديث عائشة:

«**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ**».

والثاني: أن يكون العمل في باطنه يقصد به وجه الله ﷻ كما تضمّنه حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنّيات**».

وقال **الفُضَيلُ بْنُ عياض** في قوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، قال:

«أخْلَصه وأصْوَبه»، وقال:

«إن العمل إذا كان خالصًا و لم يكن صوابًا لم يُقْبل حتى يكون خالصًا وصوابًا».

قال: «والخالص: إذا كان لله ﷻ، والصواب: إذا كان على السّنة».

ويشهد لقول الفضيل: قولُه تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله ﷺ: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**» لما ذكر ﷺ أن الأعمال بحسب النّيات، وأن حظّ العامل من عمله نيّته من خير أو شرّ، وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كلّيتان لا يخرج عنهما شيء، ذكر بعد ذلك مثلاً من الأمثال والأعمال التي صورتهما واحدة ويختلف صلاحها وفسادها باختلاف النّيات، وكأنه يقول: سائر الأعمال على حذو هذا المثال.

وأصل الهجرة: هجران بلد الشرك والانتقال منه إلى دار السلام، كما كان المهاجرون قبل فتح مكة يهاجرون منها إلى المدينة.

فمن هاجر إلى دار الإسلام حُبًا لله ورسوله ورغبة في تعلّم دين الإسلام وإظهار دينه حيث كان يعجز عنه في دار الشرك، فهذا هو المهاجر إلى الله ورسوله حقًا.

ومن كانت هجرته من دار الشّرك إلى دار الإسلام ليطلب دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها في دار الإسلام فهجرته إلى ما هاجر إليه من ذلك، فالأوّل: تاجر، والثاني: خاطب، وليس بواحد منهما مُهاجر.

وفي قوله: «**إلى ما هاجر إليه**» تحقير لما طلبه من أمر الدنيا واستهانة به حيث لم يذكر بلفظه.

وأيضًا: أن الهجرة إلى الله ورسوله واحدة فلا تعدّد فيها، فلذلك أعاد الجواب فيها بلفظ الشّرط، والهجرة لأمور الدنيا لا تنحصر، فقد يهاجر الإنسان لطلب دنيا مُباحة تارة، ومحرّمة تارة، وأفراد ما يُقصد بالهجرة من أمور الدنيا لا تنحصر، فلذلك قال:

«**فهجرته إلى ما هاجر إليه**» يعني: كائنًا ما كان.

وسائر الأعمال كالهجرة في هذا المعنى، فصلاحها وفسادها بحسب النِّية الباعثة عليها كالجهاد والحج وغيرهما[1].

وأمّا النّية بالمعنى الذي ذكره الفقهاء وهو تمييز العبادات، وتمييز العبادات بعضها من بعض، فإن الإمساك عن الأكل والشرب تقع تارة حمية، وتارة لعدم القدرة على الأكل، وتارة تركًا للشهوات لله ﷻ، فيحتاج في الصّيام إلى نيَّة ليتميّز بذلك عن ترك الطعام على غير هذا الوجه.

وكذلك العبادات كالصّلاة والصّيام، منها فرض، ومنها نفل، والفرض يتنوّع أنواعًا، فإن الصلوات المفروضات خمس صلوات، في كل يوم وليلة، والصّيام الواجب تارة يكون صيام رمضان، وتارة يكون كفارة أو نذر، ولا يتميّز هذا كلّه إلا بالنّية.

وكذلك الصّدقة تكون نفلاً وتكون فرضًا، والفرض منه زكاة ومنه كفّارة، ولا يتميّز ذلك إلاّ بالنّية، فيدخل ذلك في عموم قوله ﷺ:

«**وإنما لكل امرئ ما نوى**».

---

(١) للمزيد: راجع صفة «الإخلاص»، وقد تقدّمت.

ومسائل النّية المتعلّقة بالفقه كثيرة جدًّا، وقد قال **الشافعيّ** - رحمه الله - في هذا الحديث:

« إنه يدخل في سبعين بابًا من الفقه ». والله أعلم.

والنِّية: هي قصد القلب، ولا يجب التلفّظ بما في القلب في شيء من العبادات. والله أعلم »ا.هـ.

تنبيه مهم:

بَعْض الجُهّال يستبيح لنفسه النّظر للنساء، فإن قيل له: هذا حرام، قال: إنّي لا أنظر إليهنّ بشهوة، ولكني أتأمّل في خلق الله، والأعمال بالنِّيات!

وآخر: يستبيح مصافحة النساء، فإن قيل له: قد نهى النبيّ عن ذلك[1]، أجابك قائلاً:

« الأعمال بالنّيات »، وأنا نّيتي سليمة!!

ولا يخفى أن محاولة إضْفَاء الشّرعية على المحرمات والمكروهات جهل عريض، وتضليل كبير.

« اللّهم نجّنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن ».



(١) عن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ: « **لأنْ يُطْعَن في رأس أحدكم بمخْيَط من حَديد، خَيْرٌ لَهُ من أن يَمَسَّ امرأةً لا تحِلُّ له** » رواه الطبراني، وقال الشيخ الألباني: « صحيح ». انظر: « الصحيحة » (٢٢٦).

٩٠- تَجَنُّبُ خِصَالِ النّفاق

اعلم - **أخي الكريم** - أن « النِّفاق » سُلَّمٌ يَصْعَد المنافِقُ عليه إلى الكُفْر.

لذا كان الصّحابة - مع عُلوّ مقامهم، وَعُمْق إيمانهم - يتخوَّفون منه.

قال **ابْنُ أبي مُليكة** - رحمه الله - :

« أدركتُ ثلاثين من أصحاب النّبيّ ﷺ كلّهم يخاف النفاق على نفسه!! ».

ولخطورته، أعلن الإسلامُ الحرب عليه، وحذّر الْمُسْلِمَ مِنْ بقاءِ خِصَال النِّفاق فيه، لما يترتب على وجودها واستقرارها من أخطار:

- عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - عن النبيّ ﷺ قال:

« **أَرْبَعٌ مَنْ كُنّ فيه، كان مُنَافِقًا، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منْهُنّ كانت فيه خَصْلَةٌ من النِّفاق حتى يَدَعَها: إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَدَ أَخْلَف، وإذا خَاصَمَ فَجَر، وإذا عَاهَدَ غَدَر** »[1].

قال الحافظُ **ابْنُ رَجَب الحنبلي** - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث[2]:

« قال أهلُ العلم: أن النفاق في « **اللغة** »: هو من جنس الخِداع والمكر وإظهار الخير وإبطان خلافه.

وهو في « **الشّرع** »: ينقسم إلى **قسمين:**

أحدهما: النّفاق الأكبر:

وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وَيُبْطِن ما يُنَاقِض ذلك كله أو بعضه، وهذا هو النّفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن بِذمِّ أَهْلِه وتكفيرهم، وأخبر أن أَهْلَه في الدّرك الأسفل من النار.

---

(١) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨/١٠٦).

(٢) مع حذف وإضافة.

والثاني: **النِّفاق الأصغر**:

وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك.

وأصول هذا النفاق يرجع إلى الخصال المذكورة في هذا الحديث، وفي حديث «صحيح»:

«**آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وَعَد أَخْلف، وإذا ائْتُمِن خَان**» رواه البخاري ومسلم.

وهي - كما ترى - **خَمْس خِصَال**:

أحدهما: إذا حَدَّث كَذَب: وفي «المسند» عن النبيّ ﷺ قال:

«**كَبُرَتْ خِيانة أن تُحدِّث أخاك حَدِيثًا هو لَكَ مُصَدِّق وأنت له كاذِب**»[1].

وقال **الحسن**: «كان يقال: النِّفاق: اختلاف السِّر والعلانية، والقول والعمل، والمدخل والمخرج».

والثاني: إذا وَعَد أَخْلَف: وهو على نوعين:

أحدهما: أن يَعِد ومن نيّته أن لا يُوفي بوعده، وهذا أشرّ الخَلْق، ولو قال: أفعل كذا - إن شاء الله تعالى - ومن نيّته أن لا يفعل: كان كذبًا وخلفًا، قاله الأوزاعي.

النوع والثاني: أن يَعِدَ ومن نيّته أن يَفي ثم يَبْدو له فيخلف: فهو بين **حالتين**:

الأولى: أن يخلف بعذر شرعي، فهذا لا جُناح عليه.

والثانية: أن يخلف بغير عذر، فهذا يُعدّ كَذِبًا، فعن عبد الله بن عامر، قال:

أتى رسولُ الله ﷺ في بيتنا وأنا صبيّ، قال: فذهبتُ أخرج لألْعَب، فقالت أُمّي: يا عَبْدَ الله، تَعَالَ أُعطيك.

---

(١) قال المنذريّ في «الترغيب» (٤٢٠٠): «رواه أحمد عن شيخه عمر بن هارون، وفيه خلاف، وبقية رواته ثقات».

فقال رسولُ الله ﷺ: «**وما أردت أَنْ تُعْطيه؟**».

قالت: أعطيه تمرًا، قال:

فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَمَا إنّك لَوْ لَمْ تُعْطِيه شيئًا كُتِبَتْ عليك كذْبَةٌ**»(١).

والثالث: إذا خاصم فَجَر:

ويعني الفجور أن يخرج عن الحق عمدًا حتى يصير الحق باطلاً والباطل حقًا، وهذا ممَّا يدعو إليه الكذب، كما قال النبيُّ ﷺ:

«**إيّاكم والكَذب، فإن الكذبَ يَهْدي إلى الفجور، وإن الْفُجُور يَهْدي إلى النّار**»(٢).

وقال ﷺ: «**إنكم لَتَخْتَصِمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون أَلْحَن بحجّته من بعض، وإنما أَقْضي على نحو مِمّا أَسْمع، فَمَنْ قَضَيْتُ له بشيءٍ من حَقّ أخيه فلا يأخذْه، فإنّما أقطع له قِطْعَةٍ من النّار**»(٣).

فإذا كان الرجل ذا قدرة عند الخصومة سواء كانت خصومة في الدِّين أو في الدنيا على أن ينتصر للباطل ويخيّل للسامع أنه حقّ ويوهن الحقّ ويخرجه في صورة الباطل كان ذلك من أقبح المحرّمات، وأخبث خصال النفاق.

والرابع: إذا عاهَدَ غَدَر ولم يَفِ بالعهد:

وقد أمر الله - تعالى - بالوفاء بالعهد، فقال:

﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢/٣١٣)، وغيره، وانظر: «الصحيحة» (٧٤٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧/١٠٥).

(٣) رواه البخاري (٢٦٨٠)، ومسلم (١٧١٣/٤).

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر عن النبيِّ ﷺ قال:

«لكلِّ غادر لواء يَوْمَ القيامة يُعْرف به».

الغَدْرُ حَرَام في كلِّ عهد بين المسلم وغيره ولو كان الْمُعَاهد كافرًا:

فعن عبد الله بن عمرو، عن النبيِّ ﷺ قال:

«مَنْ قَتَل نَفْسًا مُعاهدة بغير حقّها لم يرح رائحة الجنّة، وإن ريحها ليوجد من مَسِيرة أرْبعين عامًا»[1].

وقد أمر الله – تعالى – في كتابه بالوفاء بعهود المشركين إذا أقاموا على عهودهم ولم ينقضوا منها شيئًا.

وأمّا عهود المسلمين فيما بينهم، فالوفاء بها أشدّ، ونقضها أعظم إثمًا.

ومن أعظمها: نقض عهد الإمام على من تابعه ورضى به.

ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها، ويحرم الغدر فيها: جميع عقود المسلمين فيما بينهم إذا تراضوا عليها من المبايعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها.

الخامس: الخيانة في الأمانة:

فإذا اؤتمن الرجل أمانة فالواجب عليه أن يردّها.

والآيات والأحاديث الدّالة على ذلك، كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«أدِّ الأمانة إلى مَنِ ائتمنك، ولا تَخُنْ مَنْ خَانك»[2].

---

(١) رواه البخاري (٣١٦٦).

(٢) صحيح رواه البخاري في «التاريخ»، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٢٤٠).

فالخيانة في الأمانة من خصال النّفاق، فاحذر من تبديدها، أو جحدها.

وحاصل الأمر:

أن النّفاق الأصغر كله يرجع إلى اختلاف السريرة والعلانية.

وقال طائفة من السّلف: «خشوع النفاق: أن ترى الجسد خاشعًا، والقلب ليس بخاشع».

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عمر أنه قيل له:

إنا ندخل على سلطاننا فنقول له بخلاف ما نتكلّم إذا خرجنا من عنده، قال:

«كنا نعدّ هذا نفاقًا»[1].

هذا، والنّفاق الأصغر وسيلة إلى النفاق الأكبر كما أن المعاصي بريد الكفر، وكما يُخشى على من أصر على المعصية أن يُسْلب الإيمان عند الموت، كذلك يُخشى على من أصرّ على خصال النّفاق أن يُسْلب الإيمان فيصير منافقًا خالصًا»ا.هـ.

إلهي:

عَلِّق أَطْمَاعَنا بِعَفْوِك، واجْعَلْ عَمَلَنا خَالِصًا لِوَجْهِك. آمين.

۞۞۞۞۞

(١) رواه البخاري (٧١٧٨).

٩١- التقوى

قال **داودُ الطائي** – رحمه الله – : «ما أخرج اللّهُ عبدًا من ذُلّ المعاصي إلى عزّ التقوى، إلاّ أغناه بلا مال، وأعزّه بلا عشيرة، وآنسه بلا بشَر».

وقال **قتادة** – رحمه الله – : «من يتق الله: يكن الله معه، ومن يكن اللّهُ ﷻ معه، فمعه الفئة التي لا تُغْلَب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضلّ»[1].

بهذه الكلمات النّوافع، نبدأ – بإذن الله تعالى – حديثنا عن التقوى.

والحديث عنها يدور حول الأمور التالية:

أولاً: تعريف التقوى.

ثانيًا: حقيقتها.

ثالثًا: الحث عليها من القرآن والسُّنة.

رابعًا: صفات المتقين.

خامسًا: بشارات القرآن للمتقين.

نسأل الله – تعالى – أن يُسْعدنا بتقواه.

أوّلاً: تعريف التقوى:

التقوى «**لغة**»: هي الاسْمُ من قَوْلهم: اتَّقى، والْمَصْدرُ الاتِّقاء، وكلاهما مأخوذٌ من مادّة (و ق ى) التي تدلُّ على دَفْع شيءٍ عَنْ شَيءٍ بغيره، ومعنى قولِهم: «اتَّقِ الله»: تَوَقَّه أي اجْعلْ بَيْنَك وبينه كالوقاية.

و«**اصطلاحًا**»: قال **الحَليميُّ**:

(١) «صفة الصفوة» (٣/١٧٤).

«حقيقة التقوى: فعل المأمور به والمندوب إليه، واجتناب المنهيِّ عنه والمكروه المنزهِ عنه لأن المراد من التقوى:

وقايةُ العبدِ نفْسَه من النار وهو إنّما يَقِي نَفْسَه من النّار بما ذَكَرْتُ»ا.هـ.

وقال **طَلْقُ بْنُ حبيب** - رحمه الله - :

«التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، مخافة عذاب الله»ا.هـ[(1)].

وقال **أبو الدرداء** ﷺ:

«تمام التقوى: أن يتّقي اللهَ العَبْدُ حتى يَتَّقيه مِنْ مِثْقال ذرّة، وحتى يترك بعْضَ ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام»[(2)].

ثانيًا: حقيقة التقوى:

قال الشيخ/ **محمد الغزالي** - رحمه الله - :

التقوى كلمة ابتذلت من طول ما لاكتها الألسن دون وعي، وأرسلتها الأفواه دون تيقظ! مع أنها تعني الضمير الصاحي والقلب المشرق بنور الله، والتقيّ إنسان صلب السلوك تكتنف حياته الرغبة والرهبة أو الرجاء والخوف، وإلى جانب ذلك فهو يحب لله ويكره لله، ويؤيد الحق ويخاصم الباطل، ويفعل ما أمر الله به ويترك ما نهى عنه ويستحيل أن يوصف بالتقوى امرؤ معزول عن الحياة هارب من تكاليفها لا تحتمي به شعيرة من شعائر الله، ولا تنهزم أمامه معصية من معاصيه...

إن التقوى ثمرة عبادة مكتملة، وذاك ما قرره الكتاب العزيز: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧٤١/٣).

(٢) «الدّر المنثور» للسيوطي (٦١/١).

كيف تتم تقوى من غير عبادة؟ كيف يبنى صرح من غير لبنات وأدوات وأثاث ورياش؟

وستنتهي الدنيا بيوم مفزع ولكن الأتقياء لا ينالهم هذا الفزع ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ [ق: ٣١، ٣٢]، وفي تاريخ النبوات، وموقف الأمم من الأديان، يبين الله للناس أنه لا قبول إلا لتقيّ، فردًا كان أو شعبًا، فإن مزاعم الناس في القرب من الله لا تنتهي!.

كل جنس يدعي أنه له عند الله حظوة بماذا؟ ولماذا؟ من أحسن نجا ومن أساء هوى، وقد زعم اليهود أنهم شعب الله المختار!

وزعم النصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وزعم المسلمون مثل ذلك وقال قائلهم:

لما دعا الله داعينا لطاعته ... بأفضل الخلق! كنا أفضل الأمم!!

وموازين العدل الإلهي لا تقبل هذه المجازفات، فإن أمة تشيع فيها الآثام والمظالم ليس لها عند الله وجاهة ولا ينتظر لها غد كريم.

قال تعالى للمسلمين: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

بل إن من أساء - وهو قريب من الوحي - أشد جرمًا ممن أساء وهو جاهل به بعيد عنه... وفي عصرنا الحالي نرى ألوفًا مؤلفة من الناس تلفّها جاهلية طامسة وبُعدٌ سحيق عن الله، لماذا؟ لأنه ليس للإيمان نماذج مغرية بالدخول فيه والانتماء إليه!

إن جماهير من ورثة الوحي تمردت عليه وكسفت شعاعه وقد يخطر لي أن نصف الحيرة والضلالة اللتين تشيعان في الأرض سوف يحمل أوزارهما الكسالى عن الدعوة، والمفرطون في تراث النبوة، والمشوهون لوجه الحقيقة: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والناس يحبون أن ترتفع مكانتهم دون جهد يبذل أو ثمن يدفع، ولذلك يقول أحدهم أنا من أسرة فلان! أو من دولة كذا يحسب أنه بذلك كسب مجدًا أو نال وجاهة، وهذه سيرة لا تصلح بها دنيا ولا آخرة: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وفي عصرنا هذا يحرص البعض على الرياسات والجوائز وشارات السيادة.

والعظمة الحقيقية هي نفس زاكية وعقل سليم ورباط وثيق بالله جل شأنه، والمظهر الفخم على كيان أجوف كالثوب الجميل على جلد أجرب، أو بدن مجذوم!

وفي الحديث: « **ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدِّين أو عمل صالح، حسْبُ الرجل أن يكون فاحشًا بذيئًا بخيلاً** »(١).

أحيانا أرى الرجل يبخل بدريهمات في سبيل الله، ويبذل القناطير المقنطرة كي يتولى منصبًا مرموقًا، هل لهذا عند الله شيء؟

ألا تنطبق عليه الآية: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾؟ [الكهف: ١٠٥].

لقد ابتعد المسلمون عن دينهم الذي يزن العمل بالذرة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وفي القاهرة اليوم نقابة للأشراف الذين ينتسبون إلى الأسرة النبوية المكرمة، وأنا رجل أحب رسول الله وآل بيته، ولكني أجزع من قصر العمل وطول الدعوى، وأذكر قول النبيِّ ﷺ لابنته فاطمة: « **اعملي لا أغني عنك من الله شيئًا** »!.

وفي تاريخنا الأدبي مأثورات تستحق النظر، فإن الشريف الرضيّ يقول للخليفة العباسي مذكِّرًا بعراقته ومكانته:

---

(١) رواه أحمد، وفي رواية زاد: «جبانًا ».

مهــــلا أمــــير المؤمــــنين فإنـــــنا في دوحـــــة العلــــياء لا نـــــتفرق..
إلا الخلافـــــة مـــــيزتك فـــــإنني أنـــا عـــاطل مـــنها وأنـــت مطـــوق!

والمتنبي شاعر العروبة الأكبر كان أبوه سقاء، فلما ماتت أمه قال في رثائها:

فلـــو لم تكـــوني بنـــت أعظـــم والـــد لكـــان أبـــاك الضـــخم كونُـــك لي أمّا

لِمَ هذا كله؟ أليس أفضل منه وأصدق قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠] »ا.هـ[١].

ثالثاً: الحث على التقوى من القرآن والسنة:

ورد الحثّ على التقوى في آيات وأحاديث كثيرة، منها:

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

(٢) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

عن **ابْنُ مسعود** ﷺ: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ قال: «أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنْسى، وأن يشكر فلا يُكْفر»[٢].

(٣) وعن أنس، قال:

جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّي أُريد سَفَرًا فزوّدني.

قال: «**زَوَّدَكَ اللّهُ التقوى**».

قال: زدني.

---

(١) «كنوز من السّنة» (١٠٠- ١٠٣) «مكتبة الأسرة».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥٧٩/١)، ورواه ابن أبي حاتم، وقال ابن كثير: إسناد صحيح موقوف.

قال: «**وغفر ذنبك**».

قال: زدني بأبي أنت وأمي.

قال: «**ويسّر لك الخَيْرَ حَيْثُما كُنْت**»(١).

(٤) وعن أبي سعيد، عن النبيّ ﷺ قال:

«**لا تصاحبْ إلاّ مؤمنًا، ولا يأكل طعامَك إلاّ تَقِيٌّ**»(٢).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

رابعًا: صفات المتقين:

وصف اللّهُ - تعالى - المتقين بصفات عديدة، وفي مواطن من القرآن، منها:

- **الموطن الأول:** قوله - تعالى - :

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١- ٥].

- **والموطن الثاني:** قوله - تعالى - :

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

(١) حسن رواه الترمذي (٣٤٤٤)، وحسنه الحافظ ابن حجر ومحقق «جامع الأصول».
(٢) حسن رواه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه، وهو كما قال.

□ **الموطن الثالث**: قوله تعالى:

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٦].

□ **الموطن الرابع**: قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥- ١٩].

خامساً: بشارات القرآن للمؤمنين:

اعلم: أن القرآن الكريم بَشّر المؤمنين ببِشارات عديدة، منها:

□ **البشارة الأولى: العَوْنُ والنُّصْرَة:**

قال تعالى: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

□ **البشارة الثانية: العلم والحكمة:**

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

□ **البشارة الثالثة: التوسعة في الرزق:**

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

«فيا مفتحًا أبواب المعاش بغير مفتاح التقى، كيف توسع طريق الخطايا وتشكو ضيق الرزق. لو اتَّقَيْتَ ما عسر عليك مطلوب، مفتاح التقوى يقع على كُل باب، ما دام الْمُتَّقِي على صفاء التَّقُى لا يَلْقى إذن أذَىَ، فإن انحرف عن التُّقى الْتَقَى بالكَدَر، فلمّا توليتم عَنَّا تولينا... لا تزال بحار النّعم على الْخَلْق في الزّيادة. ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وَيْحَك إنّما خَلَتْ الدنيا لك، أَفَيْبخَل عليك بما هو ملكك، إنما في طبعك شرَه، والحميَّة أوفق.

يا أعزّ المخلوقات علينا ارْض بتدبيرنا»[1].

- **البشارة الرابعة: تسهيل الأمور:**

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

قال العلامة **السّعدي** - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية:

«أي: من اتقى الله تعالى، يسَّر له الأمور، وسهّل عليه كلّ عسير»ا.هـ[2].

- **البشارة الخامسة: مغفرة الذنوب:**

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

قال العلامة **السّعدي** - رحمه الله - :

«أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب»ا.هـ[3].

- **البشارة السادسة: كفاية الله تعالى:**

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

---

(١) «اللطائف في الوعظ» لابن الجوزي (١١٩).

(٢) «تفسير السّعدي» (٨٧١).

(٣) نفس المصدر السابق.

أي: كافيه.

قال **الرَّبيعُ بْنُ خُثَيْم** - رحمه الله - :

« إنّ الله - تعالى - قَضَى على نفسه: أن مَنْ توكّل عليه كَفَاه، ومن آمن به هَدَاه، ومن أقرضه جازاه، من وَثَق به نَجَّاه، ومن دَعاه أَجَاب له ».

□ **البشارة السابعة: التوفيق ونيل الرحمة:**

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

□ **البشارة الثامنة: قبول الأعمال الصالحة:**

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وكان بعض السّلف يقول: لو أعلم أن الله تقبّل مني ركعة لاستبشرتُ، لأنه تعالى قال:

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾.

□ **البشارة التاسعة: حفظ الأولاد والأموال بعد الموت:**

قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

حكاية:

حكى الشيباني، قال:

« كنا على قُسطنطينية في عسكر « مسلمة بن عبد الملك »، فجلسنا يومًا في جماعة من أهل العلم فيهم ابْنُ الدَّيْلَميّ، فتذاكروا ما يكون من أهوال آخر الزمان.

فقلت له: يا أبا بِشْر، وُدِّي ألا يكون لِيَ وَلدٌ.

فقال لي: ما عليك! ما مِنْ نَسَمَة[1] قَضَى اللّهُ بخروجها من رجل إلاّ خَرَجت، أحَبّ أو كَرِه، ولكن إذا أردتَ أن تأمن عليهم فاتّق الله في غيرهم؛ ثم تلا:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

وفي رواية:

«ألا أدُلّك على أمْرٍ إن أنتَ أدركته نجّاك اللّهُ منه، وإن تَرَكْتَ ولدًا من بعدك حفظهم اللّهُ فيك؟ فقلتُ: بلى. فتلا الآية»[2].

- **البشارة العاشرة: النّجاة من النار:**

قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

- **البشارة الحادية عشرة: الفوز بالجنة:**

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

أخي المسلم:

هذه بعضُ بشارات القرآن للمتقين:

فاسْلُك طريق المتقين	**وَظُنّ خَيْرًا بالكريم**
واذْكُرْ وقوفك خائفًا	**والنّاسُ في أمْر عظيمْ**
إمّا إلى دار الشقاوة	**أو إلى العِزّ المقيمْ**

(١) **النسمة**: الروح.

(٢) «تفسير القرطبي» (٥/٤٦).

فاغْــــــنَمْ حــــــياتك واجْــــــتَهِد وَتُــــــب إلى الـــــرَّبِّ الرّحــــــيمْ

واعلم - **يا أخي** - أن العبد لن يكون تقيًّا حتى يعلم من أين مَلْبَسُه وَمطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ.

قال **ميمونُ بن مِهْران** - رحمه الله - :

«لا يكون الرجلُ تَقيًّا حتى يكونَ لنفسه أشدَّ محاسبةً من الشَّريك لشريكه، وحتى يعلم من أين مَلْبَسُهُ ومطعَمُهُ ومَشْرَبُهُ».

ولله دَرُّ يَحْيى بن مَعين حين قال:

المـــــالُ يَذْهـــــبُ حِلّـــــهُ وَحَـــــرامُهُ يَوْمًـــــا وتَـــــبْقى غَـــــدًا آثامُـــــهُ

لـــــيس الـــــتقِيَّ بُمـــــتَّقٍ لإلهـــــه حـــــتى يَطِيـــــبَ شَـــــرابُهُ وطعامُـــــهُ

وَيَطيـــــب مـــــا يَحْـــــوِي وتكسَـــــبَ كَفُّهَ ويكـــــونَ في حُسْـــــنِ الحديـــــث كَلامُـــــهُ

نَطَـــــق الـــــنَّبيّ لـــــنا بـــــه عَـــــنْ رَبِّـــــه فعـــــلى الـــــنبيِّ صَـــــلاتُه وســـــلامُهُ

هذا، واللّهُ الموفق لما يُحبّ ويرضى.

۞۞۞۞۞

٩٢- الجِهَادُ

قال **أحمدُ بْنُ إبراهيم** - رحمه الله - : نَظَر يونسُ بْنُ عُبَيْد - رحمه الله - إلى قَدَمَيْه عند مَوْته فبكى.

فقيل له: ما يبكيك؟

قال: «قَدَماي لم تُغَبَّرا في سبيل الله!»[١].

وهذا النّدم لا يكون إلاّ على شيءٍ كبيرِ القَدْر، عظيمِ الأَجْر، وأَصْدَق ما يكون المسلم عند موته:

- فما هو الجهاد؟
- وما هي فضائله؟
- وما هي مَرَاتبه؟
- وما حُكْمه؟

هذا ما سوف نتناوله بالشّرح على السطور التالية إن شاء اللّهُ تعالى:

أوّلاً: تعريف الجهاد:

الجهاد «**لُغَةً**»: مِثْلُ الْمُجَاهدة مَصْدَرُ قَوْلهم جَاهَد يُجَاهد، وذلك مأخوذٌ مِنْ مَادَّة (ج هـ د) التي تدلّ في الأصل على المشقّة[٢].

و«**اصطلاحًا**»: قال **الرّاغبُ**:

«الجهادُ والمجاهَدَةُ: استِفْراغُ الْوُسْعِ في مُدَافَعة الْعَدوّ»ا.هـ[٣].

---

(١) «الحلية» (١٩/٣).

(٢) «نضرة النعيم» (١٤٨١/٤).

(٣) «المفردات» (١٠١).

ثانيًا: فضائل الجهاد:

ورد في فضل الجهاد في سبيل الله آيات وأحاديث كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

(٢) وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

(٤) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

(٥) وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد: ٤- ٦].

ومن الأحاديث:

(١) عن أبي هريرة ﵁ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«تَكَفَّلَ اللّهُ لِمَنْ خَرَجَ في سبيله، لا يُخرِجُه إلاّ جهادٌ في سَبيلي، وإيمانٌ بي، وتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، فهو عليَّ ضَامِنٌ أن أُدْخِله الجنّة، أو أَرْجِعَه إلى منزله الذي خرج منه بِمَا نال من أَجْرٍ، أو غنيمة.

والذي نفسُ مُحمّد بيده، ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيل الله إلاّ جاءَ يَوْمَ القِيامة كهيئته يَوْمَ كُلِمَ. لَوْنُه لَونُ دَمٍ، وريحُهُ ريحُ مِسْكٍ.

والّذي نفسُ محمّد بِيَده، لولا أن يَشُقَّ على المسلمين ما قَعَدْتُ خِلافَ سَرِيّة تَغْزو في سبيل الله أبدًا. ولكن لا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُم، ولا يجدون سَعَةً، ويَشُقُّ عَلَيْهم أن يتخلّفوا عَنّي.

والّذي نفسُ مُحمّد بِيَده لوددْتُ أن أَغْزو في سَبيل الله فَأُقْتَلَ، ثم أَغْزُو فَأُقْتَل، ثم أغْزُو فَأُقْتَل »[1].

(٢) وعن بُريدةﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ : « حُرْمَةُ نساءِ المجاهدين على القاعدين كَحُرْمَةِ أُمَّهاتِهم. وَمَا مِنْ رَجُلٍ من القاعدين يَخْلُفُ رجُلاً من المجاهدين في أَهْله فَيَخونُهُ فيهم، إلاّ وَقَفَ له يَوْمَ القِيامة، فيأخذُ مِنْ عَمَلِه ما شاء، فَمَا ظَنُّكُم؟ »[2].

(٣) وعن أبي هريرةﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

« إنّ في الجنّة مائةَ دَرَجةٍ أعَدَّها اللّهُ للْمُجاهدين في سبيل الله، ما بَيْن الدَّرَجَتَيْن كما بَيْن السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألتم الله فأسلوه الفِرْدَوْس فإنّه أَوْسَطُ الْجَنَّة، وأعْلى الْجنّة، وَفَوْقَه عَرْشُ الرّحْمن، ومنه تَفَجَّر أَنْهارُ الجنّة »[3].

(٤) وعن أبي عَبْس عبدِ الرَّحْمن بن جَبْر، أن رسولَ الله ﷺ قال:

« ما اغْبَرّتا قَدَما عَبْدٍ في سبيل الله فَتَمَسَّهُ النّارُ »[4].

(٥) وعَنْ زَيْد بْن خالد الجُهنيﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) رواه البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦).

(٢) رواه مسلم (١٨٩٧)، والمعنى: أن هذا في شيئين: أحدهما: تحريم التعرّض لهنّ بريبة من نَظَر مُحرّم وخلوة وحديث مُحرّم وغير ذلك، والثاني: في برّهن والإحسان إليهنّ وَقضاء حوائجهن التي لا يترتب عليها مفسدة ولا يتوصّل إليها ريبة ونحوها.

(٣) رواه البخاري (٢٧٩٠).

(٤) رواه البخاري (٢٨١١).

«مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا في سبيل الله فقد غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا في أَهْلِه بِخَيْرٍ فقد غَزَا»(١).

(٦) وعن أنس رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ طَلَبَ الشَّهادةَ صَادِقًا أُعْطِيَها وإن لم تُصِبْه»(٢).

(٧) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«يُغْفَرُ لِلشَّهِيد كُلُّ ذَنْبٍ إلاّ الدَّيْن»(٣).

ثالثاً: مراتب الجهاد:

قال الإمام **ابن القيم** - رحمه الله - :

«ولما كان جهاد أعداء اللهِ في الخارج فرعًا على جهادِ العبد نفسه في ذاتِ اللهِ، كما قال النبيُّ ﷺ:

«المجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَةِ الله، والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَى الله عنه»(٤).

كان جهادُ النفس مُقدَّمًا على جِهَاد العدوِّ في الخارِج، وأصلاً له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أوَّلاً لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا في الله، لم يُمكنْهُ جهادُ عدوه في الخارج، فكيف يُمكنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلى عدوِّه،

---

(١) رواه مسلم (١٨٩٥).

(٢) رواه مسلم (١٩٠٨).

(٣) رواه مسلم (١٨٨٦).

(٤) صحيح: رواه أحمد (٢١/٦)، وابن حبان (٤٨٦٢)، والحاكم (١١/١)، والطبراني في الكبير (٣٠٩/١٨) من حديث فضالة بن عبيد بلفظ: قال رسول الله ﷺ في حَجَّة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَنْ أَمِنَه النّاسُ على أموالهم وأنفسهم، والمسلم: من سَلِم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد: من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر: من هَجَر الخطايا والذنوب».

حتى يُجاهِدَ نفسَه على الخروج.

فهذان عدوَّانِ قد امتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخذِّله، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخيِّل له ما في جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظوظ، وفوتِ اللذات، والمشتهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهِدَ ذَيْنِكَ العدويْنِ إلا بجهاده، فكان جهادُه هو الأصلَ لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدوًا تنبيه على استفراغ الوُسع في مُحاربته ومجاهدته، كأنَّهُ عدو لا يَفتُر، ولا يُقصِّر على محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمِرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه امتحانًا من الله له وابتلاء، فأعطى اللّهُ العبدَ مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجِهَادِ، وأعطى أعداءه مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسِلاحًا، وبَلاَ أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضَهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم، ويمتحِنَ من يَتولاَّه، ويتولَّى رسُلَهُ ممن يتولَّى الشيطانَ وحِزبه، كما قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ ﴾ [محمد: ٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١].

أعطى عباده الأسماعَ والأبصارَ، والعُقول والقُوى، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأرسلَ إليهم رسُلَه، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم:

﴿ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو مِن أعظم العونِ لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا

منصورين على عدوه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطَه عليهم، فلتركهم بعضَ ما أُمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يُؤَيِّسْهُم، ولم يُقنِّطْهُمْ، بل أمرهم أن يستَقْبلوا أمرهم، ويُداووا جِرَاحَهُم، ويَعُودوا إلى مُناهضةِ عدوهم فينصرَهم عليهم، ويُظفرَهم بهم، فأخبرهم أنه معَ المتقين منهم، ومعَ المحسنينَ، ومع الصابرين، ومعَ المؤمنين، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوِّهم، ولولا دفاعُه عنهم، لتخطّفهم عدوُّهم، واجتاحهم...

وهذه المدافعةُ عنهم بحسب إيمانِهم، وعلى قَدْرِه، فإن قَوِيَ الإيمانُ، قويتِ المُدافعة، فمن وجد خيرًا، فليحمَدِ الله، ومن وجد غيرَ ذلكَ، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وأمرهم أن يجاهدوا فيه حقّ جهاده. واختلفت عباراتُ السّلف في حقّ الجهاد:

فقال **ابْنُ عَبّاس**: هو استفراغُ الطاقة فيه، وألا يخاف في الله لومة لائم.

وقال **مُقاتل**: اعملوا لله حقّ عمله، واعبدوه حقّ عبادته.

وقال **عبدُ الله بْن المبارك**: هو مجاهدةُ النّفس والهوى.

إذا عرف هذا، **فالجهاد أربع مراتب**: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفّار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربعُ مراتب أيضًا:

إحداها: أنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت في الدَّارين.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعْها.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِه مَنْ لا يعلمهُ، وإلا كان من الذين يكتُمون ما أنزل الله مِن الهُدى والبينات، ولا ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كلَّه لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الرَّبَّانِيينَ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ

على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربانيًا حتى يعرِفَ الحقّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه، فمن علم وَعَمِلَ وعلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيمًا في ملكوتِ السماوات.

وأما جهادُ الشيطان، فمرتبتان: إحداهما: جهادُه على دفع ما يُلقي إلى العبد مِن الشبهات والشُّكوكِ القادحة في الإيمان. **الثانية**: جِهادهُ على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهواتِ، فالجهادُ الأول يكون بعدة اليقين، والثاني يكون بعدَة الصبر. قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهواتِ والإرادات الفاسدة، واليقينُ يدفع الشكوكَ والشبهات.

وأما جهادُ الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللِّسان، والمالِ، والنفسِ، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان.

وأما جهادُ أرباب الظلم، والبدعِ، والمنكرات، فثلاث مراتبَ:

الأولى: باليد إذا قَدَرَ، فإن عَجَزَ، انتقل إلى اللسان، فإن عَجَزَ، جاهد بقلبه، فهذه ثلاثةَ عشرَ مرتبةً من الجهاد، و « **مَنْ مَاتَ وَلَم يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ** »[1]ا.هـ[2].

رابعًا: حُكم الجهاد:

جهادُ النّفس في ذاتِ الله تعالى وجهادُ الشّيطان فَرْضُ عَيْنٍ لا ينوب فيه أحدٌ عن أحد.

أما جهادُ الكفّار والمنافقين ومن في حُكمهم من أهل البدع، فهو فَرْضُ كفاية، قد

(١) رواه مسلم (١٩١٠)، وأبو داود (٢٥٠٢)، والنسائي (٣٠٩٩).

(٢) «زاد المعاد» (٦/٣ - ١١) باختصار.

يُكْتَفى فيه ببعض الأُمَّة إذا حَصَلَ منهم مقصود الجهاد.

وأكمل الْخَلقْ عند الله تعالى من كَمَّل مراتِبَ الجهاد كُلَّها، وهم مُتَفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في هذه المراتب.

فجاهد - **يا أخي** - نفسك لتصل إلى أكمل هذه المراتب.

وإذا كانت النّفوسُ كِبارًا تَعبت في مُرادِها الأَجْسَام

وانظر إلى حال أهل الآخرة لترى العَجَب.

العَجَب في همَمهم.

والعَجَب في حُبِّهم لكل عمل فيه مرضاة ربِّهم.

كان الواحد منهم: يحب الخيرَ وأهله، إن قدر على شيء منه سارع إليه، وإن فاته حَنّ إليه.

والحديث عن أحوالهم وأقوالهم في هذا الأمر يطول، ويكفي ذِكْر ما يلي:

- كان عليّ بن عبد الله بن حمدان «سيف الدولة» - من المجاهدين - ، قاد المسلمين في عدّة غزوات، أذلّ فيها الشّرك وأهله.

ماذا فعل هذا المجاهد؟

اسمع:

جمع من نَفْض الغُبار الذي اجتمع عليه من غَزَواته شيئًا، وعمله لَبِنَةً بمقدار الكَفِّ، وأوصى أن يوضع خَدّه عليها في لَحْده، فَنُفِّذت وصيّته.

- وهذا عَلْباء بن جَحش العجليّ - رحمه الله - وقصّة جهاده العجيب:

«برز رجلٌ من المجوس - في معركة القادسية - أمام الصفوف، ونادى:

من يبارز؟ فخرج له «علباء» فنفحه[1] علباءُ فأصابه في صدره وشق رئته، ونفحه

(١) **النفح**: الضّرب إلى خارج اليمين.

الآخر فأصابه في بطنه فانتثرت أمعاؤه، وسقطا معًا إلى الأرض.

أمّا المجوسي: فمات من ساعته، وأمّا علباء فلم يستطع القيام، وحاول أن يُعيد أمعاءه إلى مكانها فلم يتأت له، ومر به رجل من المسلمين، فقال له علباء:

يا هذا أعني على بطني.

فأدخل له أمعاءه، فأخذ بصفاقيه، ثم زحف نحو صفّ العجم دون أن يلتفتَ إلى المسلمين وراءه، فأدركه الموتُ على ثلاثين ذراعًا من مَصْرعه وهو يقول:

أرجـــو بهـــا مـــن ربَّـــنا ثوابًـــا قـــد كنـــتُ ممّـــن أحْسَـــن الضِّـــرابا

وفاضت نَفْسه[1]!

بهذه العزائم الفولاذية - بعد الإيمان - دكّوا عروش الطغاة، وأخمدوا أنفاس الباطل.

ولله دَرُّ محمد إقبال حين قال - في وصفهم - :

مَنْ ذَا الذي رفع السّيوف ليرفع اسْمك
فَـــوْق هامـــات الـــنّجوم مـــنارا
كُـــنا جِـــبالاً في الجـــبال وَرُبّمـــا
سِـــرْنا عـــلى مَـــوْج الـــبِحار بحـــارا
بمعـــابد الإفـــرنج كـــان أذانـــنا
قـــبل الكتائـــب يَفْـــتح الأمصـــارا
لم تـــنس أفريقـــيا ولا صَـــحراؤها
سَـــجَداتنا والأرْضُ تَقْـــذف نـــارا
كُـــنَّا نُقـــدِّم للســـيوف صـــدورنا
لم نَخْـــشَ يومًـــا غاشمًـــا جَـــبّارا
وكـــأنّ ظِـــلّ السّـــيف ظِـــلّ حديقـــة
خضـــراء تنبـــت حَوْلهـــا الأزهـــارا

(١) «تاريخ الطبري» (٣/٥٤٦).

لم نخـــش طاغوتًـــا يُحَارِبـــنا ولـــو
نُصَـــب المـــنايا حولـــنا أســـوارا

ندعـــو جهـــارًا لا إلـــه سِـــوى الذي
خَلَـــق الوجـــود وَقَـــدَّر الأقـــدارا

ورؤوســـنا يـــا رب فـــوق أكفّـــنا
نـــرجو ثوابـــك مَغْـــنمًا وجـــوارا

كُـــنّا نـــرى الأصنام من ذَهَب فنهدمها
ونهـــدم فَوْقهـــا الكفّـــارا

لـــو كـــان غـــير المســـلمين لحازهـــا
كَـــنزا وصـــاغ الْحُلِـــيّ والدِّيـــنارا

نعم - **أيها المسلمون** - كانوا رجالاً والرجال قليل، فجزاهم الله عنا وعن الإسلام كل خير.

فتشـــبّهوا إن لم تكونـــوا مِثـــلهم
إن التَّشَـــبُّه بالـــرِّجال فـــلاح



٩٣- جهادُ النَّفس

اعلم - أخي الكريم - أن الله تعالى قائمٌ على كُلِّ نَفْس بما كسبت، محاسبٌ على النقير والقِطْمير، والقليلِ والكثيرِ من الأعمال، وإن خَفيَتْ.

فَمن جاهد نفسه، وألزمها طريقَ الاستقامة فهو الرّابح النّاجي، ومن أهمل مجاهدتها، وأعانها على غَيِّها فهو الخاسر الغاوي.

ولأن «مجاهدة النفس» طريق الفلاح، فالحديث هنا يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف مُجاهدة النفس.

والثاني: أنواع النفس.

والثالث: النفس التي يجب مجاهدتها.

والرابع: كيفية المجاهدة.

والخامس: صور ومواقف من حياة أهل المجاهدة.

وأسأل الله - تعالى - التوفيق لطاعته.

أوّلاً: تعريفُ مُجَاهدة النّفَس:

قال المناويُّ - رحمه الله - :

«قيل: المجاهدة: هي حمل النّفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى، وقيل: هي بذل المستطاع في أمر المطاع (أي المولى ﷻ)» ا.هـ[1].

وقيل: هي محاربة النّفس الأمّارة بالسوء بتحميلها ما يشقّ عليها بما هو مطلوب في الشّرع.

---

(١) «التوقيف» (صـ٢٧).

فيا أخي:

يـا خـادم الجسـم كم تَشْقى لِخِدْمَته ... أتطلـبُ الـرِّبْحَ مِمّـا فيه خُسْـران
أقْبِلْ عـلى النّفْس واستكمل فضائلها ... فأنـت بالـنفس، لا بالجسم إنسـان
وامْـدد يَدَيْـك بحَـبْلِ الله مُعْتَصِـمًا ... فإنّـه الـرّكْنُ إنْ خَانَـتْك أركـانُ

ثانيًا: أنواع النّفس:

تنقسم النّفس إلى **ثلاثة أنواع**:

الأول: النّفْسُ الأمَّارة:

وهي التي تميل إلى الطّبيعة البدنية وتأمر باللّذات والشهوات الحسّية، وتجذب القلب إلى الجهة السُّفْلية، فهي مأوى الشّرور، ومنبع الأخلاق الذّميمة.

وهذه هي النّفس التي يَجبُ مجاهَدتُها.

وله دَرُّ البوصيري حين قال[1]:

فـإنّ أَمّـارَتِي بالسُّـوءِ مـا اتّعَظَـتْ ... مِـنْ جَهْلِهـا بـنذيرِ الشَّـيْب والهِـرَمِ
ولا أَعَـدَّتْ مِـن الفِعْـل الجميلِ قِرَى ... ضَـيْفٍ أَلَـمَّ بِرَأْسِـي غـيْرَ محْتَشِـمِ
لـو كنـتُ أَعْلَـمُ أنّـي مـا أُوَقِّـرُهُ ... كتمـتُ سِـرًّا بَـدَا لي مِـنه بالكَـتَمِ
مَـنْ لِـي بِـرَدِّ جِمَـاحٍ مِـنْ غَوَايَتِها ... كمـا يُـرَدُّ جِمَـاحُ الخَـيْلِ بـاللُّجُمِ
فـلا تَـرُمْ بالمَعاصِـي كَسْـر شَهْواتِها ... إنَّ الطَّعـامَ يُقَـوِّي شَـهْوَةَ الـنَّهِمِ

---

(١) هذه الأبيات من «بُرْدة المديح» وهي من أجود ما قال، لكن بها عدّة أبيات فيها مخالفة بيِّنة للعقيدة، فتنبّه.

والـنَّفْسُ كـالطِّفْلِ إن تُهْمِلْهُ شَبَّ على ... حُـبِّ الرَّضَـاعِ وإن تَفْطِمْـهُ يَـنْفَطِمِ
فاصْـرِفْ هَوَاهـا وَحـاذِر أن تُولِّـيَهُ ... إن الهـوى مـا تَولَّـى يُصْـمِ أَوْ يَصِمِ
وراعِهَـا وهـي في الأعمـال سَـائِمَةٌ ... وإن هـي اسْـتَحَلَّتِ الْمَـرعَى فلا تُسِمِ
كـم حَسَّـنَتْ لـذَّةً لِلْمَـرءِ قاتِلـةً ... مـن حَيْـثُ لم يَـدْرِ أن السُّمَّ في الدَّسَمِ
وخـالف الـنَّفْسَ والشَّيْطان واعْصِهِما ... وإن مَحَّضَـاك النُّصْـحَ فـاتَّهِم
ولا تُطِـعْ مـنهما خَصْـمًا ولا حَكَمًا ... فأنـتَ تَعْـرِفُ كَـيْدَ الْخَصْمِ والْحَكَمِ

النوع الثاني: النفس اللَّوامة:

وهي التي تَنوَّرتْ بنور القلب قدر ما تنبَّهت به عن سِنَة الغَفْلة، وكلّما صدرت عنها سيِّئة بِحُكْمِ جبِلَّتِها أخذت تلوم نَفْسَها.

وهذه هي النّفس التي أقسم اللّهُ تعالى بها في سورة « القيامة »:

قال جلّ وعلا: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ١، ٢].

النوع الثالث: النَّفس المطمئنة:

وهي التي تم تنوّرها بنور القلب، حتى انخلعت عن صفاتها الذّميمة وَتَخلّقت بالأخلاق الحميدة.

وهذه هي النفس التي مدحها اللّهُ - تعالى - في سورة « الفجر »:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

ثالثًا: النَّفْسُ التي يجب مجاهدتها:

لا شكّ أن كُلاً من النّفس المطمئنة واللّوامة، لا يصدر عنهما إلاّ الأخلاق الحميدة، فعن النّفس الأولى يكونُ اليقين والطمأنينة والخشوع والإخبات ونحو ذلك من الصفات الحميدة.

أمّا النفس اللّوّامة فإنها مبعث التوبة والاستغفار والإنابة ونحوها، ولا يَتَبَقّى سوى النّفس الأمارة بالسّوء، وهي منبع الشرور، وأساس الأخلاق الذميمة من الْحَسَد والكِبْر والغَضَب والعُدوان ونحو ذلك[1].

وهذه النّفس - الخبيثة - هي التي يجب مجاهدتها، واقتلاع شجرة الشّر منها.

رابعًا: كيفية مجاهدة النفس:

قال الإمامُ **القُشَيْريّ** - رحمه الله - :

«أصل مجاهدة النفس: فَطْمُها عن المألوفات، وحَمْلُها على غير هواها.

وللنّفس صِفتان: انهماكٌ في الشهوات، وامتناعٌ عن الطاعات، فالمجاهدةُ تقع بحسب ذلك.

قال بعض الأئمة: جهاد النّفس داخل في جهاد العدوّ، فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس لأنها تدعو إلى اللّذات المفضية إلى الوقوع في الحرام الذي يُسْخِطُ الرَّبَّ، والشيطانُ هو المعين لها على ذلك ويُزيِّنُهُ لها. فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدة نفسِه حملها على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.

وإذ قوي العبدُ على ذلك سهُل عليه جهادُ أعداء الدين.

فالأوّل: الجهادُ الباطن.

والثاني: الجهادُ الظاهر.

---

(١) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ (١٥).

وجهاد النفس **أربعُ مَرَاتب**:

حملُها على تعلّم أمور الدِّين.

ثمّ حملُها على العَمَل بذلك.

ثمّ حَمْلُها على تعليم مَنْ لا يَعْلَمُ.

ثُم الدّعاء إلى توحيد الله، وقتالِ مَنْ خَالف دينه وَجَحَد نِعَمَهُ.

وأقوى المعين على جهاد النّفس: جهادُ الشيطان بدفع ما يُلْقَى إليه من الشُّبهة والشّك، ثم تحسين ما نُهِي عنه من المحرّمات، ثم ما يُفَضي الإكثارُ منه إلى الوقوع في الشُّبهات، وتمام المجاهدة: أن يكون متيقّظًا لنفسه في جميع أحواله، فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانُهُ ونفسُهُ إلى الوقوع في المنهيات وبالله التوفيق»ا.هـ[1].

«فيا مَقْهورًا بغلبة النفس، صُلْ عَليها[2] بِسَوْط العزيمة فإنها إن عرفت جدّك اسْتأسَرت[3] لك، وامنعها ملذوذ مباحها، ليقع الاصطلاح على ترك الحرام، فإذا صبرت على ترك المباح، ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد: ٤]، الدنيا والشيطان خارجان عنك، والنّفس عدوّ مبطن، ومن أدب الجهاد:

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾ [التوبة: ١٢٣].

إن مالت إلى الشهوات فألجمها بلجام التقوى.

وإن أعرضت عن الطاعات فَسُقْها بِسَوْط المجاهدة.

وإن استحلّتْ شرابَ التّواني، واستحسَنَتْ ثَوْبَ البطالة فصحْ عليها بِصَوْت العزم، فإن رَمَقَتْ نَفْسَها بعين العُجْب، فذكّرها خساسة الأصل[4]، فإنك والله ما لم تجد مرارة

---

(١) «فتح الباري» (١١/٣٤٥، ٣٤٦).

(٢)صُل : صال عليه أي: سطا عليه ليقهره.

(٣)استأسرت لك : استسلمت لأَسْرِك.

(٤) أصل الإنسان من تراب، ثم من ماء مَهِين.

الدّواء في حَلْقك، لم تقدر على ذروة من العافية في بدنك.

فيا حِزْب التُّقى تسلَّحوا بسلاح العزائم، وادخلوا عليها الباب.

النّفْس مثل كَلْب السّوء، متى شَبع نام، وإن جاع بَصْبَص[(١)].

كان أحد السَّلف إذا قهر نفسه بترك شهوة أقبل يهتزّ اهتزاز الرّامي إذا قرطس[(٢)].

إذا قوى عزم المجاهدة لان له الأعداء، بلا حرب.

لمّا قويت مُجاهدةُ نبيِّنا ﷺ تعدت إلى كلّ تعدّى، فأسلم شيطانه[(٣)].

«اللّهم دُلّنا على قَهْر نفوسنا التي هي أقرب أعدائنا إلينا، وأكثرهم نِكَاية فينا»[(٤)].

خامسًا: صور ومواقف من حياة أهل المجاهدة:

عرف الصالحون فضل مجاهدة النفس، فحملوها على الاستقامة - طوعًا وكرهًا - فعطّروا صحائف أعمالهم، وفاح عبيرُ إخلاصهم، وهذه بعض أقوالهم وأحوالهم:

- قال ابن اسحاق: «قدم علينا عَبْدُ الرّحمن بن الأسود[(٥)] حاجًّا، فاعْتَلّت رِجْلُه، فَصَلّى على قَدَمٍ حتى أصْبح»[(٦)].

  وعن الحكم: أن عبد الرحمن بن الأسود لمَّا احْتُضِرَ، بكى، فقيل له؟ فقال: «أسفًا على الصَّلاة والصوم». ولم يزل يتلو حتى مات[(٧)].

- وعن عثمان بن أبي العاتكة، قال:

---

(١) بصبص: أي: حرّك ذَنَبَه طَمَعًا أو خوفًا.

(٢) قرطس: أي أصاب القرطاس.

(٣) هذا معنى حديث «صحيح» رواه أحمد (١١٥/٦) عن عائشة- فيه إسلام شيطان النبيّ ﷺ - حيث قال لعائشة: «ولكن ربّي ﷻ أعانني عليه حتى أسْلم». والشيطان هنا: القرين الملازم لكل إنسان.

(٤) «اللطائف في الوعظ» لابن الجوزي (٣٥، ٣٦).

(٥) من خيار التابعين.

(٦) «السِّير» (١٢/٥).

(٧) نفس المرجع.

«عَلّق أبو مسلم الخولاني[١] سَوْطًا في المسجد، فكان يقول: «أنا أَوْلى بالسَّوْط من البهائم!!» ، فإذا فَتَر، مَشَقَ[٢] ساقَيْه سَوْطًا أو سَوْطين!!، وكان يقول:

«لو رأيتُ الجنة عيانًا، أو النّار عيانًا، ما كان عندي مُسْتزاد».

- وقال الإمام الذهبي - رحمه الله - في ترجمته للسَّيدة العالمة العابدة: معاذة بنت عبد الله العدوّية - أم الصَّهباء - :

«بلغنا أنها كانت تُحْيي اللّيل عبادةً، وتقول: عجبتُ لِعَيْن تنام، وقد عَلِمَت طولَ الرُّقاد في ظُلَم القبور»[٣].

أخي المسلم:

هذه بعض مجاهداتهم التي عَطَّروا بها صَحَائف أعمالهم، ونوَّروا بها قُبورهم، واستَحلَبُوا بها رَحْمة رَبِّهم، فجاهد نَفْسك كما جاهدوا، واعلم أن العيش عيش الآخرة، واستعن بالله ولا تعجز:

يا خادم الجسم كم تَشْقى لخِدْمَته ... أتطلبُ الرِّبْحَ مِمّا فيه خُسْران؟
أقْبِلْ على النّفْس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس، لا بالجسم إنسان
وامْدد يَدَيْك بحَبْلِ الله مُعْتَصِمًا ... فإنّه الرّكْنُ إنْ خانَتْك أركانُ

«اللّهم أَعِنَّا على ذِكْرِك، وشكرِك، وَحُسْن عِبَادتك».

۞۞۞۞۞

(١) من خيار التابعين، وكان مجاب الدعوة.
(٢) المشق: الضَّرب بسرعة.
(٣) «السِّير» (٤/٥٠٩).

٩٤- مُحَاسَبَةُ النّفس

اعلم - **يا أخي** - أن أرباب البصائر عرفوا أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سَيُناقَشوَن في الحساب، ويُطَالبون بمثاقيل الذَّرِّ من الخَطَرات واللَّحَظَات، وتَحَقَّقُوا أنّه لا يُنجيهم إلاّ لزوم المحاسبة، ومطالبة النّفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللّحظات.

فمن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب، خفّ في القيامة حِسَابُهُ، وحضر عند السّؤال جوابه، وَحَسُنَ منقلَبُهُ ومآبهُ، ومن لم يحاسبْ نفسه دامت حَسَرَاتُهُ، وطالت في عَرَصَات القيامة وقفاتُه، وقادته إلى الخِزي والمقتِ سيئاتهُ.

أخي الكريم:

ولأن محاسبة النفس سبب في الوصول إلى الله - تعالى - ونيل رحمته، والنجاة من عذابه، فحديثي إليك - على السطور التالية - يدور حول **خَمْسَة أمور**:

الأوّل: معنى محاسبة النفس.

والثاني: أهمية محاسبتها.

والثالث: طريقة محاسبتها.

والرابع: أركان المحاسبة.

والخامس: علوّ همّة السّلف في المحاسبة.

وأسأل الله - تعالى - التوفيق لمرضاته.

أوّلاً: معنى محاسبة النفس:

قال الإمام **الماورديُّ** - رحمه الله - :

«محاسبةُ النّفس: أن يتصفّح الإنسانُ في ليله ما صَدَر من أفعالِ نَهَارِه، فإن كان

محمودًا أمْضَاه وأَتْبَعه بما شاكَلَه وَضَاهَاه، وإن كان مذمومًا استدركَه إن أمكن، وانتهى عَنْ مِثْلِه فِي المستقبل»ا.هـ[1].

ثانيًا: أهمية محاسبة النّفس:

قال الإمامُ **الغزاليّ** - رحمه الله - :

«اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامةُ الرّبح، وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيُسلّم إليه المال حتى يَتّجر ثم يُحاسبه، فكذلك العقلُ هو التاجر في طريق الآخرة وإنّما مطلبُهُ وربْحُهُ تزكية النفس لأن بذلك فلاحَهَا، قال تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وإنّما فلاحها بالأعمال الصّالحة، والعقلُ يستعين بالنّفس في هذه التجارة إذ يستعملُها ويَسْتَسْخِرُها فيما يزكّيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتَّجر في ماله، وكما أن الشّريك يصير خَصْمًا منازعًا يجاذبُهُ في الرّبح فيحتاجُ إلى أن يُشارطه أوّلاً، ويُراقبه ثانيًا، ويُحاسبه ثالثًا، ويُعاقبه أو يُعاتبه رابعًا، العقل يحتاج إلى مشارطة النَّفس أوّلاً فيوظف عليها الوظائف، ويشرطُ عليها الشّروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطُّرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنه لو أهملها لم يَرَ منها إلاّ الخيانة وتضييع رأسِ المال، كالعبد الخَائن إذا خلا له الجوّ وانفرد بالمال.

ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها، ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارةٌ ربحُها الفردوس الأعلى، وبلوغُ سدْرة الْمُنتهى مع الأنبياء والشّهداء، فتدقيق الحساب في هذا مع النّفس أهمّ كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العُقبى.

(١) «أدب الدنيا والدين» (٣٤٢).

فَحَتْمٌ على ذي حَزْمٍ آمن بالله واليوم الآخر أن لا يَغْفل عن مُحَاسَبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسَكَناتها وخَطَراتها وخُطُواتها، فإن كلّ نَفَس من أنفاس العُمْر جَوْهَرةٌ نَفِيسةٌ لا عِوَض لها يُمْكِنُ أن يُشْتَرى بها كَنز من الكنوز لا يَتَنَاهى نَعِيمُهُ أَبَدَ الآباد، فانْقِباضُ هذه الأنْفَاس - ضائعة أو مصروفة إلى ما يَجْلِبُ الهلاك - خُسران عظيمٌ هائلٌ، لا تسمحُ به نَفْسُ عَاقِلٍ.

فإذا أصبَح العبدُ وفرغ من فريضة الصُّبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعةً لمشارطة النّفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشّريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته. فيقول للنّفس: مالي بضاعةٌ إلاّ العُمُر، ومهما فَنِى فقد فَنِي رأسُ المال، ووقع اليأسُ من التجارة وطلب الرّبح، وهذا اليوم الجديد قد أَمْهلني اللّهُ فيه، وأَنْسَأَ في أَجَلي[1] وأنعم عَليّ به، ولو توفّاني لكنتُ أتمنى أن يُرجعَني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل فيه صالحًا، فاحْسَبي أنّك تُوفّيت، ثم قَد رُدِدْت فإيّاك ثمّ إيّاك أن تُضَيِّعي هذا اليوم، فإنَّ كل نفسٍ من الأنفاس جَوْهَرةٌ لها قِيمة »ا.هـ[2].

ثالثاً: طريقة محاسبة النفس:

قال الإمام **ابْنُ القَيِّم** - رحمه الله - :

« محاسبة النّفس **نوعان**: نوعٌ قبل العمل، ونوعٌ بعده:

النوع الأوّل:

هو أن يقف عند أوّل همِّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبيّن له رَجَحَانه على تَرْكه.

قال الإمام **الحسن** - رحمه الله :

« رحم اللّهُ عبدًا وَقَف عَنْد هَمِّه، فإن كان لله: مَضَى، وإن كان لِغَيْره: تأَخَّر ».

---

(١) أنسأ: أخّر.

(٢) «الإحياء» (٣٩٤/٤، ٣٩٥) باختصار.

النوع الثاني:

محاسبة النّفس بعد العمل، وهو **ثلاثة أنواع**:

أحدها: محاسبتها على طاعةٍ قَصَّرت فيها من حقّ الله تعالى، فلم تُوقِعْها على الوجه الذي يَنْبَغي.

وحقّ الله في الطّاعَة ستّةُ أمور، وهي:

- الإخلاص في العمل.
- والنّصيحةُ لله فيه.
- ومتابعة الرسول ﷺ فيه.
- وشهود مشهد الإحسان فيه.
- وشهود منّة الله عليه.
- وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كلّه.

الثاني: أن يُحاسب نفسه على كلّ عمل تَرْكه خَيْرٌ له من فِعْله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمرٍ مباح، أو مُعتاد: لِمَ فَعَله؟ وهل أراد به الله والدّار الآخرة، فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الرّبح، ويفوته الظّفَر به» ا.هـ[(١)].

رابعًا: أركان المحاسبة:

قال الإمام **ابْنُ القَيّم** - رحمه الله - :

«قال صاحبُ المنازل: للمحاسبة **أَركانٌ ثلاثة**:

أحدها: **أن تُقَايِس بَيْن نِعْمَةِ الله وجنايتك**:

---

(١) «إغاثة اللّهفان» (١/٩٧، ٩٨) بتصرف.

فإنك حين تُقايِس بَيْن مَا مِنَ الله وَمَا مِنْك: فحينئذ يظهرُ لك التفاوت، ومعلوم أنه ليس إلاّ عفوه ورحمتُهُ، أو الهلاكُ والعطب، وبهذه المقايسة تعلم حقيقة النّفس وصفاتها وعظمة جلال الربوبيّة وتفرّد الرّب بالكمال والإفضال وأن كلّ نعمة منه فَضْلٌ، وكلّ نقمة منه عَدْلٌ. ثم تقايس بين الحسنات والسّيئات، فتعلم بهذه المقايسة أيّهما أكثر وأرجح قَدْرًا وصِفةً.

وثاني هذه الأركان: **أن تُمَيِّز ما لِلْحَقّ عليك من وجوب العبودية والتزام الطّاعة واجتناب المعصية، وبين ما لَكَ وما عَلَيْك**:

فالذي لك هو المباحُ الشّرعيُّ، فعليك حَقٌّ ولك حقٌّ، فأَدِّ ما عَلَيْك يُؤْتك مَا لَكَ.

الثالث: أن يَعْرِف أن كُلّ طَاعةٍ رضِيتَهَا مِنْك فهي عَلَيْك، وكُلّ معصية عَيَّرتَ بها أخاك فهي إليك؛ لأن رضاء العبد بطاعته دليلٌ على حُسْن ظَنِّه بنفسه، وَجَهْله بحقوق العبودية، وَعَدم عمله بما يَسْتَحِقُّه الرَّبُّ - جَلَّ جَلالُهُ - وَيَليقُ أن يُعَامَل به» ا.هـ[(١)].

خامسًا: عُلوّ هِمّة السَّلف في المحاسبة:

لمّا علم السَّلفُ أن في «مُحاسبة النّفس» صلاح الدّارين، عَلَتْ هِمّتهُم في محاسبتها، واشتدّ جهادُهم لها، وَيُنْبِئك عن هذا، ما أنقله إليك من أخبارهم:

- فهذا **عمر بن الخطاب** ﷺ يقول عنه أنس:

«سمعتُ عمر بن الخطاب ﷺ يومًا، وقد خرجت معه، حتى دخل حائطًا فسمعتُه يقول، وبيني وبينه جدارٌ، وهو في جَوْف الحائط:

عُمر بْنُ الخطاب أميرُ المؤمنين بَخٍ، واللهِ لَتَتَّقِيَنّ الله يا ابْنَ الخطاب، أو لَيُعَذّبَنَّك»[(٢)].

- وهذا **توبة بن الصُّمّة** : كان - رحمه الله - بالرّقة، وكان محاسبًا لنفسه، فحسب فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيّامها، فإذا هي واحدٌ وعشرون ألف وخمسمائة يوم،

(١) «مدارج السالكين» (١/١٩٠) باختصار.

(٢) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (٢٣).

فصرخ، وقال:

« يا ويلتي، أَلْقى الملك بواحدٍ وعشرين ألف ذنب، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟! » ثم خرّ مغشيًّا عليه، فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول:

« يا لكِ من رَكْضَةٍ إلى الْفِردَوْس الأعلى! »[1].

- وهذا **عون بن عبد الله** – رحمه الله – : كان يقول في بكائه وَذِكْر خطيئته:

« وَيْح نفسي، بأيّ شيء لم أعْص رَبِّي؟

وَيْحِي... إنّما عصيتُه بنعمته عندي.

وَيْحي... من خطيئة ذهبت شهوتها وبقيت تبعتها عندي.

وَيْحِي ... كيف أنسى الموت ولا ينساني؟

ويْحي.. إن حُجِبْتُ يوم القيامة عن رَبّي.

وَيْحِي... كيف أغفل ولا يُغْفَل عَنِّي؟

أم كيف تُهَنِّئُني مَعِيشتي واليومُ الثقيل ورائي؟

أم كيف لا تطول حسرتي ولا أدري ما يُفْعل بي؟

أم كيف يشتد حُبّي لدارٍ ليستْ بداري؟

أم كيف أجمع بها وفي غيرها قراري؟

أم كيف تَعْظُم فيها رغبتي والقليل فيها يكفيني؟

أم كيف أوثرها وقد أَضَرَّتْ بِمَن آثرها قَبْلي؟

أم كيف لا أُبادر بعملي قبل أن يُغلق بابُ توبتي؟

أم كيف يشتدّ إعجابي بما يزايلني وينقطع عني؟

أم كيف لا يكثر بكائي ولا أدري ما يُراد بي؟

---

(١) نفس المرجع (٦٧).

أم كيف تقرّ عيني مع ذِكْر ما سَلَف مني؟

أم كيف تطيب نفسي مع ذِكْر ما هو أمامي؟

وَيْحي... هل ضرّت غفلتي أحدًا سواي؟ أم هل يعمل لي غيري إن ضيّعتُ حظّي؟

وَيْحي... كأنّه قد تصرّم أجلي ثم أعاد ربّي خلْقي كما بدأني، ثم أوقفني وسألني، ثم أُشهدت الأمر الذي أذهلني وشُغلت بنفسي عن غيري، وسارت الجبال وليس لها مثل خطيئتي، وجُمع الشمسُ والقمرُ وليس عليهما مثل حسابي، وانكدرت النجومُ وليست تُطلب بما عندي، وحُشرت الوحوش ولم تعمل مثل عملي، وشاب الوليد وهو أقلّ ذَنْبًا منّي.

وَيْحِي... ما أشدّ حالي وأعظم خطري، فاغفر لي واجعل طاعتك همّتي ولا تُعرِض عنّي يوم تُعْرِض، ولا تفضحني بسرائري، ولا تخذلني بكثرة فضائحي، بأي عَين أنظر إليكَ وقد علمت سرائري؟

وكيف أعتذر إليك إذا ختمت على لساني، ونطقت جوارحي بكلّ الذي كان مني؟

إلهي... أنا الذي ذكرتُ ذنوبي فلم تقرّ عيني.

أنا التائب إليك فاقْبل ذلك مني، ولا تجعلني لنارِ جَهنّم وَقُودًا بعد توحيدي وإيماني بَرْحَمَتِك»[١].

فاحْمِلْ على نفسك - **يا أخي** - حملةً صادقة، وجاهدها جهاد الأبرار، وحاسبها أشدّ من محاسبتك لشريكك، فإنها نزاعة إلى الشّر، تَمِيل إلى ما يضرّها.

وصدق خالِقُها إذ يقول:

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣].

واطلب الإعانة من مولاك، كما طلبها يوسف عليه السلام حين قال:

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/٦٦، ٦٧).

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣].

واعلم أنه:

إذا لم يكن عَونٌ من الله لِلفَتى فأكثرُ ما يَجني عليه اجْتِهادُه

واسمع في قول الحسن - رحمه الله - وهو يقول:

«إن العبد لا يزالُ بخير ما كان له واعِظٌ من نفسه، وكانت المحاسبة من هِمَّته».

وفّقني اللّهُ - تعالى - وإيّاك .



٩٥- المراقبة

قال **الحريري** - رحمه الله - : «أَمْرُنا هذا مَبْنِيّ على أصْلَيْن: أن تلزم نفسك المراقبة لِلّه ﷻ، ويكون العلم على ظاهِرك قائمًا».

بهذه الكلمات - الصّادقة - نبدأ حديثنا عن خُلُقٍ - كريم - ألا وهو: خُلُق «المراقبة».

والحديث عن «المراقبة» يدور حول **خمسة** أمور:

الأوّل: معنى المراقبة.

والثاني: حقيقتها ودرجاتها.

والثالث: الحث عليها من الكتاب والسُّنة.

والرابع: فضلها.

والخامس: مواقف مضيئة من حياة أهلها.

والآن نشرع في بيان المقصود، وبالله التوفيق.

أوّلاً: معنى المراقبة:

جاء في تعريف «المراقبة» عدّة أقوال، اختلفت في المبنى واتفقت في المعنى.

قال **إبراهيم الخوّاص**: «المراقبة: خلوص السِّر والعلانية لِلّه ﷻ».

وقال **المرتعش**: «المراقبة: مراعاة السِّر بملاحظة الغيب مع كلّ لحظة ولفظة».

وقال الإمام **ابن القيّم** - رحمه الله - :

«المراقبة: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق - سبحانه وتعالى - على ظاهره وباطنه» ا.هـ[1].

(١) «مدارج السالكين» (٢/٦٨).

وسُئل **المحاسبيُّ** - رحمه الله - عن المراقبة، فقال:

«أوّلُها: عِلْمُ القَلْب بِقُرْب الرَّبِّ تعالى»[١].

وقال **أبو عثمان**: «قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك، ولا يغرّنّك اجتماعهم عليك فإنهم يُراقبون ظاهرك، والله رقيب على باطنك»[٢].

وقال رجل **لِلْجُنَيد**: بم أستعين على غض البصر؟ فقال:

«بعلْمِك أن نظَر النّاظِرِ إليك[٣]، أسْبَقُ من نظرك إلى المنظورِ إليه»[٤].

ثانيًا: حقيقة المراقبة ودرجاتها:

اعلم أن حقيقة المراقبة هي: ملاحظةُ الرَّقيب وانصراف الهمم إليه، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره، يقال إنه يراقب فلانًا، ويراعي جانبه، ويعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوعٌ من المعرفة، وتثمر تلك الحالةُ أعمالاً في الجوارح وفي القلب.

أمّا الحالة: فهي مراعاةُ القلب للرَّقيب واشتغاله به والتفاتُه إليه، وملاحظتُهُ إيّاه، وانصرافُه إليه.

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة: فهي العلم بأن الله مُطّلعٌ على الضّمائر، عالِمٌ بالسّرائر، رقيبٌ على أعمال العباد، قائم على كلّ نفس بما كسبت، وأن سِرّ القلبِ في حقّه مكشوفٌ كما أن ظاهر البشْرة لِلْخَلق مكشوف بل أشدّ من ذلك.

فهذه المعرفة إذا صارت يقينًا - أعني أنها خلت عن الشّك - ثم استولت بعد ذلك على القلب قهرته، فَرُبّ عِلْمٍ لا شكّ فيه يغلبُ على القلب كالعلم بالموت، فإذا استولت على القلب اسْتَجَرَّتِ القلب إلى مُراعاة جانب الرّقيب وصرفت هَمّهُ إليه؛ والموقنون بهذه

(١) «الإحياء» (٤/٣٩٧).
(٢) نفس المرجع (٤/٣٩٧).
(٣) وهو الله تعالى.
(٤) «الإحياء» (٤/ ٣٧).

المعرفة هم المقرّبون، وهم ينقسمون إلى الصِّديقين وإلى أصحاب اليمين[١].

ثالثاً: الحث على المراقبة من الكتاب والسُّنّة:

وَرَدَ الحثّ على مراقبة الله تعالى في آياتٍ وأحاديث وآثار كثيرة:

فمن القرآن:

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

(٤) وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤].

(٥) وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩].

ومن الأحاديث:

(١) ثبت في «الصحيحين» أن جبريلَ عليه السلام سأل النبيّ ﷺ عن الإحسان؛ فقال:

«**أن تعبد الله كأنّك تَرَاه، فإن لم تكن تراه، فإنّه يراك**».

قال **ابن منظور** - رحمه الله - :

«أراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقبة وحُسْن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله»ا.هـ[٢].

(٢) وعن معاذ رضي الله عنه قال:

يا رسول الله، أوصني؟

---

(١) نفس المرجع (٤/٣٩٨).

(٢) «لسان العرب» (١٣/١١٧).

قال: «اعْبُدِ اللهَ كأنَّك تَرَاه، واعْدُدْ نَفْسَك في الموتى، وإن شئتَ أنبأتُك بما هو أَمْلَكُ بكَ مِنْ هَذا كُلِّه؟» قال: «هذا» وأشار بيده إلى لسانه[1].

(٣) وفي حديث «السّبعة الذين يظلّهم الله في ظلّه»:

«... وَرَجُلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِب وجمال فقال: إنّي أخَاف الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمَالُه ما تنفق يَمِينُه، ورجل ذَكَر الله خاليًا ففاضت عيناه»[2].

ومن الآثار:

(١) قال **سفيان الثوريّ** - رحمه الله -:

«عليك بالمراقبة مِمّن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء مِمّن يملك الوفاء»[3].

(٢) وقال **ابْنُ عطاء**:

«أفضل الطاعات: مراقبة الحق على دوام الأوقات».

(٣) وقال **الإمام أحمد**:

إذا ما خَلَوْتَ الدَّهْرَ يومًا فلا تقل ... خَلَوتُ ولكن قُلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يَغْفَلُ ساعةً ... ولا أنّ ما تخفى عليه يَغيبُ
لَهَوْنا عن الأيّام[4] حتى تتابعت ... ذنوبٌ على آثارهنّ ذنوبُ
فيا ليتَ أنّ الله يغفر ما مَضَى ... ويأذَنُ في توباتنا فنتوبُ
إذا ما مضى الْقَرْنُ الذي أنتَ فيهم ... وَخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فأنْتَ غَرِيبُ

رابعًا: فَضْلُ المراقبة:

اعلم: أن لمراقبة الله تعالى فضائل وثمرات:

---

(١) إسناده جيد: رواه ابن أبي الدنيا، وجوّد المنذريُّ إسناده.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) «الإحياء» (٤/٢٩٧).

(٤) وفي رواية: لهونا عن الأعمال.

▫ منها: نَيْلُ رِضا الله تعالى:

فقد سُئل بعضُهم عن قوله تعالى:

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البيّنة: ٨]. فقال: «معناه: ذلك لمن راقب ربَّه - ﷻ - وحاسَب نَفْسَه، وتزوَّد لِمَعاده»(١).

▫ ومنها: نَيْل الاستظلال في ظلّ الله تعالى:

كما في حديث: السّبعة الذين يظلّهم الله - تعالى - في ظله.

▫ ومنها: صلاح العبد واستقامته:

فالعبد إذا أيقن بأن الله - تعالى - مطلع عليه، وناظر إليه، سارع إلى الطاعات، وسلا عن الشهوات.

وفي ذلك قيل: مَنْ رَاقَب الله في خواطره، عَصَمَه في حَرَكات جَوَارِحه(٢).

▫ ومنها: الفوز بالجنّة والنّجاة من النار:

فقد سُئل **ذو النون المصري** - رحمه الله - : بِمَ ينال العبدُ الجنة؟

فقال: **بِخَمْس**:

استقامةٌ ليس فيها روغان.

واجتهادٌ ليس معه سَهْو.

ومراقبة الله تعالى في السّر والعلانية.

وانتظار الموتِ بالتأهّب له.

ومحاسبةُ النّفس قبل أن تُحاسَب.

(١) «الإحياء» (٣٩٧/٤).

(٢) هذا قول الإمام مسروق - رحمه الله - . انظر: «الرسالة القشيرية» (٢٥).

خامسًا: مواقف مضيئة من حياة أهل المراقبة:

ولّما أيقن أهلُ الله باطّلاع الله عليهم، ونظره إليهم، وقُربه منهم، كانت لهم مواقف - رائعة - تدلّ على ضميرهم الحيّ، وإيمانهم الصّاحي، من هذه المواقف:

الموقف الأول:

قال عروة بن الزبير: «خطبتُ إلى عبد الله بن عمر ابنته ونحن في الطواف، فسَكتَ ولم يُجبْني بكلمة، فقلتُ: لو رضى لأجابني، والله لا أُراجعه فيها بكلمة أبدًا، فَقُدِّر له أن صَدَرَ إلى المدينة(١) قبلي، ثم قدمتُ فدخلتُ مسجد رسول الله ﷺ، فسلّمتُ عليه وأدَّيتُ إليه من حقّه ما هو أهلُه، فأتيتُه ورحَّب بي، وقال:

متى قَدمْتَ؟

فقلتُ: هذا حينُ(٢) قدومي.

فقال: أكنتَ ذَكَرْتَ لي سَوْدَةَ بنت عبد الله ونحن في الطواف نتخايلُ الله ﷻ بين أعْيننا، وكنتَ قادرًا أن تَلْقاني في غير ذلك الموطن؟

فقلتُ: كان أمْرًا قُدرَ.

قال: فما رأيُك اليوم؟

قلتُ: أحرص ما كنتُ عليه قطُّ.

فدعا ابْنَيْه سَالِمًا وعبدَ الله(٣) فزوّجني»(٤).

الموقف الثاني:

ذكر الرّازي: أن أحد الشيوخ كان له جمع من التلاميذ، وكان قد خَصّ واحدًا منهم

---

(١) أي: رجع إليها.

(٢) أي: وقت قدومي.

(٣) هو: عبد الله بن عبد الله بن عمر.

(٤) «الحلية» (١/٣٠٨).

بمزيد من العناية، فسألوه قائلين:

ما السّبب في ذلك؟

فقال الشيخ: سأُبيِّنه لكم.

وبعد حين أعطى كلَّ واحد من التلاميذ طائرًا، وقال لكلٍّ منهم:

اذبح هذا الطائر حيثُ لا يراك أحدٌ.

فمضى كُلٌّ منهم إلى جهةٍ، ثم رجع إلى شيخه وقد ذبح الطّائر، ما عدا ذلك التلميذ، فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده، فسأله الشيخ:

هل ذبحتَ الطائر؟

فأجابه التلميذ: أنت أمرتني أن أذبح الطّائر حيث لا يراني أحد، و لم أجد موضعًا لا يراني الله فيه.

فالتفت الشيخُ إلى بقيّة التلاميذ، وقال:

من أجل هذا خصصْتهُ بمزيد من العناية[1].

الموقف الثالث:

قال عبد الله بن دينار: خرجتُ مع عمر بن الخطاب ﷺ إلى مكّة فَعَرَّسْنا[2] في بعض الطريق، فانحدر عليه راعٍ من الجبل، فقال له:

يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم[3]؟.

فقال: إني مملوك.

فقال: قل لسيّدك: أكلها الذّئب[4]؟!.

---

(١) «له الأسماء الحسنى» د. الشرباصي (٢٣٨/١)، وذكرها الغزالي في «الإحياء».

(٢) نزلا ليستريحا.

(٣) والرّاعي لا يعرفه.

(٤) يختبره.

قال: فأين الله؟

قال: فبكى عمر ﷺ ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه، وأعتقه، وقال:

«أعْتَقَتْكَ في الدنيا هذه الكلمة[١]، وأرجو أن تُعْتقك في الآخرة»[٢].

إنه حوار رائع - حقًا - بين الرّاعي والرعيّة.

الموقف الرابع:

حُكي: أن رجلاً تعلّق قلبُه بامرأة فخرجت تلك المرأة إلى حاجة لها فذهب الرجلُ معها، فلمّا خلا بها في البادية، ونام الناسُ أفشى الرجلُ سرّه إليها، فقالت له المرأة:

انظر أنام الناس بأجمعهم؟

ففرح الرّجلُ بقولها وظنّ أنها قد أجابته فقام وطاف حول القافلة فإذا النّاسُ نيام فرجع إليها، وقال لها:

نعم، هم نيام.

فقالت: ما تقول في الله تعالى أنائم هذه السّاعة؟

فقال الرجل: إن الله تعالى لا ينام ولا تأخذه سِنة ولا نوم.

فقالت المرأة: إن الذي لم ينم ولا ينام يرانا وإن كان الناسُ لا يروننا فذلك أوْلى أن يخاف منه.

فتركها الرجل خوفًا من الخالق وتاب ورجع إلى وطنه، فلمّا تُوفّي رأوْه في المنام فقيل له:

ما فعل اللّهُ بك؟

فقال: غَفَرَ لي بِخَوْفي وتَرْكي ذلك الذّنب[٣].

(١) يعني كلمة: «فأين الله؟».

(٢) «الإحياء» (٤/٣٩٦).

(٣) «مكاشفة القلوب» للغزالي، بتهذيبي وتحقيقي (٨).

يا رب:

يــا مَــنْ يَــرَى مَــدَّ البعوضِ جنَاحَها ... في ظُلْمــةِ اللّــيل الْبَهــيم الأَلْــيَلِ
ويَــرى مَــنَاطَ عُــروقِها في نَحْــرِها ... والمــخَّ في تِلْــك العظــام الــنُّحّلِ
امْــنُنْ عــليَّ بِــتَوْبةٍ تَمْحــو بهــا ... مــا كــان مِــنّي في الــزّمان الأَوَّلِ

إنّي أوقن أنّ:

كُــلّ معلــوم ففــي عِلْمِــك كانــا ... أنــتَ مُحْصِــيه زمانًــا ومكانــا
أنــتَ سُــبْحانك أَدْرَى بــالذي ... فــيه ذرّاتٌ دِقَاقٌــا وكــيانا
أنْــتَ مُحْصِــيها وهادِيهــا إلى ... نَشْــوَةِ التَّسْــبِيح قَلْــبًا ولِسَــانا

إلهي:

وعليك قصد السبيل.



٩٦- الدُّعاء

عن سلمان الفارسيّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّ ربَّكم حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْي مِنْ عَبْدِه إذا رَفَع يَدَيْه إليه بِدَعْوَةٍ أن يَرُدَّهُما صِفْرًا لَيْسَ فِيهما شَيءٌ»[١].

بهذه الكلمات الطَيِّبات المباركات، نبدأ حديثنا عن «**الدُّعاء**».

والحديث عنه يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف الدعاء.

والثاني: فضائله.

والثالث: أقسامه.

والرابع: آدابه.

والخامس: لقطات من حياة مُجابي الدعوة. ٠

والله أسأل أن يفتح أبواب السماء لأعمالنا ودعواتنا.

أولاً: تعريفُ الدعاء:

الدعاء «**لغة**»: مأخوذٌ من مادّة (د ع و) التي تدلُّ في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرّغبة إلى الله عز وجل وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والْمَصْدَرُ الدُّعاءُ والدَّعْوى[٢].

و «**اصطلاحًا**»: قال **الطِّيبيُّ**: «هو إظهارُ غايةِ التّذَلُّل والافتقار إلى الله والاستكانة له»ا.هـ[٣].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٥٦)، وأبو داود (١٤٨٨)، وغيرهما، وصحّحه الحاكم والذهبي والألباني.

(٢) «نضرة النعيم» (١٩٠١/٥).

(٣) «فتح الباري» (٩٤/١١).

ثانيًا: فضائل الدعاء:

ورد في فضائل الدعاء والحث عليه، آيات وأحاديث كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٠].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠].

(٤) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنعام: ٥٢].

(٥) وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن الأحاديث:

(١) عن أنس ﷺ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **ادعوا فإن الدُّعَاءَ يَرُدّ القَضَاء** »(١).

(٢) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «الدعاء» (٧٩٨/٣)، وغيره.

قال رسولُ الله ﷺ :

« **ليسَ شَيءٌ أكْرَمَ على الله تعالى من الدُّعاء** »[١].

(٣) وعن عبادة بن الصّامت ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **ما على الأرض مُسْلمٌ يدعو الله بدعوة إلا آتاه اللّهُ إيّاها أو صَرَف عنه من السُّوء مِثْلَها، ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعةِ رَحِم** ».

فقال رجلٌ من القوم: إذًا نكثر.

قال: « **اللّهُ أكْثَرُ** »[٢].

هذه بعض الأحاديث في فضائل الدعاء، وسيأتي المزيد منها بعد قليل.

ثالثًا: أقسامُ الدُّعاء:

قال الإمام **ابْنُ القَيّم** – رحمه الله – :

« لفظ الدعاء والدعوة في القرآن الكريم يتناول معنيين:

الأول: دعاءُ المسألة.

والآخر: دعاءُ العبادة.

ودعاء المسألة: هو طلبُ ما ينفعُ الدّاعي، وطلبُ كشف ما يضرُّه ودفعُهُ، وكلُّ من يَمْلِك الضُّرَّ والنَّفْعَ فإنه هو المعبودُ « بِحَقٍّ ».

أمّا دعاء العبادة: فهو الذي يتضمّن الثناء على الله بما هو أهلُهُ، ويكون مصحوبًا بالخوف والرّجاء » ا.هـ[٣].

---

(١) حسن : رواه الترمذي (٣٣٧٠)، وغيره.

(٢) حسن : رواه الترمذي (٣٥٧٣).

(٣) « التفسير القيّم » (٢٤٣).

قلت: والدّعاء: هو العبادة بنصّ حديث النبيّ ﷺ ؛ فعن النعمان بن بشير، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **الدُّعاءُ هو العِبادة** »، ثم قرأ:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠] (١).

فالتوجّه بالدّعاء إلى غير الله تعالى لجلبِ مَنْفَعةٍ، أو لدفعِ ضُرٍّ، شِرْك بالمعبود « الحقّ » جلّ جلاله.

وعلى ذلك: فَوَيْلٌ للذين يشدّون رِحَالَهم إلى مقابر الأولياء، يطوفون حَوْلها، وينكسرون أمامها، ويسجدون على أبوابها، ويجأرون إليها بالدّعاء والنّداء.

رابعًا: آداب الدعاء:

اعلم: أن للدعاء عدّة آداب:

الأدب الأول: أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة:

كيوم عرفة، ورمضان، وليلة القَدْر، ويوم الجمعة، ووقت السَّحَر.

ولله دَرُّ الشافعيّ حين قال:

أَتَهْــــزَأُ بالدُّعَــــاءِ وَتَــــزْدَرِيه ... ومــا تَــدْري بمــا صَــنع الدّعــاءُ
ســهامُ اللــيل لا تُخْطِــئُ ولكــنْ ... لهــا أمَــدٌ وللأَمَــدِ انْقِضَــاءُ

الأدب الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة:

كحال الزّحف، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلاة، وعند إفطار الصائم، وعند رؤية الكعبة، وحال السجود، وحال السَّفر:

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، وغيرهما.

- عن أنس ﷺ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«الدّعاءُ لا يُرَدّ بَيْن الأَذَان والإقَامَة»(١).

- وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«أقْرَب ما يكونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّه وهو ساجِدٌ فأكثِروا الدُّعاء»(٢).

- وعنه ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«إنّ في الْجُمُعة لسَاعَةً لا يُوافِقُها مُسْلِمٌ يَسْأَلُ الله فيها خيْرًا إلا أَعْطَاه إيَّاه»، قال: «وهي ساعةٌ خَفِيفةٌ»(٣).

- وعنه ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثُ دَعَوات مُسْتَجَابات لا شَكَّ فِيهنّ: دعوةُ الوالد، ودعوةُ الْمُسَافِر، ودعوةُ الْمَظْلوم»(٤).

- وعنه أيضًا ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة لا تُردّ دعوتُهم: الصّائمُ حتى يُفْطر، والإمامُ العادل، ودعوةُ المظلوم يرفَعُها اللّهُ فَوْق الغَمَام ويَفْتَحُ لها أبْوابَ السَّمَاء ويقول الرَّبُّ: وعِزَّتِي لأَنْصُرَنّك ولو بعد حين»(٥).

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢١٢)، وغيره، وحسّنه الحافظ.

(٢) رواه مسلم (٤٨٢).

(٣) رواه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢) واللفظ له.

(٤) حسن: رواه أبو داود (١٥٣٦)، وغيره.

(٥) حسن: رواه الترمذي (٣٥٩٨)، وغيره.

الأدب الثالث: أن يدعو مُستَقبل القِبْلة:

وقد ورد في استقبال القبلة أثناء الدعاء أحاديث، وأنكر ابن تيمية – رحمه الله – عمى مَنْ يَستَقْبِلون غير القِبْلة حال دعائهم أشدّ الإنكار.

الأدب الرابع: رفع اليدين أثناء الدعاء:

وقد مَرّ – قريبًا – الحديث الدّال عل ذلك.

حكاية:

قال **أبو سليمان الدّاراني** – رحمه الله – :

«كنتُ ليلة في المحراب أدعو ويداي ممدودتان، فغلبني البَرْدُ فضممتُ إحداهما، وَبَقِيَت الأُخرى مبسوطة أدعو بها، وغلبتني عيني فنمتُ فهتف بي هاتف:

يا أبا سليمان، قد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها!!».

قال: فآليتُ على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان حَرًّا كان أو بَرْدًا»[1].

الأدب الخامس: خفض الصَّوْت بين المخافتة والجهر:

قال تعالى – حكاية عن زكريا عليه السلام – :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٣].

وأحبّ الدعاء إلى الله: دعاء خَفيّ، خرج من قَلْبٍ تَقِيّ.

الأدب السادس: الإخلاص في الدعاء:

فالإخلاص روح الأعمال الصّالحة.

الأدب السابع: اليقين بالإجابة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) «البداية والنهاية» (٧٨٧/٥).

قال رسولُ الله ﷺ :

« ادْعُوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة، واعلموا أنّ الله لا يَسْتجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ »[1].

الأدب الثامن: الإلحاح في الدّعاء:

فعن أنس رضي الله عنه ، قال:

قال رسول الله ﷺ :

« إذا دعا أحدُكم فَلْيَعْزِم[2] المسألَة، وَلاَ يَقُولَنَّ: اللّهمَّ إن شِئْتَ فأَعْطِني فإنّه لا مُسْتَكْرِه لَهُ »[3].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

الأدب التاسع: ألا يدعو بإثم ولا بقطيعة رَحِم:

وقد مَرّ - قريبًا - النّهي عن ذلك.

الأدب العاشر: الانكسار وإظهار المسْكَنَة، والاعتراف بالذَّنْب:

قال الإمام **الأوزاعيّ** - رحمه الله - :

« خرج الناسُ يَسْتَسْقُون فقام فيهم بلالُ بن سعد[4]، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

يا معشر من حَضَر، أَلَسْتُمْ مقرِّين بالإساءة؟

قالوا: بلى.

فقال: «اللّهم إنّا سمعناك تقول: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة: ٩١]،

---

(١) حسن : رواه الترمذي (٣٤٧٩)، والحاكم (١/٤٩٣)، وقال: حديث مستقيم الإسناد.

(٢) ليعزم المسألة: أي يجتهد ويلحّ في الدّعاء.

(٣) رواه البخاري (٦٣٣٨).

(٤) من خيار التابعين.

وقد أقْررنا بالإساءة، فهل تكون مغفرتُك إلا لمثلنا، اللّهم، اغفرْ لنا وارحمنا واسْقِنا»، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فَسُقُوا[١].

الأدب الحادي عشر: أن يدعو ثلاثًا:

كما ورد في السُّنّة.

الأدب الثاني عشر: أكل الحلال:

لأن أكل الحرام يمنع من قبول الدّعاء[٢].

الأدب الثالث عشر: التوبة من المعاصي، ورد المظالم:

لأن المعاصي تسدّ بابَ السماء أمام الدّعاء.

قال **سفيانُ الثوريّ** - رحمه الله -:

«بلغني أن بني إسرائيل قُحِطُوا سَبْعَ سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال! وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرّعون، فأوحى اللّهُ ﷻ إلى أنبيائهم - عليهم السلام -:

«لو مَشَيْتُم إليّ بأقدامكم حتى تَحْفَى رُكَبُكُم، وتبلُغَ أيديكم عَنَانَ السَّماء، وتَكِلَّ ألسنُتُكم عن الدّعاء، فإنّي لا أُجِيبُ لكم داعِيًا، ولا أَرْحَم لكم باكيًا حتى تَرُدُّوا المظالِمَ إلى أهلها».

ففعلوا فَمُطِروا مِنْ يَوْمِهم!»[٣].

الأدب الرابع عشر: ألا يتعجل الإجابة:

فربّما أدّاه تعجّلُهُ إلى السّآمة.

---

(١) «الأذكار» للنووي (٦١٢).

(٢) انظر: صفة «أكل الحلال».

(٣) «الإحياء» (١/٣٠٧).

وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«يُستجاب لأحدِكم ما لم يَعْجَلْ، يقول: دعوتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لي»[1].

الأدب الخامس عشر: أن يَفْتَتِحَ الدُّعَاء وَيَخْتتمه بِذِكْر الله تعالى، والصَّلاةِ على النبيِّ ﷺ:

فعن فضالة بن عبيد الأوسي ﷺ قال:

سَمِعَ رسولُ الله ﷺ رَجُلاً يدعو في صلاته لم يُمجِّد الله و لم يُصَلِّ على النبيِّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ:

«**عَجِلْتَ أيُّها الْمُصَلِّي**».

ثمّ علمّهم رسولُ الله ﷺ:

وسمع رسولُ الله ﷺ رجلاً يُصلّي فَمَجَّد الله وَحَمِدَهُ وصلّى على النبيّ ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ:

«**ادْعُ تُجَبْ، وَسَلْ تُعْطَ**»[2].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال:

«إن الدّعاءَ مَوْقوفٌ بَيْن السّماء والأرضِ لا يَصْعَدُ منه شَيءٌ حتى تُصَلِّي على نَبيِّك ﷺ»[3].

أخي الكريم:

هذه بعضُ آداب الدُّعاء التي يَنْبَغي مراعاتها، فتمسّك بها، وَسِرْ على هَدْيِها، سدّد اللّهُ

(١) رواه البخاري (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥).

(٢) حسن: رواه أبو داود (١٤٨١)، والنسائي (٣/٤٤، ٤٥)، وغيرهما.

(٣) رواه الترمذيّ (٤٨٦).

رَمْيَتك، وأجابَ دَعْوَتك.

خامساً: لقطاتٌ من حياة مُجَابِي الدُّعاء:

لمّا أخلص الصّالحون في دعائهم، واقتفوا أثر نبيِّهم، وساروا على هديه، واتبعوا سُنّته، أصاب سهمُ دعائهم.

وهذه لقطات من حياتهم:

اللَقطة الأولى:

«جاء خادمُ المأمون[1] إلى أحمد بن حنبل وهو يمسح دموعه بطرْف ثوبه، ويقول:

يعزّ عليّ يا أبا عبد الله أن المأمون قد سلّ سيفًا لم يسلّه قبل ذلك، وأنّه يُقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تُجبْه إلى القول «بخَلْق القرآن»[2] ليقتلنّك بذلك السَّيف.

قال: فجثى الإمامُ أحمد على رُكبتيه ورمق بطرفه إلى السّماء، وقال:

«سيّدي، غَرَّ حِلْمُك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضّرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته».

قال: فجاءهم الصّريخُ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل!»[3].

اللَقطة الثانية:

روى البيهقيُّ، أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد، فقال:

إن أُمّي زمنةٌ مقعدة منذ عشرين سنة، وقد بعثتني إليك لتدعو لها، فكأنه غضب من ذلك، وقال:

نحن أحوج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها. ثم دعا الله ﷻ لها، فرجع الرجلُ إلى

---

(١) خيفة.

(٢) عقيدةُ أهلِ السُّنة: القرآن كلام الله، منه خرَج، وإليه يعود.

(٣) «البداية» (٥/٨٨٨).

أُمّه فدقّ الباب فخرجت إليه على رجليها، وقالت:

«قد وهبني اللّهُ العافية!»[١].

اللقطة الثالثة:

ذكر الإمام الذّهبي – رحمه الله – في «السِّير» (٣٩١/٧) بإسناده عن بقيّة، قال:

«كنا مع إبراهيم بن أدهم في البحر، فهاجت ريحٌ، واضطربت السفينة، وبَكَوْا، فقلنا:

يا أبا إسحاق! ما ترى؟

فقال: «يا حَيُّ حين لا حيّ، ويا حيُّ قَبْل كُلّ حَيّ، ويا حيُّ بعد كُلّ حَيّ، يا حيُّ، يا قيومُ، يا مُحْسنُ، يا مُجْمِل! قد أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك».

فهدأت السفينةُ من ساعته!».

أخي الكريم:

وبعد أن بان لك الطريق، وظهر لك أهمية الدعاء، فارفع يديك لمولاك، وقل مع أحمد بن محمد بن عبد القاهر الصّوفي:

لَبِسْتُ ثَوْبَ الرَّجاء والناسُ قد رَقَدوا ... وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجدُ
وقلتُ يا عُدّتي في كلّ نائبة ... وَمَنْ عليه لكَشْف الضّرِّ أعْتمدُ
وقد مددتُ يدي والضّرُّ مُشْتَملٌ ... إليك يا خَيْر من مُدَّتْ إليه يَدُ
فلا تُردَّنّها يا ربّ خائِبةً ... فَبَحْر جُودك يَرْوي كُلّ مَنْ يَرِدُ

۞۞۞۞۞

(١) نفس المرجع (٨٨٥/٥).

٩٧- الذِّكْرُ

قال **سُفيان** - رحمه الله - «ما تَمَتَّعَ مُتَمَتِّعٌ بمثلِ ذكْر الله، قال داوُد ﷺ: ما أَحْلى ذكْرَ الله في أفواهِ المتعبّدين»[1]

وقال **أبو جعفر الباقر** - رحمه الله - «الصّواعق تصيبُ المؤمنَ وَغَيْرَ المؤمنِ، ولا تصيبُ الذّاكر!»[2]

بهذه الكلمات النّوافع، نبدأ الحديث عن «**ذكر الله تعالى**».

والحديث عنه يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف الذّكر.

والثاني: منزلته.

والثالث: درجاته.

والرابع: آدابه.

والخامس: فوائده.

ونسأل الله الإعانة على ذكْره، وَشُكْرِه، وَحُسْن عبادته.

أوّلاً: تعريف الذّكر:

الذِّكْرُ: التخلّص من الغفلة والنّسيان[3]

ثانياً: منزلة الذّكر:

الذّكْرُ: منشور الولاية الذي من أُعْطيه اتّصَل، ومن مُنعه عُزِل وهو قُوتُ قُلوبِ

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/١٧٨).

(٢) نفس المرجع (٤/٤٠٨).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٤٥١).

القَوْم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا، وعمارةُ ديارهم التي إذا تعطّلت عنه صارت بورًا.

وهو سلاحُهم الذي يُقاتلون به قطّاعَ الطّريق، وماؤهم الذي يُطفئون به التهاب الحريق، ودَواءُ أَسْقَامِهمُ الذي مَتى فارَقهم انتكَسَتْ منهم القلوبُ، والسَّببُ الواصِلُ؛ والعلاقةُ التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات، ويَسْتكْشفُون الكُرُبات، وتَهُونُ عليهم به المُصيبات. يَدَعُ القلبَ الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويُوَصِّل الذّاكِرَ إلى المذكور، بل يَدَعُ الذّاكِرَ مَذْكورًا.

وهو جلاءُ القلوب وصِقَالُها، ودواؤُها إذا غشيها اعتلالُها.

زيّن اللّهُ به ألسنةَ الذّاكرين، كما زَيَّن بالنُّور أبْصَار النّاظرين.

وهو بابُ الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يُغْلقْه العبدُ بغَفْلَته»[1].

ثالثًا: دَرجاتُ الذّكْر:

قال الإمام **ابْنُ القَيِّم** – رحمه الله – :

«**الذّكر ثلاثُ درجات:**

الدّرجة الأولى: الذّكْر الظّاهر: ثَنَاءً أو دُعَاءً أو رِعَايةً:

فأمّا ذكر الثّناء: فنحو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وأمّا ذكر الدُّعاء: فنحو ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وأمّا ذِكْرُ الرِّعاية: فمثل قول الذّاكر: «اللهُ معي، اللّهُ ناظرٌ إليّ، الله شاهدي».

الدّرجةُ الثانيةُ: الذكر الخَفِيّ:

وهو الخَلاصُ من القُيود، والبقاءُ مع الشُّهود، ولُزُوم المُسَامَرَة «يريدُ بالخفيّ – ههنا –:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٤٤٠، ٤٤١) باختصار.

الذِّكر بمجرّد القلب بما يُعرض له من الواردات. وهذا ثمرة الذّكر الأوّل. ويريد بالخلاص من القيود: التخلّص من الغفلة والنّسيان، والحُجُب الحائلة بين القلب وبين الرّب - سبحانه - والبقاء مع الشهود: ملازمة الحضور مع المذكور، ومشاهدة القلب له حتى كأنّه يراه. ولزوم المسامرة: هي لزوم مناجاة القلب لِرَبِّه: تملّقًا تارة، وتضرّعًا تارة، وثناءً تارة، واستعظامًا تارة، وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسِّر والقلب، وهذا شأن كلّ مُحبّ وحبيبه».

الدرجة الثالثة: الذِّكر الحقيقيُّ:

وهو شهود ذِكْر الحقّ إيّاك، والتخلّص من شهود ذِكْرك.

وقد سُمِّي هذا الذّكر حقيقيًا؛ لأنّه منسوبٌ إلى الرّبّ - تعالى - فذكر الله لعبده هو الذكر الحقيقيُّ، وهو شهودُ ذِكر الْحَقّ عَبْده، وأنّه ذكره فيمن اختصّه وأَهَّلَهُ لِلْقُرْب منه ولِذِكْرِه. فجعله ذاكرًا له. ففي الحقيقة:

هو الذاكر لنفسه. بأن جَعَل عَبْدَه ذاكرًا له، وأَهَّلَهُ لذكره.

رابعًا: آدابُ الذِّكر:

قال الإمام **النووي** - رحمه الله - :

ينبغي أن يكون الذّاكر على أكمل الصِّفات، فإن كان جالسًا في موضع، استقبل القبلة، وجلس مُتخشّعًا متذلّلاً بسَكينة ووقار، مُطْرقًا رأسه، ولو ذكر على غير هذه الأحوال جاز، ولو كان ذلك «أي تَرَكَ الذّاكرُ ذلك» بغير عُذرٍ كان تاركًا للأفضل.

وينبغي أن يكون الموضع الذي يَذكُرُ فيه خاليًا نظيفًا، ولهذا مُدح الذّكرُ في المساجد والأماكن الشّريفة، وقد جاء عن **أبي مَيْسرة**، قال:

« لا يُذكَرُ الله تعالى إلا في مكان طَيِّب».

وينبغي للذّاكر - أيضًا - أن يكون فَمُهُ نظيفًا، فإن كان فيه تَغَيُّرٌ، أَزَاله بالسّواك «ونحوه»،

وإنْ كانَ «فِي بَدَنِه أو ثَوْبه» نجاسة أزالها بالماء، فإن ذَكَر ولم يفعل، فهو مكروه وليس بحرام.

هذا، والذِّكر محبوبٌ في جميع الأحوال، إلا في أحوالٍ ورد الشَّرْعُ باستثنائها منها:

عند الجلوس على قضاء الحاجة، وفي حالة الجماع، وفي حالة الخُطبة لمن يسمع صوت الخطيب، وفي القيام في الصّلاة لأن عليه الاشتغال بالقراءة، وفي حالة النُّعاس، ولا يُكْره في الطّريق، ولا في الحَمَّام» اهـ[1].

خامسًا: فوائد الذكر:

اعلم: أن القلب يَصْدأ كما يصدأ النُّحاس والفضّة وغيرهما، وجلاؤه بالذِّكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ، فإذا ذَكَر جَلاه.

وَصَدَأُ الْقَلْبِ **بأمرين:**

بالغَفْلة.

والذَّنب.

وجلاؤه **بشيئين:**

بالاسْتِغْفار.

والذِّكر.

فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصّدأ متراكبًا على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، وإذا صدئ القلبُ لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه فيرى الباطل في صورة الحقّ، والحقّ على صورة الباطل، لأنّه لمّا تراكم عليه الصّدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه. فإذا تراكم عليه الصّدأ واسْوَدّ وَرَكِبَهُ الرّانُ فَسَدَ تصوّره وإدْراكه، فلا يقبل حقًّا ولا يُنكر باطلاً.

---

(١) «الأذكار» (١٧، ١٨).

وهذا من أعظم عقوبات القلب. وأصل ذلك من الغفلة واتّباع الهوى، **فإنّهما** يُطمسان نورَ القلب ويعميان بَصَره. ومن هنا تأتي أهمية الذّكر.

قال الإمام **ابن القيِّم** - رحمه الله - :

وفي الذكر أكثر من مائة فائدة:

إحداها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره.

الثانية: أنه يرضي الرّحمن ﷻ.

الثالثة: أنه يزيل الهمّ والغَمّ عن القلب.

الرابعة: أنه يجلب للقلب الفَرَح والسّرور والبسط.

الخامسة: أنه يقوّي القلبَ والبدن.

السادسة: أنه ينوّر الوجه والقلب.

السابعة: أنه يجلب الرِّزق.

الثامنة: أنه يكسو الذّاكر المهابة والحلاوة والنّضرة.

التاسعة: أنه يورث المحبّة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدِّين ومدار السعادة والنجاة. وقد جعل الله لكل شيء سببا وجعل سبب المحبة دوام الذكر. فمن أراد أن ينال محبة الله ﷻ فليلهج بذكره فإنه الدرس والمذاكرة كما أنه باب العلم، فالذّكر باب المحبة وشارعها الأعظم وصراطها الأقوم.

العاشرة: أنه يورثه المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت.

الحادية عشرة: أنه يورثه الإنابة، وهي الرجوع إلى الله ﷻ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله ﷻ مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاذه، وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا.

الثانية عشر: أنه يورث القُرْب منه، فعلى قدر ذِكْره للّه ﷻ يكون قربه منه، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه.

الثالثة عشرة: أنه يفتح له بابًا عظيمًا من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة.

الرابعة عشرة: أنه يورثه الهيبة لربِّه ﷻ وإجلاله، لشدّة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى، بخلاف الغافل فإن حجاب الهيبة رقيق في قلبه.

الخامسة عشرة: أنه يورثه ذكر الله تعالى له كما قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفا، وقال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «**مَن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومَنْ ذَكَرني في ملأ ذكرته في مَلأ خَيْر منهم**».

السادسة عشرة: أنّه يُورث حياة القلب، وسمعتُ شَيْخَ الإسلام ابن تيمية قدَّس الله تعالى روحه يقول: الذِّكْر للقلب مثل الماء للسَّمك فكيف يكون حال السَّمك إذا فارق الماء؟!!

السابعة عشرة: أنه قُوت القلب والرُّوح، فإذا فَقَده الْعَبْدُ صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوّته. وحضرتُ شَيْخَ الإسْلام ابن تيمية مرّة صلّى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليّ وقال: هذه غدوتي، ولم لم أتغد الغداء سقطت قُوّتي. أو كلامًا قريبًا من هذا. وقال لي مرّة: لا أترك الذّكر إلا بنيّة إجْمام نفسي وإراحتها لأستعدّ بتلك الرّاحة لذكْر آخر. أو كلامًا هذا معناه.

الثامنة عشرة: أنه يورث جلاء القلب من صداه، وكل صدأ، وصدأ القلب الغفلة والهوى، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار وقد تقدم هذا المعنى.

التاسعة عشرة: أنه يحط الخطايا ويذهبها. فإنه من أعظم الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

العشرون: أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى، فإن الغافل بينه وبين الله ﷻ وحشة لا تزول إلا بالذكر.

الحادية والعشرون: أن ما يذكر به العبد ربه ﷻ من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة، فقد روى الإمام أحمد في «المسند» عن النبيّ ﷺ أنه قال:

«**إن ما تذكرون من جلال الله ﷻ من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل يذكرن بصاحبهن. أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكره به**»؟ هذا الحديث أو معناه.

الثانية والعشرون: أن العبد إذا تعرَّفَ إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشدّة، وقد جاء أثر معناه أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى إذا أصابته شدّة أو سأل الله تعالى حاجة قالت الملائكة: «يا رب صوت معروف، من عبد معروف»، والغافل المعرض عن الله ﷻ إذا دعاه وسأله قالت الملائكة: «يا رب، صوت منكر، من عبد منكر»[(١)].

الثالثة والعشرون: أنه يُنجي من عذاب الله تعالى، كما قال معاذ ﷺ ويروى مرفوعًا: «**ما عَمل آدمي عملاً أنجى من عذاب الله ﷻ من ذكر الله تعالى**»[(٢)].

الرابعة والعشرون: أنه سبب تنزيل السّكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبي ﷺ[(٣)].

الخامسة والعشرون: أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل. فإن العبد لابد له من أن يتكلم، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى وذكر أوامره تكلم بهذه المحرمات أو بعضها، ولا سبيل إلى السلامة منها ألبتة إلا بذكر الله تعالى. والمشاهدة

---

(١) لعل المراد - إذا صح الأثر - أن صوت العابد الطائع متوافق مع الملأ الأعلى فينطبع فيه.. أما العاصي فنداؤه منكر لا تألفه الملائكة .. إذ يسمعون أنين المحتاج ولا يشمون فيه ريح الطاعة فينكرونه. والله أعلم.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط»، و «الصغير» عن جابر بن عبد الله ورجاله رجال الصحيح.

(٣) الحديث: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده» أو كما قال.

والتجربة شاهدان بذلك، فمن عوَّد لسانه ذكر الله صان لسانه عن الباطل واللغو، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطب بكل باطل ولغو وفحش، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

السادسة والعشرون: أن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين. فليتخيَّر العبد أعجبهما إليه وأولاهما به، فهو مع أهله في الدنيا والآخرة.

السابعة والعشرون: أنه يسعد الذاكر بذكره ويسعد به جليسه، وهذا هو المبارك أين ما كان. والغافل واللاغي يشقى بلغوه وغفلته ويشقى به مجالسه.

الثامنة والعشرون: أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة. فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة.

التاسعة والعشرون: أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه، والناس في حر الشمس قد صهرتهم في الموقف. وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن ﷻ[1].

الثلاثون: أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطي السائلين، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ:

« **قال سبحانه وتعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين** ».

الحادية والثلاثون: أنه أيسر العبادات، وهو أجلّها وأفضلها، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها، ولو تحرك عضو من الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة بل لا يمكنه ذلك[2].

الثانية والثلاثون: أنه غراس الجنة، فقد روى الترمذي في جامعه من حديث عبد الله ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) يشير إلى حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظل عرشه وفيه: « **ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه** ».

(٢) ونُنَبه إلى ضرورة استحضار القلب مع الذكر حتى يحقق الغاية من الذكر وهي اطمئنان القلوب.

«**لقيتُ ليلةَ أُسْري بي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: يا محمّد أقرئ أُمّتك السلام، وأخبرهم أن الجنّة طيِّبة التُّرْبة، عذْبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سُبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(١).

وعن جابر عن النبيّ ﷺ قال:

«**من قال: سبحانَ الله وَبِحَمْده: غُرِسَتْ له نخلةٌ في الجنّة**»(٢).

الثالثة والثلاثون: أن العطاء والفضل الذي رُتِّب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال.

الرّابعة والثلاثون: أن دوام ذِكْرِ الرَّبّ - تعالى - يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في مَعَاشه ومعاده. قال تعالى:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

الخامسة والثلاثون: أن الذّكر نور للذّاكر في الدنيا، ونور له في قبره، ونور له في معاده يسعى بين يديه على الصّراط، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى. قال تعالى:

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

السادسة والثلاثون: في القلب خلّة(٣) وفاقة لا يسدّها شيءٌ ألبتة إلا ذكر الله.

السابعة والثلاثون: أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه.

وهذه المعيّة: معيّة خاصّة غير معيّة العلم والإحاطة العامّة، فهي معيّة بالقرب والولاية

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي.

(٣) **الخلّة**: النّقْص والخلل.

والمحبّة والنُّصرة والتوفيق كقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

الثامنة والثلاثون: أن الذّكر يَعْدل عِتْق الرِّقاب، ونفقة الأموال، والحمل على الخيل في سبيل الله ﷻ، ويعدل الضَّرْب بالسَّيف في سبيل الله ﷻ.

التاسعة والثلاثون: أن الذّكر شفاء القلب ودواؤه، والغفلة مرضه، فالقلوب مريضة وشفاؤها ودواؤها في ذكر الله تعالى.

قال **مكحول:** «ذِكْرُ الله تعالى شِفاء، وذكرُ النّاس دَاء».

الأربعون: أنه ما استجلبت نعم الله واستُدْفِعَت نقمه بمثل ذكر الله تعالى.

فالذّكر جلاب للنِّعم، دافع للنّقم.

الحادية والأربعون: أن مجالس الذّكر مجالس الملائكة.

الثانية والأربعون: أن مُدمن الذّكر يدخل الجنّة وهو يضحك.

قال **أبو الدّرداء:** «الذين لا تزال ألسنتُهم رطبة من ذكر الله ﷻ يدخل أحدُهم الجنّة وهو يضحك».

الثالثة والأربعون: أن الذّكر يُعطي الذاكر قوّة، حتى أنه ليفعل مع الذّكر ما لم يظنّ فعله بدونه.

الرابعة والأربعون: أن دُور الجنة تُبْني بالذّكر: قال **حكيم بن محمد الأخنس:**

«بلغني أن دور الجنّة تُبني بالذكر، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر أمسكوا - يعني الملائكة - عن البناء، فيُقال لهم، فيقولون: حتى تأتينا نفقة».

الخامسة والأربعون: أن الذّكر سَدٌّ بين العبد وبين جهنّم[١]. ا.هـ.

هذه بعض فضائل ذكر الله تعالى، وإذا أردت المزيد، فانظر: «الوابل الصَّيِّب» لابن القيم - رحمه الله - مع أنه لم يكمل - هناك - المائة فائدة.

---

(١) من «الوابل الصّيب» بتصرّف واختصار.

هذا، وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلبُ اللِّسان وكان من الأذكار النبويّة وشَهِدَ الذّاكر مَعَانيه ومقاصِدَهُ.

أمّا الذّكر المبتدع، مثل الذّكر الوارد في بعض أوراد الطّرق الصوفية كقولهم: «أحْمَى حَميثا، أطْمَى طَميثا!»[1].

وكقولهم: «يا باطن يا قَديم يا مقيت اطمس بطلسم بسم الله الرحمن الرحيم»[2].

فهذا ذكر مخترع «مُبهم» مردود على صاحبه، لم يقلْه النبيُّ ﷺ ولم يعرفه السّلف الصالح. فتنبّه.

أخي الكريم:

ولمّا عرف الصّالحون قَدْر الذّكر وفضله، وظّفوا أَنْفَاسَهم في ذِكْر مَوْلاهم، وهذه بعض أحوالهم.

- قال إبراهيم - مؤذّن بني حنيفة - «أمر الحجّاج الثقفي بماهان الحنفي أن يُصلب على بابه، فرأيتُه حين رُفع على خشبته يُسبّح ويهلّل ويكبّر، ويعقد بيده حتى بلغ تسعًا وعشرين. قال: فطعنه الرّجلُ على تلك الحال. قال: فلقد رأيتهُ بعد شهرٍ معقودًا بيده تسعة وعشرين. قال كنّا نرى عنده الضّوء باللّيل شبه السِّراج»[3].
- وعن ابن حَلْبَس: قيل لأبي الدرداء، وكان لا يفتر من الذّكر: كم تُسبّح في كل يوم؟ قال: «مائة ألفٍ، إلا أن تُخطئ الأصابع!»[4].

قلتُ: هذا مع تلاوته للقرآن، ومواظبة على الصِّيام والقيام، وانْشِغَاله بأَمْر الجهاد والمعاش!

(١) «اللآلئ السَّنية» للطريقة الخلوتية الدومية «الحزب الصغير للدسوقي» (ص ١١).
(٢) «مجموع الأوراد الكبير» (١٥٩).
(٣) «صفة الصفوة» (٣/٤٧).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢/٣٤٨).

حقًا...

وإذا كانـــت الـــنفوسُ كِـــبَارًا تعبـــت في مُـــرَادِها الأَجْسَـــام

أخي:

كان هذا حالهم، فماذا عن حالنا، وأوقات فراغنا؟!

على حالِنا، وعلى أوقاتِ فراغنا، وغفلتنا، فَلْتَبكِ البواكي.



٩٨- حُسْنُ الْمُعَامَلة

اعلم – يا أخي – أن حسن المعاملة دليلٌ على حُسن الإسلام، وقوّة الإيمان.

قال **خَيْرُ النّسّاج**: «متى أساءت الجوارحُ الأدَبَ فهو من غَفْلَةِ القلب وَظُلْمَة السِّرِّ».

ولمكانة «حُسْن المعاملة» من دين الإسلام، فالحديث عنها يدور حول **أمرين**:

الأول: تعريف حُسْن المعاملة.

والثاني: شمول حُسْن المعاملة.

والله الموفّق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

أولاً: تعريف حُسْن المعاملة:

حسن المعاملة: هو وفاء الإنسان بما أبرمه من عقود مع الآخرين مع الرّفق بهم والإحسان إليهم. هذا في الناحية الدنيوية.

أمّا فيما يتعلّق بأمور الآخرة فَتَعْني أن يَصْدقَ الإنسانُ في تعامله مع خَالِقه وأن يُخلِصَ نِيَّته في عبادته مصداقًا لقوله ﷺ:

«**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(١)(٢)].

وصفوة القول: الدّين: المعاملة.

ثانيًا: شمول حُسْن المعاملة:

اعلم – **وفّقني اللّهُ تعالى وإيّاك لطاعته** – أن الأمر بحسن المعاملة يتضمّن أمورًا:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «نضرة النعيم» (١٦٢٤/٥).

منها: الوفاء بالعهود والعقود مع الله تعالى:

□ قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٠].

قال العلامة **السَّعدي** – رحمه الله – :

«قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ ﴾ هو ما عهده إليهم من الإيمان به، وبرسله، وإقامة شرعه، ﴿ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ وهو المجازاة على ذلك[1].

والمراد بذلك: ما ذكره اللّهُ في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي ﴾ إلى قوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢] »[2] ا.هـ.

□ وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

ومنها: الوفاء بالعهود والعقود مع الناس:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ ﴾ [المائدة: ١].

قال **الحسنُ** – رحمه الله – : «يعني بذلك عقود الدَّين وهي ما عقده الْمَرْءُ على نفسه؛ من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وَعتْق وتدبير وغير ذلك من الأمور، ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة؛ وكذلك ما عَقَده على نَفْسه للّه من الطّاعات؛ كالحجِّ والصّيام والاعتكاف والقيام والنّذور وما أشبه ذلك من طاعات مِلّة الإسلام. وأمّا نذر المباح فلا يلزم بإجماع من الأُمّة؛ قاله ابْنُ العربي[3].

ومنها: البعد عن الغشّ والتدليس وعدم إخسار الكَيْل والميزان:

□ قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ١ – ٣].

---

(١) بالثواب والجنة.

(٢) «تفسير السّعدي» (٥٠).

(٣) «تفسير القرطبي» (٦/٥).

- وعن أبي صفوان سُويد بن قيس ﷺ قال:

جَلَبْتُ أنا وَمَخْرَمَةُ العَبْدي بَزًّا[١] من هَجَر، فجاءنا النبيُّ ﷺ، فسَاوَمَنا بِسَرَاوِيلَ وعندي وَزَّانٌ يَزِنُ بالأَجْرِ، فقال النبيّ ﷺ للوزّان:

«**زِنْ وأَرْجِحْ**»[٢].

ولمّا علم الصَّالحون هذا التهديد والوعيد كانوا من أشدّ الناس تحرّيًا للحلال، وأخوفهم من الحرام.

رأى الفضيلُ بن عِياض وَلَدَه وهو ينظِّف شيئًا قبل وَزْنه، فسأله:

ماذا تَصْنع؟

قال: أخشى أن أزيد الوزن على الناس!!

فقال الفضيل: «**إن عملك هذا أفضل من حَجَّتَيْن وعشرين عُمْرة!**».

وكانوا يعظمون شأن الحلال جدًّا.

قال **يونس بن عُبَيْد**: «لو أصبتُ درهمًا حلالاً من تجارة لاشتريتُ به بُرًّا ثم صيّرتُهُ سَوِيقًا ثم سَقَيْتُه الْمَرْضَى!»[٣].

ومنها: التَّيْسيرُ في البيع والشراء:

- قيل لعبد الرحمن بن عوف ﷺ: ما سببُ يَسَارِك؟

قال: «ثلاثٌ: ما رددتُ رِبْحًا قطُّ، ولا طُلب مني حَيوانٌ فأخّرتُ بَيْعه، ولا بعْتُ نَسيئة. ويقَالُ: إنّه باع ألفَ ناقة فما ربح إلا عُقُلَها[٤]، باع كلَّ عِقَالٍ بِدِرْهَم فربح فيها ألفًا، وَرَبح من نفقته عليها لِيَوْمِه ألفًا!»[٥].

---

(١) بَزًّا: ضربٌ من الثياب.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٣٣٦)، والترمذي (١٣٠٥) واللفظ له.

(٣) «صفة الصفوة» (٣/٢٠٦).

(٤) الحبل الذي يعقل به الحيوان.

(٥) «الإحياء» (٢/٨٠).

□ وعن أبي مسعودٍ البدريّ رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **حُوسِب رَجلٌ مِمّن كان قبلكم، فلم يُوجد له من الْخَيْر شَيءٌ، إلا أنه كان يُخالِط النّاس**[1]**، وكان مُوسِرًا، فكان يأمر غِلْمَانه أن يتجاوزوا عن الْمُعْسِر. قال اللّهُ عز وجل: نحن أحَقُّ بِذَلك منه، تجاوَزُوا عنه** »[2].

ومنها: حُسْنُ مُعَامَلة الوالدين:

قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

قال الإمام **القرطبيُّ** – رحمه الله – :

« مِن البرّ بهما والإحسان إليهما: ألا يتعرّض لسبّهما ولا يعقهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف » ا.هـ[3].

ولقد بلغ السَّلفُ في برّهم للوالدين أعلى الدّرجات.

قال **الشّعْبيُّ** – رحمه الله – :

« ما أدركتُ أُمّي[4] فأَبِرُّها، ولكن لا أَسُبُّ أحَدًا فَيَسُبُّها!! » .

فانظر – يا أخي – إلى هذا البرّ الذي امتدّ حتّى بعد الموت، وقارن بينه وبين عقوق – اليوم –[5].

ومنها: حسن معاملة الزّوجة:

قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩].

---

(١) يخالط الناس: يعاملهم بالبيوع والمداينة.

(٢) رواه مسلم (١٥٦١).

(٣) « تفسير القرطبي » (٢١٥/١٠).

(٤) أي أنها ماتت في صغره.

(٥) انظر: صفة « برّ الوالدين » .

قال الإمام **الفخر** – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

«كان القوم يسيئون معاشرة النساء فقيل لهم: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، قال الزجاج: هو النصفة في المبيت والنفقة، والإجمال في القول»ا.هـ[1].

ولا يخفى: أن حُسن صحبة النساء، أَهْدَأُ لِلنَّفْس، وأهْنَأُ لِلْعَيْش.

ومنها: حُسن معاملة الأولاد:

ويكون ذلك: بحسن تربيتهم، والعطف عليهم، ورعايتهم، وهذا الإحسان: من الجهاد، ومن موجبات الجنة![2].

ومنها: حسن معاملة الجار:

فالجار جَار وإن جَار، والإحسان إليه لا يكون بكفّ الأذى عنه، ولكن بتحمّل الأذى منه[3].

ومنها: حسن معاملة اليتيم:

فإن ذلك من موجبات المغفرة، ونيل الدّرجات العُلى، ويكفي قولُ نبيِّك في «حديث صحيح»:

«**أنا وكافل اليتيم في الجنّة كهاتين**» وأشار بالسبَّابة والوسطى، وفرّق بينهما قليلاً.

فأيّ فضل بعد هذا؟[4].

ومنها حُسْن معاملة الخادم:

فعن أبي مسعود البدريّ، قال:

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٥/١٠١).

(٢) انظر: صفة «الزّواج» فهناك مزيد بيان.

(٣) سيأتي الحديث عن «الإحسان إلى الجار» مفصّلاً.

(٤) سيأتي الحديث عن «الإحسان إلى اليتيم» إن شاء الله.

كنتُ أضربُ غلامًا لي بالسَّوْط، فسمعتُ صَوْتًا من خَلْفِي:

« **اعْلَمْ أبا مَسْعُود** ».

فلم أفهم الصَّوْت من الغضب، فلمّا دَنَا مِنِّي، فإذا هو رسولُ الله ﷺ فإذا هو يقول:

« **اعْلَمْ أبا مَسْعُود، اعْلَمْ أبا مَسْعُود** ».

قال: فألقيتُ السَّوط من يدي، فقال:

« **اعْلم أبا مسعود أنّ الله أقْدَر عليك مِنك على هذا الغلام** ».

فقلت: لا أضربُ مَمْلُوكًا بعده أبدًا.

وفي رواية: فسقط السَّوْط من يدي من هيبته.

وفي رواية: قلتُ: يا رسول الله، هو حرٌّ لوجه الله تعالى، فقال:

« **أمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفحَتْك النّار**[١]**، أو لَمَسَّتْك النّارُ** »[٢].

قصّةٌ من الواقع المعاصر:

حَكَى لي من أثق فيه: أن جدِّي الشيخ حُسَيْن نور الدين - رحمه الله - وكان واعظًا بكّاءً، رقيق القلب، سريع الدّمعة، محبوبًا، كان عنده خادمة، وذات يوم فعلت شيئًا أغضبه، فلطمها لطمةً « خفيفة » - لم توجعها - ولمّا انتهى من لَطْمَته، اعتراه خوفٌ شديد، فدخل حُجْرَته، وأغلق الباب على نفسه، وأخذ في البكاء، ودخل عليه بعضُ محبِّيه، وسأله عن سبب بكائه، فأخبره بما حدث، قائلاً - فيما معناه - :

« إنّي أخافُ مِنْ غَضَبِ رَبِّي عَليَّ ».

ولم تهدأ نَفْسُه إلا بعد أن دخلت عليه الخادمةُ وهي تضحك وتقول: سامحتُك يا سيِّدي، فاعتذر لها، وأعطاها مبلغًا كبيرًا من المال، تطييبًا لنفسها!.

---

(١) لفحتك: أحرقتك.

(٢) رواه مسلم (١٦٥٩).

إنّها الرّحمة التي صنعها الإيمانُ الحيّ.

ومنها: حُسْن معاملة الحيوان:

امتدت رحمةُ الإسلام حتى طالت الحيوان الأعجم - ولكن أهل الجحود لا يعلمون - وقد ذكرنا طرفًا من ذلك في صفة «الرحمة».

ويكفي أن نشير - هنا - إلى موقف واحد:

قال **الشّعرانيُّ** - رحمه الله - :

«كان محمد بن واسع[1] - رحمه الله - يقول: لا يبلغ العبدُ مقامَ الإحسان حتى يُحسن إلى كُلّ من صَحِبَه ولو ساعة. وكان إذا باع شاةً يُوصي بها الْمُشْتَرى ويقول: قد كان لها مَعنا صُحْبة!»[2].

إيه يا رجال... إلى هذا الحدّ وصلْتُم ؟! ... بارك اللّهُ في دينٍ أرشدكم، وفي نبيٍّ علّمكم.

أخي:

هذه هي أخلاقُ الإسلام، فَسِرْ على هَدْيِها، وتمسّك بها، وفّقني اللّهُ تعالى وإيّاك.



(١) من خيار التابعين.

(٢) «تنبيه المغترين» (٣١).

٩٩- حِفْظُ الأَيْمان

اعلم: أن من تمام الإيمان: حفظ الأيمان. قال تعالى:

﴿ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ ﴾ [المائدة: ٨٩]. قال الإمام **الماورديُّ** - رحمه الله - :

« قوله تعالى: ﴿ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ ﴾ **فيه ثلاث تأويلات:**

أحدُهما: احفظوها أن تَحْلفوا.

والثاني: احفظوها أن تَحْنَثُوا.

والثالث: احفظوها لِتَكَفِّرُوا »[١] ا.هـ[٢].

ولموقع الأَيْمان من الإيمان، فالحديث عن « الأيمان » يدور حول **أمرين:**

الأوّل: تعريف اليمين.

والثاني: أقسامه.

والله الموفّق لما يُحب ويرضى.

أولاً: تعريف اليمين:

اليمين « **لُغة** » : الحلف والقسم، والجمع أيمن وأيمان، وسُمِّيت بذلك لأنهم كانوا إذا تحالفوا ضرب كُلُّ امرئ بيمين صاحبه.

و « **شرعًا** »: توكيد الشيء بذكر اسم أو صفة لله تعالى[٣].

ثانيًا: أقسام اليمين:

تنقسم الأيمان إلى **قسمين:**

---

(١) ستأتي كيفية تكفير اليمين بعد قليل.

(٢) « الحاوي الكبير » للماورديّ (١٩/٣١١).

(٣) مثل: « لِعَمْر الله » والعُمر - فتح العين وضمها - : الحياة.

أيمان مشروعة. وأيمان ممنوعة.

فالأيمان المشروعة:

لا تكون إلا بذِكْر اسم الله أو صِفَة من صفاته، كقول الحالف:

والله.

وَرَبِّ الكعبة.

وأيْمُ الله(١).

ومقلّب القلوب.

وبالله.

وتالله.

والذي نفسي بيده.

والذي لا إله غيره.

وهذه الأَيْمان كان النبيُّ ﷺ يَحْلِفُ بها.

أمّا قوله: «لاهَا الله إذًا» فيؤخذ منه مشروعيّته من تقريره لا من لفظه إذ هو من كلام أبي بكر ﷺ(٢).

وأمّا الحَلِفُ بالقرآن:

فقد ذهب جمهور أهل العلم إلى جواز الحلف بالقرآن باعتبار أن القرآن كلام الله تعالى، والكلام صفة من صفاته - سُبحانه - .

وقد تقدّم بيان جواز الحلف بصفات الله ﷻ، وخالف في ذلك المتقدّمون من الحنفية فقالوا:

---

(١) وايم الله: أي: والله. وقيل معناها: ويمين الله.

(٢) انظر: «صحيح البخاري» حديث رقم (٤٣٢١).

لا يحلف بالقرآن.

بينما المتأخّرون منهم كابن الهمام والعيني على مذهب الجمهور وهو جواز الحلف بالقرآن[١].

هذا، ويكره الإفراط في الحلف بالله تعالى، لقوله ﷻ:

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

ولقوله تعالى: ﴿ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ ﴾ [المائدة: ٨٩].

ولقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم: ١٠].

وهذا، والأيمان تنقسم إلى أربعة أنواع:

الأوّل: يمين غموس:

وهي اليمين التي يُحلف بها على أمرٍ في الماضي أو الحال كذبًا.

وسُمِّيت غموسًا لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم:

روى البخاري، وغيره عن عبد الله بن عمرو، عن النبيّ ﷺ قال:

« **الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس** ».

النوع الثاني: يمين لغو:

وهي اليمين التي تجري على لسان الحالف من غير قصد القسم.

وهذه اليمين لا كفّارة فيها ولا مؤاخذة عليها.

قال تعالى: ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وقد حتلف العلماء في المراد « باللّغو » في الآية على أقوال، وأصحّ ما ورد فيها قولُ

---

(١) « مختصر فقه الأيمان » لأبي مصعب عصام جاد (٣٣).

عائشة - رضي الله عنها -: إن رسول الله ﷺ قال:

«هو **كلامُ الرَّجُل في بَيْته: كلا والله، وبَلَى والله**».

وأخرج عبد الرزّاق في «مصنّفه» **بسند صحيح** عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

«هم القوم يتدارؤن في الأمر يقول هذا: «لا والله»، و «بلى والله»، و «كلا والله» يتدارؤن في الأمر لا يعقد عليه قلوبهم».

النوع الثالث: يمين مُنعقدة:

وهي اليمين التي يعقد عليها الشّخص قلبه أوّلاً ثم يُخبر عمّا انعقد عليه قلبه بلسانه، ويمكن إجمال الشّروط التي يجب أن تتوافر في اليمين حتى تكون مُنعقدة في الآتي:

١- القصد والنّية.

٢- الاختيار: لأن المُكْرَه لا مؤاخذة عليه.

٣- أن تكون على المستقبل: لأن اليمين على الماضي ليس فيها كفّارة على الصّحيح.

٤- ألا يكون القسم بمخلوق[1].

وهذه اليمين هي التي يجب فيها الكفّارة عند الحنث. قال تعالى:

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٨٩].

وعلى ما تقدّم:

فمن حنث في يمين منعقدة فعليه:

أ- إطعام عشرة مساكين - بأي نوع من أنواع الطعام - وجبة واحدة على الراجح -

(١) «مختصر فقه الأيمان» (٢٨) باختصار.

لكل مسكين[١]. أو كسوتهم: والكسوة : هي التي تجزئ في الصلاة[٢]. أو تحرير رقبة مؤمنة كما قيِّدت في غير هذا الموضع.

ب- فمن عجز عن الإتيان بأحد الخصال الثلاث المتقدّمة «فصيام ثلاثة أيام» متفرّقين أو مجتمعين.

هذا، وقد قال النبيُّ ﷺ لعبد الرحمن بن سَمُرة:

« ... **وإذا حَلَفْتَ على يمين فرأيتَ غَيْرها خَيْرًا منها، فَكَفِّر عَن يَمِينك وَائتِ الذي هو خَيْرٌ**»[٣].

النوع الرابع: يَمِينُ الصَّبْر:

وهي التي يكون الرّجلُ فيها مُتعمّدًا الكذب قاصدًا لإذهاب مال المسلم، وَسُمِّيَت به لصبر صاحبه على الإقدام عليها مع وجود الزّواجر مِنْ قَلْبه.

عن ابن مسعود ﷺ عن رسول الله ﷺ قال:

«**مَنْ حَلَفَ على يَمينِ صَبْرٍ يقتطعُ بها مالَ امْرئٍ مُسْلِمٍ، هو فيها فاجِرٌ، لَقِيَ الله وهو عليه غَضْبَانُ**».

قال: فدخل الأشعث بن قيس فقال:

ما يُحدّثكُم أبو عَبْد الرّحمن[٤]؟

قالوا: كذا وكذا.

قال: صَدَق أبو عبد الرحمن. فِيَّ نزلَتْ. كان بيني وبين رجلٍ أرضٌ باليمن. فخاصمتُه إلى النبيّ ﷺ فقال:

---

(١) إذا أخرج مالاً بدل الطعام لا يجزئ على الراجح.

(٢) أي: تستر العورة.

(٣) رواه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢) واللفظ له.

(٤) يعني: ابن مسعود ﷺ.

«**هل لَكَ بَيِّنة؟**».

فقلتُ: لا.

قال: «**فَيَمينُه**».

قلتُ: إذن يَحْلف.

فقال رسولُ الله ﷺ عند ذلك:

«**مَنْ حَلَف على يمين صَبْرٍ يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو فيها فاجِرٌ، لَقِيَ الله وهو عليه غَضبانُ**» فنزلت:

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا** ﴾ (الآية) [آل عمران: ٧٧] (١).

أمَّا الأَيْمان الممنوعة:

فهي الأيمان التي يحلف فيها المسلمُ بغير الله تعالى:

فعن ابن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجُلاً يقول:

لا والكعبة، فقال ابنُ عمر:

لا يُحْلف بغير الله، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«**مَنْ حَلف بغَيْر الله فقد أشْرك**» (٢).

وليس المراد بالشّرْك هنا: الشّرك المخرج من الملة إلا إذا كان الحالف يعتقد تعظيم ما يَحْلف به من دون الله.

ومن الحلف بغير الله:

(١) الحلف بالآباء والأنداد وغيرهما:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«**لا تَحْلفوا بآبائكم ولا بأمّهاتكم ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تَحْلِفوا إلا**

---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٦، ٦٦٧٧)، ومسلم (١٣٨) واللّفظ له.

(٢) صحيح: رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٢٠٤).

وأنتم صادقون »[١].

(٢) الحلف بملّة غير ملّة الإسلام:

فعن بُريدة الأسلميّ، قال:

قال رسول الله ﷺ:

« **مَنْ حَلَف فقال: إني بريء من الإسْلام، فإن كان كاذبًا فهو كما قال: وإن كان صادقًا فلن يَرْجِعَ إلى الإسلام سَالِمًا** »[٢].

(٣) الحلف بالأمانة:

فعن بُريدة - أيضًا - قال:

قال رسول الله ﷺ:

« **مَنْ حلف بالأمَانة فليس منّا** »[٣].

ومعنى: « **ليس منّا** » أي: ليس على طريقتنا، أو ليس من جملة المتقين.

(٤) الْحَلِف بالكَعْبة:

فعن قتيلة بنت صيفي: أن يهوديًا أتى النّبيَّ ﷺ فقال:

إنكم تُندّدون، وإنكم تُشركون، تقولون: « ما شاءَ اللّهُ وشئْتَ »، وتقولون: « والكعبة »، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: « **وربّ الكعبة** » ويقولون « **ما شاء اللّهُ ثم شئتَ** »[٤].

(٥) الحلف باللاتِ والْعُزّى:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال:

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وغيره.

(٢) صحيح: رواه أبو داود، وغيره.

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وانظر: « الصحيحة » (٩٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد والحاكم وغيرهما.

«مَنْ حَلف فقال في حلف: واللات والْعُزَّى فليقلْ: لا إله إلا الله، وَمَنْ قال لصاحبه: تعالى أُقَامِرُك فَلْيَتَصدَّق بشيء»(١).

قال صاحبُ كتاب «**مختصر فقه الأيمان**» - عقب هذا الحديث - :

«في هذا الحديث بيان أن من حلف باللات والعُزّى فليقل: «لا إله إلا الله»، وليس ذلك خاصًّا بهما، وإنّما الحكم عام في غيرها من الآلهة الباطلة، وإنّما خصّ في هذا الحديث: «اللات والعزّى» لأن العرب كانت تعبدهما.

وذهب بعضُ أهل العلم إلى أن من حلف باللات والعزّى أو غيرهما من الآلهة الباطلة - على سبيل التعظيم - أنه يكْفُر، أما إذا كان الحلف على سبيل ما جرت عليه ألسنتُهم أو كان سهوًا أو غفلة فلا يكفر، وإنما كفّارة ذلك أن يقول: «لا إله إلا الله» استدراكًا لما فاته من تعظيم الله تعالى»ا.هـ(٢).

تنبيهات مُهمّة:

الأول: «الحلف بأيمان المسلمين لا يلزمُ به شيءٌ»(٣).

الثاني: «من حلف فقال: إن فعلتُ كذا فعليّ صيام شهر أو الحج إلى بيت الله الحرام. أو قال: إن فعلتُ كذا فالحلال عليّ حرام. أو قال: إن فعلتُ كذا فكلّ ما أملكه صدقة. فهذا وأمثاله فيه كفّارة يمين متى حنث وهو أظهر أقوال العلماء»(٤).

الثالث: من حلف فاسْتَثْنى(٥)، فلا حَنِثَ عليه.

فعن ابن عمر، قال:

قال رسول الله ﷺ :

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) «مختصر فقه الأيمان» (١٩).

(٣) «فقه السّنة» للشيخ السيد سابق (٣/٨٠).

(٤) نفس المرجع.

(٥) يعني قال: «إن شاء الله».

« مَنْ حَلف فاسْتَثْنى، فإن شاء مَضَى، وإن شاء تَرك غير حَنِثٍ »[١].

وعنه ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« مَنْ حلف على يمينٍ، فقال: إن شاء الله، فهو بالخيار، إن شاء مَضَى، وإن شاء تَرَك غَير حَنِثٍ »[٢].

أخي:

هذه أحكام الإسلام، فتمسّك بها، واحفظ أيمانك، وفّقني الله تعالى وإيّاك للصّواب.

۞۞۞۞۞

(١) صحيح: رواه النسائي، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٦٢٠٦)

(٢) صحيح: رواه النسائي، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٦٢١١).

١٠٠- غَضُّ الْبَصَرَ

قال الإمام **القرطبيُّ** - رحمه الله - : «الْبَصَرُ: هو البابُ الأكبرُ إلى القلب، وأَعْمَرُ طُرُق الحواس إلَيْه، وبحَسَب ذلك كَثُرَ السُّقُوطُ مِنْ جهته، وَوَجَبَ التحذيرُ منه، وَغَضُّهُ واجبٌ عن جميع المحرَّمات. وكلّ ما يُخْشَى الفتنةُ مِنْ أجْله»ا.هـ[1].

ولأهمّية غضّ البصر وخطورة إرساله، فالحديث - هنا - يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأوّل: معنى غَضّ البصر.

والثاني: التحذير من إطْلاقه.

والثالث: فوائد غَضّه.

والله أسأل التوفيق لطاعته.

أوّلاً: معنى غضّ البصر:

معنى غضّ البصر: «أن يُغْمِضَ المسلم بَصَره عمّا حُرِّم عليه، ولا ينظر إلا لما أُبيحَ له النَّظَرُ إليه، ويدخلُ فيه أيضًا: إغْمَاضُ الأَبْصَار عن المحارم، فإن اتَّفَق أن وَقَع الْبَصَرُ على مُحَرَّم من غيرِ قَصْدٍ فَلْيَصْرِفْ بَصَرَهُ سَرِيعًا»[2].

وقال الإمام **ابن تيمية** - رحمه الله - :

«قد أمر اللّهُ في كتابه بغضِّ الْبَصَر وهو **نوعان**: غضّ البصر عن العورة، وغضّه عن محالّ الشّهوة.

فالأوّل منهما: كَغَضِّ الرجل بَصَره عن عورة غيره، كما قال النبيُّ :

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢٠٦/١٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥٩٨/٢) بتصرّف.

«**لا ينظرُ الرّجُلُ إلى عَوْرَة الرّجل ولا المرأةُ إلى عَوْرَةِ المرأة**»[(١)].

ويجب على الإنسان أن يستر عورته.

وأما النَّوع الثاني: فهو غضّ البصر عن الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية، وهذا أشدّ من الأوّل»ا.هـ[(٢)].

ثانيًا: التحذير من إطلاق البصر:

اعلم: أن النظر بريد الزّنا، وباب واسع إليه، وهو سبب كُلّ بلاء وشر:

كُلّ الحوادث مَبْدأُها النّظر ... ومُعْظَم النّار من مُسْتَصْغر الشَّرر

لذا جاءت الآياتُ والأحاديث والآثار تأمر بغضّ البصر وتحثّ عليه، وتنهي عن إرساله وتُنفّر منه:

- قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ......﴾ [النور: ٣٠، ٣١].
- وعن أبي سعيد ﵁ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إيّاكُم والجلوسُ في الطّرقات**».

فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ، نتحدّثُ فيها.

فقال: «**فإذا أَبَيْتُم إلا المجلس فأعْطُوا الطّريقَ حَقّه**».

قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟

قال: «**غَضُّ الْبَصَرِ، وكَفُّ الأَذَى، ورَدُّ السَّلام، والأمْرُ بالمعروف والنَّهْيُ عن المنكر**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٣٣٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤١٤/١٥).

(٣) رواه البخاري (٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١).

■ وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال:

« سألتُ رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أَصْرِفَ بَصَري »[(١)].

■ وعن أبي سعيد ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

« يا مَعْشَرَ النِّساء إذا سَجَد الرِّجَالُ فاغْضُضْن أبصارَكُنّ، لا تَرَيْنَ عَوْراتِ الرِّجال من ضِيقِ الأُزُرِ »[(٢)].

■ وعن بُرَيْدة الأَسْلميّ، قال:

قال رسول الله ﷺ لعليّ:

« يا عليُّ، لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فإنّ لك الأُولى وليست لك الآخِرة »[(٣)].

■ وعن ابن مسعود ﷺ قال:

« حِفْظُ الْبَصَرِ، أشدُّ من حِفْظِ اللّسان »[(٤)].

■ وعن سعيد بن أبي الحسن. قلتُ للحسن:

« إنّ نساءَ العَجَمِ يَكْشِفْنَ صُدورَهُنّ ورؤوسَهُنّ »، قال:

اصْرِفْ بَصَرَكَ، يقول اللّهُ تعالى:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠] »[(٥)].

ثالثاً: فوائد غضّ البصر:

قال الإمام **ابن القيِّم** - رحمه الله - :

---

(١) رواه مسلم (٢١٥٩).

(٢) **صحيح** : رواه أحمد (٣/٢٩٣)، وغيره.

(٣) **حسن** : رواه أبو داود (٢١٤٩)، وغيره.

(٤) « الورع » لابن أبي الدنيا (٦٢).

(٥) « فتح الباري » (١١/٩).

«وفي غَضِّ البصر عدة فوائد:

الفائدة الأولى:

تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حَسْرَتُهُ، فأضرّ شيءٍ على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتدّ طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه. قال الأصمعي: رأيتُ جارية في الطواف كأنها مهاة، فجعلتُ أنظر إليها وأملأ عيني من محاسنها فقالت لي:

يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنتَ متى أرسلتَ طرْفك رائدًا ... لقلبك يومًا أتعبتْك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كله أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السَّهْمُ في الرّمية، فإن لم تقتلْه جرحته، وهي بمنزلة الشّرارة من النار تُرْمَى في الحشيش اليابس، فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه، كما قيل:

كلُّ الحوادثِ مبدأها من النّظر ... ومعظمُ النار من مُسْتَصغرِ الشَّررِ
كم نظرةٍ فتكتْ في قلب صاحبها ... فتْكَ السهام بلا قوسٍ ولا وَتَرِ
والمرءُ ما دام ذا عينٍ يقلّبها ... في أعين الغِيد موقوفٌ على الخَطَرِ
يسرُّ مقلتَه ما ضرَّ مهجتَه ... لا مرحبًا بسرورٍ عاد بالضَّررِ

والناظر يَرْمِي من نظرهِ بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر، فهو إنما يرمي قلبه، ولي من أبيات:

يا راميًا بسهام اللّحْظ مُجتهدًا ... أنت القتيلُ بما ترمي فلا تُصبِ
وباعثَ الطرْف يرتاد الشفاء له ... توقَّهُ إنه يأتيك بالعَطَبِ

وقال الفرزدق:

تزوَّد منها نظرةً لم تدع له ... فؤادًا ولم يشعر بما قد تزودَا
فلم أرَ مقتولاً ولم أرَ قاتلاً ... بغير سلاح مثلها حين أقصدَا

وقال آخر:

ومن كان يُؤتَى من عدوٍّ وحاسدٍ ... فإنيَ من عيني أُتيتُ ومن قلبي
هما اعتوراني نظرةً ثم فكرةً ... فما أبقيا لي من رقادٍ ولا لُبٍّ

وقال آخر:

رماني بها طرْفي فلم تخْط مقلتي ... وما كل من يُرمى تُصاب مقاتلهْ
إذا متُّ فابكوني قتيلاً لطرْفه ... قتيلَ صديقٍ حاضرٍ ما يزايلهْ

وقال ابن المعتز:

مُتيَّمٌ يرْعى نجم الدُّجى ... يبكي عليه رحمة عاذلهْ
عيني أشاطتْ بدمي في الهوى ... فابكوا قتيلاً بعضُه قاتلهْ

ومثله للمُتَنبِّي:

وأنا الذي اجتلبَ المنيةَ طرفُه ... فمن المُطالِبُ والقتيل القاتلُ

وقال أيضًا:

يا نظرةً نفت الرقادَ وغادرتْ ... في حدِّ قلبي ما بقيت فُلولا
كانت من الكحْلاء سؤلي وإنما ... أجَلي تمثَّل في فؤادي سُولا

وقال أيضًا:

وقى الأمير من العيون فإنه ... ما لا يزول ببأسه وسخائه
يستأسر البطلَ الكميَّ بنظرةٍ ... ويحول بين فؤاده وعزائِه

وقال الصوري:

إذا أنت لم ترْعَ البروقَ اللوامحا ... ونمتَ جرى من تحتك السيلُ سائحَا
غرستَ الهوى باللحْظ ثم احتقرتَه ... وأهملتَه مستأنسًا متسامحًا
ولم تدرِ حتى أينعت شجراتُه ... وهبَّت رياحُ الوجد فيه لواقحا
فأمسيتَ تستدعي من الصبر عازبًا ... عليك وتستدني من النوم نازحا

ودخل أصبهان مُغنٍّ فكان يتغنى بهذين البيتين:

سمعـــاً يـــا عـــباد الله مـــني ... وكفـــوا عـــن ملاحظـــة المِـــلاحِ
فـــإن الحـــبَّ آخـــرُه المـــنايا ... وأولـــــه شـــبيةٌ بالمـــزاحِ

وقال آخر:

وشـــادنٍ لَمّـــا بـــدا ... أسْـــلمني إلى الـــرَّدى
بظـــرفِه ولطفِـــه ... وطـــرفه لَمَّـــا بـــدَا
أردتُ أن أصـــيدَه ... فصـــاد قلـــبي وعـــدَا

وقال آخر يعاتب عينه:

والله يـــا بصـــري الجـــاني على جسدي ... لأطفـــئنَّ بدمعـــي لوعـــةَ الحـــزنِ
تـــالله تطمـــع أن أبكـــي هـــوًى وضنًى ... وأنـــت تشـــبع مـــن غمضٍ ومن وسَنِ
هـــيهات حـــتى تـــرى طَـــرْفًا بلا نظرٍ ... كمـــا أرى في الهـــوى شخصًـــا بلا بدنِ

وقال آخر:

يـــا مَـــنْ يـــرى سَـــقمي يـــزيـــ ... ـــد وعلَّـــتي أعيـــتْ طبـــيبي
لا تعجـــبَنَّ فهكـــذا ... تجـــني العـــيونُ عـــلى القلـــوبِ

وقال آخر:

لواحظُـــنا تجـــنى ولا علْـــم عـــندنا ... وأنفســـنا مـــأخوذةٌ بالجرائـــرِ
ولم أرَ أغـــبى مـــن نفـــوس عفـــائف ... تصـــدِّق أخـــبارَ العـــيون الفواجـــرِ
ومـــن كانـــت الأجفـــانُ حجَّابَ قلبه ... أذن عـــلى أحشـــائه بالفواقـــرِ

وقال آخر:

ومســـتفتحٍ بـــاب الـــبلاء بـــنظرةٍ ... تـــزوَّد مـــنها قلـــبُه حســـرة الدهـــرِ
فـــوالله مـــا قـــدري أيـــدري بما جَنَتْ ... عـــلى قلـــبه أم أهلكـــتْه ومـــا يـــدرِي

وقال آخر:

أنــا مــا بــين عدويــن هما قلبي وطرْفي ينظر الطرف ويهوى القلب والمقصود حتْفي

وقال الخفاجي:

رمــتْ عيــنُها عــيني وراحت سليمة فمَــنْ حــاكم بــين الكحــيلة والعبرى
فــيا طــرف قــد حذَّرتك النظرةَ التي خلســتَ فمــا راقبــتَ نهــيًا ولا زجرا
ويــا قلــب قــد أرْداك طــرفي مــرةً فويحــك لِــمَ طاوعــته مــرةً أخــرى

ولي من أبيات لعل معناها مبتكر:

ألم أقــل لــك لا تســرق ملاحظــةً فسارقُ الـلحظ لا يــنجو من الدَرَكِ
نصــبتُ طــرفي له لما بــدا شَــركًا فكــان قلــبي أوْلى مــنه بالشَــرَكِ

الفائدة الثانية:

أنه يورث القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظُلْمة تظهر في وجهه وجوارحه.

ولهذا - والله أعلم - ذَكَر اللّهُ سبحانه أنه النّور في قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [النور: ٣٥].

عقيب قوله:

﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾[النور: ٣٠].

وجاء الحديث مطابقًا لهذا حتى كأنه مشتق منه وهو قوله:

« **النَّظرة سَهْمٌ مَسَمْوم من سهام إبليس، فمن غضَّ بَصَره عن محاسنِ امرأة أورث اللّهُ قلبه نورًا** » الحديث.

الفائدة الثالثة:

أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلبُ صَحّت الفراسة لأنه يصير بمنزلة المرآة المجلوة تظهر فيها المعلومات كما هي، والنظر بمنزلة التنفس فيها،

فإذا أطلق العبد نظره تنفست نفسه الصعداء في مرآة قلبه فطمست نورها، كما قيل:

مــرآةُ قلــبك لا تُــريك صــلاحَه والــنفسُ فــيها دائمًــا تتــنفسُ

وقال **شُجاعُ الكَرَماني**: من عمَّر ظاهره باتِّباع السُّنَّة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصَرَه عن المحارم، وكفَّ نَفْسَه عن الشهوات، وأكل من الحلال لم تخطئ فِراسَتُهُ. وكان «شجاع» لا تُخْطئ له فِراسة.

والله سبحانه وتعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه، فمن غَضّ بَصَرَه عن المحارم عَوّضه اللّهُ سبحانه إطلاق نور بصيرته، فلما حَبَس بَصَره لِلّه أطْلَق اللّهُ نُورَ بصيرته، ومن أطلق بَصَره في المحارم حَبَس الله عنه بصيرته.

الفائدة الرابعة:

انه يفتح له طُرق العلم وأبوابه، ويسهّل عليه أسبابه وذلك بسبب نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائقُ المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلى بعض. ومن أرْسَل بَصَره تكَدَّر عليه قلبه وأظلم، وانسَدّ عليه باب العلم وَطُرقه.

الفائدة الخامسة:

أنه يورث قوّة القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سُلطان الحجة. وفي الأثر: إن الذي يُخالف هواه يَفْرَق الشيطانُ من ظِلّه.

قال **الحسن**: إنّهم وإن هَمْلجت بهم البغال وطقطقت بهم البَرَاذين إن ذُلّ المعصية لفي قلوبهم. أَبَى اللّهُ إلا أن يَذلّ مَنْ عَصَاه.

وقال بعضُ الشيوخ: النّاس يطلبُون العزّ بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله. ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وفيه قسط ونصيب من فعل من عاداه بمعاصيه. وفي دعاء القنوت:

«إنّه لا يَذِلّ من والَيْت، ولا يَعِزّ من عادَيْت».

الفائدة السادسة:

أنه يورث القلب سرورًا وفرحة، وانشراحًا أعظم من اللّذة والسّرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه، وأيضًا فإنه لما كفّ لذّته وحَبَس شهوته لله وفيها مسّرة نفسه الأمارة بالسّوء أعاضه الله سبحانه مسرة ولذّة أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذة العفّة أعظم من لذة الذّنْب. ولا رَيبْ أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذّة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما. وههنا يمتاز العقل من الهوى.

الفائدة السابعة:

أنه يُخَلِّصُ القلب من أَسْر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، فهو كما قيل:

طليقٌ برأي العين وهْو أسيرُ

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار:

كعصفورة في كفِّ طفلٍ يسُومُها حياضَ الرَّدى والطفلُ يلهو ويلعبُ

الفائدة الثامنة:

أنّه يَسُدّ عنه بابًا من أبواب جهنم، فإن النّظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرّب تعالى وشرعه حِجَاب مانع من الوصول، فمتى هتك الحجاب ضرى على المحظور، ولم تقف نَفْسُه منه عند غاية، فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها. وذلك أن لذّتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يقنعه التليد، وإن كان أحسن منه منظرًا وأطيب مخبرًا، فغضّ البصر يسدّ عنه هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة:

أنه يقوّي عَقْله ويزيده ويثبّته، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خِفّة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب. ومرسل النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره، قال الشاعر:

وأعقلُ الناس من لم يرتكب سببًا حتى يفكّر ما تجني عواقُبه

الفائدة العاشرة:

أنه يُخلّص القلبَ من سكر الشهوة ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، كما قال الله تعالى عن عشاق الصور:

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب، وسكر العشق أعظم من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يفيق، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سُكْرانُ سُكْر هوىً وسُكْر مُدامةٍ ومتى إفاقة من به سُكران؟

وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعاف أضعاف ما ذكرنا، وإنما نبهنا عليه تنبيهًا ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلاً إلى قضاء الوطر منه شرعًا، كالمردان الحسان، فإن إطلاق النظر إليهم السم الناقع والداء العضال.

وقد روى الحافظ **محمد بن ناصر** من حديث الشعبي مرسلاً قال:

قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة، فأجلسه النبي ﷺ وراء ظهره، وقال: كانت خطيئة من مضى من النظر.

وقال **سعيد بن المسيب**: إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه.

وقد ذكر **ابن عدي** في «كامله» من حديث بقية عن الوازع عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﷺ قال:

«نهى رسول الله ﷺ أن يحد الرجل النظر إلى الغلام الأمرد».

وكان **إبراهيم النخعي وسفيان الثوري** وغيرهما من السلف ينهون عن مجالسة المردان. قال النخعي: مجالستهم فتنة وإنما هم بمنزلة النساء.

وبالجملة: فكم من مُرسل لحظاته رجع بجيش صبره مغلولاً، ولم يقلع حتى تشحّط بَينهنّ قَتيلاً.

يا ناظرًا ما أقلعتْ لحظاتُه   حتى تَشَحَّط بينهنّ قَتيلا

انتهى كلامُ ابن القيم - رحمه الله - [1].

هذا، ومِمّا يُعين على غَضّ البصر:

(١) **تقوى الله تعالى:**

قال **ابن دقيق العيد** - رحمه الله - :

«إنَّ التَّقوى سَبَبٌ لِغَضِّ الْبَصَرِ، وتَحْصِين الْفَرْج» [2].

(٢) **مراقبة الله تعالى في السِّر والعلانية:**

قال رجلٌ للجنيد - رحمه الله - بم أستعين على غَضّ البصر؟

فقال: «بعلمك أن نظر الناظر إليك - وهو الله - أقرب من نظرك إلى المنظور إليه» [3].

---

(١) «روضة المحبين» (١٠٣- ١١٠).

(٢) «فتح الباري» (١٠٩/٩).

(٣) «الإحياء» (٣٩٧/٤).

(٣) إنقاذ النفس من عواقب النظر:

فمن دامت نظراتُه، طالت حَسَراتهُ، هذا بالإضافة لما يترتب على إطلاق البصر من أضرار أخرى كَظُلْمة البصيرة، وبلادة الذّهن، وتشويش الخاطر، وعبودية الشهوة، وعدم الرضا بالمقسوم ... إلخ.

نسأله الله السَّلامة مِنْ كُلّ إثم.



١٠١- حِفْظُ الْفَرْج

اعلم – يا أخي – أن «حفظ الفرج» أوّل ما وَصّى اللَّهُ به آدمَ عند إهْباطِهِ إلى الأرض!

قال **أبو إدريس الخَوْلانيّ** – رحمه الله –

«أوّل ما وصّى اللَّهُ به آدمَ عند إهباطه إلى الأرض حَفْظُ فَرْجِهِ، وقال: لا تَضَعْهُ إلا في حَلاَل»[1]

والحديث عن «حفظ الفرج» يتناول أمورًا:

الأوّل: معنى حفظ الفرج.

والثاني: أضرار الزّنا.

والثالث: وسائل حفظ الفروج.

والرابع: ثمرات حفظ الفرج.

وأسأل الله – تعالى – أن يحفظ عوراتنا.

أوّلاً: معنى حفظ الفرج:

قال الإمامُ **البغويّ** – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥]

«الفَرْجُ اسْمٌ يجمعُ سوأَةَ الرَّجُلِ والمرأَةِ، وحفْظُ الْفَرْجِ: التعفّف عن الحرام» ا.هـ[2]

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١٦٢).

(٢) «معالم التنزيل» (٣٠٣/١٨).

ثانيًا: أضرارُ الزّنا:

اعلم: أن إطلاق الفرج في الحرام يترتب عليه عدّة أضرار وأخطار، منها:

(١) أن الزّنا دَيْن:

قال ﷺ:

« بِرُّوا آباءكم تَبَرُّكم أبناؤكم، وعِفُّوا تَعِفُّ نساؤكم »(١).

(٢) إقامة الحدّ على الزّاني:

فقد خصّ اللّهُ - تعالى - حدّ الزاني من بين الحدود **بثلاث خصائص:**

الأولى: القتل فيه بأشنع القتلات في حالة الزّاني «المحصن» وعندما يكون جلدًا - أي للزاني غير المحصن - فقد جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وَطَنه سَنَة.

الثانية: نهى اللّهُ تعالى عباده المؤمنين أن تأخذهم بالزُّناة رأفة في دين الله عند إقامة الحدّ.

الثالثة: أنه تعالى أوجب عليهما الفضيحة رغم أنه « ستِّير » يُحبّ السّتر والعفو، لكن لقُبح الزّنا وبشاعته أوجب ذلك ردعًا للغير، فأمر أن يكون الْحَدّ بِمَشْهَدٍ من المؤمنين» ا.هـ(٢).

(٣) تَدْنِيس العِرْض:

فلا يخفى: أن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها، ولوّثت سُمْعة نفسها.

(٤) نزول العقاب الإلهي:

فعن ميمونة - رضي الله عنها - قالت:

---

(١) رواه الطبرانيّ بإسناد حسن.

(٢) « الداء والدواء» لابن القيم (٨٤) باختصار.

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« لا تزال أُمّتي بخيرٍ ما لم يَفْشُ فيهم ولدُ الزِّنا، فإذا فَشَا فيهم وَلَدُ الزِّنا فأوشكَ أن يَعُمَّهم اللّهُ بعذابٍ »[1].

(٥) اختلاط الأنساب:

ففي الزّنا ضياع الأنساب واختلاطها، وتمليك الأموال لغير أصحابها عند التوارث.

روى أبو داود، وغيره عن النبيّ ﷺ أنه قال:

« أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يُدْخِلَها اللّهُ جَنَّته ... ».

(٦) **القتل** - أحيانًا - :

فالزنا أحد أسباب جرائم القتل، فقد لا يجد الغيّور وسيلة يغسل بها العار الذي أصابه إلا سفك الدّم... وقد لا تجد « اللّعوب » وسيلة للتخلص من زوجها إلا بالتآمر عليه لقتله.

وقد تعمد « الزّانية » إلى الجنين الذي تحرّك في أحشاءها فتقتله.

(٧) ظهور الطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافنا:

قال ﷺ:

« لم تظهر الفاحشةُ في قوم قَطُّ حتى يُعْلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأَوْجاع التي لم تكن في أسْلافهم الذين مَضَوْا »[2].

وذكر الأطباءُ أن أكثر الإصابة بمرض الزّهرى، والسّيلان، والقُرحة الرخوة، والتهاب البروستاتا الحادّ والْمُزْمِن[3] سببه الانحراف الجنسي.

---

(١) حسن رواه أحمد، وانظر: « الترغيب » (٣٥٥٧).

(٢) حسن: رواه ابن ماجه.

(٣) والإيدز (فقدان الجسم لمناعته).

(٨) ضياع الإيمان:

قال ﷺ:

«إذا زَنَى الْعَبْدُ خرَج منه الإيمانُ فكان على رأسه كالظُّلَة، فإذا أقْلع رَجَع إليه»[١].

(٩) عذاب الآخرة:

فعن أبي موسى، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطعُ الرّحم، وَمُصدّق بالسِّحر، ومن مات مُدْمن الخمر: سقاه اللّهُ جل وعلا من نَهْر الغُوطَة».

قيل: وما نهرُ الغوطة؟

قال: «نَهْرٌ يَجْري من فروج المومسات يؤذي أَهْلَ النّار رِيحُ فُروجِهم»[٢].

ثالثاً: وسائل صيانة الفروج وحفظها:

ولخطورة «الزّنا» وما يترتب عليه من عواقب، وضع الإسلامُ حصونًا منيعة لصيانة الفروج، منها:

الحَصْنُ الأوّل: غضَ البصر:

فالنظر بريد الزّنا، وهو أوّل باب إليه[٣].

الحِصْن الثاني: المسارعة إلى الزّواج:

فالزواج: أغضّ للبصر وأحصن للفرج.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والحاكم، وانظر: «صحيح الجامع» (٥٨٦).

(٢) رواه أحمد وأبو يعلى، قال الهيثمي في «المجمع» (٥/٧٤) رجال أحمد وأبي يعلى ثقات.

(٣) انظر: صفة «غض البصر».

الحصن الثالث: إتيان الأهل عند رؤية امرأة أجنبية:

فعن جابر، قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

« **إذا أحدُكم أَعْجَبَتْه المرأةُ، فوَقعت في قَلْبِه، فَلْيَعْمَدْ إلى امرأتِه فَلْيُواقِعْها، فإنّ ذلك يَرُدُّ ما في نَفْسه** »[١].

الحصن الرابع: النهي عن الاختلاط:

فتباعد أنفاس الجنسين من أهم الحصون المانعة من الفاحشة.

قال الإمام **ابن القيم** - رحمه الله - في « الطرق الحكمية »:

« ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كلّ بليّة وشرّ ... » اهـ.

الحصن الخامس: النهي عن الخلوة:

والأحاديث الناهية عن ذلك كثيرة، منها:

قوله ﷺ: « **لا يخلون رجلٌ بامرأة إلا كان ثالثُهما الشيطانُ** »[٢].

وكم جرت « الخلوة » علينا من مصائب.

الحصن السادس: النهي عن مصافحة الأجنبية:

والأحاديث الناهية عن ذلك - أيضًا - كثيرة، منها:

قوله ﷺ: « **واليد تزني وزناها البطش** »[٣].

الحصن السابع: إحياء الغَيْرة:

لأن الدِّياثة باب عريض للفاحشة. ومن جعل نفسه عظمًا أكلته الكلاب.

---

(١) رواه مسلم (١٤٠٣).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

لذا حرّم الله تعالى الجنة على الدّيوث.

الحصن الثامن: النّهي عن سَفَر المرأة بدون مَحْرم:

وقد ورد النّهيُ عن ذلك في أحاديث كثيرة: منها:

قوله ﷺ: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها رَجُلٌ ذو حُرْمَةٍ منها**»[1].

الحصن التاسع: الأمر باحتشام المرأة:

فالتبرج دعوة صريحة للزّنا[2].

الحصن العاشر: النهي عن سماع الغناء - المحرّم - ومشاهدة الأفلام الساقطة:

لأن ذلك دعوة للإباحية، وإعانة على كسر حواجز الحياء والفضيلة.

أخي الكريم:

هذه بعضُ الحصون الشرعية المانعة من السّقوط في حمأة الرّذيلة، والتردّي في مُسْتنقعها الآسِن.

أقامها الإسلام: صيانَة لأعراضِنا، وحفاظًا على قِيمَنا، ونجاةً من خِزْي الدُّنيا وعذاب الآخرة.

رابعًا: ثمرات حفظ الفرج:

اعلم: أن للعفّة ثمرات:

منها: دخول الجنة:

فعن عبد الرحمن بن عوف، قال:

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) انظر: صفة «الحجاب» فهناك مزيد بيان.

قال رسول الله ﷺ:

« **إذا صَلَّت المرأة خَمْسَها، وصامتْ شَهْرَها، وحَفِظَتْ فَرْجَها، وأطاعت زَوْجَها، قيل لها: ادْخُلي من أيِّ أبوابِ الجنّة شئت** »[١].

وعن عُبادة بن الصامت، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **اضْمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمنُ لكم الجنّة: اصْدُقُوا إذا حَدَّثْتُم، وأَوْفُوا إذا وَعدتُم، وأَدُّوا إذا اؤْتُمِنتُم، واحفَظُوا فروجَكم، وغضُّوا أبْصارَكم** »[٢].

ومنها: إجابة الدعاء:

يدلّ على ذلك:

دعاء « سارة » ربَّها – لما أُدْخِلَتْ على مَلِك مصر[٣] – قائلة – :

« اللّهم إن كنتَ تعلم أني آمنتُ بك وبرسولِك، وأحصَنْتُ فَرْجِي إلا على زوجي فلا تسلّط عليَّ الكافر ».

فاستجاب لها ربُّها، وأنزل عقابه العاجل بِملك مصر فَشُلّت يَدُهُ، وغُطَّ حتى رَكَضَ برِجْلِه، ثم قالت:

« اللّهم إن يَمُتْ يُقَلْ: هي قَتَلَتْهُ » فأُرْسِل، ثم قام إليها، فدعَتْ عليه ثانية، فشلّت يَدُهُ، وَفعُل به كما فُعِلَ به أوّلاً، ثم دَعت رَبَّها فأُرْسِل، ثم – في المرة الرابعة – أَطْلَق سَراحَها وأَخْدَمها هَاجر، ولم ينل منها شيئًا[٤].

منها: صيانة النفس من خزي الدنيا وعذاب الآخرة:

وقد مَرَّ قريبًا ما يدلّ على ذلك.

---

(١) صحيح: رواه أحمد في « المسند » (١٩١/١)، وانظر: « صحيح الجامع » (٦٧٣).

(٢) رواه أحمد والحاكم وصحّحه، وقال الذهبيّ: فيه إرسال ولكن له شاهد.

(٣) وذلك لما دخل بها إبراهيمُ عليه السلام أرض مصر.

(٤) أصل القصة ورد في أحاديث صحيحة.

ومنها: صيانة النّسل وحفظ العِرْض:

وقد تقدّم قريبًا الدليل على ذلك.

ومنها: نَيْلُ الاستظلال في ظلّ الله تعالى:

فمن السَّبْعة الذين يظلّهم الله - تعالى - في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه:

« .... **ورجل دعته امرأةٌ ذات مَنْصِب وجمال فقال: إني أخاف الله** ».

ومنها: تفريج الكروب:

يدلّ على ذلك: حديثُ « أصْحَاب الغار » عندما انْحدرت عليهم صخرةٌ فَسَدَّت عليهم فَمَ الغار، فدعا كلٌّ واحد منهم بعمل صالح عمله، فَتَوسَّل أحَدُهُم إلى ربِّه ببرّه بوالديه، والثاني: بحفظه لفرجه مع تمكّنه وقدرته، والثالث: بأمانته. ففرّج اللّهُ - تعالى - عنهم، وَرُفِعت الصّخرةُ، وخرجوا يَمْشُون[1].

ومنها: الوقاية من الأمراض المستعصية:

وقد تقدّم: أن الفاحشة أَحَدُ أَسْبَاب نزول الطواعين والأوجاع.

فيا عباد اللّه:

عِفُّــوا تَعِــفُّ نســاؤكم في الْمَحْــرَم ... وتَجَنَّــبوا مـــا لا يَلِـــيقُ بِمُسْـــلمِ

وادعوا ربَّكم:

« اللّهم استُرْ عَوْرَاتِنا، وآمِنْ رَوْعَاتِنا ».

❁❁❁❁❁

---

(١) تقدّم الحديث بتمامه في « صفة التوسّل » فانظره هناك.

١٠٢- الإخاء

اعلم: أن التحابَّ في الله - تعالى- والأخوّة في دينه من أفضل الْقُرُبات، وألطف ما يستفاد من الطاعات، وهي البقية مِمّا يلتذ به في دار الدنيا.

لله ما أحْلى مَحَبَّة كانت قبل الوجود:

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **الأرواح جُنودٌ مُجنّدة، فما تَعارف منها ائْتلَف، وما تناكر منها اختلف** »(١).

وهذه المحبّة منّةٌ من الله ﷻ:

قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ولأهمية الإخاء في الله، فالحديث عنه يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأول: تعريف الإخاء.

والثاني: فضائل الأخوّة في الله.

والثالث: حقوق الأخوّة والصُّحبة.

والله وليّ التوفيق.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

أوّلاً: تعريف الإخاء:

قيل: الإخاءُ: هو مُشاركةُ شَخْص لآخر في الولادة من الطَّرَفَيْن أَوْ مِنْ أحدهما أو من الرَّضَاع، ويُسْتَعَارُ لكلّ مُشَارِكٍ لغَيْرِه في القبيلة أو في الدِّين أو في صَنْعَةٍ أو في مُعَامَلَةٍ أو في مَوَدَّةٍ أو في غَيَر ذلك من الْمُنَاسبات(١).

وقال الإمام **الفَخْر** - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]:

«قال بعضُ أهل اللّغة: الإخوةُ جمع الأخ من النَّسَب، والإخوان جمع الأخ من الصّداقة، فالله تعالى قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ تأكيدًا للأمر وإشارة إلى أنّ ما بينهم ما بين الإخوة من النّسب والإسلام كالأب، قال قائلهم:

أبي الإسْلام لا أبَ لِي سواه ... إذا افْتَخروا بِقَيْسٍ أَوْ تَمِيم

و ﴿ إِنَّمَا ﴾ لِلْحَصْر أي: لا أخوّة إلا بين المؤمنين، وأما بين المؤمن والكافر فلا» ا.هـ(٢).

ثانيًا: فضائل الإخوة:

ورَدَ في فضائل الإخوة أحاديث وآثار كثيرة:

فمن الأحاديث:

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«أن رَجُلاً زار أخًا له في قرية أُخْرى، فَأَرَصد(٣) الله تعالى على مَدْرَجَته(٤) مَلَكًا، فلمّا

---

(١) «نضرة النعيم» (٢/٩٢).

(٢) «مفاتيح الغيب» (١٤/٣٨٥).

(٣) أرصد: أقعد.

(٤) المدرجة: الطريق.

أَتَى عَلَيْه قال: أَيْن تُريد؟ قال: أُريد أَخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نِعْمَة تَرُبُّهَا[١]؟ قال: لا. غير أَنّي أحَبْبتُه في الله. قال: فإنِّي رسولُ الله إليك، بأنّ الله قد أَحَبَّك كما أحْبَبْتَه فيه »[٢].

(٢) وعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« مَنْ عادَ مَرِيضًا، أو زارَ أَخًا في الله: ناداهُ مُنادٍ بأن طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاك، وتبوّأتَ من الجَنَّة مَنزلاً »[٣].

(٣) وعن معاذ بن جبل، قال:

سمعتُ رسولُ الله ﷺ يقول:

« قال اللّهُ تبارك وتعالى: وَجَبَتْ مَحبَّتي لِلْمُتَحابِّين فِيّ، وللمتجالسين فِيَّ، وللمتزاورين فِيّ، وللمتباذلين فِيّ »[٤].

(٤) وعنه ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« إن المتحابِّين بالله في ظِلّ العرش »[٥].

(٥) وعن أنس، قال:

قال رسول الله ﷺ:

« ما تحابَّ اثْنان في الله تعالى إلا كان أفضلهما أشدّهما حُبًّا لِصاحِبه »[٦].

---

(١) تربُّها: أي: تقوم بها وتسعى في صلاحها.

(٢) رواه مسلم.

(٣) حسن: رواه ابن ماجه، والترمذي، وغيرهما، وانظر: « صحيح الجامع » (٦٣٨٧).

(٤) صحيح: رواه مالك، وصحّحه المنذريّ والألباني.

(٥) صحيح: رواه الطبراني في « الكبير »، وأحمد، وغيرهما، وانظر: « صحيح الجامع » (١٩٣٧).

(٦) صحيح: رواه البخاري في « الأدب المفرد »، وغيره وانظر: « الصحيحة » (٤٥٠).

(٦) وعن أبي هريرة، قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**إن من عباد الله لعبادًا يَغْبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ**».

قيل: من هم لعلّنا نحبّهم؟

قال: «**هم قوم تَحَابُّوا بِرُوح الله على غير أموالٍ ولا أنْسابٍ، وجوههم نور، وهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف النَّاس، ولا يحزنون إذا حَزِن النّاس**».

ثم تلا:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢][1].

ومن الآثار:

(١) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«عليك بإخوانِ الصِّدق فَعِشْ في أَكْنافِهم فإنهم زَيْنٌ في الرَّخاء، وَعُدَّةٌ في البلاء»[2].

(٢) وقال رضي الله عنه:

«إذا رَزَقَك اللّهُ وُدَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ فَتَمَسَّكْ به»[3].

(٣) وقال رجلٌ لداود الطّائي:

أوصني؟ قال:

«اصْحَبْ أهلَ التَّقوى، فإنّهم أيْسَرُ أهلِ الدُّنْيا عليك مَئونةً، وأكثُرهم لك مَعُونة»[4].

---

(١) حسن: قال المنذريّ: رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن.

(٢) «كتاب الإخوان» لابن أبي الدنيا (١١٦).

(٣) «المنتقى من مكارم الأخلاق» (١٥٩).

(٤) «كتاب الإخوان» (١٢٤).

ثالثاً: حقوق الأخوّة والصُّحْبة:

اعلم - **يا أخي** - أن لأخيك حقوق عليك، من هذه الحقوق:

الحق الأوّل: في المال:

والمواساة بالمال مع الإخوان - كما قال الإمام الغزالي - على ثلاث مراتب:

أدناها: أن تقوم بحاجته من فضلة مالك.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك.

قال **الحسن**: «**كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه!!**».

الثالثة: - وهي العليا - أن تؤثره على نفسك، وتقدّم حاجته على حاجتك، وهذه رُتبة الصِّديقين[1]

ولله دَرُّ القائل:

إن أخــاك الحــقَّ مَــنْ كــان مَعَــك ... وَمَــنْ يضــرُّ نَفْسَــه ليَــنْفَعَكَ
وَمَــنْ إذا رَيْــبُ زمــانٍ صَــدَعَكَ ... شــتَّتَ فــيه شَــمْلَهُ لــيَجْمَعَك

الحق الثاني: إطعام الإخوان وكسوتهم:

قال أبو **سليمان الدّرانيّ** - رحمه الله -

«لو أن الدنيا كلّها كانت لي في لقمةٍ، ثم جاءني أخ لأحببتُ أن أضعها في فيه!».

وقال: «إني لألْقم اللقمة أَخًا من إخواني فأجد طَعْمَها في حَلْقي!!».

الحق الثالث: الإعانة بالنفس والبدن في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجات الخاصّة:

راجع: صفة «قضاء الحوائج» فهناك مزيد بيان.

---

(١) انظر: صفة «الإيثار».

قصّة:

قال الإمامُ **ابن رجب** - رحمه الله - في «جامع العلوم»:

«كان رجلٌ من الصّالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره، فيشترط عليهم أن يخدمهم، فكان إذا رأى رجلاً يريد أن يغسل ثوبه، قال له:

هذا من شَرْطِي، فيغسله، وإذا رأى رجلاً يريد أن يغسل رأسه، قال له:

هذا من شَرْطِي، فيغسله، فلمّا مات نظروا في يده(١)، فإذا فيها مكتوب:

«مِنْ أَهْلِ الجنّة»، فنظروا إليها فإذا هي كتابة بين الجِلْدِ واللَّحم!!» ا.هـ.

الحق الرابع: النّصيحة:

قال **الأوزاعي** - رحمه الله -:

«سمعتُ بلالَ بْنَ سَعْد بن تميم، يقول: أَخٌ لك كُلّما لَقِيَك ذكّرك بِحَظّك من الله، خَيْرٌ لك من أخٍ كلّما لَقِيَك وضع في كَفّك دِينَارًا»(٢).

وقال **الحسنُ** - رحمه الله -:

«والمؤمن مرآةُ أخيه إن رأى فيه ما لا يُعْجِبُهُ سدَّدَهُ وقوَّمه، وحاطَهُ وَحفظَه في السِّر والعلانية. إنّ لك مِنْ خليلك نصيبًا، وإن لك نصيبًا من ذِكْر من أحببتَ، فَثِقوا بالأَصْحَابِ والإخوان والمجالس»(٣).

مع مراعاة: أن تكون النصيحة: بِرِفْقٍ وفي السِّر.

إذا صاحبتَ فَكُنْ فَتىً كأنّك مَملوكٌ لكلّ رَفيقِ
وكن مثل طَعْم الماء عَذْبًا وباردًا على الكَبِد الْحَرِيِّ لكلّ صَديقِ

---

(١) وفي رواية: في صدره.

(٢) «كتاب الإخوان» (١٥٠).

(٣) نفس المرجع (١٢٨).

واعلم: أن النصيحة أمام الناس فضيحة.

ولله دَرُّ القائل:

سامِحْ أخاك إذا خَلَطَ ... منه الإصابةَ والغَلَطَ
وتجافَ عَنْ تَعْنيفه ... إن زاغ يَوْمًا أو قَسَطَ
واعلمْ بأنّك إن طلبتَ ... مُهذَّبًا رُمْتَ الشَّطَطَ
مَنْ ذا الذي ما سَاءَ قَطُّ ... وَمَنْ له الْحُسْنَى فَقَطُّ

الحق الخامس: العفو عن الزّلات والهفوات:

وهفوة الأخ لا تخلو إمّا أن تكون في دينه بارتكاب معصية، أو في حقك بتقصيره في الأخوّة.

أمّا ما يكون في الدِّين: فعليك التَّلطُّف في نُصْحه بما يقوم أَوْده ويجمع شمله، ويعيد إلى الصّلاح والورع حاله.

فإن أصرّ على انحرافه؛ فإن كانت مقاطعته ستكون سببًا في عودته إلى استقامته، كانت المقاطعةُ أَوْلى من وَصْله، وإن كان وَصْلهُ - مع وَعْظه - سيكون سببًا في إفاقته من غَفْوته، كان الوصل أَوْلى من الهَجْر.

وأما هفواته وتقصيره في حقك: فالواجب التّحَلُّم والتَّحَمُّل، والعفو، والصَّفْح، وليكن شعارك:

سأُلْزِمُ نَفْسي الصَّفْحَ عن كُلِّ مُذْنبِ ... وإن كَثُر منه عليَّ الجرائمُ

وللمزيد: راجع: صفة «العفو».

الحق السادس: الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته:

فعن عبادة ﷺقال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«من استغفَر للمؤمنين وللمؤمنات، كَتَب اللّهُ له بكل مُؤْمنٍ ومؤمنة حَسَنة»[١].

وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول:

«وأين مِثْل الأخ الصّالح؟ أهْلُك يَقْتَسِمون ميراثَك، ويتنعّمون مِمّا خلفت، وهو مُنفرد بِحُزْنِك، مُهتمّ مِمّا قدمت وما صِرْتَ إليه، يدعو لك في ظُلْمة الليل وأنت تحت أطباق الثَّرى!»[٢].

الحق السابق: الوفاء والإخلاص:

ومعنى الوفاء: الثبات على الحبّ وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت، ومع أولاده وأصدقائه، فإن الْحُبّ إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل، وضاع السَّعي.

إنّ الكــريمَ الــذي تَــبْقى مودَّتُــه ويحفــظُ السِّــرّ إنْ صَافَى وإن صَرَما[٣]
لــيس الكــريم الــذي إن زَلّ صاحِبُهُ بَــثّ الــذي كــان مــن أسْرارِه عَلِمَا

وكان بعضُ السّلف يتفقّد عيال أخيه بعد موته أربعين سنة فيقضي حوائجهم!

الحق الثامن: التخفيف وترك التكلّف والتكليف:

وذلك بأن لا يكلّف أخاه ما يشقّ عليه.

قال **عليٌّ** رضي الله عنه :

«شرّ الأصدقاء: من تكلَّف لك، ومن أَحْوجك إلى مُداراةٍ، وألجأك إلى اعْتذار».

وقال **جعفر الصّادق** - رحمه الله - :

«أثقل إخواني عليّ من يتكلّف لي وأتحفّظ منه، وأخفّهم علي قلبي من أكون معه

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٠٢٦).
(٢) «الإحياء» (٢/٢٠٢، ٢٠٣) باختصار وتصرّف، وإضافة.
(٣) صرما: قطعا.

كما أكون وحدي!».

وقال آخر:

«لا تَصْحَبْ إلا من يتوب عنك إذا أذْنَبْتَ، ويعتذر إليك إذا أسأتَ، ويحمل مؤنة نفسك ويكفيك مؤنة نفسه!».

وهذا منتهى الكمال، وهو نادر وقليل.

أخي الكريم:

الصُّحبة الصالحة: هي الصُّحبة النافعة التي يمتد حَبْلُ خيرها إلى الجنة.

قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

فلا تُصاحِب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تَقيّ.



١٠٣- حَقُّ الْجَار

اعلم: أن الصّالحين كانوا ينتقون الجار الصّالح حتى بعد الموت!

قال الإمام **ابن الجوزي** - رحمه الله - :

«لمّا مرض عبدُ الله بن الإمام أحمد بن حنبل - رحمهما الله - مرض الموت، قيل له: أين تحبّ أن تُدفن؟

قال: صَحّ عندي أن بالقطيعة[1] نَبِيًّا مَدْفونًا، ولأن أكون في جوار نبيّ أحبّ إليّ من أن أكون في جوار أبي!»[2].

واختيار الجار قبل الدّار من أخلاق المقرّبين. يدلّ على ذلك قولُ آسية بنت مزاحم - زوجة فرعون - لمّا أيقنت بِقُرْب لقاءِ ربِّها - وهي تحت وطأة التعذيب - :

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١].

اختارت الجار قبل الدّار، ونعم الجوار: جوارُ رَبِّ العالمين.

ولمكانة الجار، فالحديث عنه يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف الجار.

والثاني: الوصية به.

والثالث: فضل الإحسان إليه.

والرابع: عاقبة المسيء إليه.

والخامس: حقوقه.

والله الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

---

(١) مكان.

(٢) «المنتظم» لابن الجوزي (١٧/١٣).

أولاً: تعريف الجار:

الجار «**لغة**»: قال **الرّاغِبُ**: «الجار: من يَقْرُب مَسْكَنُه مِنْك»ا.هــ.

و«**اصطلاحًا**»: امتثالُ الوصيّة بالجار بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة، كالهدّية، والسلام، وطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقد حاله، ومعاونته فيما احتاج إليه، إلى غير ذلك. وكفّ أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه حِسِّيّة كانت أو معنوية[1].

قال الإمامُ **ابْن حَجَر** - رحمه الله - :

«واسْمُ الجار يشمل المسلم والكافر، والعابد والفاسق، والصَّديق والعدوّ، والغريب والبلديّ، والنافع والضّارّ، والقريب والأجنبيّ، والأقرب دارًا والأبعد، وله مراتب بعضُها أعلى من بعض، فأعلاها من اجتمعت فيه الصِّفات الأُوَل كُلُّها ثم أكثرُها وَهَلُمَّ جرًّا إلى الواحد، وعكسه من اجتمعت فيه الصِّفات الأخرى كذلك، فَيُعْطى كُلٌّ حَقّه بحسَب حَاله».

واختُلف في حَدِّ الجوار: فجاء عن عليّ ﷺ : «من سمع النداء فهو جار».

وقيل: «من صَلّى معك صلاة الصّبح في المسجد فهو جار».

وعن عائشة - رضي الله عنها - : «حدُّ الجوار أربعون دارًا من كُلّ جانب».

وقال القرطبيّ: الجارُ يُطْلَق وَيُراد به الدّاخل في الجوار، وَيُطْلَقُ وَيُرَاد به المجاور في الدّار وهو الأغلب»ا.هــ[2].

ثانيًا: الوصية بالجار:

ولمكانة الجار: جاءت الآياتُ والأحاديثُ والآثار تحث على الإحسان إليه، وتُحَذِّر من مغبّة الإساءة إليه:

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٤٥٦).

(٢) نفس المرجع والصفحة.

فمن الآيات:

قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّـٰحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

ومن الأحاديث:

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**خَيْرُ الأصْحَابِ عند الله: خيرُهم لِصَاحِبه، وَخَيْرُ الجِيران عند الله، خَيْرُهم لجارِه**»[1].

(٢) وعن عمرو بن الْحَمِقِ رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إذا أراد اللّهُ بِعَبْدٍ خيرًا عَسَلَهُ**»[2].

قيل: وما عَسَلَهُ؟

قال: «**يُحَبِّبُهُ إلى جِيرانه**»[3].

(٣) وعن أبي ذرّ، قال:

إن خليلي أَوْصاني:

«**إذا طبخْتَ مَرَقًا فأكثِرْ مَاءه، ثم انظر أَهْلَ بَيْت من جيرانك، فأَصِبْهُم منها بمعروفٍ**»[4].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (١٩٤٤).

(٢) عسله: أي: طيّب ثناءه فيهم.

(٣) إسناده جيد: رواه أحمد (٤/٢٠٠)، وغيره، وجوّد إسناده العراقيّ.

(٤) رواه مسلم.

(٤) وعن ابن عمر، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**ما زال جبريلُ يُوصيني بالجار حتى ظننتُ أنّه سَيُوَرِّثه**»[١].

(٥) وعن نافع بن الحارث ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مِنْ سَعادة المرء: الجارُ الصَّالِح، وَالْمَرْكَبُ الهَنِيُّ، والمسكَنْ الواسع**»[٢].

وسيأتي بعد قليل مزيد.

ومن الآثار

(١) رأى أبو بكر ﷺ ولدَه عَبْدَ الرحمن وهو يُنَاصِي جارًا له[٣]، فقال:

«لا تُنَاصِ جارَك، فإن هذا يَبْقى والناس يَذْهبون»[٤].

(٢) ويُرْوى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود ﷺ فقال له:

إن لي جارًا يؤذيني ويشتمني ويضيِّق عليّ، فقال:

«اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه»[٥].

ثالثاً: فضل الإحسان إلى الجار:

اعلم: أن الإحسان إلى الجار له فوائد وثمرات:

منها: نيل الخيرية عند الله تعالى:

وقد تقدّم – قريبًا – حديث: «**وَخَيْرُ الجِيران عِنْد الله: خَيْرُهم لِجَارِه**».

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٤)، ومسلم (٢٦٢٥).
(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (٨/١٦٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.
(٣) أي: يأخذ بناصيته.
(٤) «الإحياء» (٢/٢١٤).
(٥) نفس المرجع.

ومنها: الاتصاف بالإيمان:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ يومًا لأصحابه:

« **مَنْ يأخذُ عني هؤلاء الكلمات فَيَعْمَلُ بهنّ، أو يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بهنّ؟** »

قال أبو هريرة: قلتُ: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعدّ خمسًا، فقال:

« **اتّق المحارم تَكُن أعْبَدَ النّاس، وارْضَ بما قَسَم الله لك تكن أغْنى النّاس، وأحْسِنْ إلى جَارِك تكن مُؤْمِنًا، وأحِبَّ للنّاس ما تُحبّ لِنَفْسك تكن مُسْلِمًا، ولا تُكْثِر الضَّحِك، فإن كثرةَ الضّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبِ** »[1].

ومنها: دخول الجنّة إن شاء الله:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رجلٌ: يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانَها بلسانِها. قال:

« **هي في النار** ».

قال: يا رسول الله، فإن فلانة يُذكر من قِلّة صيامِها وصلاتِها، وأنها تَتَصدَّقُ بالأَثْوَارِ[2] مِنْ الأَقِطِ[3]، ولا تُؤْذِي جيرانَها، قال:

« **هي في الجنّة** ».

ومنها: العمل بوصية جبريل عليه السلام:

فعن عَبْد الله بن عُمَر: أنه ذَبحَ شاةً فقال:

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٣٠٥) وحسنه، ووافقه الألباني.

(٢) الأثوار: القطعة من الأَقط.

(٣) الأقط: شيء يُتخذ من مَخيض اللّبن الغَنَمي.

أَهْدَيْتمَ لجاري اليهودي؟ فإني سَمعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«ما زال جبريلُ يوصيني بالجار حتى ظَننت أنّه سَيورِّثه»(١).

ومنها: - وهي أعلاها - : تنفيذ أمر الله تعالى: وذلك في قوله:

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ (الآية) [النساء: ٣٦].

ومنها: الفوز بخُلَة من خلال المكارم العَشْر:

فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

خلال المكارم عشْرٌ، تكون في الرّجل ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيِّده، يُقسِّمُها اللّهُ تعالى لمن أحب:

صِدْقُ الحديث.

وصدقُ النّاس.

وإعطاء السّائل.

والمكافأةُ بالصَّنائع.

وصلةُ الرّحم.

وحفظُ الأمانة.

والتّذَمُّمُ لِلْجَار.

والتّذَمُّمُ للصَّاحب.

وقِرَى الضَّيْف.

ورأْسُهنّ الحياء(٢).

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٥٢)، والترمذي (١٩٤٤).

(٢) «الإحياء» (٢/٣١٤).

رابعًا: عاقبة المسيء لجاره:

مِمّا تقدم تبيّن لنا: أن للجار مكانة عالية، وحُرمة مصونة، وجانب لا يُهضم، ومن أجل ذلك جاء الزّجر الأكيد، والتحذير الشديد، والعقاب الرّادع في حق من يؤذي جاره، فمن ذلك

(١) عن أبي جُحيفة ﷺ قال:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ يشكو جاره، قال:

« **اطْرَحْ مَتَاعك على طريق** ».

فطرحه، فجعل الناسُ يمرّون عليه ويلعنونه، فجاء إلى النبيّ ﷺ، فقال:

يا رسول الله، لَقِيتُ من الناس. قال:

« **وما لَقِيتَ؟** ».

قال: يلعنونني. قال:

« **قد لعنك الله قَبْل الناس** ».

فقال: إني لا أعود، فجاء الذي شكاه إلى النبيّ ﷺ، فقال:

« **ارْفَعْ مَتَاعك فَقد كُفِيتَ** »[(١)].

وفي رواية:

فطرح متاعه في الطريق، فجعل الناس يسألونه فيخبرهم خبره، فجعل الناسُ يلعنونه: فعل الله به، وفعل، وفعل، فجاء إليه جاره، فقال له:

« ارْجع لا تَرَى مِنّي شيئًا تَكْرَهه »[(٢)].

---

(١) رواه الطبراني، وله شاهد سيأتي عقبه.

(٢) رواه أبو داود (٥١٥٣)، والحاكم (١٦٥/٤)، وصحّحه وأقره الذهبيّ.

(٢) وعن المقداد بن الأسود، قال:

قال رسولُ الله ﷺ لأصحابه:

« **ما تقولون في الزِّنا؟** ».

قالوا: حرامٌ حرّمه الله ورسولُه فهو حرام إلى يوم القيامة.

قال: فقال رسولُ الله ﷺ:

« **لأن يَزْنِيَ الرجلُ بعشر نِسْوةٍ أَيْسَرُ عليه من أن يَزْنِيَ بامرأةِ جارِه** ».

قال: « **ما تقولون في السَّرِقَة؟** ».

قالوا: حرمها اللّهُ ورسولهُ فهي حرام.

قال: « **لأن يَسْرِقَ الرَّجُلُ من عَشْرةِ أَبْيَاتٍ أَيْسَرُ عليه من أن يَسْرِقَ من جَارِه** »[1].

(٣) وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **ليس المؤمن الذي يشبع وجارُه جائع** »[2].

(٤) وعن أنس ﷺ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **ما آمَن بي من باتَ شَبْعان وجارُه جائِعٌ إلى جَنْبِه وهو يعلم** »[3].

(٥) وعن أبي هريرة ﷺ، قال:

قال رسول الله ﷺ:

« **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جَاره** »[4].

---

(١) رواه أحمد، ورواته ثقات، كذا قال المنذريّ.

(٢) قال الهيثمي في «المجمع» (١٦٧/٨): رواه الطبراني وأبو يعلى ورجاله ثقات.

(٣) قال الهيثميّ في «المجمع» (١٦٧/٨): رواه الطبراني والبزار، وإسناد البزّار حسن.

(٤) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٨).

(٦) وعن أبي شُرَيْح رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال:

« **والله لا يؤمنُ، والله لا يؤمن، والله لا يُؤمِن** ».

قيل: ومن يا رسول الله؟

قال: « **الذي لا يأمَنُ جَارُه بَوَائِقه** »[1].

(٧) وعن أنس، قال:

قال رسول الله ﷺ :

« **المؤمنُ: من أَمِنه الناسُ، والمسلم: من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر: من هَجَر السُّوء، والذي نفسي بيده لا يدخلُ الجَنَّةُ عَبْدٌ لا يَأْمَنُ جارُهُ بوائِقه** »[2].

و « **بوائقه** »: غَشَمه وظُلْمه - كما فُسِّرت في حديث آخر - ومن ظلم الجار:

نشر أسراره، والتجسّس عليه، ودفن حسناته، وذيوع سيئاته، والتعدّي عليه بالقول أو الفعل، وإزعاجه: بالأصوات العالية، وإضراره بإلقاء القاذورات أمام بيته، وغير ذلك من الأقوال والأفعال التي يتضرّر منها.

قِصَّة:

« كان شريح (القاضي) - رحمه الله - إذا مات لأهله سنّور « قطة » أمر بها فأُلقيت في جَوْف داره، ولم يكن له مَثْقب شارع إلا في جَوْف داره، اتّقاءً لأذَى المسلمين!! »[3].

فأين هذه الأخلاق اليوم؟!

لقد ماتت المشاعر، وتبلّدت الأحاسيسُ، وتُوفّي « الذّوق » ، وتحوّل الجار جاسوسًا على جاره، ينشر غسيله، ويخونه في غيابه، ولا يحفظ له حُرمة، وإلى الله المشتكى.

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٦).

(٢) **إسناده جيد**: رواه أحمد، وغيره.

(٣) « المنتظم » لابن الجوزي (١٨٦/٦).

خامسًا: حقوق الجار:

وردت أحاديث وآثار تبيّن من حق الجار:

- إذا استعان بك أعنته.
- وإذا استقرضك أقرضته.
- وإذا افتقر عدت عليه.
- وإذا مرض عدته.
- وإذا أصابه خير هنّأته.
- وإذا أصابته مصيبة عزّيته.
- وإذا مات اتبعت جنازته.
- ولا تستطل عليه بالْبُنيان فَتَحْجُبَ عنه الرِّيحَ إلا بإذْنه.
- ولا تُؤْذِه بقُتَار «ريح» قدْرك إلا أن تغرف له منها.
- وإن اشتريت فاكهة فأَهْدِ لَهُ[1]، فإن لم تفعل فأدخلها سِرًّا، ولا يخرج بها ولدُك ليغيظ بها ولَدَهُ.
- وقال **الإمام الغزالي** - رحمه الله : «اعلم أنه ليس حقّ الجوار كفّ الأذى فقط، بل احتمال الأذى، ولا يكفي احتمال الأذى، بل لابُدّ من الرفق وإسداء الخير والمعروف» اهـ.

قلت: ومن حقوقه:

تعليمه، وإرشاده، وتقديم النّصيحة له، وإعانته على الخير، وكَفّه عن الشّر - بِرِفْقٍ - وحبّه في الله، وبغضه في الله.

وبالجملة: فحفظ الجار من كمال الإيمان، والجار جَار وإن جَار.

وعلى الله قصد السبيل.



(١) إن كان مُحتاجًا.

١٠٤- الحِكْمَةُ

عن السَّكن بن عُمير؛ قال: سمعتُ **وَهْبَ بْنَ مُنَبِّه** يقول:

«يا بُنَيَّ عليك بالحِكمة، فإن الخَير في الحكمة كلِّها، تُشَرِّفُ الصَّغير على الكبير، والْعَبْدَ على الْحُرِّ، وتزيدُ السَّيِّدَ سُؤْدَدًا، وَتُجْلسُ الفقيرَ مَجالِسَ الْمُلُوك»(١).

ولأهميّة «الحِكْمة»، فالحديث عنها - هنا - يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأوّل: تعريف الحكمة.

والثاني: الحث عليها.

والثالث: مظاهرها.

وأسأل الله تعالى، أن يمتنّ علينا بها.

أوّلاً: تعريف الحكمة:

قال **بعضُ العلماء**: «الحكمة: هي العلم النافع المعبر عنه بمعرفة ما للنفس وما عليها المشار إليها بقوله تعالى:

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] »ا.هـ.(٢).

وهي عند المفسّرين: «معرفة الحق لذاتِه والخيرِ لأجل العمل به وهو التكاليف الشرعية».

أمّا عند المحدّثين، فقد ذكر الإمام **النووي** - رحمه الله - في تعريفها أقوالاً - أشملها - :

«أن الحكمة هي العلم المشتمل على المعرفة بالله مع نفاذ البصيرة، وتهذيب النّفس،

(١) أخرجه الدّارميّ (١/٨٨) رقم (٣٨٤).

(٢) «الكليات» للكفويّ (٢/٢٢٢).

وتحقيق الحقِّ للعمل به، والكفُّ عن ضَدِّه، والحكيم من حَازَ ذلك»ا.هـ[١].

وأمّا عند **أهل السُّلوك**: فقد نقل بَعْضُهم **تعريفَيْن**:

الأول: الحكمة: معرفةُ آفات النّفس والشيطان والرِّياضات.

والثاني: الحكمة: أحدُ أجزاء العدالة المقابلة لِلْجَوْر.

قلت: وهي منحة ربانية من ربّ البرّية – سبحانه – قال تعالى:

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

هذا، و «**الحكيم**» اسم من أسماء الله تعالى.

قال الإمام **ابن القيم** – رحمه الله – :

«اسْمُ الحكيم له سبحانه من لوازمه: ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضْعه الأشياء في مواضعها، وإيقاعِها على أَحْسَن الوجوه»ا.هـ[٢].

حكاية:

«يُروى أن عيسى عليه السلام مرّ ببعض الأنهار فإذا بصبيان يلعبون في ذلك النّهر، ومعهم صبيٌّ أعمى قد كفّ بصرُه وهم يغمسونه في الماء ويفرّون منه يمينًا وشمالاً، وهو يطلبهم ولا يظفر بهم، ففكّر عيسى عليه السلام في أَمْره ودعا ربَّه أن يَرُدّ عليه بَصَره وأن يساوي بينه وبين أصحابه، فردّ اللّهُ عليه بَصَره، فلمّا فتح عينيه ورآهم وَثَب على واحد منهم فتعلّق به ولم يزْل يَغْمِسْه في الماء حتى قتله، وطلب آخر فتعلّق به كذلك حتى مات، وهرب الباقون، فهاب عيسى عليه السلام ذلك وتعجّب منه، وقال:

«إلهي ومولاي، أنت أعلم بخلقك»، ودعا ربّه أن يردّه كما كان ويكفيهم أمره، فأوحى الله إلى عيسى:

---

(١) «فتح الباري» (١/٥٤٩).

(٢) «التفسير القيّم» (٣١).

«قد كنتُ أعلمتُك، وتعرّفت إليّ في حُكمي وتدبيري».

فخرّ عيسى ساجدًا، وعلم أنه لا يَجْري في هذا العالم أمَرٌ إلا وللمولى فيه حُكْمٌ وتَدْبير»(١).

ثانيًا: الحث عليها:

وردت آياتٍ وأحاديث وآثار كثيرة - تحثّ على الحِكْمة، وتبيّن فَضْلها، وتدعو إلى التخلّق بها:

فمن الآيات:

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

(٢) وقال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾ [لقمان: ١٢].

وبيّن تعالى في آيات كثيرة: أن الحكمة من خُلُق الأنبياء والمرسلين:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ ﴾ (الآية) [آل عمران: ٨١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن الأحاديث:

(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

---

(١) «بحر الدموع» لابن الجوزي (١٥٨).

ضَمَّني رسولُ الله ﷺ ، وقال:

«**اللّهم عَلِّمْه الحِكْمة**»(١).

(٢) وعن أُبيّ بن كعب ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال:

«**إنّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً**»(٢).

(٣) وعن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**لا حَسَد إلا في اثْنَتَيْن: رَجُلٌ آتاه اللّهُ مالاً فَسَلَّطَه على هَلكَتِه في الْحَقِّ، وآخرُ آتاه اللّهُ حِكْمَةً فهو يَقْضِي بها وَيُعَلِّمُها**»(٣).

ومن الآثار:

(١) قال عون بن عبد الله - رحمه الله - :

«نِعْمَ المجلسُ مَجْلسٌ يُنْشَرُ فيه الحِكْمةُ، وتُرْجى فيه الرَّحمة»(٤).

(٢) وعن شُرَحْبيل بن شَريكٍ أنه سَمِعَ أبا عبد الرحمن الحُبُليّ يقول:

«لَيْس هديةٌ أَفْضَلَ مِنْ كلمةِ حِكْمَةٍ تُهْدِيها لأخيك»(٥).

(٣) وعن مطر الوراق - رحمه الله - قال:

«بَلَغَنا أن الحِكْمَةَ: خشيةُ اللهِ والعِلْمُ باللهِ».

ثالثاً: مظاهر الحكمة:

اعلم: أن للحِكْمة مظاهرها المتعدّدة، وصورها المختلفة، وجوانبها المشرقة، وقد بَيَّن

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٨٢٤)، وصحّحه الشيخ أحمد شاكر.

(٢) رواه البخاري (٦١٤٥).

(٣) رواه البخاري (٧١٤١)، ومسلم (٨١٦).

(٤) أخرجه الدارميّ (٢٩٣).

(٥) نفس المرجع (٣٥٧).

اللَّهُ تَعالى مكانة الحكمة وتعدد صُورها في قوله ﷻ:

﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال الإمام **القرطبيُّ** – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ أي: يعطيها لمن يشاء من عباده. واختلف العلماء في الحكمة هنا؛ فقال السُّدِّي: هي النبوة. وقال ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن: فقهه، ونسخه، ومُحكمه، ومتشابهه، وغريبه، ومقدّمه، ومؤخّره. وقال قتادة: الحكمة: هي الفقه في القرآن. وقال مجاهد: الإصابة في القول والفعل. وقال ابن زيد: الحكمة: العقل في الدِّين، وقال مالك بن أنس: الحكمة: المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتّباع له.

قلت: وهذه الأقوال كلّها – ما عدا قول السُّدِّي – قريب بعضها من بعض؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الاتقان في قول أو فعل، فكل ما ذُكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس؛ فكتاب الله حكمة؛ وسُنّة نبيّه حكمة، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حِكْمة، وأصْل الحكمة: ما يُمتَنع به من السَّفه»ا.هـ.

وقال الإمامُ **الْفَخْر الرَّازي** – رحمه الله – :

«قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أن الشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل، نبه على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس من حيث إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة واتباع أحكام الخيال والوهم.

ولا شك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ والخلل، وحكم

الحس والشهوة والنفس توقع الإنسان في البلاء والمحنة، فكان حكم الحكمة والعقل أولى بالقبول، فهذا هو الإشارة إلى وجه النظم.

بقي في الآية مسائل:

المسألة الأولى:

المراد من الحكمة إما العلم وإما فعل الصواب؛ يروى عن مقاتل أنه قال: تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه:

أحدهما: مواعظ القرآن، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣١]. يعني مواعظ القرآن، وفي سورة النساء: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣] يعني المواعظ، ومثلها في سورة آل عمران.

ثانيًا: الحكمة، بمعنى الفهم والعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ١٢] وفي سورة لقمان: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: ١٢] يعني الفهم والعلم.

ثالثها: النبوة، قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ ﴾ [الأنعام: ٨٩] يعني النبوة، وفي سورة (ص): ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٠] يعني النبوة، وفي سورة البقرة: ﴿ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

رابعها: القرآن، بما فيه من عجائب الأسرار، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي هذه الآية: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم.

ثم تأمل أيها المسكين فإنه تعالى ما أعطى إلا القليل من العلم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] وسمى الدنيا بأسرها قليلاً، فقال: ﴿ قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء: ٧٧] وانظر كم مقدار هذا القليل حتى تعرف عظمة ذلك

الكثير، والبرهان العقلي أيضًا يطابقه لأن الدنيا متناهية المقدار، متناهية المدة، والعلوم لا نهاية لمراتبها وعددها ومدة بقائها، والسعادة الحاصلة منها، وذلك ينبئك على فضيلة العلم، والاستقصاء في هذا الباب قد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

وأما الحكمة بمعنى فعل الصواب فقيل في أحدها: إنها التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية، ومدار هذا المعنى على قوله ﷺ :« **تَخلّقوا بأخْلاق الله تعالى** ». واعلم أن الحكمة لا يمكن خروجها عن هذيْن المعنييْن، وذلك لأن كمال الإنسان في شيئيْن: أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به، فالمرجع بالأول إلى العلم والإدراك المطابق، وبالثاني إلى فعل العدل والصواب.

حكي عن إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمًا ﴾ [الشعراء: ٨٣] وهو الحكمة النظرية ﴿ وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الشعراء: ٨٣]، الحكمة العملية.

ونادى الله موسى عليه السلام فقال سبحانه: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [طه: ١٤] وهو الحكمة النظرية، ثم قال تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾[طه: ١٤] وهو الحكمة العملية.

وقال عن عيسى عليه السلام أنه قال: ﴿ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ﴾(الآية) [مريم: ٣٠]، وكل ذلك للحكمة النظرية، ثم قال: ﴿ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ﴾ [مريم: ٣١] وهو الحكمة العملية.

وقال في حق محمد ﷺ : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] وهو الحكمة النظرية، ثم قال سبحانه: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] وهو الحكمة العملية.

وقال في جميع الأنبياء: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [النحل: ٢] وهو الحكمة النظرية، ثم قال: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢] وهو الحكمة العملية.

والقرآن هو من الآية الدالة على أن كمال حال الإنسان ليس إلا في هاتيْن القوتيْن.

قال أبو مسلم: الحكمة فِعلة من الحِكَم، وهي كالنِّحْلة من النِّحلَ، ورجل حكيم إذا كان ذا حجى ولب وإصابة رأي، وهو في هذا الموضع في معنى الفاعل ويقال: أمر حكيم، أي مُحْكَم، وهو فعيل بمعنى مفعول، قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وهذا الذي قاله أبو مسلم من اشتقاق اللغة يطابق ما ذكرناه من المعنى.

المسألة الثانية:

قال صاحب «الكشاف»: قرئ ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ بمعنى: ومن يؤته الله الحكمة، وهكذا قرأ الأعمش.

المسألة الثالثة:

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى وذلك لأن الحكمة إن فسرناها بالعلم لم تكن مفسرة بالعلوم الضرورية، لأنها حاصلة للبهائم والمجانين والأطفال، وهذه الأشياء لا توصف بأنها حكم، فهي مفسرة بالعلوم النظرية، وإن فسرناها بالأفعال الحسية فالأمر ظاهر، وعلى التقديرين فيلزم أن يكون حصول العلوم النظرية والأفعال الحسية ثابتًا من غيرهم، وبتقدير مقدر من غيرهم، وذلك الغير ليس إلا الله تعالى بالاتفاق، فدل على أن فعل العبد خلق لله تعالى.

فإن قيل: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد من الحكمة النبوة والقرآن، أو قوة الفهم الحسية على ما هو قول الربيع بن أنس؟

قلنا: الدليل الذي ذكرناه يدفع هذه الاحتمالات، وذلك لأنه بالنقل المتواتر ثبت أنه يستعمل لفظ الحكيم في غير الأنبياء، فتكون لا حكمة مغايرة للنبوة والقرآن، بل هي مفسرة إما بمعرفة حقائق الأشياء، أو بالإقدام على الأفعال الحسنة الصائبة، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل، فإن حاولت المعتزلة حمل الإيتاء على التوفيق والإعانة والألطاف، قلنا: كل ما فعله من هذا الجنس في حق المؤمنين فقد فعل مثله في حق الكفار، مع أن هذا المدح العظيم المذكور في هذه الآية لا يتناولهم، فعلمنا أن الحكمة المذكورة في هذه الآية

شيء آخر سوى فعل الألطاف - والله أعلم .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ والمراد به عندي والله أعلم، أن الإنسان إذا رأى الحكم والمعارف حاصلة في قلبه، ثم تأمل وتدبر وعرف أنه لم تحصل إلا بإيتاء الله تعالى وتيسيره، كان من أولي الألباب، لأنه لم يقف عند المسببات، بل ترقى منها إلى أسبابها، فهذا الانتقال من المسبب إلى السبب هو التذكير الذي لا يحصل إلا لأولي الألباب» ا.هـ[1].

هذا، واعلم أن «الحِكمة» : حِلْيَةُ الدّاعي إلى الله، وزينة الواعظين، وبها تُؤْتى الدّعوةُ ثمارها بإذْن رَبِّها:

قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال العلامة **السَّعدي** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«أي: ليكن دعاؤك للخلْق مُسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربِّك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصّالح «**بالحكمة**» أي: كلّ أحد على حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة: الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداءة بالأهمّ فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتمّ، وبالرّفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنَّهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إمّا بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنّواهي من المضارّ وتعدادها، وإمّا بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لَمْ يَقُمْ به.

وإمّا بذكر ما أعدّ الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعدّ للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية إلى

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٦/٦١٩- ٦٢٢).

الباطل، فَيُجادَل بالتي هي أحسن، وهي الطّرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلّة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدّي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخَلْق إلى الحقّ لا المغالبة ونحوها»[1].

أخي الكريم:

وهذه صُوَرٌ من اللِّين في التعامل، والحِكمة في الدّعوة نَختِم بها حَديثنا هنا:

الصّورة الأولى:

قال الإمام أحمد: «كان أصحاب ابن مسعود ﷺ إذا مرّوا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون: مهلاً رحمكم الله».

الصّورة الثانية:

دُعي الحسنُ البصريّ - رحمه الله - إلى عُرسٍ فجيء بجَام من فِضّة (أي: قَدَح أو إناء) عليه خَبيص[2] أو طعام، فتناوله فَقَلَبه على رغيفٍ فأصَابَ مِنه[3]، فقال رجلٌ: «هذا نَهْيٌ في سكون»[4].

الصّورة الثالثة:

مَرَّ أبو الدرداء ﷺ على رجلٍ قد أصاب ذَنْبًا، والنّاسُ يَسبُّونه، فأنكر عليهم صنيعهم، قائلاً:

«أرأيتم لو وجدتموه في قَلِيب، ألم تكونوا مُسْتَخْرجيه؟».

قالوا: بلى.

---

(١) «تفسير السّعدي» (٤٥٢).

(٢) خبيص: طعام من تَمْرٍ وَسَمْن.

(٣) أصاب منه: أكل منه.

(٤) قال ﷺ: «إنّ الذي يأكلُ أوْ يَشْرب في آنية الذّهَب والفِضّة إنّما يُجَرْجِر في بَطْنِه نَارَ جَهنّم» رواه مسلم.

قال: «فلا تسبّوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم».

قالوا: أفلا تبغضه؟

قال: «إنّما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي!».

فكن - أخي الكريم - على طريق هؤلاء، وَبِهُداهُم اقْتَدِه.



١٠٥- الاجْتِماع

اعلم: أن التَّقَارُبَ بَيْن الْمُسْلِمين: فريضةٌ شرعية، وضرورةٌ بشرية، لما يترتب عليه من صلاح الدّارين.

ولأهمية الألفة بين المسلمين، ومكانتها، الحديث على السطور التالية يدور حول **أمرين**:

الأول: تعريف الاجتماع.

والثاني: أهميته، وحثّ الإسْلامِ عليه.

وأسأل الله - تعالى - أن يجمع شملنا، ويَفكّ أَسْرَنا.

أولاً: تعريف الاجتماع:

الاجتماع «**لغة**»: **قال ابن فارس**:

«الجيمُ والميمُ والعَيْنُ، أَصْلٌ واحِدٌ يدلّ على تَضَامِّ الشَّيء، يُقَال: جَمَعْتُ الشّيء جَمْعًا، وتَجَمّع القومُ: اجْتَمعوا من هُنا وَهُنا، واجتمع القومُ: انْضَمُّوا، وهو ضِدُّ تَفرّقوا».

و«**اصطلاحًا**»: لا يختلف معنى الاجتماع في «الشّرع» عن المعنى الذي يُفيده في أصل اللّغة. وهو أن يلتقي المسلمون وينضم بعضهم إلى بعض ولا يتفرقوا، أما الأمر الذي يجتمعون حوله فهو: كتابُ الله، وسُنّةُ رسوله ﷺ[1].

ثانيًا: أهمية الاجتماع وحثّ الإسلام عليه:

ورد في أهمية الاجتماع والترغيب فيه، والتنفير من التفرّق، والتحذير من عواقبه، آيات وأحاديث وآثار كثيرة.

---

(١) «نضرة النعيم» (٢/٤٢).

فمن الآيات:

(١) قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال الحافظ **ابن كثير** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«أمَرَهم اللّهُ - تعالى - في الآية الكريمة بالجماعة ونهاهم عن الفُرقة، وقد وردت الأحاديثُ المتعدِّدة بالنَّهْي عن التفرّق والأمْر بالاجتماع والائتلاف، وقد ضمن اللّهُ لهم - أي للمسلمين - العِصْمة من الخطأ عند اتفاقهم واجتماعهم، وخيف عليهم الخطأ عند الافتراق والاختلاف، فقد وقع ذلك في هذه الأُمّة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة[1]، منها فرقة ناجية إلى الجنة، وهم الذين على ما كان عليه محمّد ﷺ وأصحابه»ا.هـ[2].

(٢) وقال تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣١، ٣٢].

قال الإمامُ **الفخر** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ يعني: لم يجتمعوا على الإسلام، وذهب كل أحد إلى مذهب.

ويحتمل أن يُقال: ﴿ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ يعني بعضهم عَبَدَ الله للدنيا، وبعضهم للجنة، وبعضهم للخلاص من النار، وكل واحد في نَظَرِه فَرِح.

وأمّا الْمُخْلِص: فلا يفرح بما يكون لديه، وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله

---

(١) كما ورد في حديث صحيح، وقد تقدّم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٣٩٧).

ويقف بين يديه، وذلك لأن كلّ ما لدينا نافد ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ ﴾ [النحل: ٩٦] فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به، وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح» ا.هـ[١].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال الإمام **الفخر** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«أي: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ أيها المؤمنون عند سماع هذه البيّنات ﴿ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ ﴾ من أهل الكتاب ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ ﴾ في التوراة والإنجيل تلك النصوص الظاهرة.

وقوله تعالى: ﴿ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ ﴾ فيه وجوه:

الأوّل: تفرقوا واختلفوا بسبب اتّباع الهوى، وطاعة النّفس، والحسد، كما أن إبليس تَرَك نصّ الله تعالى بسبب حسده لآدم.

والثاني: تفرّقوا حتى صار كلّ فريق منهم يصدّق من الأنبياء بعضًا دون بعض، فصاروا بذلك إلى العداوة والْفُرْقة.

والثالث: صاروا مثل مبتدعة هذه الآمّة» ا.هـ[٢].

ومن الأحاديث:

(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**يَدُ الله مع الْجَماعة**»[٣].

---

(١) «مفاتيح الغيب» (٤٧١/٢٤).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٣٧٩/٨). بتصرّف.

(٣) **حسن بشواهده:** رواه الترمذي (٢١٦٦).

(٢) وعن عَرْفَجَة، قال:

سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

«مَنْ أتاكم، وأمْرُكُم جَميعٌ[١] على رجلٍ واحد، يُريد أن يَشُقَّ عَصَاكُم، أو يُفَرِّق جَمَاعَتكُمْ، فاقْتُلُوه»[٢].

(٣) وعن أبي هريرة ﷺ

قال رسولُ الله ﷺ:

«وما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بُيوت اللهِ يتلون كتابَ الله تعالى، ويَتَدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السَّكينةُ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وحَفَّتْهُمُ الملائكةُ، وذكرهم اللّهُ فيمَنْ عنده»[٣].

(٤) وعن أبي هريرة ﷺ:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ الله يَرْضَى لكم ثلاثًا، ويَكْرَهُ لكم ثلاثًا. فَيرضى لكم: أن تَعْبُدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تَعْتَصِموا بحبل اللهِ جميعًا ولا تَفرَّقوا، ويَكْرَهُ لكم: قيل وقال[٤]، وكثرةَ السُّؤَالِ[٥]، وإضاعَةَ المال»[٦].

(٥) وعن مالك بن أنس - رحمه الله - بَلَغَهُ أَنّ رسولَ الله ﷺ قال:

«تركتُ فيكم أمْرَيْن لن تَضلّوا ما تَمَسَّكْتُم بهما: كتابَ الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّه ﷺ» رواه مالك، وهو حديث حسن.

---

(١) أي: مجتمع.

(٢) رواه مسلم (١٨٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٤) قيل وقال: الخوض في أخبار الناس.

(٥) المراد بكثرة السؤال: التنطّع في مسائل العلم بما لا ينفع، والجهل بها لا يضرّ.

(٦) رواه مسلم (١٧١٥).

(٦) وعن عمر رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**عليكم بالجماعة، وإيّاكم والفُرْقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبْعَدُ، مَنْ أراد بَحْبُوحَةَ الْجَنّة فليلزمِ الجماعة، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُه، وساءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك المؤمن**»[١].

(٧) وعن أبي موسى رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضًا**»[٢].

(٨) وعن النّعمان بن بشير، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتراحِمِهم وتعاطُفِهم، مَثَلُ الْجَسَدِ، إذا اشتكى منه عُضْوٌ، تَدَاعى له سائرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمّى**»[٣].

والأحاديث الحاضّة على رصّ الصّف الإسلامي، والحاثّة على لَمّ شَعْثِ الأُمّة، كثيرة جدًّا، امتدت حتى شملت الحث على:

- صلاة الجماعة.
- صلاة الجنازة.
- صلاة العيدين.
- صلاة الكسوف والخسوف.
- رصّ الصفوف في القتال.

---

(١) رواه الترمذي (٢١٦٥)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

- الأكل جماعة.
- الزيارة في الله.
- صلة الأرحام.
- الحبُّ في الله.
- الالتزام بجماعة المسلمين وإمامهم - عند وجودها - .

ومن الآثار:

(١) كان ابن مسعود ﷺ يخطب ويقول:

« يا أيها النّاس، عليكم بالطّاعة والجماعة، فإنّهما حَبْلُ الله الذي أَمَر به »[١].

(٢) وعن سِمَاكِ بن الوليد الحنفيّ، أنه لَقِيَ ابْنَ عباس، فقال:

ما تقولُ في سلاطين علينا يظلموننا، ويشتموننا، ويعتدون علينا في صدقاتنا، ألا نَمْنَعُهُمْ؟

قال: لا. أَعْطِهم. الْجَمَاعة. الْجَمَاعة، إنّما هلكت الأُمَمُ الخالِيةُ بِتَفَرُّقِها، أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الله:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣] [٢].

أخي الكريم:

فما أحوجنا إلى التآلف، والتآخي، والتعاضد، والتناصر، والتراحم في هذا الوقت بالذات.

لقد جمع الشيطانُ حزبه، ورصّ أولياءه، وأعلن الحرب على الإسلام وأهله.

---

(١) « الدرّ المنثور » للسيوطي (٢/٢٨٥).

(٢) نفس المرجع السابق.

فتآكلت أطْرَافُ بلادنا في مشارق الأرض ومغاربها، وَنُهبت ثرواتُنا، وَدَنّس أعداؤُنا أرضنا وأعراضنا.

ورمونا عن قوسٍ واحدة.

وها هي بلاد الإسلام تترنّح تحت ضربات الأعداء واحدة تلو الأخرى!

ولا نجاة لنا في الأيامِ القادمة إلا بالعودة إلى ربِّنا، والتمسّكِ بإسلامنا، ومتابعةِ هَدْيِ نَبيِّنا ﷺ.

فإذا فعلنا ذلك، فقد وعدنا ربُّنا بالنَّصْر المؤزّر، فها هو يقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧].

ويقول:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠].

ويقول:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

أيها المسلمون:

إن ربنا واحد، وديننا واحد، وقبلتنا واحدة، فلماذا تفرّقنا، ولماذا تشتتنا، ولماذا تبعثرنا؟

ألم نقرأ:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾

ألم نقرأ:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠].

ألم نقرأ: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

ألم نسمع إلى نبيّنا - صلوات ربي وسلامه عليه - وهو يقول:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا»؟

ألم تسمع إليه وهو يقول:

«وكونوا عباد الله إخوانًا المسلم أخو المسلم لا يَظْلمه، ولا يَحْقره، ولا يسْلمه»؟

فَهيّا - عباد الله - إلى رحمة الإسلام تراحموا، تعاضدوا، تناصروا.

واعلموا أن طريق السعادة والنصر والقوة في الإيمان والعمل الصالح وتماسك بنيان **الأمّة.**

تأبى الرِّماح إذا اجْتَمَعْنَ تَكَسُّرًا وإذا افْتَرَقْن تكَسَّرَتْ أَفْرادًا

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

هذا وعد الله: ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾ [النساء: ١٢٢].

هذا كلام الله: ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ [النساء: ٨٧].

﴿ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ﴾ [يونس: ٧١].

«اللهم إنّا نسألُك رَحْمَةً من عندك، تَجْمَعُ بها شَمْلَنا، وتَلُمّ بها شَعْثَنا، وتَرُدّ بها الْفِتَنَ عنّا».

آمين. آمين. آمين. والحمد لله رب العالمين.

۞۞۞۞۞

١٠٦- البِـرُّ

اعلم - **يا أخي** - أن البرَّ قائدُك إلى الجنَّة، ونعم الدّليل.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**عليكم بالصِّدْق، فإن الصِّدْقَ يَهْدي إلى الْبِرِّ، وإن الْبِرَّ يَهْدي إلى الجنَّة ...**» الحديث[١].

- فما هو الْبِرّ؟ وما هي صفات صاحبه؟

وما هي أنواعه؟

هذا ما سوف نُبَيِّنه على السّطور التالية - إن شاء الله تعالى - .

أولاً: تعريفُ الْبِرِّ

اختلف العلماءُ في تفسير «البرّ» فقال بَعْضُهم: «الْبِرُّ: الصَّلاَح».

وقال بعضهم: «البرُّ: الخَيْر»، قال **ابن منظور**:

«ولا أعلم تفسيرًا أجمع منه؛ لأنه يُحيط بجميع ما قالوا» اهـ.

ثانيًا: صفاتُ صاحِبِ الْبِرِّ

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ اختلف العلماء في أن هذا الخطاب عام أو خاص.

فقال **بَعْضُهم**: أراد بقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ أهل الكتاب، لَمّا شدّدوا في الثبات على التوجّه نحو بيت المقدس، فقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ ﴾ هذه الطريقة ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾.

وقال **بعضُهم**: بل أراد مخاطبة المؤمنين لمّا ظنّوا أنهم قد نالوا البغية بالتوجّه إلى الكعبة من حيث كانوا يُحبون ذلك فخوطبوا بهذا الكلام.

وقال **بعضُهم**: بل هو خطاب للكلّ لأن عند نسخ القبلة وتحويلها حصل من المؤمنين الاغتباط بهذه القبلة، وحصل منهم التشدّد في تلك القبلة حتى ظنوا أنه الغرض الأكبر في الدين، فبيّن - تعالى - أن البرّ ليس بأن تولوا وجوهكم شرقًا وغربًا[1]، وإنما البرّ كيت وكيت، وهذا أشبه بالظاهر إذ لا تخصيص فيه، فكأنّه - تعالى - قال:

ليس البرّ المطلوب هو أمر القبلة[2]، بل البرّ المطلوب هذه الخصال التي عدّها[3].

والبرّ: اسم جامع للطاعات، وأعمال الخير المقرّبة إلى الله تعالى[4].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ ﴾ أي: ولكنّ الْبِرَّ بِرُّ. وقيل: معناه: ولكنَّ **ذَا الْبِرّ**[5].

- ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكلّ صفة كمال، منزه عن كلّ نقص.
- ﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ وهو كلّ ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول ﷺ ممّا

---

(١) وإن كان الانحراف عن القِبلة - كثيرًا - في الصّلاة متعمدًا يبطلها.

(٢) لأنه عمل الظّاهر.

(٣) «مفاتيح الغيب» (٩/٣).

(٤) نفس المرجع (١١/٣).

(٥) نفس المرجع (١٣/٣، ١٤) باختصار شديد.

يكون بعد الموت.

- ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ.
- ﴿ وَٱلْكِتَـٰبِ ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمّنه من الأخبار والأحكام.
- ﴿ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ عمومًا، وخصوصًا: خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.
- ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيرًا، أي: أعطى المال ﴿ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ أي: حُب المال، بيّن به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد.

فمن أخرجه مع حُبّه له تقرّبًا إلى الله تعالى، كان هذا برهانًا لإيمانه، وَمِن إيتاء المال على حُبّه: أن يتصدّق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلّة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال يحبّ إمساكه، لما يتوهّمه من العدم والفقر.

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يُحبّه من ماله كما قال تعالى:

﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فكلّ هؤلاء مِمّن آتى المال على حُبّه.

ثمّ ذكر - تعالى - المنفق عليهم، وهم أَوْلى الناس ببرّك وإحسانك، وهم:

- ﴿ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي: الأقارب الذين تتوجّع لمصابهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمن أحسن البرّ وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قُرْبهم وحاجتهم.
- ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوّة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد[1].

---

(١) انظر: صفة «الإحسان إلى اليتيم».

- ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلّهم الفقر، فلهم حقّ على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخفّفها، بما يقدرون عليه وبما يتيسّر.
- ﴿ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحثّ الله عباده على إعطائه من المال ما يُعينه على سفره... فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوّله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصّفة على حسب استطاعته.
- ﴿ وَٱلسَّآئِلِينَ ﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتُلي بأرش جناية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصَالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حقٌّ وإن كان غنيًّا.
- ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ يدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للْمُكَاتَب ليوفي سيِّده، وفداء الأسرى عند الكفّار أو عند الظَّلَمة.
- ﴿ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ قال مقاتل: إقامتها: المحافظة على مواقيتها، وإسباغ الطّهور لها، وتمام ركوعها، وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهّد، والصّلاة على النبيّ ﷺ فهذا إقامتها.
- ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أي: مُسْتَحِقّيها.
- ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ والعهد: هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلّها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والنّذور، ونحو ذلك.
- ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ ﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرّة ما لا يحصل لغيره.

فإن تَنَعمَّ الأغنياء بما لا يَقْدر عليه تَأَلّم، وإن جاع أو جاعت عيالُه تألّم، وإن أكل طعامًا غير موافق لهواه تألّم، وإن عرى أو كاد تألّم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه

من المستقبل الذي يستعد له تألّم، وإن أصابه الْبَرْد الذي لا يقدر على دفعه تألّم.

فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصَّبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

- ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه من حُمَّى وقروح ورياح ووجع عضو، حتى الضّرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصَّبر على ذلك؛ لأن النّفس تضعف والبدن يتألم، وذلك في غاية المشقّة على النفوس، خصوصًا مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتسابًا لثواب الله تعالى.
- ﴿ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجهاد يشق غاية المشقّة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر[1]، فاحتيج إلى الصَّبر في ذلك احتسابًا، ورجاء لثواب الله الذي منه النصر والمعونة التي وعدها الصابرين.
- ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ أي: المتصفون بما ذُكِر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية، فأولئك هم ﴿ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدّقت إيمانهم، ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضمّنًا ولزومًا، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كلّه، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار الصّادقون المتقون[2].

ثالثًا: أنواعُ الْبِرِّ

الْبِرُّ نَوْعان: صِلَةٌ ومَعْروفٌ.

---

(١) لما ترددت نَفْسُ عبد الله بن رواحة ﷺ في «مؤتة» خاطبها قائلاً:

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلَنَّه ... لتنزلنّه أوْ لَتكْرَهنّه

ما لي أراكِ تكْرهين الجنّة ... قد أجْلَبَ النّاسُ وَشدّوا الرنّه

(٢) «تفسير السّعدي» (٨٣، ٨٤).

فأمّا الصِّلة:

فهي التبرّع ببذل المال في الجهات المحمودة لغير عِوَضٍ مطلوب.

وهذا يبعث عليه سماحة النّفس وسَخاؤها، ويمنع منه شُحُّها وإبَاؤُها.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وَحَدُّ السّخاء: بذلُ ما يُحتاج إليه عند الحاجة، وأن يوصل إلى مُسْتَحِقّه بقدْر الطّاقة[١].

والبذل عل وجهين:

أحدهما: ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال.

والثاني: ما كان عن طلب وسؤال.

فأمّا المبتدئُ به: فهو أَطْبَعُهُما سَخَاءً، وأشرفُهما عَطَاءً.

وسُئل **عليٌّ** ﷺ عن السَّخاء، فقال:

«ما كان منهُ ابتداءً، فأمّا ما كان عن مسألة فحياء».

وهذا النّوع من البذل قد يكون **لتسعة أسباب**.

فالسبب الأول: أن يَرَى خَلَّةً يقدر على سَدِّها، وفاقةً يتمكّن من إزالتها، فلا يدعه الكرمُ والتَّديُّنُ إلا أن يكون زعيم صَلاَحِها، وكفيلَ نجاحِها، رغبةً في الأجر إن تدَّين، وفي الشكر إن تكرّم.

والسبب الثاني: أن يرى في ماله فضلاً عن حاجته، وفي يده زيادة عن كفايته، فيرى انتهاز الفرصة بها فيضَعُها حيثُ تكونُ له ذُخْرًا مُعَدًّا وَغَنَمًا مُسْتَجدًّا.

قال **الحسنُ** - رحمه الله - :

«ما أَنْصَفَك مَنْ كَلَّفَك إجْلالَهُ، ومَنَعك مَالَهُ».

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (٢٢٩).

والسبب الثالث: أن يكون لتَعْريضٍ يَتَنَبَّهُ عليه لفطْنَته، وإشارة يُسْتَدَلُّ عليها بِكَرَمِه، فلا يَدَعْهُ الكَرمُ أن يغفل ولا الحَيَاءُ أن يَكُفَّ.

وقد **حُكيَ**: أن رَجُلاً سَاير بعضَ الوُلاة، فقال:

ما أَهْزَلَ بِرْذَوْنك[1]؟

فقال: يَدُهُ مع أَيْدينا! [2].

فوَصَله[3] اكتفاءً بهذا التَّعْريض الذي بَلَغَ ما لا يَبْلُغُه صَرِيحَ السُّؤال.

والسبب الرابع: أن يكون ذلك رعاية لِيَد أو جَزَاءً على صنيعة، فيرى تأدية الحقّ عليه طوْعًا إمّا أَنَفةً، وإمّا شُكرًا ليكون من أَسْرِ الامْتنان طَلِيقًا، ومن رِقّ الإحسان وعبوديته عَتيقًا.

قال **بَعْضُ الحكماء**: الإحسان رِقٌّ، والمكافأةُ عِتْقٌ.

والسبب الخامس: أن يُؤثر الإذعانَ بتقديمه، والإقرار بتعظيمه، تَوْطيدًا لرئاسةٍ هو لها مُحبٌّ، وعلى طلبها مُكِبٌّ.

قال الشّاعر:

حُبُّ الرّئاسةِ داءٌ لا دواءَ لَهُ ... وَقَلَّما تَجِدُ الرَّاضِين بالقَسْمِ

والسبب السادس: أن يدفع به سطوة أعدائه، وَيَسْتكْفِي به نِفَارَ خُصمائه، ليصيروا له بعد الخصومة أعوانًا، وبعد العداوة إخوانًا، وإمّا لصيانة عِرْض، وإمّا لحراسة مَجْد.

والسبب السابع: أن يُرَبِّي به سالفَ صَنيعةٍ أَوْلاَها، وَيُرَاعِي به قديمَ نعمة أَسْداها، كي لا يُنْسَى ما أَوْلاَه أو يُضَاع ما أَسْداه، فإنّ مقطوعَ الْبرِّ ضَائِعٌ، وَمُهْمَلُ الإحْسَان ضَالٌّ.

---

(١) البِرْذَوْن: الْفَرَس.

(٢) لا يأكل جيدًا مثلنا من الفقر.

(٣) يعني بعطاء.

والسبب الثامن: **المحبّةُ يُؤثِرُ** بها المحبوبُ على مالِه فلا يَضِنُّ عليه بِمَرْغوب، ولا يتنفَّسُ عليه بِمَطْلوب، **للَذّة التي** هي عنده أحْظى، وإلى نَفْسِه أشْهَى؛ لأن النّفس إلى محبوبها أشْوَقُ وإلى **ما يَليه أسْبَق.**

والسبب التاسع: **وليس** بسببٍ أن يفعل ذلك لغير ما سبب، وإنما هي سَجِيَّةٌ قد فُطِر عليها، وشيمةٌ **قد طُبع بها، فلا** يُميِّز بين مُسْتَحِقٍّ ومحروم، ولا يفرّق بين محمود ومذموم، كما قال بشَّار:

لَيْسَ يُعْطِيك للرّجَاء ولا للخَوْف لكن يَلَذُّ طَعْمَ العَطَاء[1]

وأما النوع الثاني منِ الْبِرِّ فهو: المعروف:

ويتنوّع أيضًا **نوعين: قولاً وعملاً.**

فأمّا القول: فهو طِيبُ الكلام وَحُسْن الْبِشْر، والتودّد بجميل القول، وهذا **يبعث عليه** حُسْنُ الْخُلُق،ورقّةُ الطّبْعْ، **ويجب أن** يكون محدودًا كالسّخاء؛ فإنه إن أسْرَف **فيه كان مَلَقًا** مذمومًا، وإن توسَّط واقْتَصَد **فيه** كان معروفًا وَبِرًّا محمودًا.

وأمّا العمل: فهو **بذلُ** الجاه والمساعدةُ بالنَّفْسِ والمعونة في النّائبة، وهذا **يبعث عليه** حبُّ الخير للناس وإيثارُ الصّلاح لهم، وليس في هذه الأمور سرف ولا لغايتها **حَدٌّ بخلاف** النّوع الأوّل؛ لأنّها وإن كَثُرت فهي أفعالُ خير تعود بِنَفْعيْن:

نفعٌ على فاعلها في **اكتساب** الأجْر وجميل الذِّكْر.

ونفعٌ على الْمُعَانِ **بها** في التّخفيف عنه والمساعدة له[2].

أخي المسلم:

هذا هو البر، وهذا فضله، نسأل الله – تعالى – أن يجعلنا من أهله.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (٢٣٥- ٢٣٨) باختصار شديد.

(٢) نفس المرجع باختصار شديد.

١٠٧- بر الوالدين

قال الإمامُ **الشَّعْبِيُّ** - رحمه الله - : «ما أدركتُ أُمِّي فأَبَرُّها، ولكن لا أَسُبُّ أَحَدًا فَيَسُبُّها».

بهذه الكلمات التي تَقْطُر حنانًا، وتشع منها الرّحمة، ندخل إلى موضوعنا:

«بر الوالدين» ، والحديث عنه يدول حول **خمسة أمور**:

الأول: معنى بِرّ الوالدين.

والثاني: من صور بِرّهما.

والثالث: عاقبة عقوقهما.

والرابع: ثمرات برّهما.

والخامس: صور من حياة أهل البرّ.

هذا ما سوف نبينه على السطور التالية.

أولًا: معنى برّ الوالدين:

بر الوالدين: الإحسان إليهما، والتعطّف عليهما، والرفق بهما، والرعاية لأحوالهما، وعدم الإساءة إليهما، وإكرام صديقهما من بعدهما[1].

ثانيًا: صُور برّ الوالدين:

أَوْرَد الإمامُ **القُرْطبيّ** - رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، كلامًا كثيرًا مفاده:

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٢/٢١١).

(١) أن الله تعالى أمر بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونًا بذلك، كما قَرَن شُكْرَهُما بشُكْرِه، فقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾، وقال: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وقد أخبر رسولُ اللهِ ﷺ أن برَّ الوالدين أَفْضَلُ الأعمال بعد الصّلاةِ التي هي أعظم دَعَائِم الإسلام.

(٢) من البر بهما والإحسان إليهما: ألا يتعرّض لِسَبِّهما ولا يَعُقَّهما.

(٣) وعقوقُ الوالدين: مخالَفَتُهُما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن بِرَّهُما: موافقتُهما على أغراضهما.

وعلى هذا: إذا أمرا أو أحدُهما ولدهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المندوب.

وفي الحديث الصحيح: «**لا طاعة لِمَخْلوقٍ في مَعْصِية الخالق**».

(٤) أن برَّ الوالدين مُتَسَاوٍ عند بعض الفقهاء الشافعية، والمالكية، وبعضُ الفقهاء يُرَجِّح الأُمّ على الأب، وإلى هذا ذَهَب اللَّيثُ بْن سعد والمحاسبيُّ في كتابه «الرِّعاية».

(٥) لا يختصّ بِرّ الوالدين بأن يكونا مُسْلِمَيْن بل إن كانا كافِرَيْن يَبَرُّهما ويُحْسِن إليهما إذا كان لهما عهد.

قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

(٦) من الإحسان إليهما والبرّ بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يُجاهد إلا بإذنهما – كما سيأتي– .

(٧) ومن تمام البرّ: صلةُ أهل ود الوالدين، وكان ﷺ يُهْدي لِصَدَائقِ خديجة برًّا بها، ووفاءً لها وهي زوجتُهُ – رضي الله عنها – فما ظَنّك بالوالدين؟

(٨) وَخَصَّ رَبُّ العزّة حالة الكِبَر؛ لأنَّها الحالةُ التي يحتاجان فيها إلى البرّ لتغيّر الحال عليهما بالضَّعف والكِبَر، فألْزمَ في هذه الحالة مُراعاةَ أحوالِهما أكثر مِمَّا ألزمهما من قبل؛ لأنهما في هذه الحالة قد صارا كَلاًّ عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج إليه في صغره أن يليا منه، فلذلك خَصّ هذه الحالة بالذكر.

(٩) ومن برهما والإحسان إليهما أن لا يقول لهما ما يكون فيه أدنى تبرُّم، يقول الله تعالى:

﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله: ﴿ أُفٍّ ﴾ للأبوين أردأ شيء لأنّه رَفَضهما رَفْضَ كُفْرِ النِّعْمَة، وَجَحَدَ التّربية وَرَدَّ الوصيّة الإلهيّة.

(١٠) أن يتلّطف معهما بقول لَيِّن لطيف، كريم وأن يجعل نَفْسه مع أبويه في خَير ذلَّة، في أقواله، وسَكَنَاته ونَظَرِه، ولا يُحِدُّ إليهما بَصَرَه؛ فإن تلك نَظرة الغاضب. وهذا من برّ الوالدين.

قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

(١١) ومن بَرّهما: الترحّم عليهما والدّعاءُ لهما وأن ترحمهما كما رَحِماك، وَتَرْفُق بهما كما رَفَقَا بك، وإذ وَلِيَاك صَغيرًا، جاهلاً، مُحْتَاجًا، فآثَرَاك على أنفسهما، وأسهرا لَيْلَهُما، وجاعا وأشبعاك، وتَعرَّيَا وكَسَواك، فلا تَجزهما إلا ببرّهما وطاعتهما، وحين يَبْلُغان من الكِبَر الْحَدّ الذي كُنْتَ فيه من الصِّغر، فعليك أن تَلِيَ منهما ما وَلِيَا مِنْك، ويكون لهما حينئذ فَضْلُ التَّقَدُّم[1].

■ قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

■ وعن أُسَيْد السّاعديّ ﷺ قال:

فيما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/١٥٥- ١٦١) باختصار وإضافة.

بَقِيَ من بِرِّ أَبَويّ شيءٌ أبرُّهُما به بعد موتهما؟

قال: « **نعم، الصَّلاةُ عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذُ عَهْدِهما مِنْ بَعْدِهما، وصلةُ الرَّحِم التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرامُ صَدِيقِهما** »[1].

ثالثاً: عاقبة عقوق الوالدين:

اعلم: أن العقوق: علامةُ شُؤم، وطَالع نَحْس، يُؤذِن بتعاسة العاقّ في الدّارين. نسأل الله السّلامة.

وهذه جملة أحاديث، تجعلُ الوالدن شيبًا!!

(١) عن أبي بَكْرَة الثقفيّ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **ألا أنبئكم بأكبرِ الكَبَائر؟** » - ثلاثًا - .

قلنا: بلى يا رسول الله.

قال: « **الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** »، وكان مُتّكِئًا فجلس، فقال:

« **ألا وقولُ الزّور، وشهادةُ الزّور** »، **فما زال** يكرّرها حتى قلنا: لَيْتَه سَكَتَ[2].

(٢) وعن عبد الله بن عمرو، **قال:**

قال رسولُ الله ﷺ :

« **ثلاثةٌ لا ينظُر اللّهُ إليهم يَوْمَ القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأةُ الْمُتَرَجِّلة المتشبّهةُ بالرِّجال، والدّيوث.**

وثلاثةٌ لا يدخلون الجنّة: العاقُّ لِوَالِدَيْه، والمدمن الْخَمْرَ، والْمَنّان بما أَعْطى »[3].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٥١٤٢)، وغيره.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

(٣) رواه أحمد في «المسند»، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٠٧١).

(٣) وعن أبي أُمامة، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **ثلاثةٌ لا يَقْبَلُ اللَّهُ عَجَّلَ منهم صَرْفًا ولا عَدْلاً: عَاقٌّ، وَمَنَّان، وَمُكَذِّب بالْقَدَر** »[١].

فانظر- **يا أخي** - إلى هذا الوعيد الشديد، والعقاب الأليم، الذي يترتب على عقوق الوالدين.

فأيّ عاقل يريد أن يجني هذه الثمرات؟

مَنْ منا يريد أن يرتكب أكبر الكبائر؟

من منا يريد أن يُحرم من نَظَر الله إليه يوم القيامة؟

من منا يريد أن تُرفض أعمالُه الصّالحة فَرائضها ونوافلها؟

من منا يريد أن يُحرم من دخول الجنة؟

فهيا أيها المسلم إلى البرّ، هيّا إلى الرحمة، هيّا إلى الخير.

رابعًا: ثمرات بر الوالدين:

من هذه الثمرات:

(١) نَيْلُ رِضَا اللهِ تعالى:

فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - **قال:**

قال رسولُ الله ﷺ:

« **رضا الرَّبّ تبارك وتعالى في رضا الوالدين، وَسُخْطُ اللهِ تبارك وتعالى في سُخْطِ الوالدين** »[٢].

---

(١) حسن: رواه ابن أبي عاصم في « السُّنة » بإسناد **حسن، وانظر: « صحيح الجامع »** (٣٠٦٥).

(٢) صحيح: رواه البزار، وانظر: « صحيح الجامع » **(٣٥٠٧).**

(٢) الفوز بعمل يُحِبُّه الله تعالى:

فعن ابن مسعود، قال:

سألتُ رسول الله ﷺ : أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟

قال: « **الصلاةُ على وقتها** ».

قلتُ: ثمّ أيّ؟

قال: « **برُّ الوالدين** ».

قلتُ: ثم أيّ؟

قال: « **الجهادُ في سبيل الله** »[١].

(٣) نَيْلُ ثواب المجاهد والحاج والمعتمر!!:

فعن أنس، قال:

أتى رجلٌ رسولَ الله ﷺ فقال:

إنّي أشتهي الجِهَادَ ولا أَقْدِرُ عليه.

قال: « **هل بَقِيَ مِنْ والِدَيْك أَحَدٌ؟** ».

قال: أُمّي.

قال: « **قَابِل الله في بِرِّها، فإذا فَعْلَت ذلك فأنْتَ حَاجٌّ وَمُعْتَمِر ومُجَاهد** »[٢].

(٤) الفوز بالجنة:

فعن معاوية بْن جَاهمة أن جاهمة جاء إلى النّبيّ ﷺ ، فقال:

يا رسولَ الله، أردتُ أن أَغْزو، وجئتُ أسْتَشيرُك؟

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) إسناد جيد: رواه أبو يعلى والطبراني في « الأوسط » و « الصغير » وإسنادهما جيد. قاله المنذريّ.

فقال: «**هَلْ لك من أُمّ؟**».

قال: نعم.

قال: «**فالْزَمْهَا، فإن الجنّة عِنْد رِجْلِها**»[١].

(٥) الزيادة في الْعُمْر:

فعن سلمان، أن رسول الله ﷺ قال:

«**لا يَرُدُّ القَضَاءَ إلا الدُّعاء، ولا يَزِيدُ في الْعُمْر إلا الْبِرّ**»[٢].

(٦) غفران الذنوب:

فعن ابن عمر: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال:

إني أذنبتُ ذنبًا عظيمًا فهل لي من توبة؟

فقال: «**هل لك مِنْ أُمّ؟**».

قال: لا.

قال: «**فهل لك مِنْ خَالة؟**».

قال: نعم.

قال: «**فَبِرَّها**»[٣].

(٧) تفريج الكروب:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الخطَّاب رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ:

«**انْطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتَّى آوَاهُمُ المَبِيْتُ إلى غَارٍ فَدَخَلُوْهُ، فَانْحَدَرَتْ**

(١) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٤١).

(٢) حسن: رواه الترمذي.

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وغيره.

صَخْرَةٌ من الجبل فسدَّت عليهم الغار؛ فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أنْ تدْعُوا الله بِصَالِحَ أَعْمَالِكُمْ.

قال رجلٌ منهم: اللّهم كان لي أَبَوان، شَيْخَانِ كَبِيران، وكنتُ لا أَغْبِقُ[١] قَبْلَهُما أَهْلاً ولا مَالاً. فَنَأى[٢] بي طَلَبُ الشَّجَر، فلم أَرُحْ عليهما حتى ناما، فَحَلَبْتُ لهما غَبُوقَهُما، فوجدتُهما نائمَيْن، فكرهتُ أن أُوقظَهُما، وأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهما أَهْلاً أو مَالاً، فَلَبِثْتُ - والقَدَحُ على يَدَيَّ - أنتظرُ اسْتيقاظَهُما حتى بَرَق الفَجْرُ، والصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْن[٣] عند قَدميَّ، فاسْتَيْقَظا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُما. اللَّهُمّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابْتغاء وَجْهِك، فَفَرِّجْ عَنَّا ما نحن فيه مِنْ هَذه الصَّخْرةِ. فانْفَرجَتْ شَيْئًا لا يَسْتَطيعونَ الْخروجَ مِنْهُ.

قال الآخَرُ: اللَّهُمّ إنّه كانت لي ابنةُ عَمٍّ، كانت أَحَبَّ النّاسِ إليَّ - وفي رواية - كنتُ أُحبُّها كأشد ما يُحبّ الرّجالُ النّساء، فأردتُها على نَفْسها فامْتَنَعتْ منِّي حتى أَلَمَّتْ بها سَنَةٌ[٤] من السِّنين، فجاءتْني فأعطيتها عِشْرين ومائةَ دينارٍ، على أن تُخَلّي بيني وبين نفسها[٥] فَفَعلَتْ، حتى إذا قَدَرْتُ عليها - وفي رواية - فَلَمّا قَعدتُ بَيْن رِجْلَيْها - قالت: اتّق الله، ولا تَفُضَّ الخَاتَمَ إلاّ بَحقِّه[٦]، فانْصَرفتُ عنها وهي أَحَبُّ النّاس إليَّ، وتركتُ الذَّهَبَ الّذي أَعْطَيْتُها. اللَّهُمّ إن كُنتُ فَعَلْتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِك، فافْرُجْ عَنّا ما نَحْنُ فِيه. فانْفَرَجَت الصَّخْرَةُ غَيْر أَنّهم لا يستطيعون الخُروج منها.

وقال الثّالثُ: اللهمّ اسْتأجَرْتُ أُجَرَاءَ، وأَعَطَيْتُهم أَجْرَهُمْ غَيْر رَجُلٍ وَاحِدٍ، تَرَكَ الّذي له وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حتى كَثُرَتْ منْهُ الأَمْوَالُ، فجاءَني بَعْد حِينٍ، فقال: يا عَبْدَ الله أَدِّ إليَّ أَجْري، فقلتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِك مِن الإبل والْبَقرِ والغنم والرَّقيق. فقال: يا عَبْدَ الله لا تَسْتَهْزئْ بي. فقلتُ: لا أَسْتَهزِئُ بِكَ، فَأَخَذه كُلَّهُ، فاسْتاقَه فَلَمْ يَتْركْ مِنْهُ شيئًا،

---

(١) أغبق: أي: لا أقدّم في الشرب قبلهما أهلاً ولا مالاً من رقيق وخادم. والغبوق: شُرب العشي.

(٢) نأى: بَعُد.

(٣) يتضاغون: يصيحون من الجوع.

(٤) ألمت بها سنة؛ أي: نزل بها فاقة وفقر وحاجة.

(٥) تُخلّي بيني وبين نفسها: أي تمكنه منها.

(٦) لا تفض الخاتم: كناية عن الفرج وعذرة البكارة، أي: لا تزل عفافي إلاّ بالزّواج.

اللَّهُمَّ إن كُنْتُ فَعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِك فافْرِجَ عنّا ما نحنُ فِيه، فَانْفرجت الصَّخْرةُ، فَخرَجُوا يَمْشُون» (١).

خامساً: صور من حياة أهل البرّ:

وأختم حديثي إليك - **أخي الكريم**- بذكر صور ومواقف **من حياة** أهل البرّ، تدلّ **على أهمّيّة** بر الوالدين في حياة الأنبياء والصّالحين:

الصورة الأولى: بر إسماعيل بأبيه - عليهما السلام - :

يدلّ على ذلك موقفه من أبيه حين عرض عليه رؤياه:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢].

الصورة الثانية: بر يحيى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾ **[مريم: ١٤].**

الصورة الثالثة: بر عيسى عليه السلام:

قال تعالى - حكاية عن عيسى عليه السلام - :

﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ **[مريم: ٣٢].**

الصورة الرابعة: برُّ النبيّ ﷺ :

فعن أبي الطفيل رضي الله عنه قال:

رأيتُ رسول الله ﷺ يُقَسِّم لَحْمًا بالْجِعْرَانة **وأنا غُلامٌ شَابٌ** فأقبلت امرأةٌ فَلَمّا رآها رسولُ الله ﷺ بَسَط لها رِدَاءَهُ فَقَعَدتْ عليه، **فقلتُ:**

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

مَنْ هذه؟

قالوا: «أُمُّه التي أَرْضَعَتْهُ[١]»[٢].

الصورة الخامسة: برُّ كَهْمَس[٣]- رحمه الله :

قال أبو عطاء الرَّمْلي: كان كَهْمَس يقول في الليل: «أتُراكَ مُعذِّبي، وأنْتَ قُرّةُ عيني، يا حبيبَ قَلْباه!». وقيل: إن أراد قتل عقرب، فدخلت في جحر فأدخل أصابعه خلفها فضربته. فقيل له[٤]: قال:

«خِفْتُ أن تَخْرجَ ، فَتجيءَ إلى أُمّي تَلدغُها!!»[٥].

فيا أخا الإسلام:

علـيك بِـبِرِّ الوالِدَيْـن كَلَـيْهما وَبِـرَّ ذَوي القُـرْبى وَبِـرَّ الأَبَـاعِدِ
ولا تَصْـحَبَنّ إلا تَقـيًّا مُهَذَّبًـا عَفـيفًا ذَكِـيًّا مُـنْجزًا لِلْمَواعِـدِ

وفّقني الله وإيّاك.



(١) هي: حليمة السّعدية.

(٢) رواه أبو داود (٥١٤٤)، وغيره.

(٣) قال الذهبيّ: البصري، العابد، من كبار الثقات. ا.هـ.

(٤) يعني: لم فعلت؟

(٥) «السّير» (٦/٣١٧).

١٠٨- صِلَةُ الأَرْحام

قال **عمرو بن دينار** – رحمه الله – : «تَعْلَمُنَّ أنّه ما مِن خُطْوةٍ بَعْد الْفَرِيضة أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ خُطْوةٍ إلى ذِي الرَّحِم»[١].

ولمكانة الأرحام في الإسلام، فالحديث عنها يدور حول **خمسة أمور**:

الأول: تعريف صلة الأرحام.

والثاني: حُكمها ودرجاتها.

والثالث: أنواعها.

والرابع: تعظيم قدرها، والتحذير من قطعها.

والخامس: ثمراتها.

والله أسأل التوفيق لما يُحبّ ويرضى.

أولاً: تعريف صلة الرحم:

قال الإمام **النووي** – رحمه الله – :

«صلةُ الرّحم: هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال، وتارة تكون بالخدمة، وتارة تكون بالزيارة والسّلام وغير ذلك»ا.هـ[٢].

ثانيًا: حكم صلة الأرحام ودرجاتها:

قال القاضي **عياض** – رحمه الله – :

«لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة، والأحاديث

---

(١) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٦٢).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢٠١/٢).

تشهد لهذا، ولكنّ الصّلة درجاتٌ بعضُها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة بالكلام ولو بالسّلام[1]، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجبٌ، ومنها مُستحبٌّ. ولو وَصَل بَعْضَ الصِّلة، و لم يَصِلْ غايتها لا يُسَمَّى قاطعًا، ولو قصَّر عمَّا يقدر عليه وينبغي له لا يُسمَّى واصلاً» ا.هـ[2].

ثالثًا: أنواع صلة الرحم:

الرّحم على وجهين: عامّة وخاصّة:

فالعامّة: رَحِمُ الدِّين:

ويجب مواصلتُها بملازمة الإيمان والمحبّة لأهله ونصرتهم، والنصيحة، وترك مضارّتهم، والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

وأمّا الرَّحِم الخاصّة: وهي رَحِم القَرَابة من طرفي الرّجل أبيه وأُمّه:

فتجب لهم الحقوق الخاصّة وزيادة؛ كالنفقة وتفقّد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم؛ وتتأكّد في حقّهم حقوق الرّحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بُدئ بالأقرب فالأقرب[3].

رابعًا: تعظيم قَدْر الرّحم، والترهيب من قطعها:

وفي هذا وردت آيات وأحاديث:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ

(١) قال ﷺ: «بُلّوا أرحامكم ولو بالسّلام» رواه البزّار، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣٨).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١١٢/١٦، ١١٣).

(٣) «تفسير القرطبيّ» (٢٢٦/١٦).

مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

(٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

(٣) وقال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[النساء: ٣٦].

(٤) وقال تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾[الروم: ٣٨] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن الأحاديث:

(١) عن ابن عباس، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **احْفَظُوا أَنْسَابكم تَصِلوا أَرْحَامَكُم، فإنّه لا بُعْدَ بالرَّحم إذا قَرُبَتْ، وإن كانت بَعيدة، ولا قُرْبَ بها إذا بَعُدَتْ، وإن كانت قريبةً، وَكُلُّ رَحِم آتيةٌ يَوْمَ القيامة أمامَ صَاحِبها، تَشْهَدُ له بصلَةٍ إن كان وَصَلَها، وعليه بقَطِيعةٍ إن كانَ قَطَعَها** »[1].

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« **إنّ الله خَلَقَ الْخَلْقَ، حتى إذا فَرَغَ منْ خَلْقه قامت الرَّحمُ، فقالت: هذا مَقَامُ الْعَائذ بكَ من القَطيعة، قال: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصلَ مَنْ وَصَلَك، وأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَك؟ قالت: بَلَى يا رَبِّ. قال: فَذَاكِ لَكِ** » . ثم قال رسولُ الله ﷺ :

« **اقرأوا إن شئتم:** ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٢- ٢٤] »[2].

---

(١) رجاله ثقات: رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٧٣).

(٢) رواه البخاري (٥٩٨٧)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٣) وعن سلمان بن عامر ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إنّ الصَّدقَة على المسكين صَدَقة، وعلى ذي الرَّحِم اثْنَتان: صَدَقةٌ وَصِلَةٌ»[١].

هذا، والواصل الحق لِرَحِمه: الذي يصلُ من قطعه، وليس المكافئ:

(٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«ليس الواصلُ بالْمُكَافِئ، ولكن الواصلَ الذي إذا قُطِعَتْ رَحِمُه وصَلَهَا»[٢].

(٥) وعن أبي ذرّ ﷺ قال:

«أَوْصَاني خليلي أن لا تأخذني في الله لومةُ لائم، وأَوْصَاني بِصِلة الرَّحم وإن أَدْبَرت»[٣].

ويجب التنبيه: على أن صلة الرحم لا تعني مناصرة الأقارب في الباطل، ولا إعانتهم على الظّلم، ولا تشجيعهم على الفساد، ولا ترك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

فعن ابن مسعود ﷺ قال:

أتيتُ إلى النبيّ ﷺ وهو في قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ حَمْراءَ في نَحْوٍ مِنْ أَرْبَعين رَجُلاً. فقال:

«إنّه مَفْتُوحٌ لكم[٤] وأنتم مَنْصُورون مُصِيبون، فمن أَدْرَكَ ذلك منكم فَلْيَتّق الله، ولِيأمُرْ بالمعروف، وَلْيَنْه عن المنكر، وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَثَل الذي يُعِينُ قَوْمه على غَيْر الْحَقّ كَمَثَلِ البعير يَتَردَّى[٥] فهو يَمُدُّ بِذَنَبه[٦]»[٧].

---

(١) حسن: رواه النسائي (٥/٩٢).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩١).

(٣) رواه الطبراني في «الصغير» (٧٥٨)، و «الكبير» (١٦٤٨)، ورجاله رجال الصحيح غير سلام بن المنذر وهو ثقة.

(٤) هذا من نبوءات النبيّ ﷺ بالفتوحات الإسلامية.

(٥) يتردّى: يسقط من مكانٍ عالٍ.

(٦) بذنبه: بذيله.

(٧) رواه الحاكم (٤/١٥٩)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وأقرّه الذّهبي.

خامسًا: ثمرات صلة الأرحام:

من هذه الثمرات :

(١) الفوز بالجنة:

فعن أبي أيوب: أن رجلاً قال للنبيِّ ﷺ:

أخبِرني بعملٍ يدخلُني الجنّة. قال:

« **مَالَهُ، مَالَهُ** ». وقال النبيُّ ﷺ:

« **أَرَبٌ مَالَهُ**[١]**، تعبدُ الله، ولا تشركُ به شيئًا، وتُقِيمُ الصَّلاة، وتؤتِي الزكاة، وتصِلُ الرَّحم** »[٢].

(٢) البركة في العمر والرِّزق:

فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **إنّ الله لَيُعَمِّرُ بالْقَوْم الدِّيار، وَيُثَمِّر لهم الأموال، وما نَظَر إليهم مُنْذُ خَلَقهم بُغْضًا لهم** ».

قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟

قال: « **بصِلَتِهِم لأَرْحَامِهِم** »[٣].

(٣) الصِّلَة بالله تعالى:

قال تعالى - في الحديث القدسي - : « **أنا الرَّحْمَنُ الرَّحيم، وإنّي شَقَقْتُ لِلرَّحِم من اسْمِي، فمن وَصَلَها وَصَلْتُه، ومن نَكَثَها**[٤] **نَكَثْتُه** »[٥].

---

(١) أَرَبٌ ماله: يعني حاجة له.

(٢) رواه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (١٤).

(٣) قال الهيثمي في « المجمع » (١٥٢/٨): رواه الطبراني وإسناده حسن.

(٤) النكث: نقض العهد، والمراد: فمن قطعها.

(٥) حسن: رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٥٣)، ورواه البزّار.

أخي:

هذه بعضُ ثمرات «صلة الأرحام»، فما أحوجنا إلى أن نصل أرحامنا، خصوصًا في هذه الأيام، فقد تدابرت الأرحامُ، وتباغضت القلوب، وتباعدت الأبدان.

فكم من رَحِمٍ اليوم تشكو لربِّها ظُلْم أهلها!

وكم من أقَارب قطعهم اللَّهُ - تعالى - وفصلهم عن رحمته بسبب قطيعتهم لأرحامهم.

فيا تعاسة هؤلاء الأشقياء، الذين خاصموا أقاربهم، وقاطعوهم، وهجروهم، بل وآذوهم، يفرحون لحزنهم، ويحزنون لفرحهم، وَيَروْن نِعْمة رَبِّهم على أقاربهم نِقْمة عليهم!!

لقد رأينا في هذا الزمان إخوةً «أشقاء»، تخاصموا، وتقاطعوا، وتدابروا، ولم ير الواحدُ منهم أخاه إلا إذا سمع بموته!

ثم يأتي - على مضض - لِيُشيِّع جنازته، وقد ظهرت في وجهه علامةُ الشّماتة!!

فأين الإسلام أيها الناس؟

أين الأرحام أيها المسلمون؟

أين الرحمة؟

«اللّهم إنا نسألك رَحْمةً من عندك، تَجْمَعُ بها شَمْلَنا، وَتَلُمّ بها شَعْثَنا، وتَردّ بها الفتن عنا».

۞۞۞۞۞

١٠٩- العِزَّة

حَرّم الإسلامُ على المسلم أن يهون، أو يستذل، أو يستضعف، ورَمَى في قلبه القلق والتبرّم بكلّ وضع يخدش كَرَامته، ويجرح مكانته.

وفي الخبر: «**اطلبوا الحوائج بعزّة الأنْفس، فإن الأمورَ تَجْري بِمَقَادِير**».

والذي ينكسر أمام مخلوق مثله، يرجو رحمته ويخشى عذابه، إنسان أساء الظنّ بربِّه.

فمواتُ العِزَّة دليل على إيمان مهزول، وفكر مشلول، وعقل مخبول.

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

ولمكانة العزّة وأهميتها، فالحديث عنها يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: معنى العزّة.

والثاني: الترغيب فيها.

والثالث: أهميتها.

والرابع: صور ومواقف تدل على عزّة السّلف الصالح.

نسأل الله تعالى التوفيق لاتباعهم.

أولاً: معنى العزّة:

العزّة «**لغة**»: قال **ابن منظور**: «العزُّ: خلاف الذّلّ، ... والعزّ في الأصل: القوّة والشّدة، والغلبة، يقال: عزّ، يعزّ بالفتح إذا اشتدّ، ورجلٌ عزيز: منيع لا يُغْلب ولا يُقْهَر».

أمّا عزّة الله تعالى: فمرادٌ بها: الغلبةُ والقوّة والقُدْرة، وقَهْره مَنْ دونه.

و«**اصطلاحًا**»: قال **الرّاغب**: «العزّة حالة مانعة للإنسان من أن يُغْلَب» ا.هـ[(١)].

(١) «المفردات» (٣٣٣).

هذا، ومن أسماء الله تعالى: «العزيز». قال **ابن منظور** - رحمه الله - :

«العزيز: من صفات الله ﷻ، وأسمائه الحُسنى، ومعناه: الْمُمْتَنِعُ فلا يَغْلُبه شيءٌ، وقيل: هو القويّ الغالبُ كُلَّ شيء، وقيل: هو الذي ليس كَمِثْله شيءٌ» ا.هـ[1].

ثانيًا: الترغيب فيها:

اعلم: أن الآيات والأحاديث الْمُرَغِّبَة في العِزّة والحاضّة عليها كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

(٢) وقال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

قال الإمام **البغوي** - رحمه الله - في «تفسيره» (٤/٣٥٠):

«أمّا العزّة المنسوبة لله - تعالى - ولرسوله وللمؤمنين: فإن عزّة الله:

قَهْرُه مَنْ دُونَهُ، وعزّة رسوله: إظهارُ دينه على الأديان كلّها، وعزة المؤمنين: نصر الله إيّاهم على أعدائهم» ا.هـ.

(٣) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

(١) «لسان العرب» (٥/٣٧٤).

ومن الأحاديث:

(١) عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول:

« **لا إله إلا الله وَحْدَه. أعزّ جُنْدَه، ونَصَر عَبْده، وغَلَب الأحْزَابَ وَحْده. فلا شيءَ بَعْده** »[١].

(٢) وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ كان يقول:

« **اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت، أن تضلني، أنت الحيّ الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون** »[٢].

إن استمداد العزّة يكون من الله تعالى وحده، ومن طلب العزّة من غير الله أذلّه الله، وأخزاه، وأبعده، وأشقاه، وجعل النار مثواه. قال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ ﴾ [فاطر: ١٠].

وعن طارق بن شهاب، قال:

خرج عمرُ بن الخطاب ﷺ إلى الشام ومعنا أبو عبيدة بن الجرّاح فأَتَوْا على مخاضة[٣]، وعمر على ناقة له، فنزل عنها وخلع خفّيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة! فقال أبو عبيدة:

يا أمير المؤمنين، أنت تفعلُ هذا؟ تخلع خُفيّك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمامَ ناقتك وتخوض بها المخاضة؟! ما يَسُرُّني أن أهل البلد اسْتَشْرفوك[٤]. فقال عمر:

« أَوْه[٥]! لو يقل ذا غيرُك أبا عبيدة جعلتهُ نكالاً لأُمَّة محمد ﷺ، إنا كنا أَذَلَّ قومٍ

(١) رواه البخاري (٤١١٤)، ومسلم (٢٧٢٤).

(٢) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧).

(٣) المخاضة: ماء وطين.

(٤) رأوْك.

(٥) أوه: كلمة توجّع وتضجّر.

فأعزّنا اللّهُ بالإسلام، فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزّنا اللّهُ به أذلّنا الله»[١].

ثالثًا: أهمية العزة:

اعلم - يا أخي - أعزّني الله وإيّاك - «أن اعتزاز المسلم بنفسه ودينه وربّه هو كبرياء إيمانه، وكبرياء الإيمان غير كبرياء الطغيان، إنها أنفة المؤمن أن يصغر لسلطان، أو يتّضع في مكان، أو يكون ذَنَبًا لإنسان.

هي كبرياء فيها التمرّد بقدر ما فيها من الاستكانة، وفيها من التعالي بقدر ما فيها من التضامن: فيها الترفّع على مغريات الأرض ومزاعم الناس وأباطيل الحياة، وفيها الانخفاض إلى خدمة المسلمين والتبسّط معهم، واحترام الحق الذي يجمعه بهم، فيها إتيان البيوت من أبوابها، وطلاب العظمة من أصدق سبلها:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

العزة والإباء والكرامة من أبرز الخلال التي نادى الإسلامُ بها، وغرسها في أنحاء المجتمع، وتعهّد نماءها بما شرع من عقائد، وسنّ من تعاليم.

علام يصيح المؤذّن خمس مرات كل يوم مناديًا بتكبير الله وحده في بداية الأذان ونهايته؟

ولماذا يتكرّر هذا التكبير فيكتنف حركات الصلاة كلها من قيام وقعود؟

ذلك لكيما يوقن المسلم يقينًا لا يهتزّ ولا يزيغ، أن كل متكبّر بعد الله فهو صغير، وإن كلّ متعاظم بعد الله فهو حقير.

وتوكيدًا لهذه المعاني اختار اللّهُ ﷻ اسْمَى العظيم والأعلى من أسمائه الحسنى ليكررها المسلم في أثناء ركوعه وسجوده، فَتُشْرب روحه إفراد رب العالمين بالعظمة والعلوّ.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٦٢/١)، وصحّحه، ووافقه الذهبيّ.

والعزة حقّ يقابله واجب، وليس يسوغ لامرئ أن **يطالب بما له** من حق حتى يؤدّي ما عليه من واجب، فإذا كلّفت بعمل ما فأديته على أصحّ **وجوهه فلا** سبيل لأحد عليك، ولا يستطيع مَنْ فوقك ولا مَنْ دُونك مَرْتبة أن يعرض **لك بلفظ** مُحرج، وتستطيع أن تحتفظ بعزّة نفسك أمام رؤسائك حين تسدّ الثغرات **التي ينفذ منها** إليك اللّوم والتقريع، إن أَلَدَّ أعدائك حينئذ يَتَهيّبك.

فالإسلام عندما أوصى المسلم بالعزّة هداه **إلى أسبابها، ويسرّ له** وسائلها، وأفهمه أن الكرامة في التقوى، وأن السّموّ في العبادة، وأن العزّة **في طاعة الله**.

والمؤمن الذي يعلم ذلك ويعمل به **يجب أن يأخذ نصيبه كاملاً** غير منقوص في الحياة الرفيعة المجيدة.

فإذا اعتدى عليه أحد أو طمع فيه **باغٍ كان انتصابه** للدفاع عن نفسه جهادًا في سبيل الله.

ومن ثَمّ فإن موت المسلم دون حقّه شهادة:

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال:

يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجلٌ يريد أخذ مالي(١)؟

قال: « **لا تعطه مالك!** ».

قال: أرأيتَ إن قَاتَلني؟

قال: « **فقاتله!** ».

قال: أرأيتَ إن قتلني؟

قال: « **فأنت شهيد** ».

قال: أرأيتَ إن قتلتهُ؟

---

(١) أي: اغتصابه.

قال: «هو في النّار»[(١)].

نعم: فمن عزّ المؤمن ألا يكون مُستباحًا لكلِ طامع، أو غرضًا لكل هاجم. بل عليه أن يستميت دون نفسه وعرضه. وماله وأهله، ودينه. وإن أريقت في ذلك دماء؛ فإن هذا رخيص لصيانة الشرف الرفيع»[(٢)].

«إن الناس يذلون أنفسهم، ويقبلون الدّنية في دينهم ودنياهم، لواحد من أمْرَيَنْ:

إمّا أن يصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم.

والغريب أن الله قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق جميعًا، فليس لأحد إليهما من سبيل.

فالناس في الحقيقة يستذلّهم وهم نشأ من أنفس مريضة بالحرص على الحياة والخوف على القوت.

والناس من خوف الذّلّ في ذلّ، ومن خوف الفقر في فقر. مع أن الإسلام بنى حقيقة التوحيد على الصّلة بالله تعالى فيما ينوب ويُروع واليأس من الناس فيما لا يملكون فيه على الله بَتًّا، ولا يقدمون نفعًا ولا ضرًّا:

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١].

يقول **ابن القيم** - رحمه الله - في مُناجاة الله:

يا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيما أُؤَمِّلُه! وَمَنْ أَعُوذ بِهِ ممَّا أُحَاذِرُه!
لا يجبر النّاس عَظْمًا أَنْتَ كَاسِره ولا يهيضون عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُه!

وذلكم هو التوحيد الكامل. وذلكم ما يجب أن يستشفى به أُولئك الضّعاف

(١) رواه مسلم.
(٢) «خلق المسلم» للغزالي (٢٠٢- ٢٠٤) باختصار شديد.

المساكين، الذين يريقون ماء وجوههم في التسكّع على الأبواب، والتمسّح بالثياب، والزّلفى على الأعتاب»[١].

أخي:

إن تهيّب الموت، وتحمّل العار طَلَبًا للبقاء في الدنيا على أيّة صورة فذلك حُمْق، فإن الفرار لا يطيل أجلاً، والإقْدام لا ينقص عُمرًا، كيف؟

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

إن القضاء يصيب العزيز وله أَجْرُه، ويصيب الذّليل وعليه وِزْرُه، فكن عزيزًا ما دام لن يَفْلت من مَحْتوم القَضاء إنسان.

رابعًا: صور تدلّ على عزّة السّلف الصالح:

المواقف التي تدلّ على عزّة السّلف الصّالح أكثر من أن تحصى، وإليك موقفين نشير من خلالهما إلى أن الإسلام رفع قَدْر الْمُسْتَمْسك به، وجعله ينقل أَقْدَامه على الأرض مَكِينًا أَمِينًا.

الموقف الأوّل:

قيل مرّة **لمحمد بن واسع**[٢] - رحمه الله - :

ألا تأتي السُّلطان فَتَسْأله شيئًا تأكله فإنّا نخاف عليك أن تموت مَهْزولاً. فقال:

«لأن ألقى الله تعالى مؤمنًا مهزولاً، خير لي من أن ألقاه منافقًا سمينًا!»[٣].

---

(١) «خلق المسلم» (٢٠٧).

(٢) من خيار التابعين.

(٣) «تنبيه المغترين» (٣١٢).

الموقف الثاني:

قال أبو العَيْناء: لمّا حجّ المهدي - الخليفة - دخلَ مَسْجِدَ رسولِ الله ﷺ فلم يَبْق أحَدٌ إلا قام، إلا ابن أبي ذئب[1]، فقال له المسيّبُ بن زُهير:

قم، هذا أمير المؤمنين.

فقال: «إنما يقوم الناسُ لربّ العالمين».

فقال المهديّ: «دَعْهُ، فلقد قامت كُلُّ شَعْرة من رأسي»[2].

وبهذا الموقف - المبارك - نأتي إلى ختام حديثنا عن «العزّة» والله وليّ التوفيق.



(١) الإمام، شيخ الإسلام، المدني، الفقيه.

(٢) «السّير» (١٤٣/٧).

١١٠- الْعَزْمُ

قال أبو حازم – رحمه الله تعالى – «عند تَصْحيح الضَّمَائر: تُغْفَرُ الكَبَائِرُ، وإذا عَزَم العبدُ على تَرْك الآثامِ، أَمَّهُ الْفُتُوحُ[1]»[2].

بهذه الكلمات القليلة المبني، العظيمة المعنى، نبدأ الحديث عن خُلُقٍ كريم، ألا وهو خُلُق «الْعَزْم».

والحديث عنه يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأول: تعريف العزم.

والثاني: الترغيب فيه.

والثالث: مواقف من حياة أهل العزم.

والله وليّ التوفيق.

أولاً: تعريف العزم:

قال **الرّاغب**: «العزم: عَقْدُ الْقَلْبِ على إمْضَاءِ الأَمْر»[3].

ثانيًا: الترغيب في العزم والعزيمة:

ورد الترغيب في العزم، والحثّ على العزيمة، في آيات وأحاديث وآثار:

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

(١) أمّه الفتوح: أتاه وقصده.
(٢) «حلية الأولياء» (٢/٢٣٠).
(٣) «المفردات» (٥٦٥).

ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

(٢) وقال تعالى - حكاية عن لقمان - : ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

(٣) وقال تعالى - لنبيه ﷺ - :

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ومن الأحاديث:

(١) عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال:

إن رسولُ الله ﷺ كان يقولُ في صلاته:

« اللّهم إنّي أسألُك الثّباتَ في الأمْر، والعزيمةَ على الرُّشْدِ، وأسألُك شكرَ نعمتكِ، وَحُسْنَ عبادتك، وأسألُك قَلْبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، وأسألُك من خير ما تَعْلم، وأعوذ بكَ من شرِّ ما تعلم، وأستغفرُك لِمَا تَعْلَم »(١).

(٢) وعن أنس، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

« إذا دَعَا أحَدُكم فَلْيَعْزم الْمَسْأَلَةَ، ولا يَقُولَنَّ: اللّهمَّ إن شِئْتَ فَأَعْطِني، فإنّه لا مُسْتَكْرِهَ لَهُ »(٢).

والأحاديث في هذا المقام كثيرة، وسيأتي بعد قليل المزيد.

---

(١) صحيح: رواه النسائي (٣/٥٤)، والترمذي (٣٤٠٧)، وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٦٣٣٨).

ومن الآثار:

قال بعضُ السَّلف: «أحبّ الأعمال إلى الله - تعالى - : مَا أُكْرِهَتْ عليها النفوس».

ثالثاً: مواقف من حياة أهل العزم:

اعلم: أن روح العزم: الإيمانُ الصّادق. فكلّما قوى الإيمانُ: ازداد عزمُ الإنسان.

فلا عجب إذن، حين نرى أشدّ الناس عزمًا: الأنبياء ثم الصّالحون ثم الأمثل فالأمثل.

وهذه بعض مواقفهم الدّالة على قوّة عزمهم، وصلابة يقينهم:

الموقف الأوّل: عزم نوح عليه السلام:

يدلّ على ذلك: مكثه في قومه يدعوهم مئات السّنين ، دون كلل ولا ملل.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

الموقف الثاني: عزم إبراهيم عليه السلام:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾. قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقي في النار، وقالها محمّد ﷺ حين قالوا:

﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[آل عمران: ١٧٣] (١).

الموقف الثالث: عزم يوسف عليه السلام:

حين وقف كالطود العظيم، والجبل الأشمّ أمام امرأة العزيز حين راودته عن نفسه، قائلاً بلسان اليقين ومنطق الحق المبين:

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

الموقف الرابع: عزم سيّد المرسلين - صلوات ربي وسلامه عليه - :

يدل على ذلك:

نهوضه بأعباء الدعوة.

جهاده للأعداء.

مواقفه التي لا تعدّ ولا تحصى.

ومن أراد المزيد: فلينظر إلى سيرته ﷺ من مولده إلى وفاته.

الموقف الخامس: عزم أبي ذرّ الغفاريّ ﷺ :

يقول ابن عباس - رضي الله عنهما - كما روى البخاري في صحيحه:

قال أبو ذرٍّ: «كُنْتُ رَجُلاً مِنْ غِفَارٍ فَبَلَغَنَا أَنَّ رَجُلاً قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَقُلْتُ لأخي: انْطَلِقْ إِلى هَذَا الرَّجُلِ كَلِّمْهُ وأْتِني بِخَبَرِهِ، فَانْطَلَقَ فَلَقِيَهُ ثُمَّ رَجَعَ، فَقُلْتُ: مَا عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: واللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنْ الشَّرِّ، فَقُلْتُ لَهُ: لَمْ تَشْفِني مِنْ الْخَبَرِ فَأَخَذْتُ جِرَابًا وَعَصًا ثُمَّ أَقْبَلْتُ إلى مَكَّةَ، فَجَعَلْتُ لا أَعْرِفُهُ وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهُ، وأَشْرَبُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ وَأَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ، فَقَالَ، كَأَنَّ الرَّجُلَ غَرِيبٌ؟

قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: فَانْطَلِقْ إِلى الْمَنزِلِ، قَالَ: فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ لا يَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ وَلاَ أُخْبِرُهُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إلى الْمَسْجِدِ لأَسْأَلَ عَنْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنْهُ بِشَيءٍ، قَالَ: فَمَرَّ بِي عَلِيٌّ فَقَالَ: أَمَا نَالَ لِلرَّجُلِ يَعْرِفُ مَنزِلَهُ بَعْدُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: انْطَلِقْ مَعِي، قَالَ: فَقَالَ: مَا أَمْرُكَ وَمَا أَقْدَمَكَ هَذِهِ الْبَلْدَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ لَهُ : إِنْ كَتَمْتَ عَلَيَّ أَخْبَرْتُكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَفْعَلُ، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: بَلَغَنَا أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنَا رَجُلٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَرْسَلْتُ أَخِي لِيُكَلِّمَهُ فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِنْ الْخَبَرِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَلْقَاهُ، فَقَالَ لَهُ: أَمَا إِنَّكَ قَدْ رَشَدْتَ هَذَا وَجْهِي إِلَيْهِ فَاتَّبِعْنِي ادْخُلْ حَيْثُ أَدْخُلُ فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَلَيْكَ قُمْتُ إلى الْحَائطِ كَأَنِّي أُصْلِحُ نعلي وامْضِ أنت، فمضى ومضيت معه حتى دخل ودخلت مَعَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْرِضْ عَلَي الإِسْلاَمَ،

فَعَرَضَهُ فَأَسْلَمْتُ مَكَانِي، فَقَالَ لِي: يا أَبا ذَرٍّ اكْتُمْ هَذَا الأَمْرَ وَارْجِعْ إلى بَلَدِكَ، فإِذَا بَلَغَكَ ظُهُورُنَا فَأَقْبِلْ، فَقُلْتُ: والذي بَعَثَكَ بالْحَقِّ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَجَاءَ إلى الْمَسْجِد وقُرَيْشٌ فيه، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، فَقَالُوا: قُومُوا إلى هَذَا الصَّابِئ، فَقامُوا، فَضُرِبْتُ لأَمُوتَ فَأَدْرَكَنِي الْعَبَّاسُ، فَأَكَبَّ عَلَيَّ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: وَيْلَكُم تَقْتُلُونَ رَجُلاً مِنْ غِفَارَ وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلَى غِفَارَ، فَأَقْلَعُوا عَنِّي، فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْتُ الْغَدَ رَجَعْتُ فَقُلْتُ: مِثْلَ مَا قُلْتُ بالأَمْسِ، فَقَالُوا: قُومُوا إلى هَذَا الصَّابِئ، فَصُنِعَ بِي مِثْلَ مَا صُنِعَ بالأَمْسِ وأدركني العباس فأكبَّ عليَّ وقال مثل مقالته بالأمس قَالَ فَكَانَ هَذَا أَوَّلَ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ» [1].

الموقف السادس: عزم سلمان الفارسي ﷺ :

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: حدثني سلمانُ الفارسيُّ، قال: كنتُ رجلاً فارسيًّا من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها «جَيّ» [2] وكان أبي دهْقانَها.

وكنت أَحَبَّ خلقِ الله إليه، فلم يزل بي حبُّه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبسُ الجارية، فاجتهدت في المجوسية حتى كنتُ قاطِنَ النار الذي يوقدها لا يتركها تخبو ساعة.

وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فشُغل في بنيان له يومًا، فقال لي: يا بني! إني قد شُغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني ببعض ما يُريد.

فخرجت، ثم قال: لا تحتبس عليَّ، فإنك إن احتبست عليَّ كنت أهمَّ إليّ من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فخرجت أريد ضيعته، فمررتُ بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها، وهم يُصلون، وكنتُ لا أدري ما أمرُ الناسِ بحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعتُ أصواتهم، دخلتُ إليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلواتهم، ورغبت أمرَهُم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذين نحن عليه؛ فوالله ما تركُتهم حتى غربت الشمس، وتركت

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤٨).

(٢) مدينة ناحية أصبهان القديمة. «معجم البلدان» (٢/٢٠٢).

ضيعة أبي، و لم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟

قالوا: بالشام.

قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلتُه عن عمله كله.

فلما جئته قال: أي بُنَيّ! أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟

قلت: يا أبة! مررتُ بناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلتُ عندهم حتى غربت الشمسُ. قال: أيْ بني! ليس في ذلك الدين خير، دينُك ودين آبائك خيرٌ منه.

قلت: كلا والله! إنه لخير من ديننا.

قال: فخافني، فجعل في رجلي قيدًا، ثم حبسني في بيته. قال: وبعثت إلى النصارى، فقلت: إذا قَدمَ عليكم ركب من الشام تجار من النصارى، فأخبروني بهم. فقدِم عليهم ركب من الشام.

قال: فأخبروني بهم، فقلت: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة، فأخبروني. قال: ففعلوا.

فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمتُ الشام.

فلما قدمتها. قلت: مَنْ أفضل أهل هذا الدين؟

قالوا: الأسقف في الكنيسة، فجئته، فقلت: إني قد رغبتُ في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك، وأصلي معك.

قال: فادخل، فدخلت معه، فكان رجلَ سوءٍ يأمرهم بالصدقة ويُرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها شيئًا اكْتنزه لنفسه، و لم يُعْطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وَوَرِقٍ، فأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع.

ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويُرغبكم فيها، فإذا جئتم بها، كنزها لنفسه، و لم يُعط المساكين، وأريتهم موضع كنزه سبع قلال مملوءة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا فصلبوه ثم رموه بالحجارة.

ثم جاءوا برجل جعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً، أرى أنه أفضل منه، أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهارًا، ما أعلمني أحببت شيئًا قط قبله حُبَّه، فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان! قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئًا قط حُبَّك، فماذا تأمرني وإلى مَنْ توصيني؟

قال لي: يا بني والله ما أعلمهُ إلا رجلاً بالمَوْصل، فائته، فإنك ستجده على مثل حالي.

فلما مات وغُيِّبَ، لحقت بالموصل، فأتيت صاحبها، فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهد.

فقلت له: إن فلانًا أوصاني إليك أن آتيك وأكون معك. قال: فأقم أيْ بنيّ.

فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة.

فقلت له: إن فلانًا أوصى بي إليك وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من تُوصي بي؟ وما تأمرني به؟

قال: والله ما أعلم، أيْ بنيّ، إلا رجلاً بنصيبين.

فلما دفناه، لحقت بالآخر، فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضره الموت، فأوصى بي إلى رجل من أهل عمورية بالروم، فأتيته فوجدته على مثل حالهم، واكتسبتُ حتى كان لي غنيمة وبقيرات. ثم احتضر فكلمته إلى من يوصي بي؟

قال: أيْ بنيّ! والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنا عليه آمرك أن تأتيه، ولكن قد أظلك زمان نبيّ يُبعث من الحرم، مهاجرهُ بين حرَّتين إلى أرض سبخة ذات نخل، وإنَّ فيه علامات لا تخفى، بين كتفيه خاتمُ النبوة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقات، فإن استطعت أن تخلُصَ إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلك زمانهُ.

فلما واريناه، أقمتُ حتى مَرَّ بي رجالٌ من تجار العرب من « كلب » ، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم غنيمتي وبقراتي هذه؟

قالوا: نعم.

فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى، ظلموني، فباعوني عبدًا إلى رجل يهودي بوادي القرى.

فوالله لقد رأيت النخل، وطمعتُ أن يكون البلد الذي نَعَتَ لي صاحبي.

وما حقَّت عندي حتى قَدِمَ رجل من بني قريظة وادي القرى، فابتاعني من صاحبي، فخرج بي حتى قَدِمنا المدينة.

فوالله ما هو إلا أن رأيتها، فعرفتُ نعتها.

فأقمت في رِقّي، وبعث الله نبيه ﷺ بمكة لا يُذْكَر لي شيء من أمره مع ما أنا فيه من الرِّق، حتى قدم رسولُ الله ﷺ قُباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له، فوالله إني لفيها إذ جاءه ابن عمٍّ له فقال: يا فلان! قاتل الله بني قَيْلة، والله إنهم الآن لفي قُباء مجتمعون على رجل من مكة يزعمون أنه نبي.

فوالله ما هو إلا أن سمعتُها، فأخذتني العُرَواء - يعني الرِّعدة - حتى ظننتُ لأسقطن على صاحبي.

ونزلتُ أقول ما هذا الخبر؟

فرفع مولاي يده، فلكمني لكمة شديدة، وقال: ما لك ولهذا، أَقْبِلْ على عملك. فقلتُ: لا شيء، إنما سمعتُ خبرًا فأحببتُ أن أعلمه.

فلما أمسيتُ، وكان عندي شيء من طعام، فحملتُه وذهبت إلى رسولُ الله ﷺ وهو بقُباء، فقلتُ له: بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحابًا لك غرباء، وقد كان عندي شيء من الصدقة فرأيتُكم أحقَّ مَنْ بهذه البلاد، فهاك هذا، فَكُلْ منه.

قال: فأمسك وقال لأصحابه: «**كُلُوا**».

فقلت في نفسي: هذه خَلَّةٌ مما وَصَفَ لي صاحبي.

ثم رجعتُ، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجمعتُ شيئًا كان عندي، ثم جئته به، فقلتُ: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية، فأكل رسول الله ﷺوأكل أصحابُه،

فقلت: هذه خلتان.

ثم جئتُ رسول الله ﷺ وهو يتبع جنازة وعليَّ شملتان لي، وهو في أصحابه، فاستدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف.

فلما رآني استدبرتُه عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكببتُ عليه أُقَبِّلُه وأبكي.

فقال لي: تحول، فتحولتُ، فقصصتُ عليه حديثي كما حدثتك يا ابنَ عباس، فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه ثم شغل سلمان الرِّق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدرٌ وأُحُد.

ثم قال رسول الله: **«كاتبْ يا سلمان»**.

فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أُحييها له بالفقير وبأربعين أوقية.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«أعينوا أخاكم»** فأعانوني بالنخل، الرجل ثلاثين وَدِيَّة، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، حتى اجتمعت ثلاثمائة وديَّة.

فقال: **«اذهب يا سلمان ففقِّرْ لها، فإذا فرغت فائتني أكون أنا أضعُها بيدي»**.

ففقرت لها وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت منها، جئته وأخبرته، فخرج معي إليها نقرب له الوديّ، ويضعه بيده، فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها ودية واحدة فأديت النخل، وبقي عليَّ المال.

فأُتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة دجاجة من ذهب من بعض المغازي. فقال:

«ما فعل الفارسي المكاتب؟».

فَدُعيت له، فقال: **«خُذها فأدِّ بها ما عليك»**.

قلت: وأين تقع هذه يا رسول الله مما عليَّ؟ قال:

«خذها فإن الله سيؤدي بها عنك».

فأخذتها فوزنتُ لهم منها أربعين أوقية، وأوفيتُهم حقهم وعُتقت، فشهدتُ مع رسول الله ﷺ الخندق حُرًّا، ثم لم يفتني معه مشهد»[1].

أخي:

والحديث على مواقف أهل العزم: في جهادهم، وفي أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وفي تهجّدهم، وصومهم، ودعوتهم إلى الخير: شيء يطول استقصاؤه، وفيما ذكرناه الكفاية لمن أراد الهداية.

وعلى الله قصد السبيل.



(١) رجاله ثقات وإسناده قوي: رواه أحمد وغيره. قاله الأرنؤوط في تخريجه «للسّير» (١/٥١١).

١١١- الشجاعة

قال **السَّرِّي السَّقَطيّ** - رحمه الله - : «خمسٌ من كن فيه فهو شجاع بطل:

استقامة على أمر الله ليس فيها روغان.

واجتهاد ليس معه سهو.

وتيقّظ ليس معه غفلة.

ومراقبة الله في السّر والجهر ليس معه رياء.

ومراقبة الموت بالتأهّب»(١).

والحديث عن الشجاعة يدور حول الأمور التالية:

الأول: معنى الشجاعة.

والثاني: منزلتها.

والثالث: أصلها وعوامل تقويتها.

والرابع: أنواعها.

والخامس: لقطات من حياة الشجعان.

والله الموفق لما فيه رضاه.

أولاً: تعريف الشجاعة:

قال **الجاحظ:** «الشجاعة: هي الإقدام على المكاره والمهالك عند الحاجة إلى ذلك، وثبات الجأش عند المخاوف مع الاستهانة بالموت» اهـ(٢).

---

(١) «الحلية» (١١٧/١٠).

(٢) «تهذيب الأخلاق» (٢٧).

ثانيًا: منزلة الشجاعة:

قال **الأبشيهيُّ** - رحمه الله - :

اعلم أن الشجاعة عمادُ الفضائل، ومن فَقَدَها لم تَكْمُلْ فيه فضيلةٌ يُعَبَّرُ عنها بالصَّبْر وقوّةِ النّفس.

قال **الحكماءُ**: وأصلُ الخير كلّه في ثبات القلب، والشجاعة عند اللقاء على **ثلاثةِ أوْجُه**:

الوجه الأول: إذا الْتَقى الجمعان، وتَزَاحف العَسْكَران، وتكالحت الأحداقُ بالأحداق، برز من الصَّفّ إلى وَسَط الْمُعْتَرك يَحْمِلُ وَيَكِرُّ وينادي: هل مِنْ مُبارز.

والثاني: إذا نَشَب القوم واختلطوا، ولم يَدْرِ أحدٌ منهم من أين يأتيه الموت، يكونُ رابِطَ الجأش، ساكن القلب، حاضر اللُّبّ، لم يخالطه الدَّهَشُ، ولا تأخذه الحَيْرَةَ، فيتقلّب تقلُّب المالك لأموره، القائم على نفسه.

والثالث: إذا انهزم أصحابُه يَلْزم السَّاقَة، ويَضْرِب وجوه القوم، وَيَحُول بينهم وبين عدوّهم، ويقوّي قلوبَ أصحابه، ويُزْجِي الضَّعِيف، ويُمدُّهم بالكلام الجميل، ويشجّع نفوسَهم، فمن وَقَع أقَامَه، ومن وَقَف حَمَلَهُ، ومن كَبَا به فَرَسُه حَمَاه حتى ييأس العدوُّ منهم.

وهذا أحمدهم شجاعة، وعن هذا قالوا:

إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أَكْرَم الكَرَم: الدِّفاع عن الْحُرَم» ا.هـ[(١)].

وقالت **الحكماء**: «أصلُ الخيرات كلها في ثبات القلب، ومنه تُسْتمدُّ جميع الفضائل وهو ثبوت القوّة على ما يُوجِبُهُ العَدْلُ والعلمُ، والْجُبْنُ غريزةٌ يجمعها: سوءُ الظّنّ بالله تعالى، والشجاعةُ غريزة يجمعها: حسن الظن بالله تعالى»[(٢)].

(١) «المستطرف» (١/٣١٠).

(٢) «سراج الملوك» للطرطوشي (٦٦٧/٢).

ثالثاً: أصل الشجاعة وعوامل تقويتها:

اعلم: «أن أصل الشجاعة في القلب بثبوته وقوّته وسكونه عند المهمّات والمخاوف، وهي خُلُقٌ نَفْسيٌّ، ولكن لها موادٌّ تُمدُّها، فأعْظم ما يُمدُّهُ ويُنَمِّيه:

الإيمانُ، وقوَّةُ التوكُّل على الله، وكمالُ الثِّقة به سُبحانه، وَعِلْمُ الْعَبْدِ أن ما أصَابَه لم يكن لِيُخْطِئَهُ، وما أخْطَأَه لم يكن لِيُصيبَه.

وَيُمدُّه – أيضًا – الإكثارُ من ذكر الله والثناء عليه. قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ومن أسباب تقوية هذا الخلق الفاضل – أيضًا – :

التمرين؛ فإن الشجاعة وإن كان أصلها في القلب؛ فإنها تحتاج إلى تدريب النّفس على الإقدام وعلى التكلّم بما في النّفس، بإلقاء المقالات والخُطب في المحافل، فمن مَرَّن نفسه على ذلك، لم يزل به الأمرُ حتى يكون مَلَكَةً له، كذلك يُدرّب نفسه على مقارعة الأعداء ولقائهم والجسارة في ميادين القتال فَيَقْوَي بذلك قَلْبُهُ ونفسُهُ، فلا يزال به الأمرُ حتى لا يُبالي بلقاء الأعداء ولا تزعجه المخاوف.

والإخلاص لله وعدم مراعاة الْخَلْق سببٌ بالغٌ في تقوية ذلك؛ فإن المخلص الذي لا يريد إلا وجه الله وثوابه لا يُبالي بِلَوْم اللائمين، إذا كان في ذلك رضًا لربّ العالمين.

فمتى قوى إيمانُ العبد بالله وبقضائه وقدره، وقوى يقينهُ بالثواب والعقاب وتمّ توكّله على الله وثقته بكفاية الله، وعلم أن الخلق لا يضرّون ولا ينفعون، وأن نواصيهم بيد الله، وعلم الآثار الجليلة الناشئة عن الشجاعة، قوى قلبُهُ، واطمأن فؤاده، وأقدم على كلّ قول وفعل ينفعُ الإقدام عليه.

ولابدّ لمن كانت هذه حالُه أن يُمِدَّه اللَّهُ بِمَدَدٍ من عنده لا يُدركه بحَوْله ولا قوّته.

وكمال زينة هذا الْخُلُق النبيل: أن يكون موافقًا لِلْحِكْمَة[1]؛ فإنه إذا زاد عن الحكمة خُشي

---

(١) الحكمة: وضع الشيء في موضعه.

أن يكون تَهوُّرًا وسَفَهًا وإلقاءً باليد إلى التَّهلكة، وذلك مذموم، كما يُذَمُّ الْجُبْن والخَورَ.

فالشَّجاعة المحمودة تتوسَّط خُلُقَيْن مَذْمُومَيْن، وهما: الْجُبن والتَّهوُّر، وتكونُ محمودة إذا كان المقصود بها نَصْرَ الْحَقّ وردَّ الباطل وتحصيل المنافع العامَّة والمصالح المشتركة»[1].

رابعًا: أنواع الشجاعة:

قال الرَّاغبُ: أنواع الشجاعة خمسة:

الأول: سَبُعيَّة: كمن أقدم لثوران غضب وتطلُّب غَلَبَة.

والثاني: بَهِيميّة: كمن حارب توصُّلاً إلى مأكل أو منكَح.

والثالث: تَجْرِيبيّة: كمن حارب مرارًا فظفر. فجعل ذلك أصلاً يبنى عليه.

والرابع: جِهَادية: كمن يحارب ذَبًّا عن الدِّين.

والخامس: حُكْمِيّة: وهي ما تكونُ في كلّ ذلك عن فِكْرٍ وتمييز وهيئةٍ محمودة بقدر ما يجب وعلى ما يجب...

ومن الشجاعة المحمودة: مُجاهدة الإنسان نفسه أو غيره، وكلٌّ واحدٍ منهما **ضربان**:

مجاهدة النفس بالقول: وذلك بالتعلّم. وبالفعل: وذلك بقمع الشهوة، وتهذيب الحمية.

ومجاهدة الغير بالقول: وذلك تزيينُ الحقّ وتعليمه، وبالفعل: وذلك مدافعة الباطل ومتعاطيه بالحرب» ا.هـ.

خامسًا: لقطات من حياة الشجعان:

(١) شجاعة النبيّ ﷺ:

وقد أثنى اللّهُ على نبيّه ﷺ بالثبات والإقدام. قال تعالى:

﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ٨٤].

---

(١) «الرّياض النضرة، والحدائق النّيرة الزاهرة» للسّعدي (٥٤- ٦٠) بتصرّف.

قال الإمام **الفخر** - رحمه الله تعالى - :

« دلّت الآية على أنه ﷺ كان أشجع الخلق وأعرفهم بكيفية القتال لأنه تعالى ما كان يأمره بذلك إلا وهو ﷺموصوف بهذه الصفات، ولقد اقتدى به أبو بكر ﷺ حيث حاول الخروج وحده إلى قتال مانعي الزكاة، ومن علم أن الأمر كلّه بيد الله وأنه لا يحصل أمر من الأمور إلا بقضاء الله سهل ذلك عليه » ا.هـ[١].

ويصف أنس ﷺ شجاعة النبيّ ﷺ فيقول:

« كان النبيُّ ﷺأحْسَنَ الناس، وأشْجَعَ النّاس، وأجْوَدَ الناس، ولقد فَزِعَ أَهْلُ المدينة، فكان النبيُّ ﷺسَبَقَهم على فَرَسٍ، وقال: وَجَدْناه بَحْرًا[٢] »[٣].

(٢) شجاعة أبي دجانة:

قال أنس ﷺ : إن رسول الله ﷺ أخذ سيفًا يوم أُحُدٍ فقال:

« **من يأخُذُ مِنّي هذا؟** » .

فبسطوا أيديهم، كُلُّ إنسانٍ منهم يقول: أنا. أنا. قال:

« **فمن يأخُذُه بِحَقّه؟** » .

قال: فأَحْجَم القومُ. فقال: سِمَاكُ بْنُ خَرَشَة أبو دجانة:

أنا آخذُه بِحَقّه. قال:

فأخَذَه فَفَلَق به هَامَ المشركين[٤] »[٥].

(٣) شجاعة حمزة بن عبد المطلب:

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال:

---

(١) « مفاتيح الغيب » (٣٤٦/٩).

(٢) أي: وجدنا الفرس سريع الْعَدْو.

(٣) رواه البخاري (٢٨٢٠)، ومسلم (٢٣٠٧).

(٤) أي: شَقّ به رءوسهم.

(٥) رواه مسلم (٢٤٧٠).

كان حمزةُ بن عبد المطلب يقاتلُ يوم أُحُدٍ بين يدي رسول الله ﷺ ويقول: « أنا أسَدُ الله »(١).

(٤) شجاعةُ الْغُلام الذي تحدّي الجبّار:

عَنْ صُهَيبٍ الرُّوميّ ﷺ، أنّ رسولُ الله ﷺ قال:

« كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُم، وكانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ للمَلِك: إنِّي قَدْ كَبِرتُ، فابْعَثْ إليَّ غُلامًا أُعَلِّمُهُ السِّحْرَ؛ فَبعَثَ إليه غُلامًا يُعَلِّمُهُ، وكَانَ في طَرِيقه إِذَا سَلَك رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إليه وسَمِعَ كَلامَهُ فأعْجَبَهُ، وكَانَ إذا أَتى السَّاحِرَ مَرَّ بالراهِبِ وقَعَدَ إليه، فإذا أتى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلكَ إلى الرَّاهِب، فَقَال: إذَا خَشيْتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَني أهْلي، وإذَا خَشِيْتَ أهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَني السَّاحِرُ. فَبَيْنَما هُوَ كَذَلكَ، إذْ أَتَى على دَابَّة عَظِيمة قَد حَبَسَت النَّاسَ، فَقَال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ أمرُ الرَّاهِبِ أحَبَّ إليكَ مِنْ أَمرِ السَّاحِرِ، فاقتُل هذه الدَّابةَ حَتَّى يَمْضِي النَّاسُ، فرَمَاهَا فَقَتَلَهَا ومَضَى النَّاسُ. فأتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أيْ بُنَيَّ! أَنْتَ اليَوْمَ أفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِن أَمْرِكَ ما أرَى، وإنَّك سَتُبْتَلى، فإنِ ابتُلِيْتَ فلا تَدُلَّ عَليَّ؛ وكَانَ الغُلامُ يُبْرِئُ الأكْمَه والأَبْرَصَ ويُدَاوِي النَّاس مِنْ سَائرِ الأدْوَاء. فَسَمِعَ جَلِيْسٌ للْمَلك كَانَ قَد عَمِيَ، فَأتَاهُ بِهَدَايَا كثيرةٍ، فَقَال: مَا هَهُنا لَك أجْمَعُ إنْ أنتَ شَفَيْتني، فَقَالَ: إنِّي لا أشْفِي أَحَدًا، إنَّمَا يَشْفِي اللّهُ تعالى، فَإنْ آمَنْتَ باللهِ تَعالى، دَعَوتُ اللهَ فَشَفَاكَ.

فآمَنَ باللهِ تَعَالى، فَشَفَاه اللّهُ تعالى، فَأَتَى المَلِكَ فَجَلَسَ إليه كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي. قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟! قال: رَبِّي ورَبُّك اللّهُ، فأخَذَه فَلَم يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ على الغُلام. فَجِيْءَ بالغُلام، فَقَال لَهُ المَلِكُ: أي بُنَيَّ! قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وتَفْعَلُ وتفعَلُ. فقال:

إنِّي لا أشفي أحدًا، إنَّما يَشفِي اللّهُ تعالى، فأخذَهُ فَلم يزل يعذبه حَتَّى دلَّ على الراهب،

(١) رواه الحاكم (١٩٤/٣)، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه في « التلخيص ».

فَجيء بالراهب فقيل له: ارْجِعْ عَنْ دِينكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بالمِنْشَارِ، فَوُضِعَ المِنْشَارُ في مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جيء بِجَلِيسِ الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فَأَبَى فَوُضِعَ المِنْشَارُ في مفرِقِ رَأسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وقعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيء بالغُلام فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينكَ، فَأَبَى. فَدَفَعَهُ إلى نَفَرٍ من أصحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إلى جَبَلِ كَذَا وكَذَا، فاصعَدُوا بِهِ الجَبَلَ، فإذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وإلا فاطْرحُوْهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ، فَصَعَدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيْهِمْ بِما شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل بأصحابك؟ فَقَال: كَفَانِيْهِمُ الله تعالى! فَدَفَعَهُ إلى نَفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرْقُورٍ وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه. فذهبوا به فقال: اللَّهمَّ اكْفِنيْهِمْ بِمَا شِئْتَ، فانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِيْنَةُ فغَرِقُوا، وَجَاء يَمْشي إلى الملك. فقَال لَهُ الملكُ: مَا فُعِلَ بأصْحابكَ؟ فقَال: كَفَانِيْهِمُ اللّهُ تعالى. فَقَالَ للملك: إنَّك لَسْتَ بقَاتِلي حَتَّى تَفْعَل ما آمُرُكَ به. قَال: وَمَا هو؟ قال: تجمع النّاس في صَعِيدٍ واحد، وتصلبني على جذعٍ، ثُمَّ خُذْ سهمًا من كنانتي، ثمَّ ضع السهم في كبد القوس، ثمَّ قل: بسم الله رب الغلام، ثمَّ ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثمَّ أخذ سهمًا من كنانته، ثمَّ وضع السَّهْمَ في كَبِدِ القَوْسِ، ثمَّ قال: بِسمِ الله رَبِّ الغُلامِ، ثمَّ رَمَاهُ فوقع السهم في صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يده في صدغه فمات.

فقال الناسُ: آمنا بالله رب الغلام، فَأُتِيَ المَلِكُ فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزلَ بك حَذَرُكَ. قد آمن الناسُ. فَأمر بالأُخدود بأفواه السكك فَخُدَّتْ وَأُضْرِمَ فِيها النِّيرانُ، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له: اقْتحمْ ! فَفَعَلُوا، حَتَّى جَاءَت امرأةٌ ومَعَها صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أن تَقَعَ فِيْهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ: يا أُمَّاهُ اصبِرِي، فإنّك عَلى الحَقِّ»[1].

أخي:

هذه بعض فضائل الشجاعة، وهذه الطُّرق الموصّلة إليها، فالزَمْها.. وليكن خطابك

---

(١) رواه مسلم.

لنفسك:

أقولُ لها وقد طارت شَعَاعًا … مِن الأبطالِ وَيْحَكِ لَنْ تُراعي
فإنّكِ لو سألتِ بَقَاءَ يومٍ … على الأَجَلِ الذي لكِ لم تُطَاعي
فَصَبْرًا في مَجَالِ الموتِ صَبْرًا … فما نَيْلُ الخلودِ بمُسْتَطاعِ
ولا ثَوْبُ الحياة بثوْبِ عِزٍّ … فَيُطْوى عن أخي الخَنَعِ اليَراعِ
سبيلُ الموتِ غَايةُ كُلِّ حَيٍّ … وداعِ لأهْلِ الأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَمْ يُعْتَبَطْ يَهْرَمْ يَسأَمْ … وتُسْلِمْهُ الْمَنُونُ إلى انْقِطَاعِ
وما لِلْمَرْءِ خَيْرٌ في حياةٍ … إذا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

۞۞۞۞۞

١١٢- الشورى

قال الإمام الحسن - رحمه الله - «والله، ما استَشار قَوْمٌ قطُّ إلا هُدُوا لأفْضَلِ ما بِحَضْرَتهم» ثم تلا:

﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والحديث عن الشورى يدور حول الأمور التالية:

الأول: تعريف الشورى.

والثاني: فضائل الشورى.

والثالث: شروط المستشار.

والرابع: طبيعة الشورى.

وأسأل الله تعالى الإصابة في القول والعمل.

أولاً: تعريف الشورى:

الشورى «**لغة**»: اسم للمشاورة، وكلاهما مأخوذ من مادة (ش و ر) التي تدلّ على أخْذ شَيءٍ من شَيءٍ[1].

و«**اصطلاحًا**»: استنباطُ المرءِ الرَّأيَ مِنْ غيره فيما يَعْرِضُ لَهُ من مُشكلات الأمور، ويكون ذلك في الأمور الجزئية التي يتردّد المرءُ فيها بين فِعْلِها وتَرْكها[2].

ثانيًا: فضائل الشورى:

اعلم أن من الحزم لكلّ ذي لُبٍّ أن لا يُبْرم أَمْرًا ولا يُمضِي عَزْمًا إلا بِمُشَاورةِ ذي

---

(١) «مقاييس اللغة» (٣/٢٢٦).

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب (٢٩٤).

الرّأي النّاصح، ومطالعة ذي الْعَقْل الرّاجح. فإن الله تعالى أَمَر بالمشورة نَبيَّهُ ﷺ مع ما تَكفَّل به من إرشاده، وَوَعَدَ به مِنْ تَأييده، فقال تعالى:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال **قتادة**: «أَمَرهُ بمشاورهم تألُّفًا لهم وتَطييبًا لأنفسهم».

وقال **الضّحَّاك**: «أَمَره بِمشاورتِهم لما علم فيها من الفضل لِيَستَنَّ به المسلمون وَيَتَبْعَهُ فيها المؤمنون، وإن كان عن مَشورهم غَنيًّا».

وقال **الحسن البصريّ**: «أمره بمشاورهم ليستن به المسلمون ويتبعه فيها المؤمنون، وإن كان عن مشورهم غنيًا».

وقال **بعض الحكماء**: «الاستشارةُ عينُ الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه».

وقال **بعض الأدباء**: «ما خَابَ من اسْتَخَار، ولا نَدِمَ من اسْتَشَار»(١).

ثالثاً: شروط المستشار:

فإذا عزم على المشاورة: ارْتَادَ لَهَا مِنْ أَهْلها من قد استكملت فيه **خَمسُ خِصال**:

إحداهن: **عَقْلٌ كَامِل مع تَجْرِبَة سالفة**:

فإن بكثرةِ التَّجارِب تَصِحُّ الرّواية. وكان يُقال: إيّاك ومشورة رَجُلَيْن:

- شابٌّ مُعجَبٌ بِنَفْسِه قليلُ التجارب مع غيره.
- أو كبيرٌ قد أخَذَ الدّهْرُ من عَقْله كما أخَذَ من جسْمه.

وقال **بعضُ الحكماء**: «من استعان بِذَوي العقولِ فَاز بِدَرَكِ الْمأْمُول».

والخَصْلَةُ الثانية: **أن يكون ذا دينٍ وَتُقىً**:

فإن ذلك عمادُ كُلِّ صلاح، وباب كُلِّ نجاح.

وَمَنْ غَلَب عليه الدِّينُ فهو مأمون السَّريرة، مُوَفَّقُ الْعَزيمة.

---

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (٣٦٦) باختصار.

والخَصْلة الثالثة: أن يكون ناصحًا ودودًا:

فإن النُّصح والمودّة يُصدِّقَانِ الفِكْرَةَ ويُمَحِّضَان الرّأي[١].

والخَصْلة الرابعة: أن يكون سَلِيمَ الفِكْر من هَمٍّ قَاطِع، وَغَمٍّ شَاغِل:

فإنّ من عارضت فِكْرَهُ شوائبُ الهموم لا يَسْلَمُ له رأيٌ ولا يستقيمُ له خاطِرٌ.

والخصلة الخامسة: أن لا يكون له في الأمْر الْمُسْتَشار غَرَضٌ يُتَابِعه، ولا هوىً يُسَاعِدُهُ:

فإن الأغراض جاذبةٌ، والهوى صادٌّ، والرأي إذا عارضه الهوى، وجاذبته الأغراض فسد.

فإذا استكملت هذه الخصال الخمسُ في رجلٍ كان أهلاً للمشورة، ومعدنًا للرّأي، فلا تعدل عن استشارته اعتمادًا على ما تتوهَّمُهُ من فضل رأيك، وثقةً بما تستشعره من صحّة رويَّتِك، فإن رأى غير ذي الحاجة أسلم، وهو من الصّواب أقرب، لِخُلُوص الفِكر، وخلوّ الخاطر مع عَدَم الهوى وارتفاع الشهوة.

قال **بعضُ الحكماء**: «نِصْفُ رأيك مع أخيك فشاوره لِيَكْمُلَ لك الرّأي».

وقال **بعضُ الأدباء**: «من استغنى برأيه ضَلّ، ومن اكتفى بِعَقْله زَلّ»[٢].

رابعًا: طبيعة الشورى:

قال الشيخ **محمد الغزالي** - رحمه الله تعالى -:

الشورى: فضيلة تَطَابَق العقلُ والنّقلُ على حَمْدِها، وصدّقت الأيام عظم جدواها وحسن عُقباها.

وقد عَرَفنا أن رسول الله ﷺ كان يستشير، وكان ينزل عن رأيه إلى رأي أصحابه

(١) يمحّضان الرأي: يخلّصان الرأي.

(٢) «أدب الدنيا والدين» (٣٦٧- ٣٦٩) باختصار.

مادام الصّواب قد ظهر إلى جانبهم..

وطبيعة الشورى أن تكون في أمور تتفاوت العقول في إدراكها ووزن ما يرتبط بها من نفع أو ضرر. وما يتمخّض عنها من نتائج دقيقة أو جليلة.

وفي الشئون التي يصحّ للجماعة أن تختار ما تميل إليه من أطرافها المتقابلة تقرر الكثرة أو القلّة الرأي الأخير، وميدان هذه الشئون فسيح.

غير أن هناك أمورًا أُخرى لا صلة لها بهذا الميدان، ولا مكان فيها للشورى..

فحقائق العلوم ليست موضع جدل تغلب فيه الكثرةُ وتتأخّر القلّة.

وقديمًا رأى أحد علماء الفلك أن الأرض كروية الشكل فنازعه الجمهور من رجال الكنيسة وحكم بقتله!!

وقواعد الدّين ليست موضع أخذ وردّ كذلك فما قال فيه الوحيُ كلمته وجب قبوله من غير توقّف، وجميع المواقف التي استشار فيها الرسول ﷺ صحابته كانت مما يتناوله الاجتهاد العام.

وأصحاب الرسالات الذين يريدون تغيير أوضاع ضالّة، ومحو خرافات قائمة وإصلاح عقول معوجّة، كالأنبياء - عليهم الصّلاة والسّلام - وكقادة الهُدى من الأئمة المصلحين. هؤلاء جميعًا لا يعنيهم في أداء رسالاتهم الفاضلة تألُّب الجهال، وتعصب السفهاء، بل لقد صدع رسولُ الله ﷺ بأمر ربه - وحيدًا - في وجه مقاومة عنيفة من أُمَّة مَسخَها الشّركُ، وكان الوحيُ يلاحقه بالتأييد كلّما أنهكه ضلالُ هذه الكثرة المنحرفة عن الجادّة، والطريق السّوي»ا.هـ[(١)].

قال الإمام **القرطبيّ** - رحمه الله - :

«والشورى مَبْنيَّة على اختلاف الآراء، والْمُسْتَشير يَنْظُرُ في ذلك الخلاف، وينظر أَقْرَبَها قَوْلاً إلى الكتاب والسُّنَّة إن أَمْكَنَه، فإذا أَرْشَده اللّهُ - تعالى - إلى ما شاء منه عَزَم عليه وأَنْفَذَه مُتَوكِّلاً عليه، إذا هذه غايةُ الاجْتهَاد المطلوب»ا.هـ[(٢)].

---

(١) «الإسلام والاستبداد السياسي» (٥٢، ٥٣) باختصار.

(٢) «تفسير القرطبيّ» (١٦٢/٢).

هذا، ومواقف «الشورى» في حياة النبيّ ﷺ وأصحابه أكثر من أن تُحصى، وهذه بعضها:

(١) عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

استشار رسولُ الله ﷺ في الأُسارى[1] أبا بكر، فقال:

«قَوْمُكَ وعَشيرَتُك فَخَلِّ سَبيلَهُم».

فاستشار عُمَرَ، فقال:

«اقْتُلْهُمْ».

قال: فَفَداهم رسولُ الله ﷺ فأنزل اللّهُ - تعالى - :

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال: ٦٧- ٦٩][2]. قال:

فلقي النبيُّ ﷺ عمر، قال:

«**كاد يُصيبَنا في خلافك بَلاءٌ**»[3].

(٢) وعن ميمون بن مِهْران، قال:

«كان أبو بكر الصّديق إذا وَرَدَ عليه أَمْرٌ نَظَر في كتاب الله، فإن وَجَد فيه ما يَقْضي به قَضَى بَيْنهم، وإن عَلِمَه من سُنَّة رسول الله ﷺ قَضَى به، وإن لَمْ يَعْلَمْ خَرَج فسأَل المسلمين عن السُّنَّة، فإن أعياهُ ذلك دَعا رؤوسَ المسلمين وعلماءَهم واسْتَشارهم»[4].

وهذه الشورى لم تقتصر على الحاكم، بل امتدت حتى شملت كل مناحي الحياة.

ومن الأحاديث الدّالة على ذلك:

---

(١) أسارى بدر.

(٢) ومعنى «يثخن في القتل»: أي: يبالغ في قتل أعدائه.

(٣) رواه الحاكم (٢/٣٢٩)، وصحّحه ووافقه الذهبي. ورواه مسلم بنحوه.

(٤) «فتح الباري» (١٣/٣٥٤).

قوله ﷺ :

« **الْبِكْرُ تُستَأْمَرُ، والثَّيِّب تُشَاور** »[1].

هذا، وعلى المستشار: تقديم النّصيحة دون هوىً أو غرض، أو تدليس، وإلا فهو آثم وخائن:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ :

« **الْمُسْتَشار مُؤتَمنٌ** »[2].

- وعنه – أيضًا – قال:

قال النبيّ ﷺ :

« **مَنْ تَقوَّل عليَّ ما لم أَقُلْ فَلْيَتبوّأ مَقْعَدَهُ من النّار، ومن اسْتشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رُشْدِهِ فقد خَانَهُ، ومن أَفْتى بِفُتْيا غَيْرِ ثَبْتٍ فإنّما إثْمُه على مَنْ أَفْتاه** »[3].

أخي المسلم:

وبعد أن بان لك أن « الشورى » من مبادئ الإسلام السّمحة، فاهتف من أعماق قلبك، وقل:

« الحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة ».

❁❁❁❁❁

(١) **صحيح** : رواه أحمد (٢/٣٢٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(٢) **حسن** : رواه الترمذي (٢٨٢٣)، وأبو داود (٥١٢٨)، وحسّنه مُحقق « جامع الأصول ».
(٣) **صَحيح** : رواه أحمد (٨٧٦١)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

١١٣- اليقين

قال الإمام **أحمد بن عاصم الأنطاكي** - رحمه الله - : « إن أقلَّ اليقين إذا وصَلَ إلى القلب يَمْلأُ الْقَلْب نورًا، وَيَنْفى عنه كُلَّ رَيْبٍ، ويمتلئ القلبُ به شكرًا، وَمِنَ اللهِ تعالى خَوْفًا »[1].

والحديث عن « اليقين » يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأول: تعريف اليقين.

والثاني: فضائله.

والثالث: لقطات عجيبة من حياة أهله.

واللهُ الموفق لمرضاته.

أولاً: تعريف اليقين:

تنوَّعت عبارات القوم في تعريف اليقين:

قال **أبو عثمان الحيري** - رحمه الله - :

« اليقين: قلة الاهتمام بالغد ».

وقال **سهل بن عبد الله** - رحمه الله - :

« اليقين: من زيادة الإيمان، ومن تحقيقه » وقال - أيضًا - :

« اليقين شُعبة من الإيمان، وهو دون التصديق ».

وقال **الجنيد** - رحمه الله - :

« اليقين: هو استقرار العلم الذي لا يَنْقَلب، ولا يتحوَّل، ولا يتغيّر في القلب ».

---

(١) « الرسالة القشيرية » (١٧٨).

وقال - أيضًا - :

« اليقين: ارتفاع الرَّيْب في مَشْهَد الغَيْب » .

وقال **أبو بكر الورّاق** - رحمه الله - :

« اليقين: ملاك القلب، وبه كمال الإيمان، وباليقين عُرف الله تعالى، وبالعقل عُقِل عن الله تعالى » .

وقال **سهلُ بْنُ عبد الله** - رحمه الله - :

« حرام على القلب أن يشمّ رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله تعالى » .

وقال **ذو النون المصري** - رحمه الله - :

« ثلاثة من أعلام يقين اليقين: النظر إلى الله تعالى في كلّ شيءٍ، والرجوع إليه في كلّ أمْر، والاستعانة به في كُلّ حَال » .

ثانيًا: فضائل اليقين:

اعلم - **يا أخي** - « أن اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعمَلُ القوم إنما كان عليه، وإشاراتُهم كلُّها إليه، وإذا تَزوَّج الصَّبْرُ باليقين:

وُلِدَ بينهما الإمامةُ في الدين.

قال تعالى - وبقوله يهتدي المهتدون - : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخصَّ - سبحانه - أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال - وهو أصدق القائلين - :

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخَصَّ أهْلَ اليقين بالهدى والفلاح من بين العالَمِين، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤، ٥].

وأخبر عن أهل النار بأهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢].

فاليقين: روح أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصِّدّيقية، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره»[١].

هذا، وقد وردت أحاديث في فضل اليقين، منها:

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **صَلاَحُ أوَّل هذه الأمّة بالزّهد واليقين، ويهلك آخرُها بالبخلِ والأمَلِ**»[٢].

(٢) وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قلّما كان رسولُ ﷺ يقوم من مَجْلسٍ حتى يدعو بهؤلاء الدّعوات لأصْحَابه:

« **اللّهم اقْسم لنَا من خَشْيتِك ما يَحولُ بَيْننا وبين معَاصِيك، ومن طاعتك ما تُبَلِّغُنا به جَنَّتَك، ومن اليقين ما تُهوِّن به علينا مَصَائب الدنيا، ومَتِّعْنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحْيَيْتنا، واجعله الوارثَ منا، واجعل ثأْرَنا على مَنْ ظَلَمنا، وانْصُرْنا على من عادانا، ولا تجعل مُصيبَتنا في ديننا، ولا تجعلْ الدنيا أكْبَرْ هَمِّنا، ولا مَبلغ عِلْمِنا، ولا تُسلِّطْ علينا مَنْ لا يَرْحَمُنا** »[٣].

كما وردت آثار تمدح اليقين، وتعظّم شأنه، منها:

(١) عن أبي بكر رضي الله عنه قال:

« عليك بالصّدق فإنه مع الْبِرّ، وهما في الجنّة، وإيّاكم والكذب فإنّه مع الفجور، وهما

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٩٧).

(٢) حسن: رواه أحمد في «الزهد»، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٨٤٥).

(٣) حسن: رواه الترمذي، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (١٢٧٩).

في النار، وسَلوا اللهَ المعافاة؛ فإنّه لم يُؤْتَ أحَدٌ شيئًا بعد اليقين خَيْرٌ من المعافاة، ولا تقاطعوا، ولا تَدابَروا، ولا تحاسَدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[1].

(٢) وعن أبي الدرداء ﷺ قال:

«يا حَبَّذا نَوْمِ الأكْيَاس[2] وإفطارهم، كيف يَعيبون سَهَرَ الْحَمْقَى وصيامهم؟! وَلَمثقال ذرّةٍ مِن بِرٍّ، مِنْ صَاحب تقوى ويقين، أفضل وأرجَح وأعظم، من أمْثَالِ الجِبَالِ عبادة من الْمُغْتَرّين»[3].

(٣) وعن ابن مسعود ﷺ فيما صحّ عنه قال:

«إنّ الرّوح والفَرَج في اليقين والرّضا، وإن الغَمّ والْحَزَن من الشّكّ والسّخط».

ثالثًا: لقطات عجيبة من حياة أهل اليقين:

زخر التاريخ بمواقف عطرة تدلّ على قمّة أهلها، منها:

(١) يقين هاجر أم إسماعيل عليهما السلام :

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: جاء إبراهيمُ عليه السلام بِأُمِّ إسماعيل، وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دَوْحَةٍ فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يَومئذ أحَدٌ، وليس بها مَاءٌ، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جرابًا فيه تَمْرٌ، وَسِقَاءً فيه مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إبراهيم منطلقًا، فتبعتْهُ أُمُّ إسماعيل، فَقَالتْ: يا إبراهيم! أيْنَ تذهبَ وَتَتْرُكُنَا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءٌ؟! فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفتُ إليها، قالت له: آللهُ أمرك بهذا؟ قال: نَعَمْ. قالت: إذَنْ لا يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ. فانطلق إبراهيم عليه السلام، حتى إذا كان عند الثنية حيثُ لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثُمَّ

---

(١) حسن: رواه ابن ماجه، وغيره.

(٢) العقلاء.

(٣) رواه أحمد في «الزهد» (١٧١).

دعا بهؤلاء الدعوات، فرفع يديه فقال:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وجَعَلتْ أُمُّ إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشربُ من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء، عطشت، وعطش ابنُها، وجعلت تنظر إليه يَتلوَّى - أو قال: يَتَلَبَّطُ - فانطلقت كراهية أن تَنْظُرَ إليه، فوجدت الصفا أقْرَبَ جَبَلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه، ثُمَّ استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثُمَّ سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثُمَّ أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا. ففعلت ذلك سبع مرات».

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : قال النبي ﷺ :

« **فذلك سعي الناس بينهما** ».

فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتًا، فقالت: صَهْ! - تريدُ نفسها - ثُمَّ تسمعت، فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعَقبِه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماءُ، فجعلت تَحَوِّضُهُ وتقولُ بيدها هكذا، وجعلت تغرف الماء في سقائها، وهو يفور بعد ما تغرفُ. وفي رواية: بقدر ما تغرفُ.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - قال النبيُّ ﷺ :

« **رحم اللّهُ أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت زمزم عينا معينًا** ».

قال فشربت، وأرضعت، ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ههنا بيتًا لله يَبْنِيْهِ هذا الغلامُ وأبوه، وإنَّ الله لا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ.وكان البيت مرتفعًا عن الأرض تأتيه

السيولُ، فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمٍ، أو أهلُ بيتٍ من جُرْهُمٍ مقبلين من طريق كَدَاءَ، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفًا، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماءٍ لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ. فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْنِ فإذا هم بالماء، فرجعوا، فأخبروهم، فأقبلوا وَأُمُّ إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء؛ قالوا: نَعَمْ.

قال ابن عباس: قال النبيُّ ﷺ :

« **فألفي ذلك أُمَّ إسماعيل، وهي تُحبُّ الأُنسَ** »، فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِيْنَ شَبَّ، فلما أدرك زوجوه امْرَأَةً مِنْهُمْ، وماتت أُمُّ إِسْمَاعِيْلَ، فجاء إبراهيمُ بعد ما تزوج إسماعيلُ، يُطالع تركته، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيْلَ، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا – وفي رواية : يصيدُ لنا – ثُمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ في ضيق وشدة، وشَكَتْ إليه. قال: فإذا جاء زَوْجُكِ، اقرئي عليه السلام، وقولي له: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ! فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءك من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخٌ كذَا وكَذَا، فسألنا عنك، فأخبرتُه، فسألني: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فأخبرتُه أنّا في جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نَعَمْ، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ.

قال: ذاك أبي، وَقَدْ أَمَرَنِي أن أُفَارِقَكِ الحَقِي بأَهْلِكِ. فطلقها، وتزوج منهم أُخْرَى. فلبث عنهم إبراهيمُ ما شاء اللَّهُ ثم أتاهُمْ بَعْدُ. فلم يجده، فدخل على امرأته، فسأل عنه، قالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أَنْتُمْ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نَحْنُ بخيرٍ وسعة، وأثنت على الله تعالى. فقال: ما طعامُكم؟ قالت: اللَّحْمُ. قال: ما شرابُكم؟ قالت: الْمَاءُ. قال: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ والمَاءِ.

قال النبي ﷺ : « **ولم يكن يومئذ حَبٌّ، ولو كان لهم دعا لهم فيه** ». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

وفي رواية: فجاء فقال: أَيْنَ إسماعيلُ؟ فقالت امرأته: ذهب يَصِيْدُ. فقالت امرأتُهُ: ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ قَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وما شَرَابُكُم؟ قَالتَ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ وشَرَابُنَا المَاءُ. قَال: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وشَرَابِهِمْ. قَالَ: فَقَالَ أبُو القَاسِم ﷺ:

« بَرَكَةُ دَعْوَةِ إبراهيم »، قال: فَإِذَا جَاءَ زَوجُكِ، فاقْرَئِي عليه السلام، ومُريه يُثَبِّتْ عَتَبَةَ بَابه. فَلَمَّا جَاءَ إسماعيلُ، قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَد؟ قالت: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْه، فَسَأَلَنِي عَنْكَ، فَأَخْبَرْتُهُ. فَسَأَلَنِي: كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أنَّا بخَيْرٍ. قَالَ: فأوصَاكِ بشيءٍ؟ قالت: نَعَمْ، يَقْرَأُ عَليكَ السَّلام، ويأمُرُكَ أنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابكَ. قَالَ: ذَاكَ أبي، وأنت العَتَبَةُ، أمَرَنِي أن أُمْسكَكِ. ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذلك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلاً لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إليه فَصَنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الوالدُ بالْوَلَد، وَالْوَلَدُ بالْوالد. قَالَ: يا إسماعيل! إنَّ الله أمَرَنِي بأمْرٍ. قَالَ: فاصنع ما أمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُني. قال: وأُعينُكَ. قَالَ: فإنَّ الله أَمَرَنِي أن أَبْنِي بَيْتًا ههُنَا، وَأَشَارَ إلى أَكَمَة مُرْتَفعَة عَلى مَا حَوْلَهَا، فَعِنْدَ ذَلكَ رَفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْت، فَجَعَلَ إسْمَاعِيْلُ يَأْتي بالْحجَارَة، وإبْرَاهيْمُ يَبْني، حَتَّى إذَا ارْتَفَعَ البنَاءُ، جَاءَ بهَذَا الْحَجَر، فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْه، وَهُوَ يَبْني وإسماعيلُ يُنَاوِلُهُ الْحجَارَةَ، وَهُمَا يَقُوْلانِ: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] »[١].

(٢) يقين سفيان الثوري:

روى الإمام ابن الجوزي: أن سفيان الثوري – رحمه الله – دخل يومًا في البحر ليعوم، فجاء رجلٌ فأخذ ثيابه، فلمّا خرج من البحر لم يَرَ ثيابه، فبينما هو كذلك، فإذا باللّص قد جاء بها، وقد شُلّت يَدُه اليمنى، فقال:

« يا رب، قد رَدَدتَ لي ثيابي فارْدُدْ عليه يده ». فردّ الله عليه يده![٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) « سلوة الأحزان » لابن الجوزي (٧٢).

(٣) يقين ميمونة بنت شاقولة:

الواعظة، التي هي للقرآن حافظة.

قال ابنُها عبد الصمد: «كان في دارنا حائط يريد أن يَنْقَضّ[١] فقلتُ لأمّي: ألا ندعو الْبَنّاء ليصلح هذا الجدار؟

فأخذتْ رُقعة فكتبت فيها شيئًا ثم أمرتني أن أضعها في موضع من الجدار، فوضعتُها فمكث على ذلك عشرين سنة!! فلمّا تُوفِّيت أردتُ أن أستعلم ما كتب في الرّقعة، فحين أخذتُها من الجدار سَقَط!، وإذا في الرُّقعة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٤١] اللّهم ممسك السموات والأرض أمسكه»[٢].

وبهذه القصّة العجيبة، نأتي إلى ختام حديثنا عن «اليقين»، سائلين المولى جلّت قدرته، أن يشرح صدورنا، وأن يُثَبت «اليقين» في قلوبنا، إنّه وليّ ذلك والقادر عليه.



---

(١) ينقض: يسقط ويُهدم.

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير (٦/٤٢٥).

١١٤- الوفاء

اعلم: أن الوفاء قيمة عظيمة قدّرها عرب الجاهلية. وقد أقرّهم الإسلام على ذلك، ولا يستطيع ذلك إلا القليلون، ولقلّة وجود ذلك في الناس، قال تعالى:

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وقد ضرب به المثل في العزّة، فقالت العربُ:

« هو أعزّ من الوفاء».

ولأهمية هذا الْخُلُق النّبيل، فحديثي إليك - **أخي الكريم** - على السطور التالية يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأوّل: تعريف الوفاء.

والثاني: الترغيب فيه.

والثالث: أنواعه.

والرابع: ثم ننقل من التاريخ صورًا «عجيبة» من حياة الأوفياء.

أوّلاً: تعريف الوفاء:

الوفاء «**لُغة**»: مَصْدَرُ قَوْلهم: وَفَى يَفِي وَفَاءً، وهو مأخوذٌ من مادَّة (و ف ى) التي تدلّ على «إكمال وإتمامَ».

وقال **الْجَوْهَرِيّ**: «الوفاء: ضدُّ الْغَدْر».

وفي «بصائر ذوي التمييز»: «الوفاء في «اللّغة»: الْخُلُق الشريف العالي الرفيع».

و«**واصطلاحًا**»: قال **الْجُرْجَانِيّ**: «الوفاءُ: هو مُلازَمةُ طريقِ المواساة، ومحافظةُ عُهودِ الْخُلَطَاء» ا.هـ.

ثانيًا: الترغيب في الوفاء:

للوفاء بالعهود قيمةٌ إنسانيّةٌ وأخلاقيةٌ عُظمى لأنه يُرْسِي دعائمَ الثّقة في الأفراد، ويؤكّد أواصر التعاون في المجتمع.

وله ثمراته المباركة في الآخرة.

(١) قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ٧٦].

(٢) وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨ - ١١].

(٣) وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٤].

(٤) وقال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

(٥) وعن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**اضْمَنوا لي سِتًّا من أنفسكم أَضْمَنْ لكم الجنّة: اصدُقُوا إذا حَدَّثْتُم، وأَوْفُوا إذا**

وَعدتُّم، وأدُّوا إذا ائْتُمِنْتُم، واحفَظُوا فُروجَكم، وغُضُّوا أبْصَارَكم، وكُفُّوا أَيْديَكم»(١).

ثالثاً: أنواع الوفاء:

لِلْوفاء أنواعٌ عديدة باعتبار الْمُوفَى به، فهي قد تكون وفاءً بالعهد، وقد تكون وفاء بالعقد أو الميثاق، وقد تَكون وفاء بالوعد. وتوضيح ذلك فيما يلي:

الوفاء بالعهد: هو - كما قال **الرّاغبُ** - : إتمامُه وعدم نقض حفظه، ويتطابق من ثَمَّ صِدْقُ القول والعمل جميعًا.

عن **ابن عباس** - رضي الله عنهما - قال:

«العهود: ما أحَلّ الله، وما حرّم، وما حَدّ في القرآن كُلّه»(٢).

وأعلى هذا النوع من الوفاء: الوفاء بعهد الله تعالى.

- وعن أُبيّ بن كعب ﷺ في قول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ (الآية) [الأعراف: ١٧٢] قال:

جمعهم فجعلهم أرواحًا ثم صوّرهم فاستنطقهم فتكلّموا، ثم أخذ عليهم العهدَ والميثاق، وأشْهَدهم على أنفسهم: ألستُ بربكم. قال: فإنّي أُشهدُ عليكم السموات السَّبع والأرَضِينَ السَّبْع، وأُشْهِد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نَعْلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيري، ولا ربَّ غيري، فلا تُشركوا بي شيئًا، إنّي سَأُرْسل إليكم رُسلي، يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأُنزلُ عليكم كُتبي. قالوا:

شهدنا بأنك رَبُّنا وإلهُنا لا رَبَّ لنا غيرُك. فأقرّوا بذلك وَرَفَعَ عليهم آدم يَنْظُر إليهم، فرأى الغنيَّ والفقيرَ، وَحَسَن الصُّورة، ودون ذلك، فقال:

---

(١) حسن: رواه أحمد، والحاكم، وصحّحه ووافقه الذهبيّ، وقال: فيه إرسال.

(٢) «عمدة التفسير» للشيخ أحمد شاكر (٤/٦٢).

رَبِّ لولا سَوَّيْتَ بين عبادك؟ قال:

إنّي أحْبَبتُ أن أُشْكَر.

ورأى الأنبياء فيهم مِثْلَ السُّرُج عليه النُّور، خُصُّوا بميثاقٍ آخر في الرّسالة والنّبوة، وهو قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾[الأحزاب:٧]، كان في تلك الأرواح فَأَرْسَلَه إلى مَرْيم»[(١)].

■ وعن ابن عباس: أن امرأةً من جُهَيْنة جاءت إلى النبيِّ ﷺ فقالت:

إن أُمّي نَذَرت أن تَحُجَّ فلم تَحُجّ حتى ماتت، أَفَأَحُجُّ عنها؟

قال: «**نعم، حُجِّي عنها، أرأيتِ لو كان على أُمِّك دَيْنٌ أكنتِ قاضِيَتَهُ؟ اقْضُوا الله، فالله أحَقُّ بالْوَفاء**»[(٢)].

أما الوفاء بالعقد: فالمراد به إمّا العهد، وبذلك يتطابق مع النوع الأوّل، وقيل: العقود هي أوكد العهود، وقيل: هي عهود الإيمان والقرآن، وقيل: هي ما يتعاقده الناس فيما بينهم[(٣)].

قال العلامة **عبد الرحمن بن ناصر السّعدي** - رحمه الله - في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

«هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وربّه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئًا، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرّهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم.

---

(١) رواه عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه (١٣/٥)، وغيره.

(٢) رواه البخاري (١٨٥٢)، ومسلم (١٣٣٤).

(٣) «تفسير البغوي» (٦/٢).

والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصُّحبة في الغنى والفقر، واليسر والعُسْر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] بالتناصر على الحق، والتعاون عليه، والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع.

فهذا أمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلّها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها» ا.هـ[(١)].

أما الوفاء بالوعد: فالمراد به: أن يصبر الإنسانُ على أداء ما يَعِدُ به الغير ويَبْذُلُهُ من تِلْقَاءِ نَفْسه، ويَرْهَنُه به لِسَانُه حتى وإن أَضَرَّ به ذلك.

قال **الجاحظ**: «وكلّما أضر به الدخول تحت ما حكم به على نفسه كان ذلك أبلغ في الوفاء».

صور عجيبة من حياة أهل الوفاء:

الحديث عن مواقف أهل الوفاء، حديث يطول، ويكفي أن نذكر هنا: **صورتين**

الصورة الأولى: قِصَّة الخشبة والألف دينار:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ :

« إن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فقال: ائتني بالشهداء أُشهِدُهُمْ، فقال: كفى بالله شهيدا، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله وكيلا، قال: صدقت. قال: فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج إلى البحر فقضى حاجته، ثمّ التمس مركبا يركبها يقدم عليه، للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبا. فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثمّ زج موضعها، ثمَّ أتى إلى البحر، فقال: اللّهُمَّ

---

(١) «تفسير السعدي» (٢١٨).

إنك تعلمُ أني تسلفت فلانا ألف دينار، فسألني كفيلا، فقلت: كفى بالله وكيلا، فرضى بك وسألني شهيدا، فقلتُ: كفى بالله شهيدا، فرضى بك، وإني جهدتُ أن أجد مركبا أبعثُ إليه الذي له، فلم أجد، وإني استودعكها! فرمى بها إلى البحر، حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبا قد جاء بماله، فإذا الخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثمَّ قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، وقال: والله ما زلتُ جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدتُ مركبًا قبل الذي أتيتُ فيه. قال:

هل كنتَ بعثتَ إليَّ شيئًا؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثتَ في الخشبة، فانْصَرِفْ بالألف دينار راشدًا»[1].

الصورة الثانية: قصة الأبرص والأقرع والأعمى:

عن أبي هريرة ﷺ، أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«إنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثُ إليهم مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أحبُّ إلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبُ عَنِّي الذي قَد قَذِرَنِي النَّاسُ.

فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ قَذَرُهُ، وأُعْطِيَ لَونًا حَسَنًا. قال: فأيُّ المَالِ أحبُّ إليكَ؟ قال: الإبلُ - أو قَالَ: البقرُ شَكَّ الرَّاوِي -، فأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَراءَ، فَقَالَ: بَارِكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إليكَ؟ قَال: شَعْرٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الذي قَذِرَنِي النَّاسُ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنهُ، وأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا. قال: فأيُّ المالِ أحَبُّ إليكَ؟ قال: البَقَرُ. فأُعْطِيَ بَقَرةً حَامِلاً، وقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فأتى الأعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إليكَ؟ قَال: أنْ يَرُدَّ الله إليَّ بَصَرِي، فأُبصِرُ النَّاسَ. فَمَسَحَهُ فَرَدَّ الله إليه بَصَرهُ. قال: فأيُّ المالِ أحَبُّ إليكَ؟ قال: الغَنَمُ. فأُعْطِيَ شَاةً والِدًا،

(١) أخرجه البخاري، وأحمد في «المسند».

فأَنْتجَ هَذَانِ، وَوَلد هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ من الإبلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ.

ثُمَّ إنَّهُ أَتَى الأبرَصَ في صُورَتِهِ وَهَيْئَتِه، فقال: رَجُلٌ مِسْكِيْنٌ، قَد انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ في سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ لِي اليَوْمَ إلا بالله ثُمَّ بِكَ، أسألُكَ بالّذي أعطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ، والجِلْدَ الحسَنَ، والمَال، بَعِيرًا أتَبَلَّغُ بِهِ في سَفَرِي. فَقَالَ: الحُقُوقُ كَثِيْرَةٌ. فَقَال: كَأَنِّي أعْرِفُكَ، ألَمْ تَكُ أبْرَصَ يَقْذُرُكَ النَّاس، فَقِيرًا فأعْطاكَ اللهُ؟! فقال: إنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المال كَابِرًا عَنْ كَابِر!! فقال: إنْ كُنْتَ كَاذِبًا فصَيَّرك اللّهُ إلى ما كُنْتَ.

وأتى الأقْرَعَ في صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فقال له مِثْلَ ما قَالَ لِهَذَا، وَرَدّ عَلَيْهِ مِثْلَ ما رَدَّ هَذَا. فقال: إنْ كُنْتَ كَاذِبًا فصَيَّرك اللّهُ إلى ما كُنْتَ.

وأتى الأعمى في صُورَتِه وَهَيْئَتِهِ، فقال: رَجُلٌ مِسْكِيْنٌ، وابن سبيل قَد انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلاَ بَلاَغَ لِي اليَوْمَ إلا بالله ثُمَّ بِكَ، أسألُكَ بالّذي ردَّ عَلَيْكَ بَصرَكَ، ، شاةً أتَبَلَّغُ بِهَا في سَفَرِي. فَقَالَ: قد كُنْتُ أعمَى فَرَدَّ اللّهُ إليَّ بَصَرِي، فخُذْ ما شِئْتَ، وَدَع مَا شِئْتَ، فوالله ما أجْهَدُكَ اليومَ بِشَيْءٍ أخَذْتَهُ لِلَّه ﷻ فقال: أمسك مَالكَ، فإنَّما ابتُلِيْتُمْ، فَقَد رَضِيَ اللّهُ عنك، وسَخِطَ على صاحِبيك»[1].

أخي الكريم:

هذه بعض أخلاق أهل الوفاء، فأين هي اليوم؟

سَــقَى اللّـــهُ أطْــلالَ الوفــاءِ بِكَفِّــه
فَقَـــدْ دَرَسَـــتْ أَعْلاَمُـــهُ وَمَـــنَازِلُهُ



(١) رواه البخاري ومسلم.

١١٥- كفالةُ اليتيم

قال **بَعْضُ السَّلف**: «إياكم ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم فإنها تسري بالليل والناسُ نيام».

والحديث عن «اليتيم وكفالته» يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: تعريف كفالة اليتيم.

والثاني: فضل الإحسان إليه.

والثالث: خطر الإضرار به.

والرابع: صور ومواقف من أحوال الصالحين مع الأيتام.

سائلاً المولى - جَلّت قُدْرَتُه - أن يجعل هذا الحديث عن الأيتام وفضل الإحسان إليهم - دافعًا لإكرام اليتيم وكفالته، وصيانة حقّه.

أوّلاً: تعريف كفالة اليتيم:

قال الحافظُ **ابْنُ حجر**- رحمه الله - :

«كافل اليتيم: أي القيِّم بأمْرِه ومَصَالحه» ا.هـ[(١)].

وقال صاحِبُ «**القامُوسِ الفقْهيّ**»: «كافِلُ اليتيم: هو القائِم بأَمْر اليتيم الْمُرَبِّي له، وإذا كان اليتيمُ «شَرْعًا» هو الصّغير الذي فَقَد أباه[(٢)]، فإنّ كفَالَةَ اليتيم حينئذ تكون: القيام بأَمْر الطّفل الصّغير ورعاية مَصَالحه، وتربيته والإحسان إليه حتى يَبْلغ الرِّجال إن كان ذَكَرًا أو تتزوّج إن كانَتْ بنْتًا».

---

(١) «فتح الباري» (١٠/٤٥١).

(٢) يقصد بالصّغر: عدمُ بلوغ الْحُلُم في الذّكور، وعدم الزّواج في الإناث. قال ﷺ: «**لا يُتْمَ بَعْد البلوغ**» رواه أبو داود (٢٨٧٣)، وصحّحه الألباني.

قلت: ولا يعني الإحسان إلى اليتيم: إهمال تربيته، وترك تأديبه - كما يعتقد البعض - فكم جَرّ هذا الفهمُ الخاطئ على المجتمع من ويلات، وكم تسبب في انحراف يتامى عن طريق الصّواب.

إن تأديب اليتيم، جزء من الإحسان إليه، إذا كان في موضعه، فقد كان النبي ﷺ يؤدّب عمر بن أبي سليمة - لمّا كان في حِجْره- قائلاً له:

«يا غلام. سَمِّ الله، وَكُلْ بِيَمِينك، وَكُلْ مِمّا يليك».

ثانيًا: فضل الإحسان إلى اليتيم:

اعلم - **أيها المسلم** - أن الإحسان لليتامى له ثمرات:

منها: أنه من علامات البرّ:

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومنها: إزالة قسوة القلب، وقضاء الحوائج:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

أتى النبيَّ ﷺ رَجُلٌ يَشْكو قَسْوَةَ قَلْبه، قال:

«أَتُحِبُّ أن يَلِين قَلْبُكَ، وتُدْرِكَ حَاجَتَك؟ ارْحَم اليتيم، وامْسَحْ رأسَهُ، وأَطْعِمْه من طعامِك يَلِنْ قَلْبُكَ، وتُدْرِكْ حَاجَتَك»(١).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني، وانظر: «صحيح الجامع» (٨٠).

ومنها: قهر الشيطان وطَرْده من البيت:

فعن أبي موسى ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال:

« **ما قَعَد يَتيمٌ مع قَوْمٍ على قَصْعَتهم، فَيَقْرَبَ قصعَتَهُم شيطانٌ** »(١).

ومنها: نيل ثواب المجاهد، والصائم، والقائم:

فعن أبي هريرة ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال:

« **السّاعي على الأَرْمَلة والْمسْكِين كالمجاهِد في سبيل الله** »، وأحْسبُهُ قال:

« **وكالقائم لا يَفْتُرُ، وكالصّائم لا يُفْطِرُ** »(٢).

ويزداد الثواب إذا كان اليتيم قريبًا:

فعن زينب – امرأة عبد الله بن مسعود – رضي الله عنها ، قالت:

كنتُ في المسجد فرأيتُ النبيَّ ﷺ فقال:

« **تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيّكُنّ** ».

وكانت زينبُ تُنْفِقُ على عَبْدِ الله وأيتام في حِجْرها، فقالت لعبد الله:

سَلْ رَسُولَ الله ﷺ : أَيجْزِئ عَنّي أن أُنفِق عليكِ وعلى أيتام في حِجْري من الصّدقة؟

فقال: سَلِي أنتِ رسولَ الله ﷺ . فانطلقتُ إلى النبيّ ﷺ فوجدتُ امرأةً من الأنصار على الباب، حاجُتها مثل حاجتي، فَمَرَّ علينا بلالٌ، فقلنا: سَلِ النّبيَّ ﷺ : أَيجزي عَنّي أن أُنْفِقَ على زَوْجي وأيتامٍ لي في حِجْري؟ وَقُلْنا: لا تُخْبِرْ بِنا. فَدَخَل فَسأَلَهُ، فقال:

« **مَنْ هُما؟** ».

---

(١) قال المنذريّ: حديث غريب: رواه الطبراني في « الأوسط »، وكان شيخنا الحافظ أبو الحسن يقول: هو حديث حسن.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

قال: زَيْنبُ!

قال: «**أيّ الزَّيَانبِ؟**».

قال: امرأةُ عبد الله.

قال: «**نعم، لها أجْرَانِ: أَجْرُ القَرَابة**[١]**، وأَجْرُ الصَّدقة**»[٢].

ومنها: مرافقة النبيّ ﷺ في الجنّة:

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**أنا وكافِلُ اليتيم في الجنّةِ هَكَذا**»، وأشار بالسّبابة والوسطى، وفَرَّج بينهما[٣].

فيا أخي:

إن اليتيمَ «إنسانٌ مَقْرورٌ يَهْرَؤُهُ فَقْدُ الحنان، امْسَحْ رأسَه، اقترْب منه، ابتسم له، طَيِّب خاطره، أدخل البهجة على رُوحِهِ الظَّامئة، بكلمةٍ، بلَمْسة، ببسْمة، إن العلاقات الإنسانية تحقق كُلَ مَجْد لها حين تُضْفي على هذا اليتيم المحروم من حَنَانِها ودفئها»[٤].

ثالثاً: خطر الإضرار باليتيم:

وفي المقابل - مقابل الإحسان إلى اليتيم - حذّر الإسلامُ من عواقب الإضرار باليتيم وقَهْره، وعدم الحضّ على إطْعَامه وإكْرَامه.

(١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:

لما أنزل الله:

---

(١) يعني: صلة الرّحم.

(٢) رواه البخاري (١٤٦٦)، ومسلم (١٠٠٠).

(٣) رواه البخاري، وغيره.

(٤) «كما تحدث الرسول» للأستاذ خالد محمد خالد - رحمه الله - (٢/٢٠٥).

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[الإسراء: ٣٤].

و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ [النساء: ١٠](الآيتين):

انطلق من كان عنده يتيم، فَعَزل طعامَه من طعامه، وشرابَه من شرابه، فجعل يَفْضُلُ له الشّيء من طعامه فَيَجْلِسُ له حتى يأكُلَهُ أو يَفْسُدَ فَيَرْمِي به، فاشتدّ ذلك عليهم فَذكَروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل اللّهُ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] (الآية). فخلَطوا طعامَهم بطعامِهم، وشرابَهم بشرابِهم»[(١)].

(٢) وعن ابن عباس في قوله تعالى:

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾ [النساء: ٦] (الآية) قال:

«وليُّ اليتيم إن كان غنيًّا فَلْيَسْتعفف، وإن كان فقيرًا أَخَذ من فَضْل اللَّبَنِ وأخذ بالقوت لا يُجَاوزه، وما يَسْتُرُ عَوْرته من الثّياب، فإن أيسَرَ قَضَاه،، وإن أَعْسَرَ فهو في حِلّ»[(٢)].

وقال الإمام **ابن الجوزي** - رحمه الله - في هذه الآية:

«وفي الأكل بالمعروف **أربعة أقوال**:

أحدُها: أنه الأخذ على وجه القرض، وهو مرويٌّ عن عمر، وابن عباس، وابن جبير، وغيرهم.

والثاني: الأكل بمقدار الحاجة من غير إسراف، وهذا مرويٌّ عن ابن عباس، والحسن، وغيرهما.

والثالث: أنه الأخذ بقدر الأجرة إذا عمل لليتيم عملاً. روى عن ابن عباس وعائشة.

---

(١) رواه أبو داود (٢٨٧١)، وغيره.

(٢) «الدّر المنثور» للسيوطي (٤/٤٣٦).

والرابع: أنه الأخذ عند الضرورة فإن أَيْسَر قَضَاه، وإن لم يُوسِرْ فهو في حِلّ. وهذا قول الشَّعْبيّ»ا.هـ[(١)].

(٣) وقال قتادة في قوله:

﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [الماعون: ٢]: أي يَقْهَرُهُ وَيَظْلِمُهُ.

(٤) وعن أبي هريرة ﷺعن النبيّ ﷺ قال:

«**اللَّهُمّ إنِّي أُحَرِّجُ**[(٢)] **حَقَّ الضَّعِيفَيْن: اليتيم والْمَرْأة**»[(٣)].

(٥) وعنه ﷺ عن النبيّ ﷺ قال:

«**اجْتَنبوا السَّبْعَ الموبقات**».

قالوا: يا رسول الله، وما هنّ؟

قال: «**الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقتلُ النَّفس التي حَرّم اللّهُ إلا بالحق، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيم، والتولِّي يَوْمَ الزَّحْف، وقَذفُ المُحصَنات**[(٤)] **المؤمنات الغافلات**»[(٥)].

رابعًا: صور ومواقف من أحوال الصالحين مع الأيتام:

كان اليتيم في وسط السّلف الصالح لا يشعر بالْيُتْم، بل كان يعيش - أحيانًا - في سَعَةٍ لم يَجِدْها في ظلّ أبيه!!

وهذه بعض أحوالهم وأقوالهم الدّالة على ذلك:

(١) عن مطر الورّاق، عن جابر بن زيد، قال:

«لأن أتصدّق بدرهم على يتيم أو مسكين أحبّ إليّ من حجّة بعد حجّة الإسلام»[(٦)].

---

(١) «زاد المسير» (١٦/٢).
(٢) أُحرّج؛ أي: أحرج عن هذا الإثم، بمعنى أن يُضَيَّع حقهما.
(٣) صحيح رواه أحمد، وابن ماجه، وصحّحه الألباني.
(٤) قذف المحصنات: رمي العفائف بالفاحشة.
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) «صفة الصفوة» (١٥٨/٣).

فأين هذه الأخلاق اليوم؟

إن جماهير غفيرة - من أغنياء اليوم - تشدّ الرّحال كل عام إلى شواطئ البحار والأنهار، وهناك تنفق آلاف الجنيهات، وجارُهم الملاصقِ يتضوَّر جُوعًا، ويتيمُهم القريب لا يَجدِ لقمةً تَسدّ جَوْعته، ولا ثوبًا يواري عَوْرته، ولا حتى علاجًا يسكّن ألمه!!

فأين الرحمة أيّها الناس؟!

أين الإحسان؟

ألا يسمع هؤلاء قول نبيّهم ﷺ:

« خَاب عبْدٌ وخَسِر لم يجعل اللّهُ تعالى في قَلْبه رَحْمَة للْبَشر »[1].

(٢) وعن حمّاد بن أبي حنيفة: إن مولاةً كانت لداود الطائي تخدمه، قالت:

لو طبختُ لك دَسَمًا تأكله؟

فقال: وددت. فَطَبَختْ له دَسَمًا ثم أَتَتْهُ به، فقال لها:

ما فعل أيتامُ بني فلان؟

قالت: على حالهم.

قال: اذْهبي بهذا إليهم.

فقالت: أنتَ لم تأكلْ أُدْمًا منذ كذا وكذا!!

فقال: « إن هذا إذا أكلوه صَار إلى الْعَرْشِ، وإذا أكلتهُ صار إلى الْحُشِّ[2] »[3].

أخي المسلم:

هذه أخلاق سلفنا، فما أحوجنا إلى هذا التراحم.

---

(١) حسن: رواه أبو نعيم، وغيره، وانظر: « صحيح الجامع » (٣٢٠٥).

(٢) الْحُشّ: الخلاء، المكان الذي يقضي الإنسان فيه حاجته.

(٣) « صفة الصفوة » (٨٩/٣).

ما أحوجنا إلى مجاهدة أنفسنا، لِتَتَعوّد بَسْط الكَفِّ بالعطاء.

أخي:

إن السّخاء: طريق الفلاح. **اقرأ**:

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

فحرّك نعم الله عندك.

امسح بها دموع اليتامى.

وخَفِّف بها الحِمْل عن الأرَامل.

امسح بها الآلام.

وجدّد بها الآمال.

واعلم: «**أنَّ الْبِرَّ لا يَبْلى**».

وفّقني اللّهُ - تعالى - وإيّاك .



١١٦- الصّدق

قال الإمامُ **محمد بن سعيد المروزي** – رحمه الله – : « إذا طَلَبْتَ الله بالصِّدْق، آتاك اللّهُ تعالى مرآةً بِيَدك، تُبْصِر كُلَّ شيءٍ مِنْ عَجَائِب الدّنيا والآخرة ».

أخي الكريم:

ما هو الصّدق؟

وما هي فضائله؟

وما هي درجاته؟

هذا ما سوف نوضحه على السطور التالية، واللهُ الموفّق لما يُحب ويرضى.

أوّلاً: تعريف الصِّدْق:

تنوّعت عبارات القوم في تعريف الصِّدق.

- قال **القشيريّ** – رحمه الله – :

« الصِّدق: أن لا يكون في أَحْوالك شَوْبٌ[١]، ولا في اعتقادك رَيْبٌ، ولا في أعمالك عَيْبٌ »[٢].

- وقال **الْجُرْجَانِيُّ**:

« الصِّدقُ: مطابقةُ الْحُكْم للواقع، وهذا هو ضِدُّ الكَذِب »[٣].

- **وقيل**: « الصّدق: استواءُ السِّر والعلانية، والظّاهر والباطن بألا تُكَذِّب أحوالُ العبد أَعْمَالَه، ولا أَعْمَالُه أحوَالَه ».

---

(١) الشَّوْب: ما اختلط بغيره من الأشياء.

(٢) « أدب الدنيا والدين » (٢٦٢).

(٣) « التعريفات » (١٣٢).

ثانيًا: فضائل الصِّدق:

اعلم: أن «الصِّدق» منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يَسرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين. وبه تميَّز أهلُ النفاق من أهل الإيمان، وسُكّانُ الجنَان من أهل النيران.

وهو سيف الله في أَرْضه الذي ما وُضِع على شيء إلا قَطَعه، ولا واجه باطلاً إلا أرْدَاه وصَرَعَه.

من صال به لم تُرَدَّ صَوْلَتهُ. ومن نَطَق به عَلَتْ على الخصوم كَلِمَتُه. فهو روح الأعمال، ومَحَكُّ الأحوال، والحامل على اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال.

وهو أساس بناء الدِّين، وعمود فسطاطِ اليقين، ودرجته تالية لدرجة النّبوّة التي هي أرفع درجات العالمين.

وقد ورد في فضائله آيات وأحاديث وآثار كثيرة.

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٥- ١٧].

(٢) وقال تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٩].

(٣) وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ

لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥- ٧].

ومن الأحاديث:

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«أربعٌ إذا كُنَّ فيك: فلا عليك ما فَاتَك من الدُّنْيا: حِفْظُ أمَانة، وصِدْقُ حديثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقةٍ، وعِفَّةٌ في طُعْمَةٍ»(١).

(٢) وعن عبادة بن الصامت، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«اضْمَنوا لي ستًّا من أنفسكم أَضْمَنْ لكم الجنّة: اصدُقُوا إذا حَدَّثْتُم، وأَوْفُوا إذا وَعدتُّم، وأدُّوا إذا ائْتُمِنْتُم، واحفَظُوا فُروجَكم، وغُضُّوا أبْصَارَكم، وكُفُّوا أَيْدِيَكم»(٢).

(٣) وعن ابن مسعود ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إن الصِّدقَ يَهْدي إلى الْبرِّ، وإن البرِّ يهدي إلى الجنّة، وإن الرجل لَيَصْدُقُ حتى يكون صِدِّيقًا، وإن الكَذِبَ يَهْدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل لِيكذبُ حتى يُكْتَبَ عند الله كَذَّابًا»(٣).

(٤) وعن سَهْل بن حُنَيْف: أن النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ سَألَ الله الشّهادة بِصِدْقٍ: بَلَّغَه اللّهُ مَنَازل الشُّهَداء، وإن ماتَ على فِراشه»(٤).

---

(١) صحيح: رواه أحمد (١٧٧/٢)، وغيره، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٥٩/٤)، وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه مسلم (١٩٠٩).

ومن الآثار:

(١) قال **يوسفُ بن أسباط** – رحمه الله – :

« لأن أَبيتَ ليلة أُعامِلُ الله بالصِّدق: أحبُّ إليَّ من أن أَضْرب بسيفي في سبيل الله »[١].

(٢) **وقيل:**

« ثلاثٌ لا تُخطئُ الصّادق: الحَلاَوةُ، والْملاحَةُ، والْهَيْبَةُ »[٢].

ثالثاً: درجات الصّدق:

والصدق درجات:

الأولى صدق اللسان:

وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق. وكمال صدق القول الاحتراز عن المعاريض فقد قيل في المعاريض: مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إلا أن ذلك مما تمسّ إليه الحاجة، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال؛ وفي تأديب الصبيان والنسوان، ومن يجري مجراهم، وفي الحذر عن الظلمة، وفي قتال الأعداء؛ والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار. فمن اضطرّ إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين.

فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهمًا غير ما هو عليه لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه. نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً، كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر ورى بغيره، وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد، وليس هذا من الكذب في شيء.

---

(١) « مدارج السالكين » (٢/٢٩٠).

(٢) نفس المرجع والصفحة.

قال رسول الله ﷺ : «**ليس بكذّاب مَنْ أصْلَح بين اثْنين فقال خيرًا أو أنْمى خيرًا**»(١).

ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع:

مَنْ أصلح بين اثنين، ومَنْ كان له زوجتان؛ ومن كان في مصالح الحرب، والصدق ها هنا يتحول إلى النية فلا يراعي فيه إلا صدق النية وإرادة الخير. فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقًا وصديقًا كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطّي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي: ليس هو ها هنا. واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقًا.وأفهم الظالم أنه ليس في الدار، وهذا الذي ذكرناه من الاحتراز عن صريح اللفظ وعن المعاريض إلا عند الضرورة هو الكمال الأوّل في صدق القول وهناك كمال ثان وهو أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربَّه كقوله:

﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فإن قلبه إن كان منصرفًا عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كذب، وكقوله:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وكقوله: أنا عبد الله فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقًا، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد الله لعجز عن تحقيقه. فإنه إن كان عبدًا لنفسه أو عبدًا لدنيا أو عبدًا لشهواته لم يكن صادقًا في قوله، وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له، كما قال ﷺ :

«**تَعِسَ عبدُ الدّينار تَعِسَ عبدُ الدّرْهم وعبدُ الخَميصَة**»(٢).

سمّى كل من تقيد قلبه بشيء عبد له، وإنما العبد الحق لله ﷻ من أعتق من غير الله

---

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٦/٤٠٣، ٤٠٤)، وعبد بن حميد (١٥٩٢)، والبخاري (٣/٢٤٠)، وفي «الأدب المفرد» (٣٨٥)، ومسلم (٨/٢٨)، وأبو داود (٤٩٢٠)، (٤٩٢١)، والترمذي (١٩٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٨٣٥٣/١٣ تحفة) عن أم كلثوم بنت عقبة.

(٢) رواه البخاري.

تعالى واشتغل بالله وبمحبته ويقيد ظاهره وباطنه بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى.

الدرجة الثانية: الصدق في النية والإرادة:

ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية.

والدرجة الثالثة: صدق العزم وهو الجزم فيه بقوة:

والصادق فيه هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردّد بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمم الجازم على الخيرات كمن يقول: إن رزقني الله مالاً تصدّقت بشطره، وإن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فصدق هذه العزيمة هو سخاء نفسه بما نوى.

الدرجة الرابعة: الوفاء بالعزم:

فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم، والمؤونة فيه خفيفة فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات، ولم يتفق الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه. ولذلك قال الله تعالى:

﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فقد روى عن أنس: أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فشهد أُحُدًا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: إلى أين؟ فقال: واهًا لريح الجنة إني أجد ريحها دون أُحُد فقاتل حتى قُتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته: ما عرفت أخي إلا بثيابه. فنزلت هذه الآية:

﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] [١].

(١) صحيح أخرجه أحمد (٣/١٩٤، ٢٠١، ٢٥٣)، عبد بن حميد (١٣٩٦)، والبخاري (٤/٢٣)،

وقال **مجاهد**: رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا: إن رزقنا الله تعالى مالاً لنصدقن فبخلوا به فنزلت:

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة: ٧٥- ٧٧]، فجعل العزم عهدًا وجعل الخلف فيه كذبًا والوفاء به صدقًا.

الدرجة الخامسة: الصدق في الأعمال:

وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به. فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لا يرائي غيره ولكنه في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهو كذاب بلسان الحال في عمله غير صادق فيه فالصدق فيه هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرًا من ظاهره.

إذا السرُّ والإعلانُ في المؤمن استوى ... فقد عزّ في الدارين واستوجب الثّنا
فإن خالف الإعلانُ سرًّا فما له ... على سعيه فضلٌ سوى الكدّ والعنا

ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقًا في الجميع فهو الصديق حقًّا[1].

أخي المسلم:

وأختم حديثي إليك - هنا - بذكر بعض أحوال وأقوال أهل الصّدق، لنرى كيف تطابقت أقوالهم مع أحوالهم لمّا صدقوا:

= (١٢٢/٥)، (١٤٦/٦)، ومسلم (٤٥/٦)، والترمذي (٣٢٠٠)، والنسائي في «فضائل الصحابة» (١٨٦)، وفي «الكبرى» (٤٠٦ تحفة) عن أنس.

(١) «موعظة المؤمنين» للشيخ محمد جمال الدين القاسمي (٤٤٠- ٤٤٣).

■ قال الشيخ **عبد القادر الجيلاني** - رحمه الله - :

« بَنَيْتُ أَمْري على الصِّدق؛ وذلك أني خرجتُ من مكّة إلى بغداد أطلب العلم، فأعطتني أمّي أربعين دينارًا، وعاهدتني على الصِّدق. ولمّا وصلنا أرض « همدان » خرج علينا عربٌ، فأخذوا القافلة، فمرّ واحد منهم، وقال:

ما معك؟

قلتُ: أربعون دينارًا، فظنّ أني أهزأ به، فتَرَكَني، فرآني رجلٌ آخر، فقال:

ما معك؟

فأخبرتُه، فأخذني إلى أميرهم، فسألني فأخبرتُه، فقال:

ما حملك على الصِّدق؟

قلتُ: عاهدتني أُمّي على الصّدق؛ فأخاف أن أخون عهدها. فصاح باكيًا، وقال:

أنت تخاف أن تخون عهد أمّك، وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله!!

ثمّ أَمَر بِرَدّ ما أخَذُوه من القافلة، وقال:

أنا تائب لله على يديك. فقال مَنْ معه:

أنت كبيرُنا في قطع الطريق، وأنت اليوم كبيرنا في التوبة. فتابوا جميعًا ببركة الصِّدْق وسببه.

■ ويُحدِّثنا الإمام **ابن قدامة** - رحمه الله - في كتابه « التوّابين »: عن صِدْق توبة الإمام « بِشْر الحافِي » فيقول:

« كان بِشَرٌ في زمن لَهْوِه في داره، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون، فاجتاز بهم رجلٌ من الصّالحين فَدَقّ الباب فخرجت إليه جاريةٌ، فقال:

صاحبُ هذه الدّارِ حُرٌّ أم عَبْدٌ؟

فقالت: بل حرٌّ.

فقال: صَدَقْتِ؛ لو كان عَبْدًا لاسْتَعْمَل أَدَب العبودية وتَرك اللّهْوَ والطّرب.

فاستمع بِشْرٌ محاورهما، فسارع إلى الباب حَافِيًا حَاسِرًا، وقد ولّى الرّجُلُ، فقال للجارية:

وَيْحَك مَنْ كَلّمك على الباب؟

فأخبرته بما جرى، فقال:

أيَّ ناحيةٍ أَخَذَ الرَّجل؟

فقالت: كذا. فتبعه بِشْر حتى لَحِقَه، فقال له:

يا سيّدي، أنتَ الذي وقفتَ بالباب وخاطبت الجارية؟

قال: نعم.

قال: أَعِدْ عليَّ الكلام.

فأعاده عليه، فمرَّغ بِشْرٌ خَدَّيه على الأرض، فقال:

بل عبد.

ثم هام على وَجْهه حافيًا حَاسِرًا حتى عُرِف بالْحَفَاء، فقيل له:

لِمَ لا تَلْبسُ نعلاً؟

قال: «لأنّي ما صالحني مولاي إلا وأنا حافٍ، فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات!»[1].

فالْزَم - **يا أخي** - طريق الصّادقين، فهو الطريق الموصّل إلى رحمة الله.

﴿ يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩].

وفقّني الله - تعالى - وإيّاك.

۞۞۞۞۞

(١) «التوابين» (٢١٠، ٢١١).

١١٧- الأمانة

قال بعضُ الصَّحابة: «رأيتُ أعرابيًا يَرْكَبُ جَمَلاً فَوَقف أَمَام مَسْجد النّبيّ ﷺ وأناخه، وربَطه، ودخل المسجد فَصَلّى، وَدَعا، ولمّا خرج لم يجد الجَمل، فرفع يَدَيْه إلى السّماء، وقال:

«يا رَب، أدَّيتُ أمانتكَ، فأين أمانتي؟».

فإذا بالجمل يأتي من شوارع المدينة حتى وقف بين يديه، فَرَكِبَهُ وسَعَى!!».

بهذه «الحكاية» التي تحرّك القلوب نحو علام الغيوب، نبدأ الحديث عن خُلُق «الأمانة» وفيه **ثلاثة أمور**:

الأول: معنى الأمانة.

والثاني: مكانتها؟

والثالث: ما هي مجالاتها؟

هذا ما سوف نتناوله بالبيان فيما يلي:

أولاً: معنى الأمانة:

قال **الكَفَوِيُّ**: «الأمانة: كُلُّ ما افْتَرض اللّهُ على العباد فهو أمانة كالصّلاة والزّكاة والصِّيام وأدَاء الدّيْن، وأَوْكَد الْوَدَائِع: كَتْمُ الأَسْرار».

وقال في موضع آخر:

«كُلُّ ما يُؤتَمن عليه من أموالٍ وَحُرَمٍ وأسرار فهو أمانة» ا.هـ[1].

---

(١) «الكليات» (١٧٦)، (١٨٦).

ثانيًا، مكانة الأمانة :

اعلم - **أيها المسلم** - أن للأمانة مكانتها وأهميتها في دين الإسلام، لذا جاءت الآياتُ والأحاديث تحضّ عليها، وتأمر بأدائها، وتنهى وتحذّر من مغبة خيانتها وإهمالها.

فمن الآيات:

(١) قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

(٢) وقال تعالى - في وصف المؤمنين - : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨].

(٣) وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

واختلف العلماءُ في تعريف الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال على أقوال:

قال الإمام **الطبريُّ** - رحمه الله - :

« وأَوْلى هذه الأقوال بالصَّواب: ما قاله الذين قالوا: إنه عنى بالأمانة في هذا الموضع: جميع معاني الأمانات في الدين، وأمانات الناس، وذلك أن الله ﷻ لم يخصّ بقوله: ﴿ عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ﴾ بعض معاني الأمانات دون بعض[1] »ا.هـ[2].

ومن الأحاديث:

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

---

(١) وسمعت الشيخ عبد اللطيف المشتهرى - رحمه الله - يقول: الأمانة: هي كلّ التكاليف الشرعية.

(٢) « تفسير الطبري » (٢٢/٣٩).

قال رسولُ الله ﷺ:

« أَرْبَعٌ من كنَّ فيه كان مُنافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهُنّ كانت فيه خَصْلَةٌ من النّفاق حتى يَدَعَها: إذا اؤْتُمِن خان، وإذا حَدَّث كَذَبَ، وإذا عاهد غَدَر، وإذا خاصم فَجَر »(١).

(٢) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« أَدِّ الأمانةَ إلى من ائْتَمَنك، ولا تَخُنْ مَنْ خَانك »(٢).

(٣) وعنه رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« المسلم: مَنْ سَلِم المسلمون من لِسَانه وَيَدِه، والمؤمن: مَنْ أَمِنَه النّاس على دمائهم وأموالهم »(٣).

والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة، وسيأتي بعد قليل المزيد - إن شاء الله - .

ثالثاً: مجالات الأمانة:

اعلم - **أيها المسلم** - أن المجالات التي تدخل فيها الأمانة كثيرة:

فالدِّين أمانة:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

قال الإمام **ابن كثير** - في تفسيره لهذه الآية - :

« والخيانة: تعمّ الذّنوب الصّغار والكبار اللازمة والمتعدّية، وقال عليّ بن أبي طلحة

(١) رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨).

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، وصحّحه الألباني.

(٣) إسناده قويّ: رواه الترمذي (٢٦٢٧)، وغيره.

عن ابن عباس: ﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴾: الأمانة: الأعمال التي ائتمن اللهُ عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: لا تخونوا: لا تنقضوها.

وقال في رواية: ﴿ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ يقول: بترك سُنّته، وارتكاب معصيته» ا.هـ[(١)].

وقال الإمام **الفخر** – رحمه الله – في تفسيرها:

«معنى الآية: إيجاب أداء التكاليف بأسرها على سبيل التمام والكمال من غير نقص ولا إخلال» ا.هـ[(٢)].

والغسل من الجنابة: أمانة:

فعن أبي الدرداء، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«خَمْسٌ مَنْ جَاء بِهِنّ مع إِيمَانٍ دَخَل الجنّة: مَنْ حَافَظ على الصَّلَوات الْخَمْسِ على وُضُوئِهِنَّ، وركوعِهِنَّ، وسُجُودِهِنّ، ومَوَاقِيتِهِنَّ، وصَامَ رَمَضَان، وحَجَّ البيت إن اسْتَطَاع إليه سَبِيلاً، وأَعْطَى الزّكَاة طَيِّبة بها نَفْسُهُ، وأدَّى الأَمَانة».

قالوا: يا أبا الدرداء: وما أداء الأمانة؟

قال: «الغُسْلُ من الْجَنَابة»[(٣)].

والنَّصيحة: أمانة:

فعن أم سلمة وأبي هريرة – رضي الله عنهما – قالا:

قال رسولُ الله ﷺ:

«الْمُسْتَشارُ مُؤتَمن»[(٤)].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٧٤/٢).

(٢) «مفاتيح الغيب» (٤٧٩/١٤).

(٣) حسن: رواه أبو داود (٤٢٩/١)، وحسنه الألباني.

(٤) حسن: رواه الترمذي (٢٨٢٢)، وحسّنه ووافقه محقق «جامع الأصول».

والخادم: مؤتمن على مال سيِّده:

قال تعالى - حكاية عن بنت الرّجل الصّالح: شُعَيْب: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

وصاحب المنصب: مؤتمن على منصبه:

فعن أبي زُرارة عَدِيّ بن عَمِيرة الكِنْديّ ﷺ قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«مَن اسْتَعْمَلْنا منكم على عَمَلٍ، فَكَتمنا مَخِيطًا فَمَا فَوْقَه، كان غُلُولاً يَأْتِي به يَوْمَ القيامة»[1].

وعن أبي ذرّ ﷺ قال:

قلتُ: يا رسول الله، ألا تَسْتَعْمِلُني؟

قال: فَضَرب بِيَدِهِ على مِنْكَبِي. ثم قال:

«يا أبا ذر إنّك ضَعِيفٌ، وإنّها أمانةٌ، وإنّها يَوْمَ القيامة خِزْيٌ ونَدامة، إلا مَنْ أَخَذَها بِحَقِّها وأَدَّى الذي عليه فيها»[2].

وما يدور بين الرجل وزوجته: أمانة:

فعن أبي سعيد الخدريّ ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«إنّ مِنْ أَعْظَم الأمانة عند الله يَوْمَ القيامة: الرّجُلَ يُفْضِي إلى امْرأته وَتُفْضِي إليه، ثم يَنْشُر سِرَّها»[3].

(١) رواه مسلم (١٨٣٣).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٥).

(٣) رواه مسلم وأبو داود، وغيرهما.

والمجالس: أمانة:

فعن جابر بن عبد الله، عن النبيّ ﷺ قال:

« **إذا حَدَّثَ الرّجُلُ الحديثَ ثم الْتَفَتَ فهي أمَانة** »(١).

والمُؤَذِّن: مؤتَمَن:

فعن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

« **الإمامُ ضَامِنٌ**(٢)، **والمؤذِّنُ مُؤْتَمَنٌ**(٣)، **اللّهم أَرْشِدِ الأئمَّة واغْفِرْ للمؤذِّنين** »(٤).

والودائع أمانة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

والبيع والشراء: أمانة:

والآيات والأحاديث الواردة في ذلك مشهورة ومنشورة.

وبالجملة: فالأمانة: كل التكاليف الشرعية، الشاملة للاعتقادات، والعبادات، والمعاملات.

وللأمانة ثمرات، إليك إحدى ثمراتها:

ذكر **ابْنُ رَجَب وَغَيْرُه** أن رَجُلاً من العُبَّاد كان في مكة، وانقطعت نفقتُهُ، وجاع جوعًا شديدًا، وأشرف على الهلاك، وبينما هو يدور في أحد أزقَّة مكة إذ عثر على عِقد

(١) **حسن**: رواه الترمذي (١٩٥٩)، وحسّنه ووافقه الألباني.

(٢) **ضامن**: المراد: ضمان الحفظ والرعاية لأنه يحفظ على القوم صلاتهم.

(٣) **مُؤْتَمَن**: يعني: أمين الناس على صلاتهم وصيامهم.

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٠٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر: حديث صحيح ثابت.

ثمين غالٍ نفيس، فأخذه في كمِّه وذهب إلى الحرم، وإذا برجل ينشد عن هذا العقد، قال: فوصفه لي، فما أخطأ من صفته شيئًا، فدفعتُ له العقْد على أن يعطيني شيئًا. قال: فأخذ العقد وذهب، لا يلوي على شيء، وما سلّمني درهمًا ولا نقيرًا ولا قطميرًا. قلتُ: اللهم إني تركتُ هذا لك، فعوِّضني خيرًا منه، ثم ركب جهة البحر فذهب بقارب، فهبَّتْ ريح هوجاء، وتصدَّع هذا القارب، وركب هذا الرجل على خشبة، وأصبح على سطح الماء تلعب به الريح يمنة ويسرة، حتى ألقتْه إلى جزيرة، ونزل بها، ووجد بها مسجدًا وقومًا يصلُّون فصلّى، ثم وجد أوراقًا من المصحف فأخذ يقرأ، قال أهل تلك الجزيرة: أئنك تقرأ القرآن؟ قلتُ: نعم. قالوا: علِّمْ أبناءنا القرآن. فأخذتُ أعلِّمهم بأجرة، ثم كتبتُ خطًا، قالوا: أتعلِّم أبناءنا الخط؟ قلتُ : نعم. فعلَّمتُهم بأجرة.

ثم قالوا: إن هنا بنتًا يتيمة كانت لرجل منا فيه خير وتُوفِّي عنها، هل لك أن تتزوجها؟ قلتُ: لا بأس. قال: فتزوجتُها، ودخلتُ بها فوجدتُ العقد ذلك بعينه بعنقها. قلتُ: ما قصة هذا العقد؟ فأخبرتِ الخبر، وذكرَتْ أن أباها أضاعه في مكة ذات يوم، فوجده رجل فسلّمه إليه، فكان أبوها يدعو في سجوده، أن يرزق ابنته زوجًا كذاك الرجل.

قال: فأنا الرجل.

فدخل عليه العقد بالحلال، لأنه ترك شيئًا لله، فعوَّضه الله خيرًا منه. «إن الله طيِّبٌ لا يقبل إلا طيِّبًا»(١).

هذا، وضياعُ الأمانة، دليلٌ على قُرب قيام الساعة!

فعن أبي هريرة ﷺ قال: «بينما النبيُّ ﷺ يُحدِّث القوم، جاء أعرابيّ، فقال: متى السّاعة؟

فمضى رسولُ الله ﷺ يُحدِّث. فقال بعضُ القوم: سمع ما قال، فكَرِه ما قال، وقال

(١) «لا تحزن» للشيخ عائض القرني (٤٣٠، ٤٣١).

بعضُهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضى حديثه قال:

« **أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عن السَّاعة؟** » .

قال: ها أنا يا رسول الله.

قال: « **فإذا ضُيِّعتِ الأمانةُ فانْتَظر السّاعة** » .

قال: كيف إضاعتها؟

قال: « **إذا وُسِّد الأَمْرُ إلى غَيْر أَهْلِه فانْتَظِر السَّاعة** »[1].

فيا أخا الإسلام:

« **أَدِّ الأمانة إلى مَنِ ائْتَمَنك، ولا تَخُنْ مَنْ خَانك** » .

وفّقني الله - تعالى - وإيّاك.

۞۞۞۞۞

---

(١) رواه البخاري (٥٩).

١١٨- العدل

اعلم - أخي - أن العدَل ميزانُ الله الذي وَضَعه للْخَلْق، ونَصَبه لِلْحَق فلا تُخَالِفْه في ميزانه، ولا تُعَارِضْه في سُلْطَانه، واسْتَعِنْ عَلى الْعَدْل بِخُلَّتَيْن:

قِلَّة الطَّمَعِ، وكَثْرَةِ الْوَرَعَ.

والحديث عن هذا الْخُلُقِ الكريم يدور حول **ثلاثة أمور**:

الأول: تعريف العدل.

والثاني: فضائله والحثّ عليه.

والثالث: أقسامه.

ونسأل الله - تعالى - العدل في الرِّضا والغضب.

أوّلاً: تعريفُ الْعَدْل:

العدل: هو فَصْلُ الحكومة على ما في كتاب الله - تعالى - وسُنَّة رسوله ﷺ لا الْحُكم بالرّأي الْمَجرّد.

وقال **الجرجانيّ**: «العدل: الأَمْر المتوسط بين الإفراط والتفريط والعدالةُ في الشّريعة: عبارة عن الاسْتقامة على طريق الْحَقّ بالاجْتِناب مِمّا هو محظورٌ دينًا»ا.هــ.

ثانيًا: فضائل العدل والحث عليه:

ورد في فضائل العدل والأَمْر به والْحَثّ عليه آيات وأحاديث كثيرة:

فمن الآيات:

(١) قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

(٢) وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

(٣) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

ومن الأحاديث:

(١) عن أنس، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إذا حَكَمْتُم فاعْدِلوا، وإذا قَتَلْتُم فأَحْسِنوا، فإنّ الله ﷻ مُحْسِن يُحبُّ المحسنين**»[(١)].

(٢) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إن المقسطين عند الله على منابر من نُور عن يَمْين الرّحمن ﷻ وكِلْتَا يَدَيْه يمين، الذين يَعْدِلون في حُكْمِهم وأهْلِيهم ومَا وَلُوا**»[(٢)].

(٣) وعن عامر، قال: سمعتُ النُّعمان بن بشير - رضي الله عنهما - وهو على المنبر يقول:

أعطاني أبي عَطِيَّة، فقالت عَمْرَةُ بِنْتُ رواحة:

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط»، وانظر: «الصحيحة» (٤٦٩).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧).

لا أَرْضَى حتى يُشْهِدَ رسولَ الله ﷺ، فَأَتى رسولَ الله ﷺ فقال:

إنّي أعْطَيتُ ابْنِي مِنْ عَمْرة بنت رواحة عَطِيَّة، فأَمَرَتْنِي أن أُشْهِدك يا رسولَ الله. قال:

«أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِك مِثْلَ هذا؟».

قال: لا.

قال: **«فاتّقُوا الله واعْدِلوا بَيْن أَوْلادِكم»**.

قال: **فَرَجَع فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ»**[1].

(٤) وعن أبي سعيد، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إن أحبَّ النّاسِ إلى الله يومَ القيامة، وأَدْناهم منه مَجْلِسًا: إمامٌ عادل، وأبغضَ النّاسِ إلى الله، وأَبْعَدَهم مِنْهُ مَجْلِسًا: إمامٌ جائر»[2].

(٥) وعن أنس، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«ثلاث كَفّاراتٌ، وثلاث دَرَجَاتٌ، وثلاثٌ مُنْجِياتٌ، وثلاثٌ مُهْلِكاتٌ،

فأمّا الكَفّارتُ: فإسْبَاغُ الوضوء في السَّبَرَات[3]**، وانْتِظَارُ الصَّلَوات بَعْد الصلوات، ونَقْلُ الأَقْدام إلى الجَمَاعات.**

وأمّا الدَّرَجَاتُ: فإطعامُ الطّعام، وإفْشَاءُ السّلام، والصّلاة باللّيل والنّاسُ نيام.

وأمّا الْمُنْجِياتُ: فالْعَدْلُ في الغَضَبِ والرِّضا، والقَصْدُ في الْفَقْرِ والغِنى، وَخَشْيَةُ الله تعالى في السِّرِّ والعَلانية.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧).

(٢) حسن: رواه الترمذي (١٣٢٩)، وحسّنه السيوطي.

(٣) السّبرات: جمع سبرة وهي شدّة البرد.

فأمّا المهلكاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ، وإعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِه»[1].

والأحاديث في هذا الموضوع كثيرة.

ثالثاً: أقسام العدل:

قال الإمام **الماورديُّ** - رحمه الله تعالى - :

« إذا كان العدلُ من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظام لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، وجب أن يُبدأ بعدل الإنسان مع نفسه، ثم بعدله في غيره.

فأمّا عَدْلُه في نفسه: فيكون بِحَمْلها على المصالح وكفِّها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأَمْرَيْن: من تجاوز أو تَقْصير، فإنّ التجاوزَ فيها جَوْرٌ، والتقصيرَ فيها ظُلْم، ومن ظَلَم نَفْسَه فهو لغيره أَظْلَمُ، ومَنْ جَارَ عليها فهو على غيره أَجْوَرَ.

فأمّا عَدْلُه مع غَيْره: فقد تنقسم حالُ الإنسان مع غيره على **ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: عَدْل الإنسان فيمن دونه:

كالسلطان في رعيّته، والرئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكونُ **بأربعة أشياء:**

باتِّباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلّط بالقوّة، وابتغاء الحقّ في السيرة، فإنّ اتباع الميسور أدْوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التسلُّط أعطف على المحبّة، وابتغاء الحقّ أبعثُ على النُّصْرة.

القِسْمُ الثاني: عَدْلُ الإنسان مع مَنْ فَوْقَه:

كالرّعية مع سلطانها، والصّحابة مع رئيسها، ويكونُ ذلك **بثلاثة أشياء:**

بإخلاص الطاعة، وبذل النُّصرة، وصدق الولاء:

فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل.

وبذل النُّصرة أدفع لِلْوَهْن.

---

(١) حسن: رواه البزار والطبراني في « الأوسط »، وانظر: « صحيح الجامع » (٣٠٤).

وصدق الولاء أنفى لسوء الظّن.

وهذه أمورٌ إن لم تجتمع في الْمَرْ تَسَلَّط عليه مَنْ كان يَدْفَعُ عَنْه واضْطُرَّ إلى اتِّقَاء مَنْ كَان يَقِيه ... وفي استمرار هذا حَلُّ نِظَامٍ شَامِلٍ، وفسادُ صَلاحٍ شامل.

القسم الثالث: عدل الإنسان مع أكْفَائه:

ويكون **بثلاثة أشياء:**

بترك الاستطالة، ومجانبة الإدلال، وكفّ الأذى؛ لأن ترك الاستطالة آلَفُ، ومجانَبَةَ الإدْلال أعطف، وكَفَّ الأَذَى أنصفُ، وهذه أمورٌ إن لم تَخْلُصْ في الأكْفَاء أَسْرَعَ فِيهم تَقَاطُعُ الأعداء، فَفَسَدوا وأفْسَدوا.

وقد يتعلّق بهذه الطبقات أمورٌ خاصّة يكون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسَّرف، لأن العدل مأخوذٌ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروجٌ عن العدل، وإذا كان الأمر كذلك فإن كُلّ ما خرج عن الأَوْلَى إلى ما ليس بأَوْلى خروج عن العدل إلى ما ليس بالعدل.

ولست تجد فسادًا إلا وسببُ نتيجته الخروج فيه عن حال العدل، إلى ما ليس بعدلٍ من حالتي الزيادة والنقصان، وإذًا لا شيء أنفعُ من العدل كما أنه لا شيءَ أضرُّ مما ليس بعدل» ا.هـ[1].

وبالجملة: فبالعدل قامت السموات والأرض.

هذا، وأختم حديثي - عن هذا الْخُلُق العظيم - بذكر مواقف تبيّن أهمية العدل في حياة الأنبياء والصالحين.

الموقف الأول:

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

كان رسولُ الله ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ[2]، ويقول:

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (١٤١- ١٤٤) بتصرّف.

(٢) شمل عدلُ النبيّ ﷺ كل مناحي الحياة، وتقصد عائشة - رضي الله عنها - هنا - عدله ﷺ مع زوجاته.

«اللهم هذا قَسْمِي فيما أَمْلِك، فلا تَلُمْني فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِك» يعني القلب[1].

الموقف الثاني:

عن حَفْصِ بْنِ عُمَر بن أبي الزُّبَيْر، قال:

كتب عمرُ بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم:

«أن أَدِقَّ قَلَمَك، وقاربْ بين أَسْطُرِكَ، فإنِّي أَكْرَهُ أَنْ أُخْرِجَ مِنَ أَموالِ المسلمين ما لا يَنْتَفِعُون به!!»[2].

فبأي قلم نصف هذا العدل أيها الناس؟

إنها علامات التقوى، وشارات الإيمان، لاحت دلائِلُها، وَفَاحَ شَذَاها.

فأين هي اليوم؟

يا مُسْلِمًا تَدّعي الإسْلامَ مَجّانًا هَلاَّ أَقَمْتَ على دَعْوَاك بُرْهَانا

الموقف الثالث:

لمّا حبس «الرشيدُ» الإمام موسى الكاظم - رحمه الله - بعث موسى الكاظم إلى الرشيد برسالة من الحبس يقول:

«إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يومٌ من الرَّخاء حتى نُفْضي جميعًا إلى يومٍ ليس له انقضاء يَخْسَر فيه الْمُبْطِلون»[3].

الموقف الرابع:

كان معاذ بن جبل ﷺ إذا جلس للقضاء، قال:

«اللهُ حَكَم عَدْل، هَلَك الْمُرْتَابون».

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢١٣٤)، وغيره.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٣٢/٥).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢٧٣/٦).

أخي الكريم:

وبعد أن بان لك فضلُ العدل ووجوبه، فاجعله شعارك، واحذر من الظّلم، فإن الظّلم ظلمات يوم القيامة.

وإليك هذا الحديث التي يجعل الولدان شيبًا.

عن أبي هريرة ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

« ثلاثةٌ لا تُرَدّ دَعْوَتُهم: الإمامُ العادل، والصّائمُ حين يُفْطِر، ودعوةُ المظلوم يَرْفَعُها اللّهُ دُون الغَمَامِ يَوْمَ القيامة، وتُفْتَحُ لها أَبْوَابُ السّماء، ويقول: بِعزّتِي لأنْصرَنّك ولو بَعْد حين »[1].

« اللّهم اقْسِم لنا من خشيتك ما يَحُول بَيْنَنا وبَيْن مَعَاصِيك ».



(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٩٨)، وقال الشيخ أحمد شاكر: صحيح.

١١٩- الزواج

اعلم: أن الزّواج من سُنن الْهُدى، ولا يَمْنع منه إلا عَجْز أَوْ فُجور!

ولمكانته، فالحديث عنه يدور حول الأمور الآتية:

الأول: تعريف الزواج.

والثاني: حكمه.

والثالث: الترغيب فيه.

والرابع: فوائده.

والخامس: شروط صحته.

والسادس: حقوق الأسرة في الإسلام.

والله الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

أوّلاً، تعريف الزواج:

الزواج في «**اللّغة**»: اقتران أحد الشيئين بالآخر، وازدواجهما، أي صارا زوجًا بعد أن كان كل واحد منهما فردًا.

أما المعنى الشرعي: فَيُطلق على العقد الذي يُعْطي لِكُلّ واحد من الزّوجين حَقّ الاستمتاع بالآخر على الوجه المشروع.

ثانيًا، حكم الزواج:

قال الإمام **ابن حزم** - رحمه الله - :

«الزّواج فرضٌ لازم للمسلم القادر، فمن تركه أو تثاقل عنه فهو آثمٌ إثم من ترك فريضة من فرائض الإسلام» ا.هـ.

ثالثاً: الترغيب في الزّواج:

ورد في الترغيب في الزواج آيات وأحاديث وآثار، منها:

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[الرعد: ٣٨].

قال الإمام **القرطبيّ** - رحمه الله - :

« هذه الآية تدلّ على الترغيب في النكاح والحضّ عليه، وتنهى عن التبتُّل، وهو ترك النكاح، وهذه سُنّة سيّد المرسلين كما نصت عليه هذه الآية » ا.هـ[1].

(٢) وقال ﷺ : « ... **وأتزوّج النساء، فمن رَغِب عَنْ سُنَّتي فليس مني**[2] »[3].

(٣) وقال ابن مسعود ﷺ :

« لَوْ لَمْ يَبْقَ من أَجَلي إلا عشرةُ أيَّام، وأعلم أنِّي أموتُ آخرِها، وَلِي طَوْلُ النّكاح فيهنّ، لتزوجتُ مَخَافَة الفِتْنَة ».

رابعًا: فوائد النكاح:

للنكاح فوائد عديدة، منها:

(١) الولد:

وهو الأصل، وله وضع النكاح، والمقصود منه: إبقاء النوع الإنساني والإسلامي.

قال **عمر**: « إني لأُكْرِه نفسي على الجِماع لعلّ الله أن يرزقني نَسَمَةً تُسَبِّح الله ﷻ وتوحِّده ».

(٢) التحصُّن من الشيطان، وكَسْر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغضّ البصر، وحفظ الفَرْج.

---

(١) « تفسير القرطبي » (٩/٢٨٦).

(٢) معنى: « **فليس مني** »: يعني: فليس على سُنتي وطريقتي وهَدْيي.

(٣) جزء من حديث طويل: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة.

(٤) تفريغ القلب عن تدبير المنزل:

قال **أبو سليمان الداراني** - رحمه الله - :

الزوجة الصّالحة ليست من الدنيا فإنها تفرّغك للآخرة، وإنما تفريغها بتدبير المنزل، وبقضاء الشهوة جميعًا.

(٥) مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصّبر على أخلاقهن، والسّعي في إصلاحهن، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربية الأولاد.

خامسًا: شروط صحّة الزواج:

اعلم: أن أركان وشروط «العقد» لينعقد ويفيد الْحِلّ **خمسة**:

الأوّل: إذن الْوَلِيّ:

قال ﷺ: «**أَيُّما امْرأة لم يُنكِحْها الوليُّ، فنكاحُها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فإن أصابها، فَلها مَهْرُها بما أصاب منها، فإن اشتجروا، فالسُّلطان وليّ من لا وَلِيّ له**»[1].

الثّاني: رضا المرأة:

إن كانت ثيّبًا بالغًا أو كانت بكرًا بالغًا:

فعن خنساء بنت خزام الأنصارية: أن أباها زوّجها وهي ثيّبٌ، فكرهت ذلك، فأتت رسولَ الله ﷺ فردّ نكاحها[2].

وعن ابن عباس: أن جارية بِكْرًا: أتت النبيّ ﷺ فذكرت له أن أباها زوّجها وهي

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، وغيره.

(٢) رواه البخاري وغيره.

كارهة فَخيّرها النبيُّ ﷺ [(١)].

الثالث: حضور شاهدين ظاهري العدالة:

فإن كانا مستورين حكما بالانعقاد للحاجة.

قال ﷺ: «**لا نكاح إلا بولي، وشاهدي عَدْل**»[(٢)].

الرابع: إيجاب وقبول متصل به بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص بكل لسان من شخصين مكلّفين ليس فيهما امرأة، سواء كان هو الزوج أو الوليّ أو كليهما.

ولا يتحقق العقد وتترتب عليه الآثار الزوجية، إلا إذا توافرت فيه الشروط الآتية:

(١) تمييز المتعاقدين: فإن كان أحدُهما مجنونًا أو صغيرًا لا يُميز فإن الزواج لا ينعقد.

(٢) اتحاد مجلس القبول والإيجاب: بمعنى ألا يفصل بين الإيجاب والقبول بكلام أجنبي.

(٣) ألا يخالف القبولُ الإيجاب: إلا إذا كانت المخالفةُ إلى ما هو أحسن للمُوجب. فإذا قال الموجبُ: زوجتُك ابنتي فلانة، على مهر قدرهُ مائة جنيه، فقال القابل: قبلت زواجها على مائتين انعقد الزواج.

(٤) سماعُ كلّ من المتعاقدين بعضهما من بعض ما يُفْهم أن المقصود من الكلام هو إنشاء عقد الزواج.

الخامس: المهر:

فلو اتفق الزوجان على إسقاط المهر فهو نكاح فاسد[(٣)].

---

(١) صحيح: «صحيح سنن أبي داود» (١٨٤٥).

(٢) صحيح: «صحيح سنن أبي داود» (١٨٣٥). وفيه دليل على أن ما يُسمّى اليوم بالزّواج العرفي، والذي يتم بغير إذن ولي الأمر: لا يصح، وهو «زنا»، وهو زواج «جاهلي» وليس عرفيًا، لأن الزواج العرفي زواج استكمل كل الشروط ما عدا التوثيق.

(٣) هذا مذهب المالكية، انظر: «بداية المجتهد» (٢/٢٥)، ومال إليه ابن تيمية «مجموع الفتاوى» (٢٩/٣٤٤).

سادساً: حقوق الأسرة في الإسلام:

ويمكننا تقسيم هذه الحقوق إلى **ثلاثة أقسام:**

الأول: حق الزوجة على زوجها:

وضع الإسلامُ حقوقًا للزوجة، تكريمًا لها، ورفعًا لشأنها، منها:

الحق الأول: المهر:

قال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحۡلَةً ۚ ﴾ [النساء: ٤] أي: وآتوا النساء مهورهن عطاء مفروضًا لا يُقَابِله عِوَض.

وهذا المهر لا يسقط بموت الزوج، بل يخرج من تركته قبل تقسيمها إلى الزوجة، هذا إذا لم يعط للمرأة كله في حياة زوجها.

الحق الثاني: النفقة:

فعن معاوية بن حَيْدَة، قال:

قلتُ يا رسول الله، ما حقُّ زوجة أحدنا عليه؟

قال: «**أن تُطعمَها إذا طَعِمت، وتكسوها إذا اكْتَسَيْت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقَبِّح، ولا تَهْجُرْ إلا في البيت**»(١).

وهذه النفقة مقابل الطاعة.

الحق الثالث: حُسْنُ الْخُلُق معها:

قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٩].

الحق الرابع: مداعبتها وملاعبتها:

فقد ثبت أن النبيَّ ﷺ كان يُسابق عائشة(٢).

---

(١) حسن صحيح: «صحيح سنن أبي داود» (١٨٧٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد.

ولا يخفى: أن ذلك يُرطّب الحياة الزوجية، ويقوّي أواصر المحبّة.

الحق الخامس: صيانتها:

ويكون ذلك:

- بالغيرة على سُمعتها.
- بالانفاق عليها.
- بإتيانها - جماعها - مع مراعاة الآداب الشرعية الواردة في ذلك.

الحق السادس: تعليمها أمور دينها:

لقوله تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦].

الحق السابع: اتباع الأدب الإسلامي حال نشوزها:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴾ [النساء: ٣٤].

الحق الثامن: التزيّن لها:

قال ابن عباس: «إني لأتزيّن لامرأتي كما تتزيّن لي».

الحق التاسع: العدل:

وخصوصًا إذا كانت لها ضرائر.

الحق العاشر: النهي عن ظلمها:

سواء وهي في عصمة زوجها أو حال طلاقها.

القسم الثاني: حق الزوج على زوجته:

الحق الأول: طاعته بالمعروف:

فقد سُئل النبيّ ﷺ عن خير النساء؟ فقال:

«التي تطيع إذا أَمَر، وَتسرّ إذا نَظَر، وتحفظه في نفسِها ومَالَه».

وهذه الطاعة مُقيدّة بطاعة الله ورسوله، فإن أمرها بمخالفة شرعية فلا سمع ولا طاعة[١].

الحق الثاني: التزيّن له:

انظر الحديث السابق.

ولا يخفى أن التزيّن: يُعمّق المحبة، ويحصّن الفرج، ويعين على الاستقامة.

الحق الثالث: صيانة نفسها ومال زوجها:

انظر الحديث السابق.

فلا يحق للمرأة أن تنفق من بيت زوجها إلا بإذنه، ويقينها برضاه.

كما يجب عليها أن تصون نفسها عن كل ما يُخدش كرامة زوجها من أقوال أو أفعال.

الحق الرابع: تسليم نفسها له متى طلبها للاستمتاع بها:

قال ﷺ:

«إذا دعا الرجُل امْرَأته إلى فِراشه فلم تأته[٢] فبات غضبان عليها لعنتها الملائكةُ حتى تُصْبح»[٣].

الحق الخامس: استئذانه في صوم التطوع:

قال ﷺ:

«لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شَاهِد إلا بإذنه، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه»[٤].

الحق السادس: لا تأذن في بيته إلا بإذنه:

انظر الحديث السابق.

---

(١) قال ﷺ: «**لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**» رواه البخاري ومسلم.

(٢) يعني: بغير عذر شرعي: كصيام فريضة، أو حيض أو نفاس، أو مرض شديد «مانع».

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٤) رواه البخاري ومسلم. ومعنى «**وزوجها شاهد**» أي: مقيم في البلد.

ولا يُفهم من هذا: جواز دخول الأجانب حال غياب زوجها!! فقد وردت أحاديث تنهى عن ذلك.

الحق السابع: القيام على خدمته، ومراعاة شئونه:

فإن ذلك من حُسْن تبعّلِها لزوجها.

وفي الحديث: «**والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها**»(١).

صحّ عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت:

«كنتُ أَخْدُم الزُّبَيْر(٢) خِدْمَة البيت كُلّه، وكان له فَرَسٌ، وكنتُ أَسُوسه، وكنتُ أَحْتَشُّ له وأَقومُ عليه»(٣).

الحق الثامن: احترامه، وكَفّ اللّسان عنه:

قال ﷺ:

«**لا تُؤْذي امْرأةٌ زَوْجَها في الدُّنيا إلا قالت زَوْجَتُهُ من الْحُور العين: لا تُؤْذيه قَاتَلَكِ اللّهُ، فإنما هو عندك دَخِيل(٤)، يوشك أن يُفَارِقكِ إلينا**»(٥).

الحق التاسع: الاعتراف بفضله:

فعن ابن عمرو، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**لا يَنْظُرُ اللّهُ تبارك وتعالى إلى امرأةٍ لا تَشْكُر لزوجِها وهي لا تَسْتَغْنَى عنه**»(٦).

الحق العاشر: التزيّن له:

وقد تقدم في حق الزوجة الحديث عن ذلك.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) هو: الزبير بن العوام رضي الله عنه.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد.

(٤) **دخيل**: ضيف ونزيل.

(٥) **صحيح**: «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٣٧).

(٦) **صحيح**: رواه النسائي والبزار، وانظر: «الصحيحة» (٢٨٩).

الحق الحادي عشر: حُسن معاملة أهله:

وإن أساءوا إليك، لأن في ذلك إعانة على الْبِرِّ، وثمرات البرّ وبركاته تَطال بيتك وأوْلادك، لأن البرَّ لا يَبْلَى.

الحق الثاني عشر: إكرام ضيوفه:

يعني - في حال حضوره - أو في وجود محارم - ولا يخفى أن ذلك، يوطّد العلاقة بين الزوجين، ويُعطي انطباعًا طيّبًا وسيرة حسنة للبيت بأكمله، كما أنه يدخل السّرور على الزّوج.

الحق الثالث عشر: الوفاء له:

والوفاء: حلية المؤمنين، وتاج المتقين... وهو بين الزوجين سياج متين، لا يَبْلى بتعاقب الأزمان، لأن حُسْن العهد من الإيمان.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقد كان النبيُّ ﷺ يولي صديقات خديجة - رضي الله عنها - اهتمامًا خاصًّا، فإذا سُئل عن ذلك قال:

«**إنّها كانت تأتينا أيّامَ خَدِيجة، وإن حُسْن الْعَهْد من الإيمان**». أو كما قال ﷺ.

القسم الثالث: حق الأولاد:

ولأن الهدف من إنجاب الأولاد - في الإسلام - بقاء النوع الإسلامي، ونيل ثمرات حسن تربيتهم في الدارين: وضع الإسلام **آدابًا** على الوالدين لأولادهم، ابتغاء الوصول إلى هذا الهدف المنشود.

من هذه **الآداب:**

الأدب الأوّل: اختيار الأم الصالحة، والوالد الصّالح:

والأدلة على ذلك مشهورة ومنشورة.

الأدب الثاني: الاستعاذة بالله من الشيطان قبل إتْيَان الزَّوجة:

قال ﷺ:

«**أما لو إن أحدهم يقول حين يأتي أهله: بسم الله، اللهم جَنّبنا الشيطان، وَجَنّب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدّر بينهما في ذلك، أو قضى وَلَدٌ. لم يَضرّ شيطانٌ أبدًا[1]**»[2].

الأدب الثالث: التأذين له في أُذُنه اليمنى عقب ولادته:

عن أبي رافع رضي الله عنه قال:

رأيتُ رسول الله ﷺ «**أذّن في أُذن الحسن بن علي حين ولدته فاطمة**»[3].

الأدب الرابع: استحباب تحنيكه:

والتحنيك: وَضْع شيء «حُلْو» في فم المولود، والأفضل أن يكون تمرًا.

الأدب الخامس: استِحباب حَلْق رأسه والتصدّق بوزن شَعْره فضّة:

فعن أنس: «أن رسول الله ﷺ أَمَر برأسِ الحسن والحسين يوم سابعهما، فحلقا، وتصدّق بوزنه فَضّة»[4].

الأدب السادس: تسمية المولود:

فيجب على الوالد اختيار الاسم الحسن لولده.

قال ﷺ: «**أحبّ الأسماء إلى الله: عَبْد الله، وعبد الرّحمن**»[5].

ومن أحب الأسماء – أيضًا – : التسمّي بأسماء الأنبياء والصلحاء.

ومن أبغض الأسماء:

أ- التسمّي بأسماء الكفّار.

ب- التسمّي بأسماءٍ مُخنّثة.

---

(١) يعني: لم يَفْتِنْه في دينه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) **حسن**: «صحيح الترمذي» (٢/٩٣).

(٤) **صحيح**: رواه الترمذي، وغيره.

(٥) رواه مسلم.

جـ- التسمّي بـ «ملك الملوك»، و«سلطان السلاطين»، و«شاهنشاه».

قال ﷺ:

«أغيظُ رَجل عند الله يَوْمَ القيامة وأخبَثه: رَجُلٌ كان يُسمّى مَلِكَ الأَمْلاك؛ لا مَلِكَ إلا الله»[(١)].

الأدب السابع: استحباب العقيقة:

والعقيقة: ذبحُ شاةٍ عن المولود يوم السّابع من ولادته، وأجمع جمهور العلماء على أنها سُنّة مُستحبّة.

قال ﷺ: **«كُل غُلامٍ رهينةٌ بعقيقته، تُذْبح عنه يوم سابعه، ويُسمَّى فيه، وَيُحْلَق رأسُه»**[(٢)].

قال الإمام **ابن القيم** - رحمه الله -:

«والظاهر أن التقيّد باليوم السابع إنما هو على وجه الاستحباب، وإلا فلو ذُبح عنه في اليوم الرابع أو الثامن أو العاشر أو ما بعده، أجزأت عنه»ا.هـ[(٣)].

والسُّنّة القولية: عن الذّكر شاتان، وعن الأُنثى شاة.

والسُّنّة الفعلية: عن الذّكر شاة، وعن الأنثى شاة.

فعن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ عق عن الحسن والحسين كبشًا كبشًا»[(٤)].

قلت: وهذا من باب التخفيف، لا من باب النَّسْخ.

الأدب الثامن: ختانه:

وهو واجب على الذكور، مكرمة للنساء.

فقد قال رسولُ الله ﷺ للخافضة:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح: رواه الترمذي.

(٣) «تحفة الودود» (٦٣).

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٢٨٤١).

«**أَشمِّي ولا تَنهكي، فإنه أبْهى للوجه، وأحَظْى لها عند الزّوج**»[١].

والذي يتولّى «الختان» أهلُ التخصّص والخبرة، حتى لا يجور.

الأدب التاسع: تعليمه أصول الإيمان والقرآن:

فعن سَمُرة، قال:

«كُنّا أطفالاً على عهد رسول الله ﷺ تعلّمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلّمنا القرآن فازددنا به إيمانًا».

الأدب العاشر: تعليمه الصلاة، وأدب النوم:

قال ﷺ:

«**علّموا أوْلادكم الصّلاة إذا بَلَغوا سَبْعًا، واضْربوهم عليها إذا بلغوا عَشْرًا، وفرِّقوا بَيْنهم في المضاجع**»[٢].

الأدب الحادي عشر: تعليمه السُنّة:

فقد كان النبيُّ ﷺ يقول لعمر بن سلمة حين كانت يَدُه تطيش في الصّحفة:

«**يا غلام. سَمِّ الله، وَكُلْ بِيَمِينك، وَكُلْ مِمّا يليك**».

الأدب الثاني عشر: الإنفاق عليهم:

مع مراعاة القصد والاعتدال

وانظر في ذلك صفة «العدل».

وبهذا، نأتي إلى ختام حديثنا عن الزواج، وعلى الله قصد السبيل.

الأدب الثالث عشر: العدل بينهم.

۞۞۞۞۞

---

(١) صحيح: أخرجه الخطيب في «التاريخ»، وانظر: «الصحيحة» (٧٢٢).

(٢) حسن: رواه أبو داود.

١٢٠- الحجاب

اعلم: أن الحجاب ضرورة بشرية، وفريضة شرعية، به تُصَان الأعراض، ويُحْفظ النَّسْل، وتُرْفع الرأس.

وهو: يُرضي الرّب، وَيُبيِّض الوجه، وتتميّز المسلمة من غيرها.

والحديث عنه يدور حول الأمور التالية:

الأول: تعريف الحجاب.

والثاني: الأمر به.

والثالث: فضائله.

والرابع: شروطه.

سَتَرَ اللّهُ عَوْراتنا، وآمَنَ رَوْعَاتنا.

أوّلاً: تعريف الحجاب:

الحجاب بمعناه العام:

المنع والسَّتر، فرض على كل مسلم من رجل أو امرأة، الرجل مع الرجل، والمرأة مع المرأة، وأحدهما مع الآخر، كُلٌّ بما يناسب فطرته، وجبِلَّته، ووظائفه الحياتية التي شُرِّعت له، فالفوارق الحجابية بين الجنسين حسب الفوارق الخَلْقية، والقدرات والوظائف المشروعة لكل منهما.

فواجب على الرجال ستر عوارتهم - من السّرة إلى الرّكبة - عن الرجال والنساء، إلا عن الزوجات أو ما ملكت يمينُ الرجل.

ونهى الشرعُ عن نوم الصبيان في المضاجع مجتمعين، وأمر بالتفريق بينهم.

وفي الصلاة نهى الرجل أن يُصلّي وليس على عاتقه شيء.

ولا يطوف بالبيت عريان.

وفي الإحرام، معلومةٌ الفوارق بين الجنسين.

ونهى النبيُّ ﷺ عن المشي عُراة.

وأمر اللّهُ المؤمنين بغضّ أبصارهم عن العورات.

وهكذا... من وسائل التزكية والتطهير من الذّنوب والأرجاس(١).

أما الحِجاب بمعناه الخاصّ:

فيجب «شرعًا» على جميع نساء المؤمنين، التزام الحجاب الشرعي السّاتر لجميع البدن - إلا ما استُثني - عن كل رجلٍ أجنبي.

ثانيًا: الأمر بالحجاب:

ورَدَ الأمْرُ بالحجاب في الكتاب والسُّنة:

(١) قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ ﴾ على أقوال:

قال الإمام **الطبري**: «وأوْلى الأقوال في ذلك بالصّواب قول من قال: عنى بذلك

---

(١) «حراسة الفضيلة» د. بكر بن عبد الله أبو زيد (٢٦ - ٢٨) باختصار.

الوجه والكفّين[(١)]...... »ا.هـ.

(٢) وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

(٣) وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

« كانت نساءُ المؤمنات يَشْهَدْن مع النبيّ ﷺ صلاةَ الفَجْر مُتلفّعات بمروطهنّ، ثم ينقلبْنّ إلى بيوتهنّ حين يَقْضِين الصّلاة لا يُعْرفن من الغَلَس »[(٢)].

قال الشيخ **الألباني** - رحمه الله - :

« ووجه الاستدلال بهذه الرواية - على جواز كشف الوجه - : هو قولها: « لا يُعْرفن من الغَلَس »، فإن مفهومه أنه لولا الغلس لعُرفن، وإنّما يُعرفن عادةً من وجوههن وهي مكشوفة، فثبت المطلوب »ا.هـ[(٣)].

(٤) وعن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها وعن أبيها - قالت:

« كُنّا نغطّي وجوهنا من الرجال، وكنا نمتشط قبل ذلك في الإحرام »[(٤)].

فدلّت هذه الرواية: على جواز تغطية الوجه لقول أسماء: « كُنّا » ولو قالت: « أُمِرْنا » لكان الأمر للوجوب.

ثالثاً: فضائل الحجاب:

اعلم: أن من فضائل الحجاب:

١- حفظ العِرْض.

---

(١) لا يعني هذا، أن القول بتغطية الوجه بدعة كما يدّعي البعض! بل هو مشروع كما سيأتي.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) « مختصر جلباب المرأة المسلمة » للألباني (٣٣). اختصره د. حسام الدين عفانة.

(٤) **صحيح**: رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: إنما هو على شرط مسلم وحده.

٢- طهارة القلوب.

٣- مكارم الأخلاق: فالحجاب داعية إلى حماية الخُلُق، وإبقاء ثوب الحياء.

٤- علامة على العفّة والفضيلة: يدلّ على ذلك: قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ .

٥- قطع الطريق على الفسّاق والمجرمين: فكما أن المتبرّجة دعوة صريحة للزّنا، فالمتحجّبة دعوة إلى صيانة العرض، واحترام الشرف.

٦- صيانة النّسل، ووقاية المجتمع من الانحراف: فالفسوق سبب الطواعين المتصلة، كما أنه سبب إذلال الأمم والشعوب.

رابعًا، شروط الحجاب،

للحجاب **ثمانية شروط**:

الأول: استيعاب جميع البدن إلا ما استثنى:

وقد تقدّم بيان ذلك قريبًا.

الشرط الثاني: أن لا يكون زينة في نفسه:

لقوله تعالى:

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ فإنه بعمومه يشمل الثياب الظاهرة إذا كانت مُزَيّنة تلفت أنظار الرجال إليها.

الشرط الثالث: أن يكون صفيقًا لا يشف:

لأن السّتر لا يتحقق إلا به، وأمّا الشّفاف فإنه يزيد المرأة فتنة وزينة.

قال ﷺ:

«سيكون في آخر أُمَّتي نساءٌ كاسِياتٌ عاريات، على رؤوسهن كأَسْنِمَةِ الْبُخْت،

الْعَنُوهنّ فإنّهنّ مَلْعُونات»[١].

الشرط الرابع: أن يكون فضفاضًا غير ضيّق:

فالثوب الضّيق، أشدّ أنواع التبرّج، وأعلى درجات الفتنة، فهو: دعوة للفتنة، وإثارة الغرائز الكامنة.

قال أُسامةُ بن زيد:

«كَسَاني رسولُ الله ﷺ قبطية كثيفة مِمّا أهداها له دِحْية الكَلْبيّ، فكسوتُها امرأتي، فقال:

«**ما لك لَمْ تَلْبس القِبطية؟**».

قلتُ: كسوتها امرأتي.

فقال: «**مُرْها فَلْتَجْعل تحتها غلالة[٢]، فإنّي أخاف أن تَصِف حَجْم عِظَامِها**»[٣].

الشرط الخامس: أن لا يكون مُعَطّرًا:

لورود النّهي الصريح عن ذلك:

فعن أبي موسى، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**أيما امرأة استعطرت فَمَرّت على قومٍ ليجدوا مِنْ رِيحِها، فهي زَانِية[٤]**»[٥].

الشرط السادس: أن لا يشبه لباس الرَجل:

لورود النّهي - أيضًا - عن ذلك:

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني في «الصغير».

(٢) **الغلالة**: شعار يلبس تحت الثوب، ليمنع بها وصف بدنها.

(٣) **حسن**: رواه أحمد، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة».

(٤) الزّنا - هنا - كزنا العينين، وزنا السّمع، لا الزنا الذي يُوجِب الْحَدّ، أو هو دَعْوة للزّنا.

(٥) **حسن**: رواه النسائي، وأبو داود، والترمذي، وغيرهم.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - :

«**لَعَنَ رسولُ الله ﷺ المتشبِّهين من الرِّجال بالنساء، والمتشبِّهات من النساء بالرّجال**»(١).

الشرط السابع: أن لا يُشْبه ثَوْبَ الكافرات:

لورود النّهي - أيضًا- عن ذلك في الكتاب والسُّنّة:

- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦].

قال الإمام **ابن كثير** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية:

«ولهذا نهى اللّهُ المؤمنين أن يتشبّهوا بهم في شيء من الأمور الأصلية والفرعية» ا.هـ(٢).

- وقال ﷺ: «**من تشبّه بقوم فهو منهم**»(٣).

الشرط الثامن: أن لا يكون لباس شُهْرة:

ولباس الشّهرة: هو كلُّ ثوبٍ يُقصد به الاشتهار بين الناس، سواء كان الثوب نفيسًا يلبسه تفاخرًا بالدنيا وزينتها، أو خسيسًا يلبسه إظهارًا للزّهد والرّياء(٤).

قال ﷺ: «**مَنْ لَبِس ثَوْب شُهْرة في الدنيا أَلْبَسَه اللّهُ ثَوْبَ مَذَلّة يَوْمَ القيامة، ثم ألْهب فيه نارًا**»(٥).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٣١٠).

(٣) حسن: رواه أحمد، وغيره.

(٤) أما إذا كان للجمال. فالله جميل يُحبّ الجمال.

(٥) حسن: رواه أبو داود وابن ماجه.

أخي الكريم:

وبعد أن بان لك أهمية «الحجاب» ومكانته من دين الإسلام، فادع إليه، وأمر أهلك به.

﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

۞۞۞۞۞

١٢١- إكرامُ الضَّيف

اعلم: أن «إكرام الضيف» علامة على الإيمان الحيّ، والحديث عنه يدور حول أمرين:

الأول: فضل تقديم الطعام إلى الزائرين وآدابه.

والثاني: فضيلة الضيافة وما يتعلّق بها.

وأسأل الله التوفيق للعمل بهذا الخلق الكريم.

أوّلاً: فضل تقديم الطعام إلى الزائرين وآدابه(١):

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير، قال الحسن: كل نفقة ينفقها الرجل يحاسب عليها إلا نفقته على إخوانه في الطعام فإن الله أكرم من أن يسأله عن ذلك، وقال علي ﷺ: لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إليّ من أن أعتق رقبة، وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يقول: من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه، وكانوا - رضي الله عنهم - يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون إلا عن ذواق.

وأما آدابه: فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام، **أما الدّخول**:

فليس من السُّنة أن يقصد قومًا متربّصًا لوقت طعامهم فيدخل عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة، وقد نُهي عنه، قال الله تعالى:

﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يعني: منتظرين حينه ونضجه، أما إذا كان جائعًا فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربّص به وقت أكله فلا بأس به وفيه إعانة لأخيه على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السلف.

فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقًا بصداقته عالمًا بفرحه إذا أكل من طعامه

(١) انظر: «موعظة المؤمنين» للقاسمي (١٣٠ - ١٣٢).

فله أن يأكل بغير إذنه، إذ المراد من الإذن الرضاء لا سيما في الأطعمة وأمرها على السعة فرب رجل يصرّح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه؛ ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه محبوب، وقد قال تعالى: ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ [النور: ٦١]، قال الحسن:

الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب، كان محمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن. فكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسرّ به ويقول: هكذا كنا. ومشى قوم إلى منزل سفيان الثوري فلم يجدوه ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون فدخل الثوري وجعل يقول: ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا.

وأما آداب التقديم: فترك التكلف أولاً وتقديم ما حضره، كان الفضيل يقول: إنما تقاطع الناس بالتكلف يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه، ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم. قال بعضهم: دخلنا على جابر ﷺ فقدم لنا خبزًا وخلاً، وقال: لولا أنّا نُهينا عن التكلف لتكلفت لكم.

الأدب الثاني: وهو للزائر أن لا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه فربما يشق على المزور إحضاره فإن خيّره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما عليه فإن علم أنه يسرّ باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكره له الاقتراح. قال بعضهم: الأكل على ثلاثة أنواع: مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالانبساط، ومع أبناء الدنيا بالأدب.

الأدب الثالث: أن يشهّي المزور أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن وفيه أجر وفضل جزيل.

الأدب الرابع: أن لا يقول له: هل أقدم لك طعامًا بل ينبغي أن يقدم إن كان فإن أكل وإلا فيرفعه.

مسائل:

الأولى: رفع الطعام على المائدة فيه تيسير للأكل فلا كراهة فيه بل هو مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعاظم. وما يقال إنه بدعة بجوابه أنه ليس كل ما أبدع منهيًا بل المنهيّ بدعة تضاد سنّةً ثابتةً وترفع أمرًا من الشرع مع بقاء علته وليس في المائدة إلا رفع الطعام

عن الأرض لتيسير الأكل ونحوه مما لا كراهة فيه.

الثانية: الأكل والشرب متكئًا مكروه مضر للمعدة ومثله الأكل مضطجعًا ومنبطحًا.

الثالثة: السنة البداءة بالطعام قبل الصلاة، وفي الحديث: «**إذا حضر العَشاء والعِشاء فابدءوا بالعَشاء**»(١).وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشائه، نعم إن كانت النفس لا تتوق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة»ا.هـ.

قلت: أو كان وقت الصّلاة الأخير سينتهي، وسيدخل وقتُ صلاة أخرى، فعليه أداء الصلاة الحاضرة قبل دخول الوقت الثاني عليه. هذا معنى كلام الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في «المجموع شرح المهذّب» ، وهو كلام جيّد.

ثانيًا: فضيلةُ الضّيافة وما يتعلّق بها:

قال ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»(٢).

وفي أثر: «**لا خير فيمن لا يضيف**»(٣).

وسُئل رسولُ الله ﷺ ما الإيمان؟ قال:

«**إطعام الطَّعام وبذل السلام**»(٤)، وقال ﷺ في الكفّارات والدرجات: «**إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام**»(٥).

أما الدعوة: فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق، قال ﷺ:

«**أكَل طَعَامك الأبرار**»(٦). وفي أثر: لا تأكل إلا طعام تقيّ ولا يأكل طعامك إلا تقيّ، ولا يقتصر على الأغنياء خاصة بل يضم معهم الفقراء، قال ﷺ:

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٤/١٥٥)، وانظر: «الصحيحة» (٢٤٣٤).

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٥) **صحيح**: رواه أحمد (٥/٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥)، وهو جزء من حديث طويل، تقدّم قريبًا.

(٦) **حسن**: رواه أحمد (٣/١٣٨)، وغيره، وحسّن إسناده الحافظ العراقي.

«شَرُّ الطَّعام طعامُ الوليمة يُدْعَى إليها الأغنياءُ وَيُحْرَمُ منها الفقراء»(١).

وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم، وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه فإن في تخصيص البعض إيحاشًا لقلوب الباقين وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب الإخوان وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة وإذا حضر تأذّى بالحاضرين بسبب من الأسباب، وينبغي أن لا يدعو إلا من يحب إجابته.

وأما الإجابة: فهي سنة مؤكدة، وقد قيل بوجوبها في بعض المواضع ولها خمسة آداب:

الأول: أن لا يميز الغنيّ بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهي عنه.

والثاني: أن لا يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجلها.

والثالث: أن لا يمتنع لكونه صائمًا بل يحضر فإن كان يَسُرُّ أخاه إفطاره فليفطر(٢)، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم وأفضل، وذلك في صوم التطوع، وإن تحقق أنه متكلف فليتعلل، وقد قال ابن عباس - رضي الله عنهما - :

من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار، فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق فثوابه فوق ثواب الصوم، ومهما لم يفطر فضيافته الطيب والمجمرة والحديث الطيب.

الرابع: أن يمتنع عن الإجابة إن كان الطعام طعام شبهة أو كان يقام في الموضع منكرٌ، أو كان الداعي ظالمًا أو فاسقًا أو متكلفًا طلبًا للمباهاة والفخر.

الخامس: أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن فيكون عاملاً في أبواب الدنيا بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للآخرة فينوي الاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وإكرام أخيه المؤمن وزيارته ليكون من المتحابين في الله وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) لأنه أمير نفسه.

في امتناعه ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر أو سوء خلق أو استحقار أخ مسلم أو ما يجرى مجراه، وكان بعض السلف يقول:

أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية حتى في الطعام والشراب. فإن المباح يلتحق بوجوه الخيرات بالنية.

وأما الحضور: فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع ولا يطول الانتظار عليهم، ولا يعجّل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه ألبتة فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد فمخالفته تشوش عليه، ولا يجلس في مقابلة باب الحجرة الذي للنساء وسترهم، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام فإنه دليل على الشره، ويخص بالتحية والسؤال مَنْ يقرب منه إذا جلس، وإذا دخل ضيف للمبيت فليعرّفه صاحبُ المنزل عند دخوله القبلةَ وبيت الماء وموضع الوضوء، وأن يغسل صاحب المنزل يده قبل القوم وقبل الطعام لأنه يدعو الناس إلى كرمه، ويتأخر في آخر الطعام عنهم وعلى الضيف إذا دخل فرأى منكرًا أن يغيّره إن قدر وإلا أنكر بلسانه وانصرف.

وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة:

الأول: تعجيل الطعام. فذلك من إكرام الضيف. ومهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضرين في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير. وأحدُ المعنيين في قوله تعالى:

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٤]، أنهم أكرموا بتعجيل الطعام إليهم، ودل عليه قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩]، وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات: ٢٦].

والروغان الذهاب بسرعة وقيل: في خفية. قال حاتم الأصم:

العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله ﷺ: إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب.

الثاني: ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن كانت فذلك أوفق في الطب فإنها أسرع

استحالة فينبغي أن تقع في أسفل المعدة. وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى:

﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٠]، ثم قال: ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢١]، ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد. فإن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات ودلّ على حصول الإكرام باللحم قوله في ضيف إبراهيم إذا أحضر العجل الحنيذ أي: المحنوذ وهو الذي أجيد نضجه وهو أحد معنى الإكرام أعني: تقديم اللحم.

قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : أكل الطيبات تورث الرضاء عن الله. وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل. قال المأمون: شرب الماء بثلج يخلص الشكر. وقال بعضهم: الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان، والتمكن على المائدة خير من زيادة لونين، وتزيين المائدة بالبقول مستحب أيضًا.

الثالث: أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفى منها ما يريد ولا يكثر الأكل بعده. وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده وهو خلاف السنة فإنه حيلة في استكثار الأكل، ويستحب أن يقدم جميع الألوان دفعة أو يخبر بما عنده.

الرابع: أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتنغّص عليه بالمبادرة.

الخامس: أن يقدم الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة والزيادة عليه تصنّع. قال ابن مسعود رضي الله عنه : نهينا أن نجيب دعوة من يباهي بطعامه، وكرّه جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة وينبغي أن يعزل أولاً نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم، وتنطلق في الضيفان ألسنتهم.

فأما الانصراف فله ثلاثة آداب:

الأول: أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهو سنة وذلك من إكرام الضيف، وتمام الإكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

الثاني: أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير فذلك من حسن الخلق والتواضع.

الثالث: أن لا يخرج إلا برضاء صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة، وإذا نزل ضيفًا فلا يزيد على ثلاثة أيام فربما يتبرّم به ويحتاج إلى إخراجه. نعم لو ألحّ ربُّ البيت عليه عن خلوص قلب فله المقام إذ ذاك، ويستحب أن يكون عنده فراش لضيف ينزل به[1].



(١) «موعظة المؤمنين» (١٣٣- ١٣٦).

١٢٢- إفشاء السّلام

اعلم - **يا أخي** - أن السّلام من أسماء الله تعالى.

وهو: أمان الله - تعالى - في الأرض.

وهو: تحيّة المؤمنين في الجنّة، وتحيّة أهل الإسلام في الدنيا.

وهو: طريق المحبّة، والتعارف بين المسلمين.

وفضائله لا تحصى، وسيأتي بعضُها قريبًا.

والحديث عن «**إفشاء السلام**» يدور حول **أربعة أمور**:

الأول: تعريف إفشاء السلام.

والثاني: صِيَغه.

والثالث: فضائله.

والرابع: آدابه.

واللهُ الموفِّق لما يُحبُّ ويَرْضى.

أوّلاً: تعريف إفشاء السلام:

قال الإمام **ابن حجر** - رحمه الله - :

«إفشاء السّلام المراد: نَشْرُه سِرًّا أو جهرًا»(١).

أو هو: نشر السّلام بين الناس لِيُحيُّوا سُنته ﷺ ، أخرج البخاريّ في «الأدب المفرد»:

«**إذا سَلَّمْتَ فأَسْمِعْ فإنّها تَحيَّةٌ مِنْ عِنْد الله**».

قال **النووي**: «أَقَلُّه أن يَرْفَع صَوْته بحيث يَسْمَعُه الْمُسَلَّمُ عَلَيْه، فإن لم يَسْمَعْهُ لم يكن

---

(١) «فتح الباري» (١٠٣/١).

آتيًا بالسُّنّة» ا.هـ[١].

ثانيًا: صِيَغُ السّلام:

صيغ السّلام هي: «أن يقال: «**السلام عليكم**»، و «**سَلاَمٌ عليكم**»، هذا إذا كان السّلام لمن لقيك من المسلمين[٢].

فإذا كان المرءُ مُسَلِّمًا على الأموات فليقل:

«**السّلامُ على أَهْلِ الدِّيار من المؤمنين**».

فإذا كان السّلامُ مُوَجَّهًا إلى مَنْ يُرْجَى إسْلاَمُهُ، فإن صِيغَتَه هي:

«**السّلام على مَنِ اتَّبع الْهُدَى**»[٣].

ثالثًا: فضائل السّلام:

اعلم: أن من **فضائل السّلام**:

أنه: اسْمٌ من أسماء الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر: ٢٣].

ومن فضائله: أنه تحيّة أهْل الجنّة:

قال تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠].

ومن فضائله: أن الله تعالى سَمَّى الجنَّة باسْمِه:

قال تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٧].

---

(١) «فتح الباري» (٢٠/١١).
(٢) وتمام السلام: «السلام عليكم ورحمة الله» أو «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».
(٣) «لسان العرب» (٢٨٩/١٢).

ومن فضائله: أنه تحيّة الله - تعالى - لأهل الجنة:

قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨].

ومن فضائله: أنه تحيّة الملائكة لأهل الجنة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقد ورد في فضل السّلام والثواب عليه أحاديث كثيرة، منها:

(١) عن أبي الدرداء ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**أفْشُوا السَّلام كَي تَعْلُوا**»[١].

(٢) وعن عبد الله بن عمرو: أن رَجُلاً سألَ رسولَ الله ﷺ:

أي السَّلام خيرٌ؟

قال: «**تُطْعِمُ الطّعام، وتقرأُ السَّلام على من عَرَفت ومَنْ لم تَعْرِف**»[٢].

(٣) وعن أبي أُمامة ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**إن أَوْلَى النّاس بالله مَنْ بَدَأهم بالسَّلام**»[٣].

(٤) وعن حذيفة بن اليمان، عن النبيّ ﷺ قال:

«**إن المؤمنَ إذا لَقِيَ المؤمِنَ، فَسَلّم عليه، وأَخَذ بِيَده، فَصافَحَهُ تناثرتْ خطَاياهُما كما**

---

(١) قال المنذري في «الترغيب» (٣/٤٢٦): رواه الطبراني بإسناد حسن.

(٢) رواه البخاري (٢٨)، ومسلم (٣٩).

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٩٧: ٥)، وصحّحه الألباني.

يَتناثَرُ وَرَقُ الشَّجر»[١].

(٥) وعن أنس، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«يا بُنَيَّ إذا دَخَلْتَ على أَهْلِك فَسَلِّم يكونُ بركةً عَلَيْك وعَلَى أَهْلِ بَيْتِك»[٢].

وسيأتي بعد قليل المزيد.

رابعًا: آداب السّلام:

اعلم: أن ابتداء السّلام سُنّة مستحبّة ليس بواجب.

قال **ابْنُ حِبان البستي** - رحمه الله - :

«والبادئ بالسّلام بين حسنتين، إحداهما: تفضيل الله ﷻ إيّاه على المسلّم عليه بفضل درجة، لتذكيره إيّاهم بالسّلام، وبين ردّ الملائكة عليه عند غفلتهم عن الرّد» ا.هـ[٣].

وقد ذكر العلماء لتحية السّلام آدابًا، منها:

(١) الالتزام بصيغة السّلام الواردة:

وهي «السّلام عليكم»، أو «السّلام عليكم ورحمة الله» أو «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

فعن عمران بن حصين، قال:

جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ ، فقال:

السّلامُ عليكم، فردّ عليه، ثم جلس، فقال النبيُّ ﷺ :

---

(١) قال المنذريّ في «الترغيب» (٣/٤٣٣): رواه الطبراني في «الأوسط» ورواته لا أعلم فيهم مجروحًا.

(٢) رواه الترمذي (٢٦٩٨)، وقال: حديث حسن غريب.

(٣) «روضة العقلاء» لابن حبان.

«**عَشْر**».

ثم جاء آخر، فقال:

السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليه، فجلس، فقال:

«**عشرون**».

ثم جاء آخر، فقال:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه، وجلس، فقال:

«**ثلاثون**»[١].

أمّا التحيّة «المخترعة» كقول بعضهم: «صباح الخير»، و «مساء الفلّ»، وغير ذلك، فلا يجوز تداولها.

(٢) ألا يقول: عليك السلام:

لورود النّهي عن ذَلك:

فعن أبي جُريٍّ الهجيمي، قال:

أتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ: عليك السلام يا رسول الله، قال:

«**لا تقل عليك السّلام، فإن عليك السّلام تحيَّة الموتى**»[٢].

(٣) أن يبدأ بالسلام قبل الكلام:

فعن رِبْعيّ، قال:

حدثنا رَجلٌ من بني عامر: انه استأذن على النبيّ ﷺ وهو في بيت. فقال: أَلِجُ[٣]؟ فقال النبيُّ ﷺ لخادمه:

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي (٢٦٨٩)، وغيره.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي وأبو داود.

(٣) **الولوج**: الدخول.

«اخْرُجْ إلى هذا فَعلِّمْه الاسْتِئذانَ، فَقُلْ له: قُلْ: السَّلامُ عليكم، أَأَدْخُلُ؟». فسمعه الرجلُ. فقال:

السلامُ عليكم، أأدخل؟ فأذن له النبيُّ ﷺ فدخل(١).

(٤) أن يُسَلِّم عند انتهاء كلامه وانصرافه:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا انتهى أحدُكم إلى المجلس فَلْيُسَلِّم، فإذا أراد أن يقوم فَلْيُسلِّم، فليست الأُولى أحَقّ من الآخرة»(٢).

(٥) إعادة السّلام إذا فرَّق بيْنَهُما أَوْ بيْنَهم شيءٌ:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«إذا لَقِي أحدُكم أخاه فَلْيُسَلِّم عليه، فإن حالت بينهما شَجَرةٌ أو جِدارٌ أو حَجَرٌ ثم لَقِيه فَلْيُسَلِّم عليه»(٣).

(٦) رَفْعُ الصَّوتِ بالسّلام بحيث يُسْمع الْمُسَلَّم عليه:

وقد تقدّم قريبًا قول الإمام النووي.

(٧) أن يُسَلِّم المسلم على أهل بيته حين دخوله عليهم:

وقد تقدّم - قريبًا - الحديث الدّال على ذلك.

(٨) أن يُسَلِّم على الأطفال إذا لقيهم أَوْ مَرّ عليهم:

فإن ذلك إلى جانب «الثواب»: فيه إحياء للسُّنة، وتعويد للأطفال عليها.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود (٥١٧٧).

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود، والترمذي، وقال: حسن صحيح.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود (٥٢٠٠).

عن أنس، قال:

«انتهى إلينا رسولُ الله ﷺ وأنا غلام في الغلمان، فَسَلَّم علينا، ثم أَخَذ بِيَدي، فأرسَلني برسالة، وقَعَد في ظِلّ جِدَار حتى رَجَعْتُ إليه»(١).

(٩) أن يُسَلِّم الماشي على الواقف، والماشي على الجالس، والصّغير على الكبير، والقليل على الكثير:

فعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال:

«يُسَلِّم الرّاكِبُ على الماشي، والماشي على القاعد، والقليلُ على الكثير»(٢).

وعنه ﷺ قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«يُسَلِّم الصّغيرُ على الكبير، والمارُّ على القاعد، والقليلُ على الكثير»(٣).

(١٠) لا يشيرُ بأُصبُع واحدة:

فعن جابر بن عبد الله ، قال:

قال رسولُ الله ﷺ :

«تسليمُ الرّجُلِ بأُصبُع واحدة - يُشير بها - فِعْلُ اليهود»(٤).

أمّا الإشارة باليد مع السَّلام فلا بأس بها، فقد ورد النّهي والفعل.

(١١) بشاشة الوجه، ولين الجانب عند التلاقي:

قال ﷺ :

---

(١) **صحيح**: «صحيح سنن أبي داود» (٥٢٠٣).

(٢) رواه البخاري (٦٢٣٣)، ومسلم (٢١٦٠).

(٣) رواه البخاري (٦٢٣١)، ومسلم (٢١٦٠).

(٤) قال الهيثمي في «المجمع» (٣٨/٨): رواه أبو يعلى والطبراني في «الأوسط» واللفظ له، ورجال أبي يعلى رجال الصّحيح.

«**لا تَحْقِرن من المعروف شيئًا، ولو أن تَلْقي أخاك بوجه طليق**»(١).

(١٢) المصافحة مع السلام:

فعن البراء، قال:

قال رسولُ الله ﷺ:

«**مَا مِنْ مُسْلِمَيْن يَلْتَقِيان فَيَتصافَحَان إلا غُفِرَ لَهُما قَبْل أن يَفْتَرِقا**»(٢).

(١٣) المعانقة عند القدوم من سفر:

فعن أنس رضي الله عنه قال:

«كان أصْحَابُ النبيّ ﷺ إذا تَلاَقَوا تَصَافَحُوا، وإذا قَدِموا مِنْ سَفَرٍ تَعانَقُوا»(٣).

(١٤) أن لا يبدأ المسلمُ الكافر بالسّلام(٤):

لقوله ﷺ:

«**إذا لقيتم المشركين في الطريق، فلا تبدءوهم بالسّلام، واضطروهم إلى أضيَق الطُّرق**»(٥).

وقد أجاز بعض العلماء: إلقاء السّلام عليهم لعموم قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦].

ولقول إبراهيم عليه السلام لأبيه:

﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ﴾ [مريم: ٤٧].

وقالوا: أما الأحاديث الواردة في عدم الردّ عليهم إلا بقوله: «**وعليكم**»(٦).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٥٢١٢).

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٨/٣٦): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله رجال الصحيح.

(٤) فإن احتاج إلى تحيّته: فلا بأس أن يقول له - مثلاً - كيف حالك؟ ونحو ذلك.

(٥) صحيح: رواه أحمد (١٠٧٤٣)، وانظر: «الصحيحة» (١٤١١).

(٦) في الحديث: «إذا سلّم عليكم أهلُ الكتاب، فقولوا: وعليكم» رواه البخاري (٦٢٥٨)، ومسلم (٢١٦٣).

فهي محمولة على أن اليهود كانوا إذا حيّوا مُسلمًا لم يقولوا: «السلام عليكم»، ولكنهم كانوا يقولون: «السّام عليكم[1]».

تنبيهات مهمة:

(١) **قال عليٌّ بن أبي طالب** ﷺ:

«يُجْزِئ عن الجماعة إذا مَرُّوا أن يُسَلِّم أَحَدُهم، وَيُجْزِئُ عن الجلوسِ أن يَرُدَّ أحدُهَم»[2].

(٢) وقال الإمام **النووي** - رحمه الله -:

«إذا كان الْمُسَلَّمُ عليه مُشتغلاً بالبول أو الجماع أو نحوهما فَيُكْره أن يُسَلِّم عليه، ولو سَلّم لا يَسْتحقُّ جوابًا، ومن ذلك: من كان نائمًا أو ناعسًا، ومن ذلك: من كان مُصلّيًا أو مؤذّنًا في حال أذانه أو إقامته الصلاة، أو كان في حمام أو نحو ذلك من الأمور التي لا يُؤثر السلام عليه فيها، ومن ذلك: إذا كان يأكل واللّقمة في فمه، فإن سلّم عليه في هذه الأحوال لم يستحق جوابًا، أمّا إذا كان على الأكل وليست اللُّقْمةُ في فمه فلا بأس بالسلام، ويجبُ الجواب»ا.هـ[3].

(٣) لا بأس بالسّلام على المرأة الأجنبية إذا أمنت الفتنة؛ فعن أسماء بنت يزيد - رضي الله عنها - قالت:

«مَرّ علينا النبيُّ ﷺ في نسوة فَسَلَّم علينا»[4].

قلت: وإلقاء السلام غير المصافحة، فمصافحة الأجنبية لا تجوز لما ثبت في «الصحيحين» أن النبيّ ﷺ قال:

---

(١) السّام: الهلاك والموت.

(٢) حسن: رواه أبو داود (٥٢١٠)، وصحّحه الألباني، وحسّنه محقق «جامع الأصول».

(٣) «الأذكار» للنووي (٣٢٤).

(٤) حسن: رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

« .... واليدان تزني وزناهما اللّمس ... ».

أخي الكريم:

هذه جملة آداب شرعية، فَسِرْ على ضوئها، فإن خَيْرَ الْهَدي هَدْيُ مُحمّد ﷺ .

وفّقني اللّهُ - تعالى - وإيّاك.



١٢٣- سلامة الصدّر من الأحقاد

ليس أَرْوَح لِلْمَرء، ولا أطرد لهمومه، ولا أقَرّ لِعَيْنه من أن يعيش سليم القلب، مُبرَّأ مِن وساوس الضّغينة، وثوران الأحقاد.

إذا رأى نعمة تنساق إلى أَحَد رَضِي بها، وأحَسّ فَضْلَ اللهِ فيها وَفَقْر عِباده إليها..

وبذلك يَحْيَا المسلم ناصع الصَّفْحة، راضيًا عن الله وعن الحياة، مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى، فإن فساد القلب بالضّغائن داء عَياء، وما أسرع أن يتسّرب الإيمان من القلب المغشوش، كما يتسرّب السائلُ من الإناء المثلوم!

ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة. فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة، ويطمس بهجتها ويعكر صفوها.

أما القلب المشرق فإن الله يبارك في قليله. وهو إليه بكل خير أسرع:

عن عبد الله بن عمر، قيل:

يا رسول الله، أيّ الناس أفضل؟

قال: «**كلّ مَخْموم القلب، صَدُوقِ اللّسان**».

قيل: صدوق اللّسان نعرفه، فمَا مخموم القلب؟

قال: «**هو التّقِيُّ النَّقِيّ، لا إثْم فيه ولا بَغْي ولا غِلّ ولا حسد**»[(١)].

إن الخصومة إذا نمت وغارت جذورها، وتفرّعت أشواكها، شَلّت زهرات الإيمان الغضّ، وأَذْوَتْ ما يوحي به من حنان وسلام.

لذا قال ﷺ: «**إنّ أَبْغَض الرِّجَال إلى الله: الأَلَدّ الخَصِم**»[(٢)].

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة.

(٢) رواه البخاري. والألد الخصم: العنيد، شديد الخصومة.

وكثيرًا ما تطيش الخصومة بألباب ذويها. فتتدلّى بهم إلى اقتراف الصّغائر الْمُسقطة للمروءة، والكبائر الموجبة لِلّعْنَة.

وعين السّخط تنظر من زاوية داكنة، فهي تعمى عن الفضائل، وتضخّم الرّذائل.

وقد يذهب بها الحقدُ إلى التخيّل، واختلاق الأكاذيب. وذلك كله مما يسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه، ويرى منعه أفضل القُربات.

قال رسولُ الله ﷺ :

«**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصِّيام والصّلاة**[1] **والصّدقة؟**».

قالوا: بلى!

قال: «**إصْلاح ذَاتِ الْبَيْن، فإن فَسَادَ ذَات الْبَيْن هو الحالِقة، لا أقول تَحْلِق الشَّعْر، ولكن تَحْلِق الدِّين!**»[2].

هذا، وقد لاحق الإسلامُ بوادِر الْجَفَاء بالعلاج قبل أن تستفحل وتستحيل إلى عداوة فاجرة.

والمعروف أن البشر متفاوتون في أمزجتهم وأفهامهم، وأن التقاءهم في ميادين الحياة قد يتولّد عنه ضيق وانحراف، إن لم يكن صدام وتباعد. ولذلك شرع الإسلام من المبادئ ما يردّ عن المسلمين عَوادِي الانقسام والفتنة، وما يمسك قلوبهم على مشاعر الولاء والمودّة، فنهى عن التقاطع والتدابر.

قال النبيُّ ﷺ :

«**لا تقاطعوا، ولا تَدَابروا، ولا تَبَاغضوا، ولا تَحَاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»[3].

---

(١) يعني: التطوّع.

(٢) رواه الترمذي، وقال المنذري: رواه البزار بإسناد جيد والبيهقي، وغيرهما.

(٣) رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

والإنسان في كل نزاع ينشب، أحد رجلين:

إمّا أن يكون ظالمًا، وإمّا أن يكون مظلومًا.

فإن كان عاديًا على غيره[١]، ناقصًا لحقه، فينبغي أن يُقْلع عن غيّه وأن يصلح سيرته، وليعلم أنه لن يستلّ الضّغن من قلب خصمه إلا إذا عاد عليه بما يطمئنه ويرضيه.

وقد أمر الإسلام - والحالة هذه - أن يستصلح صاحبه ويطيّب خاطره:

قال رسولُ الله ﷺ :

«**مَنْ كانت عنده مَظْلمة لأخيه من عِرْض أو من شيء فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليوم، من قَبْل ألا يكون دينارٌ ولا دِرْهم، إن كان له عمل صالح أُخِذَ منه بِقَدْر مَظْلَمته، وإن لم تكن له حَسَنات أُخذ من سيئات صَاحبه فَحمل عليه**»[٢].

ذلك نُصح الإسلام لمن عليه الحق.

أما من له الحق، فقد رغّب إليه أن يلين ويسمح، وأن يمسح أخطاء الأمس بقبول المعذرة، عندما يجيء له أخوه معتذرًا ومستغفرًا، وَرَفْضُ الاعتذار خطأ كبير.

وفي الحديث: «**من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يَقْبل منه كان عليه مثل خطيئة صاحب مَكْس**[٣]»[٤].

وبهذا الإرشاد المبين للطرفين جميعًا يحارب الإسلام الأحقاد، ويقتل جرثومتها في المهد، ويرتقى بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع، من الصداقات المتبادلة، أو المعاملات العادلة[٥].

---

(١) عاديًا : مُعتديًا.

(٢) رواه البخاري.

(٣) المكس : نوع خبيث من نهب المال.

(٤) رواه الطبراني.

(٥) «خلق المسلم» للغزالي (٨٦- ٨٩) باختصار شديد.

هذا، ولسلامة الصدر من الأحقاد فضائل كثيرة، يكفي منها القصّة التالية:

عن أنس، قال:

كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال:

«**يَطْلُع الآن عليكم رجلٌ من أهل الجنّة**».

فطلع رجلٌ من الأنصار تَنْطُفُ لِحيته من وضوئه قد عَلَّق نَعْليه بيده الشّمال، فلما كان الْغَدُ قال النبيُّ ﷺ - مثل ذلك - فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلمّا كان اليوم الثالث، قال النبيُّ ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأوّل، فلمّا قام النبي ﷺ تبعه[1] عبد الله بن عمرو، فقال:

إنّي لاحَيْتُ أبي[2]، فأقسمتُ أنّي لا أدخلُ عليه ثلاثًا، فإنْ رأَيْتَ أن تؤويني إليك حتى تمضي فَعَلْتَ.

قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يُحدِّث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث فلم يَرَه يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذ تَعَارَ تَقَلَّب على فراشه ذَكَر الله ﷻ، وكَبّر حتى صلاة الفجر.

قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلمّا مضت الثلاثُ ليالي وكدتُ أن أحتقر عمله، قلتُ:

يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضبٌ ولا هجرة، ولكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرّات:

«**يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة**»، فطلعت أنت الثلاث مرّات، فأردتُ أن آوي إليك، فأنظر ما عملُك، فأقتدي بك، فلم أَرَكَ عَمِلتَ كبير عَمَلٍ، فما الذي بَلَغ بك ما قال رسولُ الله ﷺ؟

---

(١) يعني: تبع الرجل المبشّر بالجنة.

(٢) لاحيتُ: خاصمتُ.

قال: ما هو إلا ما رأيتَ، فلما وَلَّيْتُ دَعَانِي، فقال:

ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجِد في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشًّا ولا أَحْسُدُ أحَدًا على خيرٍ أعطاه اللّهُ إيّاه.

فقال عبد الله: «هذه التي بَلَغَتْ بك»[1].

فجاهد - **يا أخي** - نفسك، واقْلَع منها شجرة الحقد، واستعن بالله ولا تعجز.



(١) قال المنذري في «الترغيب» (٤١٢٨): رواه أحمد بإسناد على شرط البخاري ومسلم، والنسائي، ورواته احتجا بهم أيضًا. وفي بعض الروايات: أن هذا الرجل الصالح هو سعد بن مالك ﷺ.

الخاتمة

نسأل الله تعالى حُسْنها

وبعد هذا الجهد «المتواضع» وقبل أن يستريح القلم، أتوجّه إلى رَبِّي - تباركت أسماؤه - وأدعوه:

يا ربّ.. اهْدِ حَيَارى البصائر إلى نورِك، وَضُلاَّل المناهج إلى صراطك، والزّائغين عن السّبيل إلى هُداك.

نعوذ بك من الخوف إلاّ منك، والرّكون إلاّ إليك، والتوكل إلاّ عليك، والسؤال إلاّ لك، والاستعانة إلاّ بك، أنت وَلِيُّنا نعم المولى ونعم النصير.

اللّهم اقْبل العَمَل مع قِلَّتِه، والجهد مع ضآلته، والسَّعْي مع شوائبه.

عَزّ جَاهُك، وَجَلَّ ثَناؤك، ولا إله إلاّ أنْت.

وصَلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه/ راجي عفو ربِّه الكريم

سعد يوسف محمود أبو عزيز

غمرين/ منوف/ منوفية

وكان الفراغ منه/ بعد صلاة فجر الجمعة

٢١ من شعبان ١٤٢٤هـ

١٧ أكتوبر ٢٠٠٣م



أهم المراجع

١- جامع البيان في تأويل القرآن. للإمام الطبري.
٢- الجامع لأحكام القرآن. للإمام القرطبي.
٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور. للإمام السيوطي.
٤- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. للإمام الفخر الرازي.
٥- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن. للشيخ محمد الأمين الشنقيطي.
٦- فتح القدير. للإمام الشوكاني.
٧- التحرير والتنوير. للطاهر بن عاشور.
٨- محاسن التأويل. للعلامة القاسمي.
٩- في ظلال القرآن. للأستاذ سيد قطب.
١٠- تفسير القرآن العظيم. للإمام ابن كثير
١١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان. للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السّعدي
١٢- لطائف الإشارات. للإمام القشيري.
١٣- الكشاف. للزمخشري.
١٤- التفسير الواضح. للشيخ محمد محمود حجازي.
١٥- أحكام القرآن. للإمام أبي بكر بن العربي.
١٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. للحافظ ابن حجر العسقلاني.
١٧- صحيح مسلم بشرح النووي. للإمام النووي.
١٨- مسند الإمام أحمد. خرّج أحاديثه الشيخ أحمد شاكر.
١٩- عون المعبود/ شرح سنن أبي داود.
٢٠- تحفة الأحوذي.
٢١- فيض القدير. للإمام المناوي.
٢٢- الترغيب والترهيب. للإمام المنذري.
٢٣- صحيح الترغيب والترهيب. للشيخ الألباني.

٢٤- الموطأ. للإمام مالك.
٢٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. للإمام الهيثمي.
٢٦- شرح السُّنة. للإمام البغوي.
٢٧- صحيح سنن أبي داود. للشيخ الألباني.
٢٨- صحيح سنن الترمذي. للشيخ الألباني.
٢٩- صحيح سنن النسائي. للشيخ الألباني.
٣٠- صحيح سنن ابن ماجه. للشيخ الألباني.
٣١- السلسلة الصحيحة. للشيخ الألباني.
٣٢- السلسلة الضعيفة. للشيخ الألباني.
٣٣- صحيح الجامع. للشيخ الألباني.
٣٤- ضعيف الجامع. للشيخ الألباني.
٣٥- صفة صلاة النبيّ ﷺ. للشيخ الألباني.
٣٦- جلباب المرأة المسلمة. للشيخ الألباني.
٣٧- التوسّل. للشيخ الألباني.
٣٨- أحكام الجنائز. للشيخ الألباني.
٣٩- آداب الزفاف. للشيخ الألباني.
٤٠- بصائر ذوي التمييز. للشيخ الألباني.
٤١- المفردات. للراغب الأصفهاني.
٤٢- المعجم الوجيز.
٤٣- مقاييس اللّغة. لابن فارس.
٤٤- تهذيب الأخلاق. للجاحظ.
٤٥- لسان العرب. لابن منظور.
٤٦- الكليات. للكفوي.
٤٧- التعريفات. للجرجاني.
٤٨- النظرية الخلقية عند ابن تيمية. لمحمد عبد الله عفيفي.

٤٩- التربية الأخلاقية الإسلامية. مقداد ياجين.
٥٠- نضرة النعيم.
٥١- أدب الدنيا والدين. للإمام الماوردي.
٥٢- غذاء الألباب، شرح منظومة الآداب. محمد السافريني الحنبلي.
٥٣- سير أعلام النبلاء. للإمام الذهبي.
٥٤- المنتظم. للإمام ابن الجوزي.
٥٥- البداية والنهاية. للحافظ ابن كثير.
٥٦- حياة الصحابة. للإمام الكاندهلوي.
٥٧- صفة الصفوة. للإمام ابن الجوزي.
٥٨- حلية الأولياء. للحافظ أبي نعيم.
٥٩- الإصابة. للحافظ ابن حجر.
٦٠- مجموع الفتاوى. للإمام ابن تيمية.
٦١- الصارم المسلول على شاتم الرسول. للإمام ابن تيمية.
٦٢- كتاب الإيمان. للإمام ابن تيمية.
٦٣- لا تحزن. للشيخ عائض القرني.
٦٤- رحمة للعالمين. للشيخ عائض القرني.
٦٥- زاد المعاد. للإمام ابن القيم.
٦٦- مدارج السالكين. للإمام ابن القيم.
٦٧- الفوائد. للإمام ابن القيم.
٦٨- طريق الهجرتين. للإمام ابن القيم.
٦٩- الوابل الصّيب. للإمام ابن القيم.
٧٠- إغاثة اللهفان. للإمام ابن القيم.
٧١- التفسير القيم. للإمام ابن القيم.
٧٢- تهذيب السّنن. للإمام ابن القيم.
٧٣- جلاء الأفهام. للإمام ابن القيم.

٧٤- الداء والدواء. للإمام ابن القيم.
٧٥- إعلام الموقعين. للإمام ابن القيم.
٧٦- مفتاح دار السعادة. للإمام ابن القيم.
٧٧- حادي الأرواح. للإمام ابن القيم.
٧٨- الروح. للإمام ابن القيم.
٧٩- عدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين. للإمام ابن القيم.
٨٠- السيرة النبوية. لابن هشام.
٨١- أقباس روحانية. للواء الركن/ محمود شيت خطاب.
٨٢- المقبول من أسباب النزول. د. نادي بن محمود الأزهري.
٨٣- صلاح الأمّة في علوّ الهمة. د. سيد العفّاني.
٨٤- من يظلهم الله. د. سيد العفّاني.
٨٥- رهبان الليل. د. سيد العفّاني.
٨٦- الحكم العطائية. لابن عطاء الله السكندري.
٨٧- إحياء علوم الدين. للإمام الغزالي.
٨٨- مختصر منهاج القاصدين. للإمام ابن قدامة المقدسي.
٨٩- جامع العلوم والحكم. للحافظ ابن رجب الحنبلي.
٩٠- استنشاق نسيم الأنس. للحافظ ابن رجب الحنبلي.
٩١- لطائف المعارف. للحافظ ابن رجب الحنبلي.
٩٢- كشف الكربة. للحافظ ابن رجب الحنبلي.
٩٣- شرح حديث «ماذئبان جائعان» للحافظ ابن رجب الحنبلي.
٩٤- الفرق بين النصيحة والتعيير. للحافظ ابن رجب الحنبلي.
٩٥- التخويف من النار. للحافظ ابن رجب الحنبلي.
٩٦- صيد الخاصر. للإمام ابن الجوزي.
٩٧- التبصرة. للإمام ابن الجوزي.
٩٨- المدهش. للإمام ابن الجوزي.

٩٩- المواعظ والمجالس. للإمام ابن الجوزي.
١٠٠- اللطائف في الوعظ. للإمام ابن الجوزي.
١٠١- بحر الدموع. للإمام ابن الجوزي.
١٠٢- الخشوع في الصلاة. للحافظ ابن رجب الحنبلي.
١٠٣- ٣٣ سببًا للخشوع في الصلاة. للشيخ محمد بن صالح المنجد.
١٠٤- التذكرة. للإمام القرطبي.
١٠٥- فقه الزكاة. د. يوسف القرضاوي.
١٠٦- الحلال والحرام في الإسلام. د. يوسف القرضاوي.
١٠٧- شرح العقيدة الواسطية. للشيخ محمد بن صالح العثيمين.
١٠٨- المتجر الرابح. للحافظ الدمياطي.
١٠٩- خلق المسلم. للشيخ محمد الغزالي.
١١٠- هذا ديننا. للشيخ محمد الغزالي.
١١١- كنوز من السُّنة. للشيخ محمد الغزالي.
١١٢- قضايا المرأة. للشيخ محمد الغزالي.
١١٣- من معالم الحق. للشيخ محمد الغزالي.
١١٤- الحق المر. للشيخ محمد الغزالي.
١١٥- الإسلام والاستبداد السياسي. للشيخ محمد الغزالي.
١١٦- عقيدة المسلم. للشيخ محمد الغزالي.
١١٧- الجانب العاطفي من الإسلام. للشيخ محمد الغزالي.
١١٨- شرح الأربعين النووية. للشيخ محمد الغزالي.
١١٩- ولا تقربوا الفواحش. لجمال عبد الرحمن إسماعيل.
١٢٠- الرياض النضرة والحدائق النّيرة الزاهرة. للشيخ السعدي.
١٢١- عناية الإسلام بالصحة البدنية. السيدة/ كاملة الأنوار محمد صابر حجاب
١٢٢- الإعجاز الطبي للقرآن. د. السيد الجميلي.
١٢٣- تنظيم الوقت في حياة المرأة المسلمة. لأبي الحسن محمد الفقيه.

١٢٤- الأخلاق الدينية والحكم الشرعية. للشيخ عبد الرحمن الجزيري.

١٢٥- والموعد الله. للأستاذ خالد محمد خالد.

١٢٦- الطريق إلى الله. للإمام أبي سعيد الخراز. تحقيق/ د. عبد الحليم محمود

١٢٧- وسائل الرحمات فيما يطلب لمن مات. للشيخ أحمد الحلواني.

١٢٨- سيرة عمر بن ا لخطاب. للأستاذ أحمد التاجي.

١٢٩- إيقاظ أولي الهمم. الشيخ عبد العزيز السلمان.

١٣٠- سلوان المصاب بفرقة الأحباب. للعلامة مرعى بن يوسف المقدسي الحنبلي.

١٣١- تذكير النفس المؤمنة. للشيخ أحمد فريد.

١٣٢- التحذير من سوء الخاتمة. لعبد الحميد السحيباني.

١٣٣- تذكير الإخوان بخاتمة الإنسان. عادل السعيدان.

١٣٤- يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار لصديق خان.

١٣٥- دلائل الخيرات في فضل الصلاة والسلام على خير البريّات. الشيخ محمد بيومي.

١٣٦- تحقيق معنى السُّنة. للسيد سليمان الكاندهلوي.

١٣٧- تيسير علوم الحديث. د. محمد السيد ندا.

١٣٨- التوبة. لابن أبي الدنيا.

١٣٩- قضاء الحوائج. لابن أبي الدنيا.

١٤٠- مكارم الأخلاق. لابن أبي الدنيا.

١٤١- التوكل على الله. لابن أبي الدنيا.

١٤٢- التعفّف والقناعة. لابن أبي الدنيا.

١٤٣- الورع. لابن أبي الدنيا.

١٤٤- الصمت. لابن أبي الدنيا.

١٤٥- الإشراف في منازل الأشراف. لابن أبي الدنيا.

١٤٦- الرضا عن الله. لابن أبي الدنيا.

١٤٧- الشكر.	لابن أبي الدنيا.
١٤٨- كتاب المحتضرين.	لابن أبي الدنيا.
١٤٩- حسن الظن بالله.	لابن أبي الدنيا.
١٥٠- الرقة والبكاء.	لابن أبي الدنيا.
١٥١- الهم والحزن.	لابن أبي الدنيا.
١٥٢- محاسبة النفس.	لابن أبي الدنيا.
١٥٣- سلوة الأحزان.	لابن أبي الدنيا.
١٥٤- التعالم وأثرة على الفكر والكتاب.	د. بكر بن عبد الله أبو زيد.
١٥٥- حراسة الفضيلة.	د. بكر بن عبد الله أبو زيد.
١٥٦- حلية طالب العلم.	د. بكر بن عبد الله أبو زيد.
١٥٧- المناقب.	للبيهقي.
١٥٨- موعظة المؤمنين.	للشيخ محمد جمال الدين القاسمي.
١٥٩- لحوم العلماء مسمومة.	للشيخ ناصر العمر.
١٦٠- فضل العلم.	د. محمد سعيد رسلان.
١٦١- من يملك حق الاجتهاد؟	للشيخ سلمان بن فهد العودة.
١٦٢- أدب المفتي والمستفتي.	للإمام ابن الصلاح.
١٦٣- جامع بيان العلم وفضله.	للإمام ابن عبد البر.
١٦٤- فتاوى علماء البلد الحرام.	إعداد/ خالد بن الجريسي.
١٦٥- كتاب التوحيد.	للشيخ صالح بن الفوزان.
١٦٦- المشروع والممنوع في المسجد.	لمحمد بن علي العرفج.
١٦٧- التيسير في فقه الإمام ابن تيمية.	د. أبو سريع عبد الهادي.
١٦٨- الابتداع في مضار الابتداع.	للشيخ على محفوظ.
١٦٩- المساجد.	للشيخ سعيد بن علي القحطاني.
١٧٠- الصلاة لماذا؟	للشيخ محمد بن إسماعيل المقدَّم.
١٧١- الأدب الضائع.	للشيخ محمد بن إسماعيل المقدَّم.

١٧٢- الرقائق. لمحمد أحمد الراشد.
١٧٣- تنبيه المغترين. للشعراني.
١٧٤- العقد النفيس ونزهة الجليس. لأبي منصور الثعالبي.
١٧٥- تهذيب الأخلاق. لابن مسكويه.
١٧٦- تهذيب مكاشفة القلوب. للإمام الغزالي. تحقيقي.
١٧٧- ديوان أبي العتاهية.
١٧٨- له الأسماء الحسنى. د. أحمد الشرباصي.
١٧٩- شرح العقيدة الطحاوية.
١٨٠- الأذكار. للإمام النووي.
١٨١- الأخلاق الإسلامية وأسسها. لعبد الرحمن حسن حبنكة.
١٨٢- طبقات الصوفية. لعبد الرحمن السّلمى.
١٨٣- تنبيه الغافلين. للإمام السمرقندي.
١٨٤- شجرة المعارف والأحوال. للإمام العز بن عبد السلام.
١٨٥- آفات اللسان. للشيخ سعيد القحطاني.
١٨٦- الغيبة. للشيخ حسين العوايشة.
١٨٧- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. للإمام الخلال.
١٨٨- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير. للشيخ محمد أبو شهبة.
١٨٩- الزهد. للإمام ابن المبارك.
١٩٠- الزهد. للإمام الحسن البصري.
١٩١- الخشوع وأثره في بناء الأمة. للشيخ سليم الهلالي.
١٩٢- طوبى للغرباء. د. سيد عبد الحليم.
١٩٣- الجنة والنار. د. عمر الأشقر.
١٩٤- اقتضاء العلم والعمل. للخطيب البغدادي.
١٩٥- مواقف بطولية من صنع الإسلام. زياد أبو غنيمة.
منهاج الصالحين في الآداب الإسلامية. للشيخ محمد بحيري.

الفهرس

الموضوع الصفحة

(٧٣) **الخوف من سوء الخاتمة** ٥
أولاً: أسباب سوء الخاتمة ٨
قصة واقعية عن سوء الخاتمة ١٠
أسباب سوء الخاتمة الغير مقتضية للخلود في النار ١١
من أحوال الصالحين عند الموت ١٢
من أحوال العصاة والطغاة والمجرمين عند الموت ١٣
ثانيًا: علامات سوء الخاتمة ١٤
ثالثًا: أسباب حُسْن الخاتمة ١٥
رابعًا: علامات حُسن الخاتمة ١٩
(٧٤) **الرجاء** ٢٥
أولاً: تعريف الرجاء ٢٦
ثانيًا: الفرق بين الرجاء والتمني ٢٦
ثالثًا: فضل الرجال والحثّ على التخلُّق به ٢٧
رابعًا: اشتراط العمل مع حُسْن الرجاء ٢٩
خامسًا: من قصص أهل الرجاء ٣٣
(٧٥) **الخشية** ٣٩
أولاً: تعريف الخشية ٣٩
ثانيًا: الفرق بين الخشية والخوف ٤٠
ثالثًا: فضل الخشية من الله تعالى ٤١

رابعًا: علامات الخشية من الله تعالى ٤٦
خامسًا: لقطات من حياة أهل الخشية ٥٠
(٧٦) البكاءُ من خشية الله تعالى ٥٥
أولاً: تعريف البكاء........................ ٥٦
ثانيًا: فضل البكاء من خشية الله تعالى ٥٦
ثالثًا: أنواع البكاء ٦١
(٧٧) **الخُشوع**........................ ٧٦
أولاً: تعريف الخشوع........................ ٧٧
ثانيًا: فضائل الخشوع ٧٨
ثالثًا: أنواع الخشوع ٨١
رابعًا: فضل الانكسار لله ٩٦
خامسًا: درجات الخشوع ٩٨
(٧٨) **حُسْنُ الظَّن بالله تعالى** ١٠٠
أولاً: تعريف حُسْن الظَّنّ........................ ١٠١
ثانيًا: فضل حُسْن الظَّن بالله تعالى ١٠٢
ثالثًا: المفهوم الصحيح لحسن الظن بالله ١٠٥
رابعًا: مواقف من حسن ظن الصالحين بربهم ١٠٨
(٧٩) **الغُرْبَة** ١١٤
أولاً: تعريف الغُربة ١١٤
ثانيًا: وصْفُ حالِ أهل الغربة ١١٦
(٨٠) **الثَّبات**........................ ١٢٤
أولاً: تعريف الثبات ١٢٤
ثانيًا: أهمية الثبات........................ ١٢٥

ثالثًا: مَوَاطِنُ الثبات ١٢٥
رابعًا: وسائل الثبات ١٣٢
(٨١) **التَّفكُّر** ١٣٥
أولاً: تعريفُ التَّفكُّر ١٣٦
ثانيًا: حقيقة التفكُّر ١٣٦
ثالثًا: الحثُّ على التفكُّر من القرآن ١٣٧
رابعًا: ثمرات التفكر ١٣٩
(٨٢) **التَّذْكِيرُ** ١٤٤
أولاً: تعريف التذكير ١٤٤
ثانيًا: مكانة التذكير ١٤٥
ثالثًا: فوائد التذكير ١٥١
رابعًا: دروسٌ وعِبَرٌ من قصة [أصحاب السبت] ١٥٣
(٨٣) **الاستعدادُ للموت** ١٥٧
قول «معاوية بن أبي سفيان» عند الموت ١٥٧
قول «حسَّان بن سنان» عند الموت ١٥٨
كيف نستعدّ للموت؟ ١٦٣
(٨٤) **الشفاعة** ١٦٧
أولاً: معنى الشفاعة ١٦٧
ثانيًا: أقسام الشفاعة ١٦٨
ثالثًا: أنواع شفاعة النبي ﷺ ١٦٩
رابعًا: بعضُ الأعمال المُوجِبة لشفاعة النبي ﷺ ١٧٣
خامسًا: شفاعة غير النبيّ ﷺ ١٧٥
سادسًا: شفاعةُ الصيام والقرآن ١٧٦

(٨٥) طلبُ الجنَّة........ ١٧٨
الجنةُ جزاءُ المؤمنين........ ١٨٠
ماذا قال النبيّ ﷺ عن الجنَّة........ ١٨١
وصف الجنَّة........ ١٨٦
(٨٦) الاستعداد للجنَّة........ ١٩٥
أسباب دخول الجنة........ ١٩٧
(٨٧) الخوفُ من النار........ ٢٠٩
وصف النار........ ٢١٣
(٨٨) الهربُ من النار........ ٢٢٣
الأسبابُ المؤدِّية إلى عذاب النار........ ٢٢٤
الأسباب المنجية من عذاب النار........ ٢٢٨
(٨٩) تصحيح النيَّة........ ٢٣٢
معنى النيّة والمقصود بها........ ٢٣٤
(٩٠) تجنُّبُ خِصالِ النِّفاق........ ٢٤٠
أنواع النفاق........ ٢٤٠
خصال النفاق........ ٢٤١
(٩١) التَّقْوَى........ ٢٤٥
أولاً: تعريف التقوى........ ٢٤٥
ثانيًا: حقيقة التقوى........ ٢٤٦
ثالثًا: الحثُّ على التقوى من القرآن والسُّنَّة........ ٢٤٩
رابعًا: صفاتُ المتقين........ ٢٥٠
خامسًا: بشارات القرآن للمتقين........ ٢٥١
(٩٢) الجهادُ........ ٢٥٦

أولاً: تعريف الجهاد.. ٢٥٦
ثانيًا: فضائل الجهاد من الكتاب والسنة ٢٥٧
ثالثًا: مراتبُ الجهادِ ٢٥٩
رابعًا: حكمُ الجهاد ٢٦٢
(٩٣) **جهادُ النَّفْس** ٢٦٦
أولاً: تعريف جهادُ النَّفْسِ.. ٢٦٦
ثانيًا: أنواعُ النفس.. ٢٦٧
ثالثًا: النفسُ التي يجبُ مُجاهدتُها.. ٢٦٩
رابعًا: كيفيَّة مُجاهدةِ النَّفْس.. ٢٦٩
خامسًا: صور ومواقفُ من حَياةِ أهلِ المجاهدة ٢٧١
(٩٤) **مُحَاسَبَة النّفس**.. ٢٧٣
أولاً: معنى محاسبة النفس ٢٧٣
ثانيًا: أهميةُ محاسبة النفس ٢٧٤
ثالثًا: طريقةُ محاسبة النفس.. ٢٧٥
رابعًا: أركانُ المحاسبة.. ٢٧٦
خامسًا: عُلُوُّ هِمَّةِ السَّلَفِ في المحاسبة ٢٧٧
(٩٥) **المُراقَبَة** ٢٨١
أولاً: معنى المراقبة.. ٢٨١
ثانيًا: حقيقتُها ودرجاتُها ٢٨٢
ثالثًا: الحثُّ عليها من الكتاب والسُّنَّة ٢٨٣
رابعًا: فضائلُها ٢٨٤
خامسًا: مواقفُ مضيئةٌ من حياة أهلها........................ ٢٨٦
(٩٦) **الدُّعاءُ** ٢٩٠

أولاً: تعريفُ الدعاء.. ٢٩٠
ثانيًا: فضائله ٢٩١
ثالثًا: أقسامُه ٢٩٢
رابعًا: آدابه ٢٩٣
خامسًا: لقطاتٌ من حياة مُجَابِي الدَّعوة.. ٢٩٩
(٩٧) **الذِّكْرُ** ٣٠١
أولاً: تعريفُ الذِكْر ٣٠١
ثانيًا: منزلَتُهُ ٣٠١
ثالثًا: درجاتُهُ.. ٣٠٢
رابعًا: آدابُهُ ٣٠٣
خامسًا: فوائده ٣٠٤
(٩٨) **حُسْنُ المُعَاملة** ٣١٣
أولاً: تعريفُ حُسْنُ المُعاملة ٣١٣
ثانيًا: شُمولُ حسن المعاملة ٣١٣
(٩٩) **حفْظُ الأَيْمان** ٣٢٠
أولاً: تعريفُ اليمين.. ٣٢٠
ثانيًا: أقسامُهُ ٣٢٠
(١٠٠) **غَضُّ البَصَرِ** ٣٢٩
أولاً: معنى غَضّ البصر ٣٢٩
ثانيًا: التحذيرُ من إطلاقِه ٣٣٠
ثالثًا: فوائدُ غَضِّه ٣٣١
(١٠١) **حفْظُ الفَرج**.. ٣٤١
أولاً: معنى حفظ الفرج ٣٤١

ثانيًا: أضرارُ الزِّنا ٣٤٢
ثالثًا: وسائل حفظ الفرج ٣٤٤
رابعًا: ثمراتُ حفظ الفرج ٣٤٦
(١٠٢) **الإخاءُ** ٣٤٩
أولاً: تعريف الإخاء ٣٥٠
ثانيًا: فضائلُ الأُخُوَّةِ في الله ٣٥٠
ثالثًا: حُقوقُ الأخُوَّة في الله ٣٥٣
(١٠٣) **حَقُّ الجار** ٣٥٨
أولاً: تعريف الجار ٣٥٩
ثانيًا: الوصيَّةُ به ٣٦٠
ثالثًا: فضلُ الإحسان إليه ٣٦١
رابعًا: عاقبة المسيء إليه ٣٦٤
خامسًا: حقوقُهُ ٣٦٧
(١٠٤) **الحِكْمَةُ** ٣٦٨
أولاً: تعريف الحكمة ٣٦٨
ثانيًا: الحثُّ عليها ٣٧٠
ثالثًا: مظاهرُها ٣٧١
(١٠٥) **الاجتماعُ** ٣٧٩
أولاً: تعريفُ الاجتماع ٣٧٩
ثانيًا: أهميتُهُ، وحثُّ الإسلام عليه ٣٧٩
(١٠٦) **البرُّ** ٣٨٧
أولاً: تعريف البِرِّ ٣٨٧
ثانيًا: صفاتُه ٣٨٧

ثالثًا: أنواع البرُّ ٣٩١
(١٠٧) **بِرُّ الوالدَيْن** ٣٩٥
أولاً: معنى برِّ الوالدين ٣٩٥
ثانيًا: صُورُ برِّهما ٣٩٥
ثالثًا: عاقبةُ عقوقِهما ٣٩٨
رابعًا: ثمراتُ برِّهما ٣٩٩
خامسًا: صورٌ من حياةِ أهل البرِّ ٤٠٣
(١٠٨) **صِلَةُ الأرحام** ٤٠٥
أولاً: تعريف صلةِ الأرحام ٤٠٥
ثانيًا: حُكمُها ودرجاتُها ٤٠٥
ثالثًا: أنواع صلة الأرحام ٤٠٦
رابعًا: تعظيم قدرها، والتحذير من قطعِها ٤٠٧
خامسًا: ثمراتُها ٤٠٩
(١٠٩) **العِزَّةُ** ٤١١
أولاً: معنى العزّة ٤١١
ثانيًا: الترغيب فيها ٤١٢
ثالثًا: أهميتُها ٤١٤
رابعًا: صورٌ ومواقفُ تدلُّ على عزَّة السلف الصّالح ٤١٧
(١١٠) **العَزْمُ** ٤١٩
أولاً: تعريفُ العزمِ ٤١٩
ثانيًا: الترغيبُ فيه ٤١٩
ثالثًا: مواقفُ من حياة أهل العزم ٤٢١
(١١١) **الشَّجاعةُ** ٤٢٩

أولاً: تعريف الشجاعة ٤٢٩
ثانيًا: منزلتُها ٤٣٠
ثالثًا: أصلُها وعواملُ تقويتُها ٤٣١
رابعًا: أنواعُها ٤٣٢
خامسًا: لقطاتٌ من حياة الشجعان ٤٣٢
(١١٢) **الشُّورى** ٤٣٧
أولاً: تعريف الشورى ٤٣٧
ثانيًا: فضائلُها ٤٣٧
ثالثًا: شُروطُ المُسْتَشار ٤٣٨
رابعًا: طبيعةُ الشورى ٤٣٩
(١١٣) **اليَقينُ** ٤٤٣
أولاً: تعريف اليقين ٤٤٣
ثانيًا: فضائلُه ٤٤٤
ثالثًا: لقطاتٌ عجيبة من حياةِ أهلِه ٤٤٦
(١١٤) **الوَفاءُ** ٤٥١
أولاً: تعريف الوفاء ٤٥١
ثانيًا: الترغيبُ فيه ٤٥٢
ثالثًا: أنواعُه ٤٥٣
رابعًا: صورٌ من حياة الأوفياء ٤٥٥
(١١٥) **كفالةُ اليتيم** ٤٥٨
أولاً: تعريف كفالة اليتيم ٤٥٨
ثانيًا: فضلُ الإحسان إليه ٤٥٩
ثالثًا: خطرُ الإضرار به ٤٦١

رابعًا: صورٌ ومواقفُ من أحوال الصالحين مع الأيتام........................ ٤٦٣
(١١٦) **الصِّدْقُ**.. ٤٦٦
أولاً: تعريف الصدق.. ٤٦٦
ثانيًا: فضائلُه.. ٤٦٧
ثالثًا: درجاتُه.. ٤٦٩
(١١٧) **الأمانةُ**.. ٤٧٥
أولاً: تعريف الأمانة.. ٤٧٥
ثانيًا: مكانتُها.. ٤٧٦
ثالثًا: مجالاتُها.. ٤٧٧
(١١٨) **العَدْلُ**.. ٤٨٣
أولاً: تعريف العدل.. ٤٨٣
ثانيًا: فضائلُه والحثُّ عليه.. ٤٨٣
ثالثًا: أقسامه.. ٤٨٦
(١١٩) **الزَّواجُ**.. ٤٩٠
أولاً: تعريفُ الزواجُ.. ٤٩٠
ثانيًا: حُكمُه.. ٤٩٠
ثالثًا: الترغيبُ فيه.. ٤٩١
رابعًا: فوائدُه.. ٤٩١
خامسًا: شروطُ صحتِه.. ٤٩٢
سادسًا: حقوقُ الأسرة في الإسلام.. ٤٩٤
(١٢٠) **الحجابُ**.. ٥٠٢
أولاً: تعريفُ الحجاب.. ٥٠٢
ثانيًا: الأمرُ بالحجاب.. ٥٠٣
ثالثًا: فضائلُه.. ٥٠٤

رابعًا: شروطه ٥٠٥

(١٢١) **إكْرامُ الضَّيْف** ٥٠٩

أولاً: فضلُ تقديم الطعام إلى الزّائرين وآدابه ٥٠٩

ثانيًا: فضيلةُ الضيافة وما يتعلقُ بها ٥١١

(١٢٢) **إفشاءُ السلام** ٥١٦

أولاً: تعريف إفشاء السلام ٥١٦

ثانيًا: صِيَغُهُ ٥١٧

ثالثًا: فضائلُه ٥١٧

رابعًا: آدابُه ٥١٩

(١٢٣) **سلامةُ الصَّدْر** ٥٢٦

نظرةُ الإسلام إلى القلب ٥٢٦

سليمُ القلب من أهل الجنة ٥٢٩

الخاتمة ٥٣١

أهمُّ المراجع ٥٣٢

الفهرس ٥٤١





أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥